خطباء اليونان

ج. ف. دبسُون

ترجمة أمين سلامة

خطباء اليونان

تأليف
ج. ف. دبسُون

ترجمة
أمين سلامة

مراجعة
محمد صقر خفاجة

هنـــداوي

خطباء اليونان

ج. ف. دبسُون

The Greek Orators

J. F. Dobson

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٣٥٦٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩١٩.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٦٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ أمين سلامة.

المحتويات

تصدير المؤلف	٧
١- بداية الخطابة	٩
٢- أنتيفون	٢٥
٣- ثراسوماخوس، أندوكيديس	٤٩
٤- لوسياس	٦٩
٥- إيسايوس	٩٥
٦- إيسوكراتيس	١١٣
٧- صغار الخطباء	١٤١
٨- أيسخينيس	١٤٣
٩- ديموستينيس	١٧١
١٠- فوكيون، ديماديس، بوثياس	٢٢٣
١١- لوكورجوس، هوبيريديس، دينارخوس	٢٢٧
١٢- ذبول الخطابة	٢٥٧

تصدير المؤلف

يهدف هذا الكتاب إلى تزويد القارئ بسجلٍّ مختصر معقول عن أعمال الخطباء، مع إعطاء فكرة عامة عن أسلوب كل خطيب منهم. ولقد بدا لي بادئ بدء أن هذا الهدف يمكن تحقيقه على أتمِّ وجه، ليس باستخدام سبل التحليل العلمي وحدها، ولكن بإعطاء نماذج عديدة من الخطب لتأييد النقاط التي رغبت في إبرازها. ولذا تحاشيت قدر طاقتي حرفيَّة النقد، وأوضحت ملاحظاتي بتراجم لفقرات مميَّزة، آملًا بهذا أن أجعل عملي سهل المنال، ليس بالنسبة إلى طلاب الدراسات القديمة فحسب، بل وأيضًا بالنسبة إلى الآخرين الذين يفتقرون — رغم اهتمامهم عمومًا بالدراسات القديمة — إلى الوقت أو إلى المقدرة على دراستها في متونها الأصلية.

ولا يجول بخاطري أن أنال من الأعمال الرفيعة التي تمت في هذا الموضوع ككتاب «الخطباء الآتيكيون Attie Orators» لمؤلفه جب Jebb وكتاب بلاس Blass المسمَّى «الخطباء الآتيكيون Attische Berendsamkeit» اللذَين يعالجان الموضوع بصورة أكمل، ومن وجهة نظر تختلف عن وجهتنا بعض الشيء. وليس في وسع أي دارس للخطباء أن يهمل أعمال هذين العالمين. ورغم أنني كثيرًا ما اعتمدت عليهما إلا أنني لم أستطع بحالٍ ما أن أعتبر نفسي مقيَّدًا بآرائهما، ولئن أردت الحق فإن أهم ما أدَّعيه لنفسي وألفت الأنظار إليه هو أن أحكامي تعتبر كلها مستقلة عن كل ما للغير، ولقد أرسيت قواعدها مباشرة على دراسة جديدة كل الجِدَّة لكل ما تبقَّى للخطباء من كتابات مسجلة.

أما الكتاب الرئيسي الذي أدين إليه — بخلاف الكتابَين السابق ذكرهما — فللمؤلف كروازيه Croiset واسمه «تاريخ الأدب اليوناني Histoire de la Litterature Grecque».

وحريٌّ بي أن أشكر كلية باليول Balliol College ومطبعة كلارندون The Clarendon Press لسماحهما بطبع الفقرات المقتبسة من كتاب جويت Jowett عن أفلاطون Plato.

بريستول، يوليو ١٩١٩م.

ج. ف. دبسون

الفصل الأول

بداية الخطابة

١

الخطابة إحدى ضروريات المجتمع من أقدم العصور. فبمجرد أن عمَّ النظام بين الناس على قواعد المساواة للقيام بعمل جماعي، وجدت المناسبات التي تضاربت فيها الآراء إلى خير الطرق التي تُتَّبع لصالح القوم. وإذا لم يكن بينهم ملك موهوب له من النفوذ ما يمكِّنه من فرض إرادته؛ فإن على الأغلبية أن تفصل في الأمور وتقرَّر هل تقاتل أو تركن إلى الفرار، وهل تقضي على عدوها أو تبقي عليه. وهكذا وجبت مناقشة آراء وخطط متباينة. وفي الحالات التي تتعادل فيها الآراء ولا ترجح كفة على أخرى، ينتصر الفريق الذي يستطيع أن يفيض في كل ما يؤيد آراءه ويعززها بالحجج الدامغة ويعرضها بطريقة أكثر إقناعًا؛ ومن هنا كانت الحاجة إلى الخطابة للتشاور فيما بينهم.

لقد كان الإغريق خطباء بالفطرة؛ فنجد فيما نملكه من السجلَّات شبه التاريخية أن فصاحة اللسان هبة لا تقلُّ عن الشجاعة في القتال. ولم تقُم شهرة الملوك والأمراء على قوة بأسهم فحسب، بل كانوا يقودون الشعوب بآرائهم ونصائحهم؛ إذ كانوا يستعملون الحكمة وطلاقة اللسان في إملاء تعليماتهم. وحيث إن القوة والإقدام ملك للجميع؛ فيشترط في القادة الحقيقيين صحة المشورة وسداد الرأي βουλήφοροι ἄνδρες، فهذا نستور Nestor الذي تعدَّى سن القتال أو كاد، يعتبر من الأوائل بسبب فصاحته. وبينما يقاسم أخيليس Achilles أمجاد الإلياذة مع عدَّة محاربين آخرين؛ فإن أودوسيوس Odysseus الصادق المشورة، كان الموضوع الرئيسي لمنظومة بأكملها.

ويوضح لنا فوينكس Phoenix في الكتاب التاسع من الإلياذة، المثل العليا التي كان يهدف إليها تعليم الأمراء؛ فيروي كيف درَّب أخيلليس الصغير «ليتلاعب بالألفاظ ويقوم بعظائم الأعمال»؛[1] وقد برَّر أخيلليس، كما نعلم عنه، هذا التدريب. وإن الشخصيات التي تحتلُّ المرتبة الأولى في الأسفار الهوميرية، هم خطباء مفوَّهون، على استعداد، وفي مقدورهم المناقشة عن إدراك وسداد رأي، في أيِّ موضوع معقَّد، علاوة على الاسترشاد بالمبادئ العامة. فكثيرًا ما يستشهد نستور بالسابقات التاريخية، ويعطي فوينكس[2] توضيحًا رمزيًّا، كما يشير كثير من الخطباء إلى قدسيَّة القانون والتقاليد. فعلى الرغم من حصر الفكر في معالجة الأمر الخاص؛ فإن مختلف المسائل العامة ليست متعددة على الإطلاق.

يستطيع الناصح الهوميري أن يؤيد آراءه ويفنِّد وجهات نظر منافسيه ويحقرها، بسهولة وطلاقة طبيعيتين واستعداد للطعن، يحسده عليها أي خطيب محنَّك يسوس الشخصيات مثل ديموسثينيس Demosthenes.

فمن غيث أخيلليس المرتجل ومَن على شاكلته، إلى فن لوسياس Lysias وديموسثينيس المدروس، مسافة طويلة خلال قطر مجهول، وبديهي أنه لا يمكن نتبع مجرًى معيَّن للتطور. بَيدَ أن هناك إشارة إلى هوميروس ذات فائدتين؛ فأولًا قد تشير إلى أن الخطابة الإغريقية بداهة نشأت وترعرعت في الوطن الإغريقي، يؤيد ذلك أنه يمكن العثور على بذورها في أولى الأخبار التاريخية. وثانيًا كان يدرس هوميروس بشغف وورع زائدَين، ولم يكن يدرسه الخطباء الأثينيون أنفسهم فحسب، بل وكذلك مشاهير من سبقهم مباشرة من الأدباء، والسفسطائيون الذين لم يكن لهم وطن معيَّن، ومشاهير خطباء صقلية، حتى صار أثره أعظم مما قد يبدو لأول وهلة.

٢

يمكن دراسة سجلَّات الفصاحة من وجهات نظر عديدة مختلفة، ويمكن تقسيمها بالتقريب إلى قسمين «أدبي» و«عملي»، ولو أنه من العسير دائمًا جعل العناصر واضحة؛ فدراسة ما

[1] الإلياذة ٩، ٤٤٣.

[2] الإلياذة، ٩، ٥٠٢ ... إلخ.

كتبه الخطباء الأثينيون، يجب أن تسير على نظام معيَّن يتناول تطوُّر النثر الآتيكي. أما في مثل عملنا هذا الذي يعنى بالخطباء فقط؛ فلا يمكن القيام بتلك الدراسة على الوجه الأكمل. فبينما يبدو محتملًا أن نناقش تأثير ثوكوديديس Thucydides أو أفلاطون Plato في ديموستينيس؛ لا نجد مجالًا للتفكير في مدى تأثُّر المؤرِّخ مباشرة بأنتيفون Antiphon أو الفيلسوف بجورجياس Gorgias، ولو أنه يمكن التنويه بإشارة سطحية إلى أنه كان هناك مثل هذا التأثُّر.

غير أنه إذا نظرنا إلى البلاغة من حيث كونها فنًّا عمليًّا دون التعرُّض إلى قيمتها الأدبية، تصبح مهمتنا سهلة يسيرة. فنرى أن الأدب يعلو ويهبط وتكتنفه الأعاصير، في حين أن الخطابة، ولا سيما خطابة المناظرة، تسير على نهج متجانس منتظم؛ فلقد تشابهت أغراض أنتيفون وديموستينيس إلى حدٍّ كبير، كما كان عليهما أن يقطعا مراحل متشابهة، ويتغلَّبا على عقبات متماثلة، ويعالجا حل مسائل تتشابه من حيث التعقيد. وإن دراسة طرقهما المختلفة في معالجة مثل هذه المسائل قد تعطي بعض النتائج المعقولة المسلِّية التي تكون عونًا لتاريخ «فن الإقناع»، وحتى هنا تقابلنا بعض الصعاب؛ فإنه من المعروف أن إيسوقراط Isocrates، أحد المعدودين من أعاظم الخطباء، لم يكن قط كما كان ديموستينيس، ولم يكن المقصود تلاوة ما تسمَّى خطبه على الإطلاق، وقد اعتمد مفعول هذه الخطب على أسلوبها الأدبي أكثر من مزاياها العملية.

وربما كان هناك عامل هامٌّ واحد مشترك بالنسبة لجميع الخطباء؛ ألا وهو أنهم جميعًا يعطوننا بطريق مباشر أو غير مباشر مواد عظيمة القيمة لدراسة التاريخ الأثيني، ومعلومات عن الحياة العامة والخاصة والطابع القومي في عصورهم.

فالخطب التي كانت تلقى في المجالس والمجامع العامة، تزيد معلوماتنا التاريخية اتساعًا، كما أن الخطب الخاصة التي كثيرًا ما كانت تتناول أمورًا تافهةً للغاية، تمدنا بمعلومات عديدة مختلفة عن المسائل العائلية والمنزلية لا يمكن أن تقارن إلا بالمعلومات التي عرفت حديثًا من أوراق البردي المصرية.

٣

قد يبدو أن الحرية الدستورية والحماسة الوطنية ضرورتان أساسيتان لنمو الخطابة، غير أنه يجب أن يكتنف التصريح بهذا القول شيء من الحيطة؛ إذ هناك آلاف من المؤثِّرات

الفعالة الأخرى، وليس لدينا سجلَّات عن الخطابة في أثينا قبل قيام الديمقراطية. وقد انهارت الخطابة بسرعة فائقة بعد تحديد النفوذ الأثيني نتيجة لانتشار الحضارة اليونانية Hellenism تحت إمرة الإسكندر Alexander.

ويعطينا خيال هيرودوت في مناقشات المحكمة الفارسية، فكرة عما كان يراه في خطابة العصر السابق، بَيدَ أنه عندما نقل آراء بلاده إلى بلاد أخرى دون التعرُّض إلى المذهب الواقعي تعرُّضًا خطيرًا، أصبحت تلك الخطب قليلة القيمة لنا. ولقد أدخل ثوكوديديس خطبًا في تاريخه، إلا أنه يعترف صراحة بأنها من نسج الخيال ولا تمت إلى الحقيقة بصلة، وعلى ذلك ينبغي أن ينحصر اعتمادنا في ثوكوديديس؛ لنستقي المعلومات عن بلاغة أوائل خطباء الديمقراطية السياسيين.

وقد خلَّف ثيموستوكليس Themistocles شهرته كخطيب، ويشير إليه هيرودوت، وقد خطب في الإغريق قبل معركة سلاميس[٣] Salamis، ويقرِّظ ثوكوديديس قدرته على التعبير عن سياسته،[٤] ويصفه مؤلف خطبة الرِّثاء التي تنسب خطأً للخطيب لوسياس Pseudo-Lysian Eptaphios، بالكفاءة في الخطابة والفصل في الأمور والقيام بالأعمال.[٥] وليس عندنا زيادة على هذه الملاحظات الضئيلة، وإشارة شيشيرون[٦] Cicero إلى فصاحته، سوى بلوتارخوس[٧] Plutarch الذي يخبرنا أنه شغف بالخطابة منذ حداثة شبابه، وأنه درس على يد سفسطائي يدعى منيسيفيلوس Mnesiphilus، يبدو أنه علَّمه شيئًا عن علم تدبير شئون الدولة. ويسجِّل بلوتارخوس رده على يوروبياداس Eurybiadas عندما عيَّره في مجلس الحلفاء بأنه رجل لا مدينة له؛ حيث إن أثينا Athens كانت قد أخليت، ولذلك فلا يتمتَّع بحق الخطابة:

> «لقد تركنا بيوتنا وأسوارنا، أيها الوغد، غير راضين بالعبودية من أجل هذه الأشياء العديمة الروح، ومع ذلك فإنه لا تزال لنا مدينة — هي أعظم المدن

---

[٣] هيرودوت: ٨: ٨٣.

[٤] ثوكوديديس: ١: ١٣٨.

[٥] ٤٢.

[٦] بروتوس Brutus: ٢٨.

[٧] ثيموستوكليس، الباب الثاني.

الإغريقية — وفي أسطولنا مائتا سفينة حربية triremes، على استعداد الآن لمساعدتك إذا كان يُهمك أن تنجو بمعونتها. أما إذا رحلت عنَّا ووشيت بنا مرة ثانية؛ فإن العالم الإغريقي سيعلم في الحال أن للأثينيين مدينة حرة ووطنًا ليس أسوأ مما فقدوه.»[٨]

ويحتفظ لنا بلوتارخوس بقطعة أخرى، عبارة عن نداء إلى كسركيس Xerxes بأسلوب مختلف، به استعارة بلاغية قد يظنُّ أنها مما يلائم العقلية الشرقية:

«يشبه حديث الإنسان قطعة من المنسوج بديعة التطريز. إذا نُشر كل منهما أظهر محاسنه وروائع فنه، وإن طُوي أخفاها.»[٩]

وكثير من أقواله الأخرى مدوَّنة، ولكنا نشك في صحتها. مثال ذلك رده على الرجل الآتي من سيريفوس Serifos الذي قال إن ثيموستوكليس يدين بعظمته إلى كون مدينته عظيمة. «ما كان لصيتك أن يذيع يا ثيموستوكليس لو كنت من سيريفوس، وكذلك ما كنت لتحظى بتلك الشهرة لو كنت من أثينا.»[١٠]

وإن تفسيره للنبوة ليوضح أنه كان حاضر البديهة مثل أودوسيوس؛ فقد فسر «الحوائط الخشبية» بالسفن. كما أن الفكرة التي نكوِّنها عنه من المعلومات الطفيفة التي لدينا، هي لرجل فصيح قوي الحجة مدعم الأقوال بالبراهين، لم يعرف أنه تحير قَط في تفسير شيء، وربما كان مجادلًا أفضل منه خطيبًا.

أما بركليس Pericles الذي يمثِّل الجيل التالي؛ فلدينا عنه صورة أكثر وضوحًا؛ إذ نعرف أكثر عن حياته الخاصة، وعن أنصاره الذين كان لهم تأثير عظيم في آرائه. فأول مدرسيه هما الموسيقيان دامون Damon وبوثوكليديس Pythoclides. وكان الأول صديقه الحميم طوال حياته،[١١] وإذا صدقنا بلوتارخوس؛ فإنه كان يسدي إليه النصح دائمًا، حتى

[٨] ثيموستوكاس، الباب الحادي عشر.

[٩] الباب التاسع والعشرون.

[١٠] أفلاطون، الجمهورية: ١: ٢٣٠ أ.

[١١] أفلاطون، ألكبياديس: ١: ١١٨جـ.

في المسائل الخاصة بإدارة شئون الدولة.[١٢] وكانت صداقة أناكساجوراس Anaxagoras له ذات أثر فعَّال كما يؤكد أفلاطون في فقرة شهيرة وردت في فايدروس[١٣] Phaedrus:

«تتطلَّب الفنون جميعها، المناقشة والخيال الرفيع عن حقائق الطبيعة، ومن هنا يأتي السمو في الفكر والكمال في الإنجاز.»

«وهذه الصفات، على ما أعتقد، كانت ما اكتسبه بركليس — فضلًا عن مواهبه الطبيعية — من معاشرته وصداقته لأناكساجوراس ... وهكذا شبَّ على فلسفة رفيعة ... فطبَّق ما وافق مأربه على فن الخطابة.»

ويقال أيضًا إنه كان على صداقة مع زينو الإيلي Zeno of Elea، المنطقي البارع، وكذا مع السفسطائي العظيم بروتاجوراس Protagoras.

ويقدِّسه بلوتارخوس وهو يسلِّي نفسه بالمناقشة مع بروتاجوراس حول مسألة، هي موضوع إحدى رباعيات أنتيفون Antiphon's tetralogies: «قتل رجل زميله في ملعب للرياضة برمح عن غير قصد، فمن الملوم؟»[١٤]

ونجده في الذكريات[١٥] Memorabllia لمؤلفها كسينوفون Xenophon، مشغولًا في مناقشة سفسطائي مع ابن أخيه الصغير ألكيبياديس Alcibiades الذي كان قد تخرَّج حديثًا من مدارس البلاغة؛ فكان يفوقه في النقاش الدقيق بشكل ظاهر.

ويروي ثوكوديديس ثلاثة أحاديث على لسان بركليس، وعلى الرغم من أن اللغة لغة المؤرخ؛ فإن بعض الأفكار قد تكون للسياسي.

ويبدو أننا نلمس ذكاءه الخارق الذي نما بالتدريب الفلسفي والسمو وصحة الحكم، التي يحدثنا عنها أفلاطون.[١٦] كما يعطينا الشاعر الهزلي يوبوليس Eupolis صورةً من وجهة نظر مخالفة:

---

[١٢] بلوتارخوس، بركليس، الباب الرابع، يقتبس من «أفلاطون الهزلي»: σὺ γάρ,ὥς φασι, Χείρων ἐξέθρεψας Περικλέα.

[١٣] صفحة ٢٧٠ أ، ترجمة جويت Jowett.

[١٤] رباعيات أنتيفون، الرباعية الثانية.

[١٥] ١، ٢، ٤.

[١٦] أفلاطون I.c.

(أ) «كلما نهض ذلك الخطيب المفوَّه يخطب في المجلس — وكان السباق حامي الوطيس — استطاع أن يحمِّس العدَّائين الآخرين فتزيد سرعتهم ثلاث ياردات.»

(ب) «وإني لأعترف بسرعة تأثيره؛ إذ إن أيَّة حركة خفيفة من شفتيه ذات مفعول أبدي. وهو الوحيد بين سائر الخطباء الذي ترك وراءه أقوالًا ذات أثر ملهب كلدغة النحلة.»[١٧]

ونعرف من ثوكوديديس مدى تأثيره على الشعب؛ فإنه لم يكن من زعماء الشعب بالمعنى الدارج، بل أدرك الشعب فيه الإخلاص والإصلاح. ولم يعرف عنه أنه تقهقر قط بسبب عدم رواج سياسته، فهو يفضِّل أن يقود الشعب، على أن يرضخ لهم كي يقودوه. وكان في مقدوره أن يحتقر أرواحهم إذا ما رفعت بغير استحقاق، ويزيد في ثقتهم بأنفسهم إذا ضعفت روحهم المعنوية.[١٨]

وفي ذروة مجده كانت خطبه أكثر تأثيرًا؛ لأنه لم يكن ليخطب إلا نادرًا؛ أي في المسائل الخطيرة فقط، أما الأمور الأقل شأنًا فكان يتركها لأعوانه؛ فإذا ما قام بركليس نفسه ليتكلَّم، كان ذلك علامة على أنه سيدور على بساط المناقشة موضوع ذو أهمية قومية، كما أن مظهره كان يغرس الثقة في قلوب القوم بأن خطابته ستكون جديرة بالموضوع.[١٩]

وإن لقب أوليمبي الذي أعطي له أصلًا بقصد التهكم، طابق الواقع أكثر مما كان يتوقع من خلع عليه هذا اللقب؛ فكانت فصاحته إظهارًا نبيلًا لذكائه المفرط وسمو خلقه، جديرًا بالاستماع.

ورغم أننا لا نملك سجلًّا حرفيًّا لخطبه؛ فإن بعض عباراته قد علقت بذاكرة المؤرخين؛ مثال ذلك:

> «كانت أيجينا Aegina عنده «قذى بيريوس Piraeus»؛ فأفسدت منظر الميناء الأثيني.[٢٠] إن أهل ساموس Samians الذين خضعوا كارهين لنعم الحضارة

---

[١٧] بوثي Bothe، كسرة هزلية: ١: ١٦٢. انظر أيضًا أرستوفانيس Aristophanes الأكارنانيون Acharnanians، ٥٣٠ «وبعدئذٍ أبرق بركليس الأوليمبي وأرعد في سورة غضبه، ثم أذهل بلاد الإغريق.»

[١٨] ثوكوديديس: ٢: ٦٥.

[١٩] بلوتارخوس، بركليس، الباب السابع.

[٢٠] أرسطو، البلاغة: ٣: ١٠، ٧د.

الأثينية، كالأطفال، يستوي عندهم إذا أعطيتهم الثدي أم أخذته منهم.[٢١] وتشبه بويوتيا Boeotia التي شتتتها الحرب الأهلية، شجرة بلوط شقت بأوتاد من البلوط.»[٢٢]

وهاك أجمل تشبيهاته، وقد لا يكون مبتكرًا؛ إذ ينسب هيرودوت تشبيهًا مماثلًا إلى جيلون Gelon عندما رفضت بلاد الإغريق مساعدته القيِّمة — وهو كما يقول أرسطو، من خطبة جنائزية:

«فقدت المدينة شبابها؛ فكأن العام قد فقد ربيعه.»[٢٣]

٤

ومع أن فصاحة هؤلاء الساسة الأوائل ترمز إلى العبقرية الآتيكية، غير أنها ظاهرة فريدة. ولنتأمل الآن أثرَين مباشرَين؛ أثر السفسطائيين وأثر علماء البلاغة الصقليين المبكرين.

ففي منتصف القرن الخامس ق.م. عندما فشل خيال الفلاسفة الأيونيين الطليق، في حل لغز البقاء على أسس طبيعية، قام بارمينيديس Parmenides، الفيلسوف الباحث في الأسباب والمسببات، وأنكر احتمال المعرفة الصحيحة، كما أن زينو الإيلي، المنطقي، لزم الصمت إزاء ما انتهى إليه قرارهم من أن المعرفة ليست مستحيلة فحسب، بل لا يمكن تبرير الإسناد النحوي أيضًا؛ فلا يمكنك أن تقول عن شيءٍ ما إنه شيء آخر، أو أن الأشياء المتشابهة غير متشابهة. فأصاب الفلسفة من جراء ذلك بعض العار، وانتشر الشك في ربوع العالم الإغريقي، ولَّما فشل فطاحل المفكرين في محاولاتهم اكتشاف حقائق أرفع، حوَّلوا اهتمامهم إلى الجانب العملي للتعليم.

وقد قام في عدَّة مدن مختلفة من بلاد الإغريق العظمى، رجال ذوو عقول راجحة وتفكير سامٍ، يمكن جمعهم تحت عنوان «السفسطائيين Sophists» أو «المربين»، أهملوا

[٢١] ثوكوديديس: ١: ١١٥–١١٧، أرسطو، البلاغة: ٣: ٤–٣.

[٢٢] أرسطو، البلاغة: ٣: ٤: ٣.

[٢٣] هيرودوت: ٧: ١٦٢، أرسطو، البلاغة: ١: ٧–٣٤. وقد اقتبسها الخطيب ديماديس Demades في عصر تالٍ «أثينيوس Athenaeus». ٣: ٩٩د.

المشكلات المعنوية، وأخذوا على عاتقهم إعداد الناس لمسالك الحياة المدنية الراقية، بوساطة تعاليم مختلقة. وأعظم هؤلاء بروتاجوراس Protagoras من أبديرا Abdera؛ فقد جاهر بازدرائه للفلسفة في قوله المأثور «إن الإنسان مقياس كل شيء؛ فما هو موجود موجود، وما ليس موجودًا غير موجود.» ولذلك وقف نفسه على دراسة الأدب، ولا سيما دراسة هوميروس؛ فذاع صيته في أثناء رحلاته الطويلة خلال ربوع العالم الإغريقي، وزار أثينا عدة مرات حيث تعرَّف على بركليس.

ويعطينا أفلاطون، في الحوار الذي سُمِّي باسمه، فكرة عن أثر شخصيته في افتتان شباب أثينا به.

وفي الحقيقة، كان للسفسطائيين على وجه العموم شهرة فائقة؛ فإن شباب العائلات النبيلة وسادتهم ممن يميلون إلى الحياة السياسيَّة، كانوا يحتشدون لسماع المحاضرات التي يلقيها السفسطائيون. ومما لا شكَّ فيه أن ألكبياديس وكريتياس Critias وغيرهما يدينون إلى هذه الحركة بالكثير من مقدرتهم السياسية.

وكثيرًا ما نوقشت أخلاق السفسطائيين، ووصفها شعراء الملهاة بأنها الوسيلة الأساسية لهدم المُثل القديمة للأخلاق. وعلى الرغم من أن أفلاطون كان يلمس قيمتها الإنسانية، وتحدَّث عن أفراد كثيرين من المدرسين بالتقدير والإعجاب؛ إلا أنه لم يقرِّظ تعاليمهم على وجه عام. حقًّا، إن ادِّعاء بروتاجوراس بأن في استطاعته أن يجعل الخطأ صوابًا، قد عرَّضه للمهاجمة العلنيَّة بوجه خاص.

لقد قام بروتاجوراس ببعض الدراسات الأولية في النحو كأساس للمنطق، ويظهر أن طريقته في التعليم كانت بوساطة الأمثلة.

ويشير أفلاطون في حواره عن كيفية مناقشة موضوع معيَّن: وتتألف محاضرته، أولًا من «أسطورة»، ثم حديث مستمر، وأخيرًا نقد قطعة شعرية، وقد تكون هذه محاكاة معقولة لطرقه. وقد حفظ تلاميذه عدة خطَب كهذه أو ملخصات لها، عن مواضيع متباينة، وبذا كانوا مزوَّدين نسبيًّا بمادة تكفي غرض المجادلة العامة.

أما بروديكوس الكيوسي Prodicus of Ceos الذي كان — فيما يبدو — يصغر بروتاجوراس[٢٤] بعدة سنوات، فقد اهتم بالفلسفة الأخلاقية أكثر من التمرينات المنطقية، فوجَّه جلَّ عنايته في جميع تعاليمه إلى الاستعمال الصحيح للكلمات ὀρθοέπεια أو التمييز

[٢٤] أفلاطون، بروتاجوراس، ٣١٧جـ.

بين معاني الكلمات التي أصبحت تُستعمل في اللغة العامية كمرادفات.[٢٥] وقد روعيت هذه الدقة إلى حد المغالاة. ولمَّا كان استعمال التراكيب، استعمالًا صحيحًا، عنصرًا هامًّا في الأسلوب النثري؛ فإن دراساته جديرة بالاعتبار.

ويقل عن أهمية، هيبياس من أليس Hippias of Elis الذي كان دائم الاستعداد للمحاضرة في أيِّ موضوع كان، في هذا العالم، كما كان في استطاعته تعليم تلاميذه مثل هذه البلاغة؛ فسعى إلى وفرة الألفاظ ليستر افتقاره في الأفكار.

٥

لقد احتفظ شيشيرون بعبارة من أرسطو مؤدَّاها أن البلاغة البيانية نشأت في سيراكوزة Syracuse، عندما حاولت عائلات كثيرة أن تطالب بحقوقها بعد أن طردهم الطغاة وصادروا ممتلكاتهم عام ٤٦٥ق.م.[٢٦]

ومن المؤكَّد أن كواركس Corax، مؤسس علم البلاغة، كان يعلم حوالي عام ٤٦٦ق.م.، ووضع τέχνη أو كُتيبًا عن قواعد البلاغة.[٢٧] ثم نحا نحوه تلميذه تيسياس Tisias، فكتب رسالة أعلن أرسطو أنها تفوق رسالة أستاذه، وسرعان ما تلتها أخرى خير منها.[٢٨]

وقد وجَّه كل من كوراكس وتيسياس جلَّ اهتمامهما إلى «الاحتمال» εἰκός كوسيلة لإقناع هيئة المحلفين. ولنضرب مثلًا لاستخدام هذه الوسيلة في مؤلف كوراكس، حالة الذي اتُّهم بالاعتداء وأنكر التهمة قائلًا: «ترون أنني ضعيف الجسم بينما هو قوي العارضَين، فهل من المعقول أن أجسر على مهاجمته؟» وطبعًا يجوز للقاضي أن يحوِّل مجرى القضيَّة ويعكس اتجاهها: «حيث إن المدَّعَى عليه ضعيف البنية فلا يتطرَّق إلى الذهن أنه يقوم بالعدوان.»

وسنجد أن هذه المناقشة من الحجة «εἰκότα» ظاهرة بارزة جدًّا في الخطيب أنتيفون؛ فنراها في خطَبه أمام المحاكم، وكذلك في رباعيته «تترالوجاته» التي تُعتبر بحقٍّ تمرينات

---

[٢٥] أفلاطون، بروتاجوراس، ٣٣٧ أ–جـ؛ حيث يضع أفلاطون أسلوبه في قالب هزلي.

[٢٦] شيشيرون، بروتوس، ٤٦.

[٢٧] أرسطو، البلاغة: ٢: ٢٤، ٢.

[٢٨] سوفوكليس. Elench، ١٨٣، صفحة ٢٨ إلخ ...

نموذجية. ويظهر جليًّا أنه كان يفضِّل هذا النوع من الحوار عن البرهان الواقعي، حتى ولو قام الدليل على الاتهام.[٢٩]

قام تيسياس بإدخال تعديلات على طريقة كوراكس؛ ففرض أن الرجل الضعيف الشجاع قد يعتدي على رجل قوي جبان؛ فيرى تيسياس أن كليهما سيكذب في المحكمة. فالجبان لا يحب أن يعترف بجبنه؛ ولذا سيقول إن أكثر من شخص واحد قد اعتدى عليه، أما المذنب فسوف يثبت تفنيد هذا القول ملتجئًا إلى محاورة كوراكس، فيقول: «أنا ضعيف وهو قوي، فما كنت لأستطيع الاعتداء عليه، أو سرقته، أو ... أو ... وهكذا.»[٣٠]

وتشير قصة هذَين العالِمَين إلى أنهما يميلان إلى المراوغة،[٣١] فقد درس تيسياس على يد كوراكس، مشترطًا أن يدفع أجر تعليمه إذا كان يفوز في أول قضية له في المحكمة. وبعد أن مضى بعض الوقت قلق كوراكس على أتعابه، فقدَّم قضية إلى المحكمة، وكانت بطبيعة الحال هذه أول قضية تولَّاها تيسياس أمام المحكمة، وقال كوراكس: «إذا فزت في القضيَّة نلت أجري بحكم القضاء، وإن خسرت أنا وفزت أنت يا تيسياس طالبتك بالدفع حسب اتفاقنا.» فأجاب تيسياس: «لست بدافعٍ أتعابك سواء فزت أنا أم خسرت.» فرفضت المحكمة الدعوى قائلة: «إن الغراب الرديء يضع بيضًا رديئًا.»[٣٢] وغنيٌّ عن البيان أن هذا كان في صالح الرجل الأصغر الذي كانت تؤيده تسع فقرات من القانون.

ورغم عدم وجود شيء من كتاباتهما؛ فإن في استطاعتنا تكوين فكرة عن طرقهما، فلم يكونا على خلف؛ بل بالعكس كانا سفسطائيين، يفضِّلان ما يبدو مستحسنًا في مظهره على الحقيقة، جاعلين جلَّ همِّهما كسب القضية بأي طريقة كانت. وتبعًا لآراء أرسطو، كانت طريقة تعليمهما «سريعةً لا تستند إلى العلم في كثير أو قليل.»[٣٣] وتتلخَّص في جعل التلميذ يحفظ عن ظهر قلب عددًا هائلًا من الموضوعات العامة والمحاورات القياسية التي يمكن تطبيقها في جميع الأغراض القضائية. ويظهر أنهما لو يوجِّها أي اهتمام إلى الأسلوب من الناحية الأدبية.

---

[٢٩] انظر الصفحات ٤٢، ٤٣.

[٣٠] أفلاطون، فايدروس، ٢٧٣ ب–ج.

[٣١] Schol. on Hermogenes; also Sext. Empir. adv. Mathem., ii. 96.

[٣٢] Κακοῦ Κόρακος κακὰ ὠά.

[٣٣] سوفوكليس. Elench، ١٨٤ أ. ١.

٦

بدأ جورجياس الليونتيني Gorgias of Leontini، أحد معاصري بروتاجوراس، كسفسطائي من حيث الاعتقاد بأنه لا يمكن معرفة أي شيء، وأن متابعة الفلسفة كالحرث في الرمال أو النقش على الماء؛ لا نخرج منهما بنتيجة. ويقال إنه كان أحد تلاميذ تيسياس ويحتل مكانة بين علماء البلاغة المبكرين الذين يسمَّون عادةً بالسفسطائيين. وقد درس الخطابة كسابقيه وعلمها. ولمَّا كان كل غرضهم مُنصبًّا على المنافسة من أجل إحراز قصب السبق في المناقشة والمحاورة؛ فإنه حظيَ بقسط وافر من التعليم، واضعًا نصب عينيه أن البلاغة فنُّ الإقناع،[٣٤] فاهتمَّ بالناحية الفنية أكثر من أي معلِّم سابق؛ وبذا أصبح أول فنان حقيقي في الأسلوب النثري.

وكان يتنقَّل، كباقي السفسطائيين، من مدينة إلى أخرى، يعرض فنَّه، فربح من ذلك ثروات طائلة أنفقها في بذخ وإسراف. وقد أوفدته مدينته إلى أثينا سنة ٤٢٧ق.م. فأثَّر في سامعيه تأثيرًا خلَّده التاريخ، ليس في جموع الشعب التي تحدَّث إليها فحسب، بل وكذلك في طبقة المتعلمين المثقفين الذين كان في استطاعتهم تقدير فنِّه.

ويدين له ثوكوديديس ببعض الشيء كما ظهر تأثيره على الشاعر أنتيفون.[٣٥]

ونسمع عن رحلة له في لاريسا Larissa حيث أثار إعجاب أهل تساليا Thessalians؛ فصاغوا من اسمه الكلمة التي يستعملها فيلوستراتوس Philostratus للتعبير عن أسلوبه الفيَّاض.[٣٦]

ويقال إن أول أعمال كان رسالة شك في الطبيعة أو عدم الوجود،[٣٧] تلاها عدد معيَّن من الخطب أشهرها الأوليمبية Olympiac، التي حثَّ فيها الإغريق، كما فعل إيسوكراتيس Isocrates من بعده، على ضرورة الاتحاد. أما مرثاته، التي سنعود إليها؛ فيظنُّ أنها أُلقيت في أثينا، ولو أنه يستبعد ذلك؛ لأن مثل هذه الخطب كان يلقيها الساسة الأثينيون البارزون، ولم تكن هناك حاجة إلى استدعاء أيِّ خطيب غريب.

---

[٣٤] قارن أفلاطون جورجياس ٤٥٣أ فايدروس 259 E.

[٣٥] Πολλαχοῦ τῶν ἰάμβων γοργιάζει، فيلوستراتوس، حياة السفسطائيين: ٩: ٤٩٣.

[٣٦] أفلاطون، مينو Meno، ٧ب. وفيلوستراتوس، الرسالة التاسعة، سطر ٣٦٤.

[٣٧] سكستوس أمبريكوس Sextus Empiricus، الباب السابع، ٦٥. شيشيرون (بروتوس، فصل ٤٦) περὶ φύσεως ἢ τοῦ μὴ ὄντος ويذكر أيضًا مجموعة من communes loci عملت لغرض التعليم.

وقد سجِّلت له خطبة بوثية Pythian وعدَّة خطَب أخرى في المديح Encomia، بعضها في مدح شخصيَّات أسطوريَّة، يمكن اعتبارها لمجرَّد التمرين، وبعضها في مدح شخصيات حقيقية كالإيليين Eleans.[٣٨] ولا يبدو أنه كتب خطبًا للمحاكم. وكانت غايته الظهور، كما يتضح في عاداته وخطبه؛ ولذا أنشأ الأسلوب الخطابي المعروف باسم أسلوب المحافل epide clic، الذي نقَّحه إيسوكراتيس في عصر تالٍ حتى وصل به إلى حد الكمال.

ورغم أنه أيوني المولد lonian؛ فقد لاحظ بغريزته أن اللهجة الآتيكية حافلة بالمعاني والألفاظ؛ فاختارها وسيلة للتعبير. وعلى أيَّة حال، فلم تكن هي اللهجة الآتيكية المستعملة في الحياة اليوميَّة، بل لهجة كثُرت ألفاظها بوساطة الخيال الشعري. ولدينا من أعماله الحقيقية، نبذة واحدة فقط جديرة بالتقدير، مأخوذة من مرثاته. ويمكننا أن نكوِّن فكرة عن مبالغاته الطنَّانة من هذه النبذة ومن بعض النبذات المبعثرة التي انتقدت، ومن العبارات التي حافظ عليها الناقدون مضافة إلى اللغة التي ينسبها أفلاطون إلى محاكيه أجاثون[٣٩] Agathon.

وقد كان مغرمًا إلى حد الإدمان، باستعمال الاصطلاحات والتعابير النادرة التي سمَّاها النقَّاد الإغريق γλῶτται بدلًا من التعابير العادية، كما كانت لغته زاخرة بالكلمات المهجورة والألفاظ الشعرية والاستعارات الخلَّابة والتراكيب الوحشية. وكثيرًا ما كان يلجأ إلى استعمال الصفات الخاصة بالجمادات وأسماء الفاعلين والمفعولين، ويفضِّلها على الأسماء المعنوية، كما كان يحب استعمال اسم فعل متبوع بفعل مساعد في المواضع التي كان يستعمل فيها الفعل العادي البسيط.

وأخيرًا، فرغم أنه لم يستطع التأليف على مدًى واسع مثل إيسواكراتيس وديموستينيس، إلا أنه نقَّح استعمال المتناقضات، فردَّ على كلمة بكلمة، وعلى عبارة بعبارة، مشيرًا إلى أسلوبه في استعمال النقيض، ليس بكثرة استعماله للحرفين μέν, δέ، فحسب؛ بل كذلك بالالتجاء إلى السجع في نهاية العبارات، أو بصور الأفعال المناسبة في مثل هذه المواضع، أو بالعناية بالقافية والوزن في الجمل المتناقضة.

---

[٣٨] أرسطو، البلاغة ٣: ١٤، ١٢.

[٣٩] سمبوسيوم Symposium، 194 E، إلخ ١٩٧د. وتحوي الأخيرة بعض الأمثلة الرائعة: πραύτητα μὲν, ἀγριότητα δέξορίζων. φιλόδωρος εύμενείας, ἄδωρος δυσμενείας, etc. جالبة للسلاسة، طاردة للصراحة، حائلة بالنيات الطيبة، قاحلة من النيات السيئة ... إلخ.

كانت المغالاة خطأه الأول؛ فقد كان إمامًا في التعبير، وقام بأعمال جيدة جدًّا، إلا أنه كان يفتقر إلى عنصر التناسب؛ فإذا ما قرأنا صفحة مما لدينا من عمله الحقيقي، ألفيناها كأنها تحريف للأسلوب؛ لأنه قد وصل بكل سمة من سمات التعبير إلى التطرُّف في المغالاة. حقيقة، يجب على المعلِّم الإغراق في المبالغة، وإلا فلن يعيَ التلميذ عناصر موضوعه. وأعمال جورجياس جديرة بالتقدير؛ إذ كانت أول محاولة لتكوين أسلوب، وقد تعلَّم أتباعه تارة بالمحاكاة وطورًا بتجنُّب الأخطاء البارزة. والحقيقة الواقعة في عدم احتمال كون الكسرة المحفوظة من أحسن أساليبه، تسهِّل علينا أن نلحظ أثره فيمن جاء بعده كأنتيفون وثوكوديديس وكثير من كتَّاب النثر الفني.

وبالإضافة إلى الخطب التي سبق ذكرها؛ فإن لدينا خطبتين تنسبان إليه؛ إحداهما في مدح هيلين Helen، والأخرى في مدح بالاميديس Palamedes؛ نشكُّ كثيرًا في صحتهما، غير أن بلاس Blass الذي تناول مناقشة الأمر بعناية زائدة في كتابه «الخطباء الآتيكيون»، دون الوصول إلى برهان مقنع، قد حكم منذ ذلك الحين بصحتهما.[٤٠] وهذه وجهة نظر شخصية بحتة، وحتى على فرض عدم صحتها؛ فإنهما تقليد متقن لأسلوب جورجياس وطريقته.

ومن العسير ترجمة الشذرة التي وجدت في الإبيتافيوس Epitaphios بطريقة تعطي فكرة صائبة عمَّا فيها من خيالات، بَيدَ أنه لما كان من المستطاع تكوين فكرة عن أبرز أخطائها، من ترجمة إنجليزية؛ فقد أضيفت بعض النبذات. ويبدو أن روح الإحساس كانت ضئيلةً للغاية في بعض أماكن ببلاد الإغريق، وأن ما كان موجودًا منها كان خاضعًا كليةً للصوت:

«ماذا كان ينقص هؤلاء الرجال من الصفات اللازم وجودها في الرجال؟ وبم كانوا يتَّصفون مما لا يجب أن يتَّصفوا به؟ أتمنى أن تكون لي القدرة على التكلُّم كما أحب، والرغبة في التحدُّث بما ينبغي، متجنِّبًا غيرة الآلهة وحسد البشر؛ فقد كان هؤلاء مقدسين في شجاعتهم رغم أنهم بشر مصيرهم الفناء يفضِّلون دائمًا المساواة برقَّة على العدل بعنف، وإحقاق المنطق على صرامة القوانين، معتقدين أن أعظم قانون قدسية وشيوعًا في العالم هو «أن تتحدَّث، وتسهو، وتفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب.» وقد قاموا بواجبَين

[٤٠] مقدمة لنسخة تويبنر Teubner من أنتيفون (١٩٠٨م) صفحة ٢٨.

فضَّلوهما على ما عداهما، قوة العقل وقوة الجسد؛ أحدهما للتفكير والآخر للتنفيذ، عاطفين على من أشقاهم الظلم، معاقبين من سعدوا بالظلم ... ولذا، رغم موتهم فإن حنينَنا إليهم لم يمُت معهم؛ بل ظلَّ خالدًا فوق هذه الأجساد، ولن يخلد إن لم يعيشوا أبدًا.»

إن التنافر والائتلاف موجودان بكثرة في هذه القطعة غير المعقولة، وزيادة على الطنطنة الغريبة الناتجة عن مثل هذه الكلمات:

γνώμην καὶ ῥώμην: δυστυχούντων, εὐτυχούντων.

فإنها تحوي مفردات شعرية في مثل هذه الجمل: ἔμφυτος Ἄρης «مارس المولود فيهم»، ἐνόπλιος ἔρις «العراك المسلح»، φιλόκαλος ἱρήνη «السلم المحب للفنون».

لقد عانى أنتيفون وثوكوديديس كثيرًا من عدوى هذا الأسلوب، وقام أحد المقلدين المتيقظين، وهو مؤلف خطبة الرثاء التي تنسب خطأً للخطيب لوسياس، بتقليد أنغامها المطَّردة البديعة.

الفصل الثاني

أنتيفون

١

يقال إن أنتيفون كان معاصرًا لجورجياس على وجه التقريب، ولكنه كان أصغر منه قليلًا.[١] وُلد حوالي ٤٨٠ق.م. ولم يساهم في الحياة العامة بنصيب، وربما كان يترفَّع عن خدمة الديمقراطية، بدافع تعصُّبه الشديد للأرستوقراطية.

كتب أنتيفون عدة خطب لغيره، ولكنه لم يخطب شخصيًّا في المجلس قَط، ونادرًا ما خطب أمام القضاء. وكانت معظم خطبه عن أفراد خاصة، إلا أن لدينا سجلًّا لخطبه حول «ضريبة ساموتراقيا Samothrace» يظهر أنها كُتبت لصالح تلك الجماعة عندما أقاموا دعوى يتظلَّمون من فداحة الضرائب المفروضة عليهم.

ولَّما كان قد عاش في ظلام دامس نسبيًّا طوال حياته؛ فقد خطا فجأة إلى النور الساطع في سنة ٤١١ق.م. وهي عام ثورة الأربعمائة. ويقول ثوكوديديس إنه كان الرأس المفكِّر الذي وضع تفاصيل خُطط مثل هذه المؤامرة ضد الديمقراطية، وقد كان يدفع المؤرِّخ ضريبة باهظة على مقدرته كمنظم:

> «لقد اقترح بيساندر Pisander هذه الحركة، وقام بصفة عامة بأغلب الخطوات الفعالة للقضاء على الديمقراطية، بَيدَ أن الشخص الذي حاك خيوط المؤامرة ووضع الخطة كلها وتفاصيل إخراجها، وكرَّس عنايته بها أطول مدة، هو أنتيفون الذي يجب وضعه في المرتبة الأولى بسبب شخصيته وعبقريته وقوته على التعبير.

---

[١] بلوتارخوس الكاذب Pseudo-Plutarchus، حياة الخطباء، أنتيفون، ٩.

لم يتقدَّم أنتيفون مطلقًا أمام المجلس، ولم يخطب بمحض اختياره في أية محاكمة في دُور القضاء، ولكنه بقي بعيدًا عن الشبهة بسبب صيت مهارته. وعلى أية حال؛ فقد كان أقدر من أي رجل آخر على تقديم المساعدة لمن يستشيره في قضية معروضة أمام المحكمة أو المجلس. وأخيرًا عندما مُني الأربعمائة بالفشل، وعاقبهم الديمقراطيون بقسوة، قُدِّم هو شخصيًّا للمحاكمة بتهمة الاشتراك في الثورة، ومن المعروف أنه دافع عن نفسه بأجمل دفاع سجِّل عن متَّهم مطلوب الحكم عليه بالإعدام،[٢] قد دافع به نفسه.»

ويبدو أنه كان إبان حكم الأربعمائة القصير، أحد قادة الحزب المتطرف المعارض لأنصار ثيرامينيس Theramenes، الذي قام بعدة مساعٍ في سبيل الصلح. وقد أوفِد أنتيفون مع فرونيخوس Phrynichus وثمانية رسل آخرين للمفاوضة في أمر الصلح مع إسبرطة؛ حتى يمكن الاحتفاظ بالحكمة الأوليجاركية.

وبعد فشل هذه المفاوضات بمدة وجيزة، قتل فرونيخوس وسقط الأربعمائة، وعندئذٍ كانت الديمقراطية على استعداد للانتق.م. ففر معظم زعماء الثورة إلى ديكيليا Deceleia، وبقي أنتيفون وأرخيبتوليموس Archeptolemus؛ فحاكمهما الشعب وأثبت إدانتهما بتهمة الخيانة، ونفَّذ فيهما حكم الإعدام، وصادر أملاكهما وهدم بيوتهما، وحرم نسلهما من جميع الامتيازات والحقوق المدنية مدة حياتهم، كما منع دفن جثَّتيهما في أرض أثينا أو أرض أي مدينة من حلفائها.

وفي فترة محاكمة ذلك الخطيب الذي قضى خير سنيِّ حياته مدافعًا بألسنة الآخرين، في قضايا لا يميل إليها ولا تهمه في قليل أو كثير، ذاع صيته فوق ما كان ينتظر؛ فقد ألقى خطبة يعتقد ثوكوديديس أنها أروع خطبة من نوعها سمعت حتى ذلك الوقت.

ويحتفظ أرسطو بقصة تذكر كيف هنَّأ الشاعر أجاثون Agathon ذلك المتَّهم على مجهوده الرائع؛ فأجابه أنتيفون بأنه يفضِّل أن يكون قد أقنع رجلًا واحدًا ذا ذوق سليم، عن أي عدد من عامة الشعب. وإن «عامة الشعب» οἱ ηιγιινοντες اصطلاح أرستوقراطي جميل للشعب الأثيني العظيم.[٣]

---

[٢] ثوكوديديس: ٨: ٦٨.

[٣] Eth. Eudem., iii.1232B. 7.

٢

في الوقت الذي كتب فيه أنتيفون خطبه، لم يكن النثر الآتيكي قد اتخذ بعد صورة نهائية. وعلى ذلك كان أول الخطباء بمثابة مكتشف للغة لم تعرقل مسعاه التقاليد؛ فكانت حريته هذه ميزة له، غير أنه من ناحية أخرى، دفع به عدم وجود نماذج كافية إلى الاعتماد على مصادره الخاصة.

أما عن أسلافه في الكتابة النثرية؛ فلم يكن للمؤرخين المبكرين قيمةً ما ككتَّاب. فقد كتب هيرودوت بلهجة أجنبية وبأسلوب عامي لا يتفق وأغراض الخطابة وحاجتها.

حقيقة إن جورجياس استخدم اللهجة الآتيكية، ولكنه حال دون نمو النثر بالإكثار من التعابير الشعرية البديعة، ونقلها كما هي. لذلك لم يكن أمام أنتيفون سوى النزر اليسير ليسترشد به، ومن الضروري أن نتوقَّع العثور في عمله على تلك العيوب التي تُعَد طبيعية في أي فن في طور التجربة.

ولم يبقَ من أعماله إلا القليل جدًّا، حتى تعذَّر علينا تتبُّع أي تطوُّر في أسلوبه، وغاية ما نستطيعه هو تخمين بعض المؤثرات التي ساعدت على تكوينه.

إذَن لا بد وأن يكون أنتيفون على علم بأسلوب أبرع الخطباء في المجالس وأمام المحاكم في عصر بركليس؛ إذ لولا الخبرة العظيمة في إجراءات كليهما ما كان له أن يأمل في أي نجاح في كتابة الخطب، كما أنه لا بد كان ضليعًا في نظريات فطاحل السفسطائيين أمثال بروتاجوراس ولا سيما جورجياس. أضف إلى ذلك أن محاضراتهما النموذجية التي كتباها، هما وغيرها لتعليم التلاميذ، كانت في متناول يده. وعلى أية حال يمكن تتبع أثر السفسطة العام في طبيعة محاوراته أكثر من أسلوبه.[٤]

٣

أما فيما يتعلَّق بالمفردات، فأمامنا حقيقة سافرة، وهي أن أنتيفون كان يستعمل كلمات كثيرة، تعتبر فيما عدا وجودها في هذه الخطب، من الألفاظ النادرة أو الشعرية؛ أي كلمات

[٤] إن العنصر السفسطائي ظاهر جدًّا، ولا سيما في تترالوجاته (رباعياته)؛ فهو مثل تيسياس يُكثر من استخدام مناقشات الاحتمال.

لا يقبلها أسلوب نثريٌّ ناضج. ويعزى هذا، بعض الشيء إلى الظروف، فكما قدَّمنا لم يكن هناك أي قانون عام للأسلوب أو المفردات، كما أن أثر جورجياس كان اختلاط الأساليب الشعرية والنثرية بدلًا من التفرقة بينهما، وعلاوةً على ذلك فإن الاهتمام العظيم بالشعر في التعاليم السفسطائية في ذلك العصر، زاد الصعاب أمام أي كاتب خبير لا يميل إلى استعمال اللغة العامية.

ويمكننا في حالات كثيرة أن نُثني على أنتيفون لتعمُّده استخدام الألفاظ الشعرية على نطاق واسع. ويقول ديونوسيوس Dionysius: «من عادة الأسلوب الصارم أن يطيل نفسه بوساطة فيض غزيرٍ من الألفاظ.»[٥] ويمكننا العثور على مقدار عظيم من هذه الكلمات في الشعراء، ولا سيما أيسخولوس[٦] Aeschylus.

وليس أنتيفون هو الوحيد بين كتَّاب النثر، الذي يستعمل الألفاظ الشعرية؛ فإن أفلاطون، أعظم أئمة النثر الآتيكي، كان في بعض الحالات أكثر شاعرية من الشعراء أنفسهم، مع أن عبقريته كانت كافية لاجتناب أي معنًى صارم أو غير ملائم. ومثل هذه الصرامة قد تكون ذات فائدة إيجابية للخطيب للحصول على أثر خاص؛ إذ إن أية كلمة غير عادية، على أسوأ الفروض، لا بد أن تجتذب الانتباه، وعلى خير الفروض، ترفع من قيمة جملة عادية.

وقد وضع ديونوسيوس، أنتيفون وأيسخولوس معًا كأستاذَين في الأسلوب الصارم، كما أن في بعض كلمات الخطيب وعباراته، فيما عدا معالجته لمواضيعه، سمةً من عظمة أيسخولوس.

وعلاوةً على الألفاظ الشعرية — تلك الألفاظ التي، كما رأينا، قد تكون استعملت لقصد خاص بدلًا من مرادفاتها من الألفاظ العادية — فإنه يستعمل للسبب نفسه عددًا معيَّنًا من الألفاظ والتراكيب الوحشية غير الشعرية. فكل ذي أسلوب يقِظ، يقوم بتجارب، فبعض مستحدثاته قد يلقى استعمالًا واسعًا بوساطة غيره، كما أن البعض الآخر قد

[٥] عن تركيب الكلمات De Comp. verborum الباب الثاني والعشرون.

[٦] مثال هذه الكلمات، مثل: ἀλιτήριος & μήνιμαχ; ἀνατροπεύς أو على انفراد مثل: μήνιμα ἀκέσασθαι, ἔξομεν ἀλιτηρίους δεινοὺς أو مع بعضها مثل: κηλίς, δεία προστρέψομαι, ἀλιτηρίων τῶν μήνυμα ἀείμνηστος, ὑπτήρ, γεγωνεῖν.

يهمل ويظلُّ في حيِّز النسيان، حتى يقيِّض الله له رجلًا من علماء الآثار، وربما كان ذلك بعد عدة أجيال، فيكتشفه ويستعمله.[٧]

ويأخذ قليل من الكلمات المستعملة صورًا غريبة؛ فتعتبر غير أتيكية إلا إذا أزالها التصحيح، ويجب أن نعلم أنها استعملت بقصد خلق جوٍّ قديم.[٨]

ومن المميزات البارزة في لغة أنتيفون، كثرة استعماله التعقيد في كلٍّ من الأفعال والأسماء؛ فمثلًا كان يستخدم اسم فاعل أو اسم مفعول لجماد، أو صفة مع أداة تعريف، بدلًا من اسم، كما كان يستعمل المصدر مع فعل مساعد، بدلًا من الفعل.

وبوساطة المهارة التي أصبحت عادة عند الكتَّاب المتأخرين، استعمل لفظ «الجميل» كمرداف للاسم المعنوي «جمال»، وأن «تكونوا قضاة الحقيقة» بدلًا من «احكم على الحقيقة».

ويمكن ملاحظة هذا التكلُّف غالبًا في ثوكوديديس، وبخاصة في الخطب، وربما تكون مأخوذة عن جورجياس الذي أوجد هذه الطريقة،[٩] فيما يبدو.

٤

يفرِّق أرسطو ومن تلاه من النقَّاد بين الأسلوب المرسل من النثر εἰρομένη λέξις وبين المسجع منه πεϱιοδική؛ فتتركب الجملة في النوع الأول من عبارات متوالية يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا مفكَّكًا أشبه بعقد من الخرز، ويكون هذا عادةً بوساطة δέ ,τε أو أية أداة أخرى؛ وتبدأ الجملة وتنتهي دون أية خطة محدَّدة وتكون بأي طول. وفي اللفظ دور «دائرة» period (circuit)، تكون الاستعارة أشبه بالطوق، فلا تمتد الجملة في خط مستقيم غير محدود، بل تلتوي على نفسها بعد وقت معين حتى تتقابل نهايتها وبدايتها.

---

[٧] من الكلمات النادرة غير الشعرية ما يأتي: ὑπῆρκτο, χωροφιλεῖν, καταδοχθείς, ἐπίσοξος ومن خطب ضائعة: μοιρολογχεῖν, τριβωνεύεσθαι, ἀστεργία وكلمات كثيرة أخرى يقتبسها اللغويون لندرتها وغرابتها.

[٨] مثلًا: οἴθαμεν ηθεις والكلمة الشهيرة: εἰχότερον.

[٩] انظر الصفحات ٣٣، ٢٤ حيث ترى مثلًا واضحًا للتعقيد اللغوي في أنتيفون. اقرأ هيروديس Herodes, 4: νῦν μὲν οὖν γνωρισταὶ γίνεσθε τῆς δίκης, τότε δὲ δικασταὶ τῶν μαρτύρων. νῦν μὲν δοξασταί, τότε δὲ κριταὶ τῶν ἀληθῶν.

ويجب، كما يقول أرسطو،[١٠] أن تكون ذات طول محدود، ولا تكون أطول مما يمكن استيعابه في نظرة واحدة أو لفظة في نفس واحد، وأن تكون لها بداية ونهاية محددتان.[١١]

ويرى أرسطو أن الأسلوب الركيك المرسل ممل؛ إذ ليس ذا حد فني للطول، ولا ينتهي إلا بانتهاء ما تريد أن تقول. ويبدو لنا أن به ميزة ضئيلة، وهي أنه يمكن دائمًا أن يقف عند نهاية ما يعني قوله، ولا يميل إلى الاسترسال في النقيص، أو يضل طريقه عند مفترق الطرق chiasmus (وهو اصطلاح يقصد به عكس ترتيب كلمتين في جملة) قبل الوصول إلى غايته. وعلى الرغم من أنه يجب في السجع أن تنطبق نهاية المعنى مع نهاية السجع؛ إلا أنه توجد حالات كثيرة ينتهي فيها المعنى تمامًا قبل أن ينتهي السجع فنيًّا.

يجب البحث عن أقوى أمثلة الأسلوب المرسل في شذرات المؤرخين الأوائل، ولكن هيرودوت يقرب منهم؛ بحيث إنه يمكننا أن نأخذ عنه الدرس المراد؛ فمثلًا:

«عندما حكم أردوس Ardys تسعًا وأربعين سنة، خلَفه على العرش ابنه سادواتيس Sadyattes فحكم اثنتي عشرة سنة، ثم تلاه ألواتيس Alyattes الذي حارب كواكساريس Cyaxares من نسل ديوكس Deioces، والميديين Medes، وطرد الكيمريين Cimmerians خارج آسيا، واستولى على Symrna أزمير إحدى مستعمرات كولوفون Colophon، وهاجم كلازومينياي Clazomenae، وهنا لم يفُز ببغيته من النجاح، بل نُكب نكبة عظيمة. وقد قام في مدة حكمه بأعمال أخرى جديرة بالذكر، كما يأتي. قاتل الميليسيين Milesians إلخ.[١٢]

وحتى هيرودوت، عدو الأسلوب المرسل، يُظهر ميلًا عظيمًا إلى استعمال السجع. ويلاحظ ذلك الميل أحيانًا بشدة؛ فمثلًا في خطبة مناقشة النبلاء الفارسيين،[١٣] توجد حركة مستمرة نحو توازن العبارات، وهذه بعيدة كل البعد عن تجانس التراكيب الخاص بإيسوكراتيس. وقد يكون ذلك عن غير قصد، إلا أن عناصر السجع موجودة.

---

[١٠] البلاغة: ٣: ٩، ١–٢.

[١١] البلاغة: ٢: ٩، ٣: λέζιν έχονσαν άρχήν καί τελευτὴν αύτήν καθαύτήν καί μέγευος ευσυνοπτον. وكذلك البلاغة، ٥: εὐανάπνευστος.

[١٢] هيرودوت: ١: ١٦–١٧.

[١٣] هيرودوت: ٣: ٨٠–٨١.

والميزة الخاصة في هذا الأسلوب الأخير، هي أنه يمكن أن يكون أكثر تأكيدًا ودقة من الأسلوب الآخر، ويجب أن يكون مركزًا[١٤] (κατεστραμμένη) إذا كانت الجملة متوسطة الطول. وكما يقول ديونوسيوس، تحاول «أن تحشد الأفكار متلاصقة ثم تُظهرها محكمة.»[١٥]

فهذه الميزات، من تركيز للفكر ودقة في التعبير، ضرورية للمترافع في دور القضاء؛ ولذلك لم يكن غير طبيعي أن يطابق الأسلوب السجعي في أثينا نهضة الخطابة القضائية. وإن أنتيفون أول من ترافع بصفة خاصة على أسس علمية، وهو أيضًا أول الكتَّاب الذين وصلَنا عنهم شيء، وقد عُرف أنه تخصص في الاعتناء بالتعبير السجعي.

ولا ينبغي أن نعتقد أن كل عمله كان سجعًا دقيق الوزن، فمن ناحية لا يمكن الوصول إلى الكمال من أول محاولة؛ إذ الكثير من الجمل ركيك، وهناك ضعف في التأكيد في بعض الحالات ناتج من عدم السيطرة التامة على التركيب، ومن ناحية أخرى هناك حالات يكون فيها الأسلوب أكثر حرية وأكثر شبهًا بالفصاحة العادية للأسلوب المرسل (εἰρομένη λέξις).

والواقع أن طريقة هيرودوت هي خير ما يصلح لسرد قضية مباشرة من وجهة نظر واحد فقط، في حين أن السجع يأتي من تلقاء نفسه في أغراض النقد، أو في مقارنة الحاضر بالمستقبل، أو في المناقشة عندما يأتي بالألفاظ المتضادة، لفظًا تلو الآخر، ثم نتخير منها ما يناسب المقام.

إن الغرض الأول للتاريخ، حسب رأي هيرودوت، هو سرد قصة، وكثيرًا ما يهدف هيرودوت إلى تحقيق هذه الفكرة. ويقوم ثوكوديديس في بعض أجزاء روايته بنفس الشيء، ولكنه بينما يميل إلى جعل كل حادثة غير مستقلة، وإنما مرتبطة بظروف الحوادث الأخرى كدوافعها وتأثيراتها ونتائجها؛ نراه غالبًا ما يستعمل السجع في روايته، وهو كذلك، بل وأكثر في خطَبه؛ فليس الغرض من خطبة حازمة هو سرد قصة بسيطة فحسب؛ بل وجعلها راقية تذكر الحقائق وتهدف إلى نقدها والاتعاظ بها.

فإذا كان هذا صحيحًا في خطب ثوكوديديس؛ فإنه ينطبق أكثر على الخطيب القضائي. فنجد في أنتيفون فقرات قصيرة بأسلوب قصصي سهل — ومثال ذلك في سرد

---

[١٤] أرسطو، البلاغة: ٣: ٩، ٣.

[١٥] ديونيسيوس، عن لوسيا De Lysia، ٤٦. ἡ συστρέφουσα τὰ νοήματα καὶ στρογγύλως ἐκφέρουσα λέξις.

وقائع قضية هيروديس Herodes — ولكن فقرة قصيرة من هذا النوع يجب أن يعقبها نقد ومناقشة في أسلوب سجعي مصطنع؛ وهذا شيء لا مفر منه؛ حيث لا يسمح الوقت بسرد الأقاصيص المطولة.

والأمر الشديد الصلة بالرغبة في السجع، هو الميل إلى كثرة استعمال الطباق والمقابلة، وهذا مجاز فني يسهِّل إتمام السجع والمعنى، وهو ذو فائدة في أن الجزء الثاني من الطباق والمقابلة يمد القارئ أو السامع بما كان يتوقعه؛ فهو إذَن تطبيق عملي لقانون نفساني مألوف للمشاركة بوساطة استخدام آراء مضادة.

ويعبِّر عن هذه المقارنة في اللغة الإغريقية باستخدام الأدوات ... وكثيرًا ما نراها في الكتَّاب الأثينيين لغير ما ضرورة. وسيذكر جميع قرَّاء ثوكوديديس ذلك المؤلف الشغوف بالمقارنة بين «القول والعمل». ولا مناص من كثرة استخدام هذا النوع من التضاد في البلاغة القضائية. ومن طبيعة الأشياء أن كل خطيب يصرُّ على أمانته الشخصية وعدم أمانة خصومه، ولمَّا كان صدق أقواله يتعارض وكذب منافسيه؛ فإنه يقارن بين الظواهر التي تبدو ضده غامضة «حالكة»، بينما تكون في صالحه واضحة، جليَّة شفافة ناصعة البياض بسبب طبيعة الصدق في سرد القضية.

ويغالي أنتيفون، كما يفعل خطباء ثوكوديديس، في استخدام هذا الطباق؛ لأنه من الصعب متابعة الجملة التي تحوي أفكارًا كثيرةً متضاربة؛ وبذا تفقد قوَّتها.

وهناك مثال جيد في الخطبة الثالثة من التترالوج الثاني:

> «أنا الذي لم أقترف إثمًا قط، بل عانيت الشدة والقسوة، وما زلت حتى الآن أعاني قسوة أشد، لا من أقوال خصمي بل من أعماله، ألقي بنفسي تحت رحمتكم أيها السادة، يا من تقتضون ممن لا يتمسَّكون بالتقوى، وممن يعاكسون الأتقياء، وأتوسَّل إليكم بهذه الحقائق السافرة، ألا تؤثر عليكم بلاغة خطبة خبيثة فتجعلكم تتصوَّرون الصدق كذبًا وبهتانًا؛ لأنه قد حسَّن مظاهر خداعه حتى طغى على الصدق، أما أنا فسأروي بياني دون خداع ولا مواربة، وإن كنت في نفس الوقت لا أستخدم المحسِّنات اللفظية، فيبدو بدون قوة.»

فهذا الطعن جزء من محاكمة، يوضح فيها المدعي تذمره من أن خصمه المتَّهم بالقتل، تجرَّأ على الدفاع عن نفسه في شيء من الإطناب.

وهذا مثال آخر من خطبة في قضية تسمُّم، ويكاد يكون هذا المثال مثيرًا للضِّحك:

«إن أولئك الذين كان يجب أن ينتقموا للموتى ويكونوا أعوانًا لي، قد سفكوا دماء الموتى ونافسوني.»

٥

يجدر بالخطباء جميعًا أن يراعوا نبرات صوتهم في أثناء الإلقاء إلى جانب التركيب النحوي والبياني للعبارات، ويوجِّه جميع الكتَّاب المدققين جلَّ اهتمامهم إلى توازن العبارات، ويذهب بعض الخطباء إلى ما وراء ذلك، فيعنون بالمقارنات والموازنات بتكرار الألفاظ ذات الأوزان المتشابهة، وقد يفضِّلون بعض أوزان معيَّنة. ومن الأمثال الجارية بين رجال البلاغة المتأخِّرين: «ولو أن النثر غير موزون مقفًّى كالشعر، إلا أنه يجب أن يكون ذا نغمة ترتاح إليها الأذن.»

ويزيد بعض المؤلفين على ذلك، بتغيير النظام العادي للكلمات منعًا لإطالة المد الذي يعوق نغمة الوزن في الحديث السريع. وهذا مألوف في صفحات ديموسثينيس. ويبدو أن أنتيفون، وحتى ثوكوديديس نفسه، قد فعلا بسليقتهما نفس ما فعله الكتَّاب المتأخرون.

وهناك مثل جيِّد لتبادل العبارات في بداية خطبة هيروديس Herodes:

τοῦ μὲν πεπείραμαι πέρα τοῦ προσήκοντος,

τοῦ δ᾽ ἐνδεής εἰμι μᾶλλον τοῦ συμφέροντος,

حيث تلاحَظ المطابقة بين جملتَين متتاليتَين متماثلتَين في عدد المقاطع، وتظهر المطابقة في العبارة الثانية وإن لم تكن بدقة الأولى، ولكن التركيب هنا أكثر إتقانًا؛ حيث يوجد لدينا عبارتان كل منهما يتألف من جزء من متماثلَين في مجموعهما وفي أجزائهما.

Α. οὗ μὲν γάρ μ᾽ ἔδει κακοπαθεῖν τῷ σώματι μετὰ τῆς αἰτίας τῆς οὐ προσηκούσης.

α. ἐνταυθοῖ οὐδέν μ᾽ ὠφέλησεν ἡ ἐμπειρία

Β. οὗ δέ με δεῖ σωθῆναι μετὰ τῆς ἀληθείας εἰπόντα τὰ γενόμενα,

β. ἐν τούτῳ με βλάπτει ἡ τοῦ λέγειν ἀδυναμία.

وعلى الرغم من عدم وجود تطابق هنا في الوزن، ولا يكاد طول المقاطع يتطابق إلا قليلًا؛ فإنه يظهر بجلاء ترتيب النغمات بحيث تقع نغمة ردًّا على نغمة سابقة، وهو ما يصطلح عليه بكلمة Antistrophic (فتسمَّى العبارة الأولى strophe، ويسمَّى الرد عليها Antistrophe).

ولو كان لنا أن نتَّهم جورجياس مستشهدين بشذرة واحدة قصيرة، لبدا لنا أنه قد تكلف السجع، وعلى أية حال فإن تنظيمه لـ γνώμην، ῥώμην لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة، وإن تشابُه النغمة في نهايتَي عبارتَي الفقرة الأولى السابقة لَبرهان على أن أنتيفون لم يجد صعوبةً ما في تجنب مثل هذا السجع الطبيعي.

وفي أية لغة قابلة للتصريف، لا بد من استخدام شيءٍ من اللباقة في تجنب السجع، عندما يكون هناك عامل قوي يضطرنا إلى استعماله، كما هو الحال في استعمال صفة تلائم اسمًا، أو وجود فعلَين يتفقان في نفس الزمن وحالة الفاعل، على أن أنتيفون لم يفضِّل تجنُّبه.

ويبدو أن استعمال السجع في الشعر لم يلقَ ارتياحًا في الأذن الإغريقية،[١٦] وربما لقي السجع رغبة في النثر أحيانًا لنفس هذا السبب، وتُنتج خشونته نفس الأثر الذي يحظى به أنتيفون في مكان آخر باستعمال ألفاظ غريبة.

والمد شائع الحدوث في أنتيفون، ولا تمكن الإشارة إلى مثل معين يحاول فيه تجنبه بتغيير الترتيب العادي للألفاظ.

ويستعمل أنتيفون قليلًا من الألفاظ العامية، وربما منعته كرامته من تقوية نقطة باستعمال تلك الأمثال γνώμαι التي يوصي بها أرسطو. ومن النادر أن يلجأ إلى اللغة الدارجة، على أننا نميل أن نُدخِل تحت هذا النوع مثل هذه الجملة περιέπεσεν οἷς οὐκ ἤθελεν «نال ما لم يبغِه»؛ وهي تستعمل عن رجل سيئ الحظ قُتل قضاءً وقدرًا نتيجة إهماله.

والاستعارات نادرة، ولكنها قد تحدث في مثل δίκη κυβερνήσειε «هل للعدالة أن تهديني سواء السبيل؟» ζώντες κατορωρύγμεθα «لقد دُفنتُ في قبرص.» ويستعملها رجل فقد وحيدةً، أو يستعطف بها متَّهمٌ المحلفين كيلا يحكموا عليه بالإعدام، ἀνίατος γὰρ ἡ μετάνοια τῶν τοιούτων ἐστίν ἐ «سبق السيف العذل.»

ويُسمح للخطيب بشيءٍ من المبالغة في القول؛ فمثلًا في أول تترالوج يطلب المدَّعى عليه الرحمة قائلًا: «إني رجل هرِم منفي طريد، وسأمد يدي للسؤال في أرض أجنبية لأكسب قوتي.»

[١٦] انظر فيرال Verrall، السجع والعلة، في عابدات باخس ليوريبيديس.

ومن النادر أن يستعمل أنتيفون ما يسمَّى صور التفكير (σχήματα διανοίας) كالتهكُّم والأسئلة البلاغيَّة الكثيرة الحدوث في ديموستينيس. كما أنه لا توجد أمثلة للتكتُّم المنتقد (παράλειψις) والشائع أيضًا في الخطباء المتأخرين، وفيه يتظاهر الخطيب بمروره على مواضيع معينة؛ فيشير إلى أكثر ما يمكنه إثباته.

كانت الخطابة الإغريقية مقيدة بتقاليد لم يستطع تحاشيها حتى أعظم الخطباء، ويمكن إلى حدٍّ ما أن يُعزى ذلك إلى الأثر السيئ لمدرس البلاغة، بَيدَ أنه يجب أن يقع أغلب اللوم على جمهور المستمعين الأثينيين.

ويبدو أنه كان لقدامى القضاة الإغريق ميل غريب إلى طلب أسلوب خطابي تام، وكانوا في الوقت نفسه يشكُّون في كل خطيب يُبدي براعة فائقة، وهذه الصفة في أنتيفون عاقت شهرته،[١٧] وعلى ذلك فأي خطيب يشعر بأنه قد أوجد مثل هذا الشك يسرع في الاعتذار إلى سامعيه بأن أي قوة تبدو في خطابته مردها إلى العدالة الطبيعية لقضيته، وليس إلى مقدرته الشخصية في عرضها، كما يجب عليه أن يطري نزاهة المحلفين وعدم تحيزهم، مع إظهار احترامه لقداسة القوانين.

لقد جمع رجال البلاغة الأوَّلون مجموعات لمثل هذه «المواضيع» أو «الخطب العادية»، وعلَّموا تلاميذهم كيفية استخدامها، فأصبحت عملية الخطابة آلية بحتة، وصار في إمكان أي خطيب أن يحصل من كتب البلاغة على نماذج من الخطب العامة تفي بجميع الأغراض، ولكن لا يستطيع الإقناع بها إلا الخطيب النادر الذكاء والعبقرية، وذلك بوساطة بعض التحوير والابتكار. وقد قام أرسطو في تاريخ متأخر بعمل مجموعة مسهبة جدًّا من مثل هذه المواضيع.[١٨]

أوضح أنتيفون في تترالوجاته كيفيَّة استخدام بعض هذه «الخطب العامة»، مستعينًا بالأمثلة، وكان يستعملها بحرية في خطبه الحقيقية، ولا يعيرها إلا القليل من العناية، حتى إنه كان يكرر نفس ألفاظه حتى في حدود خطَبه الباقية.[١٩]

---

[١٧] انظر ص٢٧.

[١٨] أرسطو، البلاغة، ١.

[١٩] مثلًا، عن القوانين، هيروديس، ١٤، وخوريوتيس Chor eutes، ٢؛ حيث تتكرر نفس الفقرة في نحو ثمانية سطور مع تغيير كلمتين أو ثلاث فقط غير مهمة.

ويُظهر أنتيفون بعض البراعة عند تقديم هذه العبارات؛ فإن في خطبته مقتل هيروديس، لمهارة ودهاء في بعض المواضيع؛ ففيها إطراء للمحلفين ولو أن التملق غير ظاهر بشكل واضح، وكان يصل إليه أحيانًا عن طريق الاقتراح أكثر من الإقرار؛ فمثلًا يقول المدَّعى عليه: «لم أرغب في تجنُّب المحاكمة بوساطة ديمقراطيتكم،» وكذلك: «من المؤكد أن ثقتي بكم عظيمة دون أي اعتبار للقسم الذي أقسمتموه.» وأحيانًا في عبارة اعتراضية: «لو سلَّمنا جدلًا بأنه لا يوجد عندي أي اعتراض على ترك هذه الأرض إلى ما شاء الله، لكنت هجرت هذه المحكمة.»

وفي هذه الأمثلة وغيرها يوجد أكثر من تلميح يستطيع إدراكه أي محلف ذكي.

وأهم المواضيع التي كان يستعملها أنتيفون هي الاستناد إلى القانون السماوي الذي به يلقى المخادع جزاءه؛ فإذا قُتل شخص ولم تنتقم له العدالة الإنسانية، سوف يجد أبطالًا مقدسين لا يناقشون القاتل حساب ما صنعت يداه فحسب، بل ويعاقبون المدينة التي تدنست بإيواء هذا القاتل. ويهتم أنتيفون بهذه العدالة المقدسة اهتمامًا زائدًا، حتى اعتقد بعض الكتَّاب أن لأنتيفون عقائد دينية راسخة لا يسعه إلا التعبير عنها بهذه الصورة. ويمكن أخذ هذه الفكرة عنه بشرط عدم التمسك بها؛ فنحن نعرف من مصادر خارجية أن أنتيفون لم يشارك الحكومة القائمة عواطفها، ولكن الخطباء الذين استخدموا خطَبه أظهروا إعجابًا بالديمقراطية.

لقد سطر كاتب الخطب في الواقع ما أعتقد أنه مقبول لدى القضاة بغضِّ النظر عن عقيدته الشخصية؛ فإذا تناقشنا على طريقة أنتيفون للاحتمالات، لنا أن نقول إنه لأشد احتمالًا، أن معاصرًا رفيع الثقافة من معاصري أناكساجوراس وبركليس، يقرُّ في نفسه ببعض الشك، في نوع اللعنة التي هدمت بيت أتريوس Atreus، عن أن يأخذها قضية مسلمة، حتى ولو كان لأنتيفون أسلوب أيسخولوس.

إن حجة المدعى عليه هذه، في هيروديس: «قد قام الذين أبحروا معي برحلات رائعة، والتضحيات التي ساهمت فيها قدمت على خير وجه، وهذا برهان قوي على براءتي.» لا تنال إعجابنا نحن الذين لا نؤمن بجريرة قوم يُئوون شخصًا مذنبًا دون علم منهم بجريمته. وقد يكون أو لا يكون لها بعض الأهمية عند أنتيفون نفسه، غير أن المقطوع به أن كان لها بعض الأثر في عامة الشعب الأثيني الذي كان يؤمن بأن المدينة كلها قد تدنست ببتر أعضاء الهرماي Hermae.

وسبب وضع هذا الحشو في المرافعة هو الاعتقاد الراسخ بأنها لا بد وأن تؤثِّر على المحلفين، سواء أكان لأنتيفون أي شعور ديني أم لم يكن.[٢٠]

٦

بقي أن نناقش طريقة أنتيفون في معالجته لموضوعاته. فتتجلى أنفته وكرامته الشخصية في طريقته وقواعد أسلوبه، وإذا ما قدمنا إليه من ديموستينيس أو أيسخينيس Aeschines اللذَين خفَّضا نغمة المرافعة القضائية لتلائم الذوق المعاصر، ندهش إذ نراه لا ينزلق إلى التهكم أو الطعن البريء. وليس شرطًا أن يكون منافسوه القضائيون أفرادًا ذوي نسب غامض أو لا أخلاق لهم أو مراكزهم شائنة. وقد يكونون كذابين؛ لأنه من المفروض أن يسرد أحد الطرفين وقائع القضية صادقًا كل الصدق في روايته، بينما يستند الطرف الآخر على الكذب والبهتان. ولكن حتى في هذه الحالة يكون الخطيب مستعدًّا للاعتراف، بكرم غير أتيكي غالبًا، بأن منافسيه قد حادوا عن الحق، وأنهم لا يتصرَّفون كما توحي به ضمائرهم؛ ولنضرب لذلك مثلًا بداية التترالوج الثاني، ٣:

> «يتضح من سلوك خصمي، أكثر مما تستطيع توضيحه أية نظرية، أن الحاجة تلجئ المرء أن يتكلم ويفعل عكس ما تقضي به طبيعته؛ فحتى الآن لم ينطق بغير خجل أو يتصرف بأس؛ بل دفعته نوائبه إلى استعمال لغة ما كنت، أنا الذي أعرفة حق المعرفة، أنتظر منه أن يتفوَّه بها.»

وطريقة أنتيفون في تأليف خطبه بسيطة؛ إذ يبدأ بتصدير عاديٍّ مما يحفظه أيُّ بليغ،[٢١] تتبعه مقدمة تشرح وتنتقد الظروف التي أدَّت إلى اقتراف الإثم.[٢٢] ثم يسرد وقائع القضية أو مختارات منها،[٢٣] تعقبها المناقشات والبراهين.[٢٤] وقد يتناول أقوال الشهود

---

[٢٠] يصر جِب Jebb (الخطباء الآتيكيون، المجلد الأول، الصفحات ٤٠–٤١) على أن الأهمية التي تعلق على مثل هذا النوع من الحجج تشير إلى اعتقاد ديني راسخ في قلب الخطيب، ومع ذلك فإننا نجد مثل هذه الحجج في أيسخينيس Aeschines الذي نعلم أنه لم يكن عنده أي اعتقاد من ذلك.

[٢١] قارن مجموعة ديموستينيس عن الديباجات προοίμια.

[٢٢] προκατασκευή.

[٢٣] διήγησις.

[٢٤] πίστεις.

في أثناء سرد القضية، ويناقشها نقطة نقطة. أما إذا كانت الرواية قصيرة وبسيطة؛ فإنه يحتفظ بالشهادة كلها حتى النهاية، وعادة تنتهي بخاتمة توضح موقف القضية وتتضمن التماسات نهائية إلى هيئة المحكمة.

وما خطب التترالوجات (الرباعيات) إلا صيغ جوفاء وضعت للتمرين فقط، أو لتكون نماذج دراسية، وتتكون فقط من تصدير وحوار وخاتمة، ولا تحتوي على أيَّة وقائع حقيقية للمعالجة أو مقدمة أو قصة.

ومن الضعف الشاذ في الخطب الباقية أنها تعتمد كثيرًا على المناقشة من حيث الوجهة الاحتمالية العامة (εἰκοτα) أكثر من الدفاع الحقيقي على أساس الأدلة والبراهين.[٢٥]

وهكذا يذكر المدَّعى عليه في هيروديس أنه لم يترك السفينة مطلقًا ليلة اقتراف جريمة القتل على الشاطئ، ولكنه لا يقدِّم أي دليل على أنه لم يكن في أي مكان آخر. ويعالج هذه النقطة على أنها ذات أهمية ثانوية،[٢٦] ويصرُّ في عناد على أن العبد الذي شهد ضده ربما يكون مدفوعًا من المدَّعي ليشهد كذبًا. ومن الأدلة الأخرى ضدَّه أنه كتب خطابًا إلى لوكينوس Lycinus ينبئه فيه أنه ارتكب جريمة القتل، غير أنه يرد على ذلك قائلًا: «لمَ كنت أحرر خطابًا إذا كان رسولي يعلم كل الوقائع؟»

قد يكون موقف المدَّعى عليه ضعيفًا جدًّا في هذه الحالة، وأنه اضطر إلى الاستناد إلى الوقائع العامة، ولكن التترالوج الأول يحوي قضية مشابهة جديرة بالدرس، وفيها يؤكِّد المترافع في خطبته الثانية التي هي آخر خطبة في المحاكمة، ما قد نسي أن يذكره من قبل، وهو عدم تركه منزله مطلقًا في الليلة التي حدث فيها القتل.

وأهمُّ عيب فني في الخطَب الباقية هو الافتقار إلى الحقيقة الواقعية التي يسميها الإغريق ἦθος؛ أي الخاصية المميزة Characterization.

وتتشابه لغتا المدَّعى عليهما في كلٍّ من هيروديس وخوريوتيس Choreutes تمام المشابهة، ولو أن الأول شاب من لسبوس Lesbian والثاني رجل أثيني متوسط العمر؛ فيعتذر الشاب اللسبوسي عن عدم خبرته وعدم قدرته على الحديث بعبارات كلها سجع متقن استخدمت فيه جميع الأساليب الفنية للبلاغة، من تناسق الألفاظ والأفكار، ووزن دقيق لطول العبارات، واستخدام السجع بحكمة.

---

[٢٥] وهذه ميزة أخرى للبلغاء المبكرين؛ انظر الصفحات: ١٩، ٢٠.

[٢٦] هيروديس، ٢٦.

تساعدنا تلاوة مقدمة خطبة أنتيفون عن مقتل هيرودس على فهم طرقه في التأليف خيرًا من أي نقد مطوَّل، ومما هو جدير بالملاحظة طول هذه المقدمة غير المناسبة، وهي بدون شك ما يوليها المحامي اهتمامًا أعظم من اهتمامه بالبرهنة على بطلان التهمة نفسها.[٢٧] ومن دراستها نرى أن جريرة المتهم أو براءته أمر لا يؤثِّر في الحكم إلا قليلًا إذا أفلح في التأثير على المحلفين تأثيرًا يتَّفق ومصلحته؛ فيعتذر في سجع فني عن عدم استطاعته الخطابة في جمع من الناس، بينما يطيل الكلام العام حتى تختفي الحقيقة وسط الافتقار إلى قوة التعبير.

ولا يلتمس أنتيفون من المحلفين عدم التحيُّز طالما هو يثق فيهم تمام الثقة، وهذا ضرب من الكلام العام ذي التأثير القوي (١–٧).

أما موقف خصومه فإنه مزرٍ بقدر ما هو على غير حق (٨–٩) ولا حرج في تسميته منتهكًا لحرمة الدفاع (١٠–١٢)؛ حتى إنهم يستحقون الاحتقار، في حين أن المدَّعى عليه، الذي يحترم القوانين الإلهية والبشرية بقدر محبته لوطنه، جدير بكل عطف (١٣–١٥). ويمكن إدراك وحشية المدَّعين من عدم ثقتهم في عدالة قضيتهم وعدم استقامة المحلفين (١٦–١٧)، وأخيرًا فقد كان لديهم الوقت الكافي لإعداد قضيتهم، بينما يُستدعَى المدَّعى عليه، ضحية دسائسهم، في لحظة، ليجيب على أخطر التُّهم (١٨–١٩).

(١) كنت أودُّ أيها السادة أن تكون لي القدرة على الحديث والخبرة بطباع الدنيا على نطاق يتفق وما حلَّ بي من نوائب وكوارث؛ حيث إن خبرتي بالأمر الأخير أقلُّ مما كان يجب أن أُلمَّ به، بقدر افتقاري إلى الأمر الأول؛ فكانا دون ما أحتاج في هذا الموقف.

(٢) فعندما ابتُليتُ بتلك التهمة الباطلة التي أقضَّت مضجعي دون أيِّ مسوِّغ، لم يكن عندي من الخبرة ما يشدُّ أزري على درئها عن نفسي، ولا أجد منجاةً منها إلا بذكر بيان صريح للوقائع كما حدثَت تمامًا؛ حيث تعوقني عدم القدرة على الحديث.

(٣) ففي حالات عدة، اعتُبِر أناس عديمو القدرة على الكلام كاذبين؛ لأنهم لم يذكروا غير الحق، وكان ذلك سببًا في خرابهم لعدم قدرتهم على إظهار الحق. بينما اعتُبِر صادقين من كانت لهم القدرة على الحديث، رغم أكاذيبهم، ففازوا بالنجاة نتيجة إجادتهم الكذب. ولذلك لا مفرَّ للشخص الذي ليست له الخبرة الضرورية للتصرف في دُور القضاء، من أن يكون تحت رحمة خطاب الاتهام؛ فيظل غير آمن، معتمدًا على سرد صادق لوقائع القضية.

[٢٧] يبلغ طول المقدمة ١/٥ طول الخطبة كلها.

(٤) والآن يطلب أغلب المتخاصمين في مثل هذه القضايا، استماعًا عادلًا، مما يدلُّ على عدم ثقتهم بأنفسهم واعتقادهم في نزاهتكم. ولكني لن ألتمس هذا الطلب؛ لأن المعقول أن أشراف القوم يستمعون إلى المدَّعى عليه بصدر رحب حتى ولو لم يطلب ذلك منهم، كما سمعتُ أقوال المدَّعي دون أن يطلب سماعها.

(٥) وإني لأتوسل أولًا، إذا خانني لساني ونطق خطأً، أن تعطفوا عليَّ وتعتبرون خطئي نتيجةً لعدم الخبرة أكثر من الإجرام. ثانيًا، إذا ما أجدتُ التعبير في نقطةٍ ما، ألا تنسبوا هذا إلى مهارتي بل إلى قوة الحق لذاته؛ لأن العدالة تتطلَّب أن المذنب في أعماله لا يجب أن يحظى بالنجاة ببلاغة خطَبه. كذلك لا ينبغي أن يلحق الخراب رجلًا عادلًا في أعماله بسبب أخطاء خطبته؛ فإن الخطأ في الخطبة زلَّة من اللسان، أما الخطأ في الأعمال فزلَّة من القلب.

(٦) فمن يشعر بأن سلامته الشخصية معرَّضة للخطر، عرضةً لأن يخطئ أحيانًا، فلا يفكِّر في الدفاع الذي يدلي به فحسب، بل وفي نتائجه المحتملة أيضًا؛ إذ تتوقف عاقبة الأمور التي لم يفصل فيها بعد، على الحظ أكثر من ثاقب الرأي.

(٧) وخليق بمثل هذه الاعتبارات أن تُقلق بال من كانت حياته في خطر. والحقيقة أنني قد لاحظت أن من كانت لهم الخبرة التامة بالمحاكم، يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم إذا ما تعرَّضوا هم للخطر، بينما يكونون أكثر نجاحًا في القضايا التي لا تتضمن أي خطر لشخصهم؛ لذا ترون أيها السادة أن طلبي هذا عادل وشرعي، وإنه لَمن الإنصاف أن تمنحوني إياه، كما هو من الإنصاف لي أن أقنع به. فأتقدم إليكم الآن للإجابة بالتفصيل عما وُجِّه إليَّ من اتهامات.

(٨) وإني لألفت نظر المحكمة أولًا إلى عدم شرعية الطرق التي دفعت بوساطتها دفعًا إلى هذه المحاكمة، ليس لأني أريد اجتناب المحاكمة بوساطة هذه المحكمة الديمقراطية — فإني مستعد أن أَكِل إليكم أمر الفصل في حياتي واثقًا، كما أنا دائمًا، أنني لست مُدانًا في هذه القضية، ولم أقترف أي إثم، وأن حكمكم سيكون عادلًا، حتى ولو كنتم لم ترتبطوا بأي قسم أو تتقيَّدوا بأي قانون — ولكن لكي يساعدكم تعسُّف أعدائي وتصرُّفهم غير الشرعي ضدي في هذه القضية، على ملاحظة مسلكهم ضدي في مناسبات أُخر.

(٩) وأُولى ملاحظاتي، هي أنه خلافًا لما سبق من الأمثلة في أثينا، فعلى الرغم من كوني أحاكَم على تهمة القتل؛ فقد اتُّهمت باستعمال «العنف الإجرامي»، أو «العنف في الإجرام»، مع أن أعدائي أنفسهم قد شهدوا الآن بأني لست من طبقة «المجرمين العنيفين»،

ولا يسري عليَّ قانون مثل هذه الحالات؛ فهذا القانون يسري على السرقة بالإكراه وعلى قطَّاع الطرق. وقد بيَّنوا عدم إمكان اتهامي بمثل هذه التهمة.

وعلى هذا فإن مسلكهم في موضوع القبض عليَّ، قد جعل من الشرعي جدًّا أن تطلقوا سراحي.

(١٠) وإنهم ليقولون: «حقيقةً إن القتل أو إزهاق الروح في حدِّ ذاته صورة فظيعة للعنف الإجرامي.» وأنا نفسي أعترف بأنه نوع من الإجرام الخطِر، كتدنيس الأشياء المقدَّسة وانتهاك حرمة المعابد وخيانة الوطن، بَيدَ أنه لديكم قوانين تتناول كلًّا من هذه التُّهم على حدة.

فأولًا، قد جرُّوني إلى المحاكمة في الأجورا Agora، ذلك المكان الذي يتجنَّبه كلُّ متَّهم بالقتل. وثانيًا، لقد اقترحوا عقابًا بمحض اختيارهم، في حين أن القانون ينصُّ على أن من قَتل يُقتَل.

وليس هذا مراعاة لصالحي، بل لأغراضهم الشخصية، وقد فشلوا في ذلك أيضًا؛ إذ ينصُّ القانون على الإعدام.

(١١) زيادةً على ذلك، أظنُّ أنكم تعلمون جميعًا، أن سائر المحاكم التي تفصل في قضايا القتل، تعقد في الخلاء؛ حتى لا يُضطر المحلفون إلى الدخول مع من تلطَّخت أيديهم بالدماء في بناء واحد، وحتى لا يجد المدَّعي في قضية قتل نفسه تحت سقف واحد مع القاتل.

ولكنك أيها السيد، قد تصرفت مخالفًا كل سابقة في كسر هذا القانون، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل قد كان لزامًا عليك أن تقسم أغلظ الأيمان التي تجرُّ الخراب عليك وعلى عائلتك وبيتك إن فشلت في ظروف هذه القضية؛ أعني أنك لا تنسب إليَّ أي تهمة إلا ما يختص بالقتل واشتراكي فيه.

فلو لوحظ هذا الواجب، لما كان يمكن إثبات إدانتي، مهما عظُم جرمي، إلا من وجهة نظر واحدة، وهي جريمة القتل. ومن جهة أخرى، مهما كانت تنسب إليَّ أعمال مجيدة كثيرة؛ فإن هذه الأعمال المجيدة لا تستطيع إنقاذي.

(١٢) لقد تخطيتم هذه الإجراءات العادية، وابتكرتم قوانين لصالحكم الشخصي، ولم تحلفوا أيَّ ق.م. أنتم يا من تتهمونني، كما أن شهودكم الذين شهِدوا ضدي، لم يقسموا أيَّ يمين، رغم أنه كان يجب أن يقسموا اليمين أولًا كما تقسمونها أنتم، وكان يجب أن يضعوا أيديهم على الذبيحة في أثناء الإدلاء بالشهادة ضدي.

وزيادةً على ذلك فإنكم تطلبون من المحكمة أن تستغني عن القسم وتثق في شهودكم، فتصدر حكمًا بالإدانة؛ رغم أنكم أنفسكم أبعدتم ثقة المحكمة فيكم بكسركم القوانين القائمة، وبزعمكم أن مسلككم هذا غير الشرعي، يجب أن تعتبره المحكمة سابقة وتفضِّله على القانون ذاته.

(١٣) كذلك تقولون إنه لو أطلق سراحي لما بقيت هنا بل كنت أفرُّ وأختفي — كما لو كنتم قد أجبرتموني على دخول هذه المحكمة رغم إرادتي — وإني لأجيب على فرضكم أني ما كنت أهتمُّ بتوديع أثينا؛ فأقول إنه قد كان في إمكاني إمَّا عدم الخضوع لطلب الحضور إلى هذه المحكمة وأحاكم غيابيًّا، وإمَّا الرحيل بعد ردِّي على خطبة الاتهام الصريحة هذه؛ لأن هذا حقٌّ مباح للجميع. ولكنكم بسَنِّكم قوانين تتفق وهواكم تحاولون، في حالتي هذه فقط، إبطال العمل بهذا الحق المخوَّل لكل شخص إغريقي الجنسية.

(١٤) ومع ذلك، فإني أعتقد أنه يجب علينا جميعًا أن نوافق على أن القوانين التي تسيطر على مثل هذا المسلك هي خير القوانين في العالم، وأكثرها مطابقةً للقدسية الإلهية، وهي جديرة باحترامنا لسببَين:

إنها أقدم القوانين في هذه البلاد، وإنها غير قابلة للتغيير كالجرائم التي تتناولها؛ وهذا أقوى دليل على أن القانون قد أجيد تشريعه؛ لأن الزمن والخبرة يعلِّمان المرء كيف يميِّز ما لم يشرَّع جيدًا.

لذلك، لستم في حاجة إلى أن تعرفوا من خطَب المدَّعي أن القوانين قد أجيد تشريعها أم لا، كما يعني هو. ولكنكم في حاجة إلى أن تعلموا بمساعدة القوانين؛ هل تنصُّ خطب المدَّعي على عمل شرعي أو العكس، كما أؤكد أنا.

(١٥) إذَن فالقوانين التي سُنَّت لتهمة القتل قد أُجيدَ سنُّها، طالما لا يجرؤ امرؤ على تغيير شيء منها، ولكنك أنت فقط قد تجاسرت على تشريع قوانين جديدة، ويا ليتها خير منها بل أسوأ. إنك تُبعد العدالة عن نصابها بكسرك القوانين في محاولتك جرَّ الخراب عليَّ. بَيدَ أن مسلكك غير الشرعي هذا، أصبح نفسه أقوى دليل في صالحي؛ لأنك تدري تمامًا أنه ما من شخص أقسم هذه الأيمان المغلَّظة، يستطيع أن يشهد ضدي.

(١٦) وإنك لم تستند على الوقائع استنادًا كافيًا حتى كان يمكن البتُّ في موضوعها في محاكمة واحدة؛ فقد احتفظتَ لنفسك بحق مناقشة المحكمة وإعادة عرض القضيَّة من جديد، مُظهِرًا عدم الثقة بقرار هذه المحكمة الحاضرة. ونتيجةً لذلك؛ فإذا فُرِض وأُفرِج عني، فلا تكون حالي خيرًا بهذا الإفراج ما دمتَ تستطيع القول بأنه قد أُخلِي سبيلي في

تهمة العنف لإجرامي وليس في تهمة القتل، بينما لو حصلتَ على حكم بإدانتي لطلبتَ إعدامي على أساس أني وُجدتُ مدانًا في تهمة القتل.

وهل بعد قسوة حيلتكَ هذه ظلم؟ فإنك إن استطعت إقناع القاضي نلتَ بغيتك، وإن نجوتُ أنا من براثنك أجد الخطر نفسه ينتظرني عودًا على بدء.

(١٧) كذلك كان سجني وحشية غير مشروعة؛ فقد قبلتُ إحضار ثلاث ضمانات كما يطلب القانون، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك. وليس في السجلَّات سابقةٌ واحدة حُبس فيها رجل أثيني قبل تقديم الضمانات.

ومع ذلك فإن الضباط الذين يُعهَد إليهم حراسة المجرمين، خاضعون لنفس هذا القانون؛ إذَن فهذا حق عام للجميع حُرمتُ منه أنا وحدي.

(١٨) وطبعًا قد صادف هذا هوى المدَّعي عليَّ، أولًا لأكون على غير استعداد بقدر الإمكان؛ بسبب عدم إشرافي على شئوني بنفسي. وثانيًا، لأعاني سوء المعاملة الشخصية، وتبعًا لسوء المعاملة الشخصية هذه أجد أصدقائي أشد ميلًا إلى الشهادة ضدي زورًا مؤيِّدين المدَّعي، عن الشهادة صدقًا في صالحي. وبذا يُنزِلون بي وبعائلتي عارًا يلازمنا إلى ما شاء الله.

(١٩) هكذا استُدعِيتُ للمحاكمة مغلول اليدين من عدة نواحٍ تتعلَّق بقوانينكم وبالعدالة، ولكني رغم هذه الأضرار سأحاول إثبات براءتي.

وإنه لَمن الصعب جدًّا أن أستطيع في لحظة قصيرة، تفنيد عدد من الأكاذيب الصارخة التي استغرق إعدادها وتحضيرها وقتًا طويلًا؛ لأنه من المحال أن يتسلَّح المرء من قبلُ ضد هجمات غير منتظرة.

وبعد هذه الديباجة الطويلة، يناقش المتكلم التهمة أخيرًا (١٩ … إلخ)، وإلى حدٍّ ما يناقش الأدلة — وهذا يتوقف كليةً على الظروف — التي وجِّهت ضده.

وقد لوحظ أنه يهمل أمر إمكانه إثبات وجوده في مكان آخر وقت ارتكاب الجريمة، ولا يلقي اهتمامًا بالغًا إلى التأكد من استطاعته ذلك، وإنما يهتمُّ بإظهار أنه يستحيل أن يكون قاتلًا. والمناقشة الأخيرة ذات الأهمية العظمى تستند على عدم وجود العلاقات الإلهية التي قد تشير إلى جريرة المتكلم.

إنه، كالمدَّعى عليه في التترالوج الأول، لا يحاول اقتراح تفسيرات أخرى للجريمة؛ فيقول إن عدَّة جرائم سابقة قد خدعت التحريات، وإن واجبه يقضي عليه فقط بإنكار التهمة المنسوبة إليه.

٧

نقرأ في كتاب «حياة أنتيفون» المنسوب خطأً إلى بلوتارخوس،[٢٨] أن ستين خطبة بقيت باسم هذا الخطيب، ولكن الناقد كايكيليوس الكالاكتي Caecilius of Calacte، اعتَبر خمسًا وعشرين منها مزوَّرة.

ولدينا الآن خمس عشرة خطبة، وهي: الثلاثة تترالوجات، أو مجموعات تتكوَّن كلٌّ منها من أربع خطب، وخطبة عن مقتل هيروديس، وموت خوريوثيس، وتهمة التسمُّم. وتدور كل هذه حول مواضيع القتل؛ تلك المواضيع التي أظهر فيها أنتيفون براعة خاصة. وقد جمع بلاس زيادة على ذلك ثلاثًا وعشرين خطبة أخرى عن مواضيع مختلفة.[٢٩]

وتتألف كلٌّ من التترالوجات من أربع خطب قصيرة عن قضية خيالية واحدة، اثنتان منها للاتهام واثنتان للدفاع، ولهذه الخطب ميزة خاصة في أنها تقف حدًّا فاصلًا بين العلم النظري والعملي.

وتختلف هذه التترالوجات عن التمرينات التي وضعها رجال البلاغة الآخرون المبكِّرون، وعن خطَب الإمبراطورية الرومانية الحماسية، في أنها لا تتناول شخصيات تاريخية أو أسطورية في مواقف محتملة أو خيالية، بل تتناول قضايا على الرغم من كونها خرافية؛ فإنها من النوع الذي قد يقابل الخطيب في الحياة اليومية في أثينا. وبذلك تعطي هذه الخطب فكرة واضحة عن النقط التي يمكن لكل جانب أن يترافع عنها في أية قضية حقيقية في محاكمة فعلية؛ إذ يجب على المحامي المحترف أن يكون على استعداد للمرافعة عن كلا الجانبين في أية قضية. وهنا نجد أنتيفون يؤلف خطبًا تناسب الطرفين، وكما سبق أن ذكرنا تشمل الخطبة سردًا بسيطًا للتفاصيل، ولا تشمل رواية لأمور واقعية، ويمكن فقط جمع الظروف الواقعية المفروضة من مناقشات الخطبة، ونتيجة لذلك تكون عناصر الخطبة لكلٍّ من الاتهام والدفاع ظاهرة تمامًا.

وما يلي، موضوع مناقشة التترالوج الأول:

قُتل مواطنٌ ما وهو عائد إلى بيته من مأدبة عشاء، وقد اعترف عبده الذي جُرح في نفس الوقت جرحًا خطيرًا، بأن من بين القتلة عددًا معينًا من أعداء سيده، وكان سيده على وشك أن يرفع ضد ذلك العدو قضية خطيرة تعرض أمام الأريوباجوس Areopagus.

---

[٢٨] بلوتارخوس الكاذب، حياة العشرة الخطباء.

[٢٩] الخطباء الآتيكيون، المجلد الأول، الصفحات ١٠٤–١٠٥.

(أ) يجادل المدَّعي في أن القتل لا يمكن أن يكون بوساطة لصوص؛ حيث لم يُسرَق من المقتول شيء، ولا في مشاجرة سكارى لاستحاله ذلك بمراعاة الزمان والمكان. إذَن فالجريمة كانت عن عمد مع سبق الإصرار لدافع الانتقام أو الخوف، وكان للمتَّهم كلا هذَين الدافعَين؛ فضلًا عن أن العبد قد تعرَّف عليه.

(ب) ويجادل المدَّعى عليه في احتمال حدوث القتل بوساطة لصوص بُوغتوا قبل التمكُّن من السرقة، فركنوا إلى الفرار، أو بواسطة مجرمٍ ما، كان يخشى شهادة المقتول ضده، أو بِيد عدوٍّ آخر فعل فعلته وهو مطمئن، لعلمه أن الشبهة ستحوم حول المدَّعى عليه. وقد يكون العبد مخطئًا أو محرَّضًا. ولو ناقشنا القضية من باب الاحتمال؛ فإنه من المحتمل أكثر أن يكون المدَّعى عليه قد استخدم شخصًا لتنفيذ القتل لا يستطيع العبد التعرُّف عليه. وليس الخوف من خسارة قضية عادية بأخطر من فقدان الحياة في موقف كهذا.

(ج) يفنِّد المدَّعي في خطبته الثانية مناقشات (ب) نقطة نقطة بمهارة.

(د) ينتقد المدَّعى عليه ويقضي على حجج (ج)، ويذكر عرضًا أنه يستطيع إثبات وجوده في مكان آخر وقت ارتكاب الجريمة، رغم إظهاره عدم الاهتمام بهذا الأمر.

وباستثناء دليل العبد الذي أصبح الآن في عداد الأموات، تقوم القضية كلها على مناقشة الاحتمالات.

ويتناول التترالوج الثاني موت صبي قتل عرَضًا برمح كان يتمرَّن به شاب آخر في الملعب الرياضي، وبذا كان موضوعه الفصل في معرفة الملوم عن ذلك القتل؛ فيصمِّم المدَّعي على أنها جناية قتل، ويقترح المدَّعى عليه جعلها إصابة قاتلة عن غير قصد.[٣٠]

أما التترالوج الثالث فيفرض أن شابًّا اعتدى على رجل عجوز فضربه بوحشية، ثم مات العجوز متأثرًا بجراحه بعد ذلك ببضعة أيام، وفيه حاول المدَّعى عليه توجيه اللوم أولًا إلى الميت؛ لأنه كان البادئ بالضرب، وثانيًا إلى الجراح، ولَّما وجد ضعف حجَّتيه هاتَين، ذهب إلى المنفى. وكانت خطبة الدفاع الثانية على لسان صديق للمتَّهم.

ولَّما كانت الخطب الباقية قد وضعت لقضايا حقيقية؛ فيمكن تناولها حسب أهميتها:

[٣٠] في القضية المماثلة التي تناقش فيها بركليس وبروتاجوراس، كان الاحتمال الثالث هو ذنب الرمح (بلوتارخوس، بركليس، ٣٦).

حول مقتل هيروديس

أبحر هيروديس، أحد المواطنين الأثينيين الذي كان يقيم بميتوليني Mitylene، في رحلة إلى أينوس Aenus في تراقيا Thrace؛ لاستلام فدية بعض الأسرى التراقيين، وقد أبحر بصحبة المدَّعى عليه وهو رجل ميتوليني كان والده يعيش في إينوس، فهبَّت ريح صرصر عاتية قذفت بسفينتهما، واضطرتهما إلى الجنوح بالسفينة والاحتماء في ميثومنا Methymna؛ حيث انتقلا من سفينتهما العارية إلى أخرى ذات سطح، وأخذا يحتسيان الخمر ليقضيا الوقت. وذات ليلة ليلاء نزل هيروديس إلى الشاطئ نزلةً لم يُسمَع عنه بعدها خبر. أما زميله فقد استمرَّ في رحلته، فاتُّهم عند عودته إلى ميتوليني بقتل هيروديس. وكان من الموثوق منه أن عبدًا اعترف باشتراكه في القتل، وأنه عثر على خطاب من المدَّعى عليه إلى شخص يُدعى لوكينوس Lycinus فرض كونه المحرِّض على اقتراف الجريمة.

وبمقتضى الحلف الأثيني كان يجب أن تجرى مثل هذه المحاكمة في أثينا؛ حيث كان من المعتاد نظر قضايا القتل أمام الأريوباجوس Areopagus، بَيدَ أن المدَّعى عليه أُدِين بالإجرام[٣١] فقُبض عليه وقُدِّم للمحاكمة أمام محكمة عادية، وقد عارض المدَّعى عليه في هذا الإجراء وقال إنه ظلم صارخ؛ إذ لو رُفضت الدعوى ضدَّه؛ فإنه لا يزال عرضة لأن يقدَّم إلى الأريوباجوس، وعلاوة على ذلك؛ فإنه كان مسجونًا ولم يُقبَل منه تقديم كفالة. لذا كان من الواضح عدم شرعية هذا الإجراء.

حدثت هذه المحاكمة حوالي عام ٤١٧ أو ٤١٦ق.م. وقد سبق ذكر مقدمة الخطبة.[٣٢] وتسرد الرواية أولًا وقائع القضية حتى وصول المدَّعى عليه إلى أثينا (١٩–٢٤)، وتوضح أن الاحتمالات ضد الاتهام (٢٥–٢٨). ثانيًا عودة إحدى السفن إلى ميتوليني، واعتراف العبد تحت تأثير التعذيب (٢٩–٣٠)، وثبوت تفاهة دليل العبد (٣١–٤١)، ومناقشة الخطاب المزعوم إلى لوكينوس، ويثبت المدَّعى عليه نفسه أن ليس لديه دافع للقتل، ولا ينتظر معرفة شخصية الفاعل الحقيقي (٤٢–٧٣). وقد أُثير الحقد ضده ظلمًا بسبب خيانة والده (٧٤–٨٠)، وإن عدم وجود علامات الغضب الإلهي لَبرهان آخر على براءته (٨١–٨٤). وأخيرًا يطلب استئناف المحاكمة لتكون عنده على الأقل فرصة أخرى، طالما أنه إذا أُخلِي سبيله فسوف يحاكَم ثانيةً بوساطة الأريوباجوس (٨٥–٩٥).

---

[٣١] ἔνδειξις κακουαγίας.

[٣٢] انظر ص٤٤ وما بعدها.

خطبته عن الخوريوتيس Choreutes

تشير هذه الخطبة إلى موت الصبي ديودوتوس Diodotus الذي درِّب ليغنِّي في جوقة الثارجيليا Thargelia، ثم تسمَّم قضاءً وقدرًا بوساطة عقار قدِّم إليه لتحسين صوته، فاتُّهم رئيس الجوقة وقدِّم للمحاكمة أمام الأريوباجوس بتهمة دسِّ السم للصبي.

والخطبة الباقية هي الثانية للدفاع، ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ٤١٢ق.م. وفيها يعلِّق الخطيب على خداع خصومه الذين رفضوا تفتيش العبيد، وقدَّموا كثيرًا من المواضيع التي لا تمتُّ إلى القضية بأيَّة صلة، ويقارن ذلك التمويه بمسلكه الصريح في القضية. أما الخاتمة فقد ضاعت.

خطبته عن قضية التسمُّم التي اتُّهمت فيها زوجة الأب

تُعتبر هذه القضية أحيانًا مجرد تمرين، وبمقارنتها بالتترالوجات نرى أنها تحوي رواية كاملة التفاصيل. وكانت صحتها موضع سؤال، وليس لدينا منها إلا مادة ضئيلة جدًّا لا تمكِّننا من الحكم عما إذا كانت من أسلوب أنتيفون؛ ولذا يستحيل الجزم بأن هذه الخطبة من تأليفه. وقد تكون عملًا مبكِّرًا. ومن المؤكَّد أنها أقل قوة من الخطبتين الحقيقيتين الأُخريين.

المحاورة

يتَّهم شاب زوجة أبيه بأنها دسَّت السم لوالده بمساعدة امرأة أخرى؛ أمِّه؛ فبينما كان يتناول أبوه الغذاء مع فيلونيوس Philoneos أحد عشاق تلك المرأة السابقين، حرَّضت على تقديم شراب الحب إلى كليهما، فماتا وأُعدِمت المرأة. والآن يصمِّم المدَّعي على وجوب معاقبة زوجة أبيه التي دبَّرت الجريمة.

ومن الخطب المعروفة لنا بالاسم أو الكسر القصيرة، يحتمل على أية حال أن يكون بعضها من عمل أنتيفون السفسطائي الذي كثيرًا ما يُخلَط بينه وبين أنتيفون الخطيب.

ومن المتداول أيضًا باسم هذا الخطيب، مؤلَّف عن البلاغة، ومجموعة من المقدمات والخواتيم.

الفصل الثالث

ثراسوماخوس، أندوكيديس

١

تبدأ فترة جديدة بثراسوماخوس الخالكيدوني Thrasymachus of Chalcedon الذي اتخذ أثينا موطنًا له. ويضعه أرسطو، بين تيسياس Tisias أحد مؤسسي علم البلاغة وثيودوروس Theodorus البيزنطي[١] الذي عاصر لوسياس Lysias. وتبعًا لتاريخ فايدروس Phaedrus لأفلاطون، كان ثراسوماخوس في أوج عظمته عندما كان إيسوكراتيس في ريعان شبابه.[٢] وحيث إن التاريخ الدرامي للديالوج هو عام ٤١٠ق.م. فيمكننا افتراض أنه وُلد فيما بين عام ٤٦٠، ٤٥٠ق.م. وإن لم يكن هناك دليل قاطع يؤيد ذلك.

ويبدو أنه نهج منهج سابقيه فوضع τέχνη أي كُتيبًا في علم البلاغة، وألَّف أو صنَّف مجموعة من المواضيع تصلح كنماذج لتلاميذه، وقد سمَّاها سويداس Suidas ἀφορμαί ῥητορικαί «مصادر بلاغية»، وربما كانت تشمل المقدمات والخاتمات التي ذكرها أثينيوس Athenaeus.[٣] ويذكر أرسطو عملًا يسمَّى Ἔλεοι (استدرار العطف)[٤] وكتابًا بالعنوان الغريب ὑπερβάλλοντες أتمَّ إنتاجه العلمي.[٥]

---

[١] سوفوكليس، Eleneh، ١٨٣ ب، ٣٢.

[٢] ٢٦٧جـ.

[٣] ١٠، ٤١٦ أ.

[٤] البلاغة: ٣: ١، ٧.

[٥] يبدو أن معنى هذه الكلمة «قوي» أو «مقنع»، سواء كانت الكلمة اللازم استعمالها هي τόποι (أقوال عامة أو فقرات) أو λόγοι (محاورات)؛ ومع كلٍّ فلا يمكننا التخمين.

وقد ألَّف كذلك بعض خطَب التظاهر التي يحتمل — كما يسمِّيها سويداس ... — أن تكون من النوع الميثولوجي الذي لدينا منه أمثلة في هيلين وبالاميديس لجورجياس. ويقول ديونوسيوس إنه لم يترك خطبًا نيابية أو قضائية. ويتفق هذا التصريح والحقيقة المعروفة من أنه كان أجنبيًّا؛ ولذا لم يستطع الظهور في المحاكم أو المجلس،[٦] ومن ناحية أخرى يذكر له سويداس خطبًا عامة، كما أن ديونوسيوس قد احتفظ بكسرة مما يبدو أن تكون خطبة نيابية.[٧] ومن المحتمل أن تكون هذه قد أُعِدَّت لتكون نموذجًا لتلاميذه ليس إلا، كما أنها في الواقع ذات غموض يتفق وأي ظرف أو احتمال.

امتاز ثراسوماخوس بالأسلوب العاطفي، ويقول سقراط: «لا يفوق أحد هذا العملاق الخالكيدوني في قضية «أشجان العجوز الفقير»، أو أي قضية أخرى مثيرة للعواطف؛ ففي مقدوره أن يثير عواطف حشد كامل من الناس ثم يهدِّئها ثانية بقواه السحرية، كما أنه من الطراز الأول في ابتكار أو دفع أي نوع من الوشاية والسعايات سواء وجدت دواعيها أم لم توجد.»[٨] ويظهر أن هذه المزايا كانت تفسيرًا طبيعيًّا لخُلقه المتهور والعاطفي الممثَّل في «الجمهورية».[٩]

وإن ضياع مؤلَّفاته لَخسارة عظمى يؤسف لها؛ حيث إنه مبتكر «الأسلوب المهدِّئ» — كما يسمِّيه ديونوسيوس — الذي هو وسط بين صرامة أنتيفون وثوكوديديس، وبساطة لوسياس المتقنة؛ فقد جمع خير صفات النوعين، وبذا تقدَّم على إيسوكراتيس.

ولا نجد في الكسرة المحفوظة أي أثر لكلمات غريبة أو نادرة أو شعرية، أو مركبات بذيئة كالتي كان يستعملها جورجياس، ولا أي عبارات كعبارات ثوكوديديس المعقَّدة، ولا طباقًا متكلِّفًا، بل أسلوبًا سلسًا وتعبيرًا ظاهرًا. ويبدو أنه كان أول كاتب قام بدراسة معينة للأثر الوزني، ويذكره أرسطو لاستعماله الدائم للبيون Paeon، ويضعه في مصافِّ الكتَّاب الذين يهتمون بالأسلوب أكثر من الأفكار.[١٠] ويستدل من الكسرة السابق ذكرها، على أنها كانت ديباجة خطبة سياسية.

[٦] عن إيسيوس de Isaeo، الباب العشرون.

[٧] عن ديموسثينيس، الباب الثالث.

[٨] فايدروس، ٢٦٧جـ (جويت Jowett).

[٩] الكتاب الأول، ٣٣٦ ب.

[١٠] البلاغة، الباب الثالث: ٨، ٤؛ والباب الثالث: ١، ٧. أما «البيون» فهو وزن يتكوَّن من مقطع طويل وثلاثة مقاطع قصيرة هكذا: ٮ ٮ ٮ– أو –ٮ ٮ ٮ.

«كنت أودُّ، يا رجال أثينا، أن يكون حظي بين تلك العصور والظروف القديمة، عندما كان يسرُّ الشبان أن يلتزموا الصمت؛ حيث لم تضطرهم الظروف إلى الحديث أمام الشعب، كما أن شيوخهم كانوا أكفاءً لإدارة سياسة الدولة.»

هذه ديباجة تقليدية. ويبدأ أنتيفون خطبته عن مقتل هيروديس[١١] بعبارة مماثلة تتضمن أسفًا (εβουλόμην) وقد أتقن أيسخينيس Aeschines نفس نظرية تفوُّق الحياة السياسية في عصر سولون Solon بطريقة تسُوقنا إلى الشك في أنه كان يحمل في ذهنه مقدمة ثراسوماخوس.[١٢]

ولم يتبقَّ لنا عبارة واحدة من أعمال ثيودوروس البيزنطي الذي عاصر لوسياس وعلم البلاغة وألَّف فيها بعض الكتب،[١٣] وخصَّ نفسه ببحث الأقسام الصحيحة للخطبة، وأضاف فصلًا جديدًا إلى الرواية العادية «رواية إضافية» "ἐπιδιήγησις"، كما أضاف إلى الدليل «دليلًا إضافيًّا»[١٤] "ἐπιπίστωσις"، ومن أجل دهائه هذا سخر أرسطو من «مؤلف الخطب الماكر» البيزنطي.[١٥]

٢

وُلد أندوكيديس Andocides حوالي عام ٤٤٠ق.م. من عائلة اشتهرت مدة ثلاثة أجيال.

حارب جَده الأكبر، كما يقول لنا، ضد آل بسيستراتوس Pisistratidae، وكان جده أندوكيديس أحد المفوضين لعقد الصلح مع إسبرطة عام ٤٤٥ق.م. وبذا تسلَّم القيادة الحربية مرتين. ويذكر أرسطوفانيس أن أباه ليوجوراس Leogoras كان يشتغل بتربية نوع من الطيور pheasants.[١٦] أما الخطيب نفسه فكان عضوًا في ἑταιρεία أي النادي،

---

[١١] قارن أرسطوفانيس، الضفادع ٨٦٦: ἐβουλόμην μὲν οὐκ ἐρίζειν ἐνθάδε.

[١٢] أيسخينيس، ضد كتيسفيون in Ctesiphon، الفقرة الثانية.

[١٣] مرجع «البلاغة» لأرسطو، الباب الثاني: ٢٣، ٢٨، إلى:ἡ πρότερον Θεοδώρου τέχνη وهي مقالة تيسياس في زمن سابق، وتتضمَّن غيرها.

[١٤] قارن أرسطو، البلاغة، الباب الثالث، ١٣، ٤: διήγησις, ἐπιδιήγησις, προδιήγησις; ἔλεγχος, ἐπεξέλεγχος.

[١٥] فايدروس، ٢٦٦ جـ، λογόδαιδάλος.

[١٦] أرسطوفانيس، السحب، ١٠٩.

وربما كان ناديًا اجتماعيًّا أكثر منه سياسيًّا؛ لأن الاجتماع الوحيد الذي ذُكر لهذا النادي كان للمعايدة فقط.

وفي ليلة إبحار الحملة الصقلية عام ٤١٥ق.م. روِّعت أثينا وتولَّاها الذعر والفزع بسبب عمل دنِس مشهور، فقد شُوِّهت في ليلة واحدة جميع تماثيل هرميس Hermes التي كانت قائمة في كل مكان بالمدينة ما عدا واحدًا. فتطيَّر الشعب الذي كان يعتقد في الخرافات، ودبَّ في أفراده إحساس بأن الدولة بأسرها ستلقى جزاء هذا الجرم الذي اقترفه بعضهم، واعتبروه نذيرًا بسوء نتيجة الحملة السيراكوزية، ومن كان منهم أكثر نباهة وأرجح عقلًا عدَّه دليلًا على ثورة وشيكة الوقوع ومحاولة لقلب الديمقراطية. ومما زاد في قلق الشعب وبلبلة أفكاره، سريان إشاعات بحدوث ظواهر غريبة في بعض المنازل الخاصة تمسُّ كرامة الأسرار الإليوسينية Eleusinian mysteries.

وخليق بمثل هذه الأعمال الدالَّة على عدم التقوى، أن تجرَّ على أثينا غضب الآلهة الذين كانوا حُماتها حتى ذلك الوقت.

ولسوف يذكر كيف اتُّهم ألكيبياديس Alcibiades أحد قوَّاد الحملة، بالاشتراك في المؤامرة، وما نتج عن هذا الاتهام من استدعائه من صقلية وإبعاده عن مسقط رأسه؛ ففشل مشروع الغزو العظيم أيَّما فشل، وأدَّى فقدُ خيرة الجيوش والأساطيل إلى سقوط أثينا نفسها.

اتُّهم أندوكيديس بالاشتراك في كلٍّ من انتهاك حرمة الأسرار، وتشويه تماثيل هرميس، فأفلح في إثبات براءته من التهمة الأولى، ولكنه اعترف أن لديه معلومات عن موضوع تشويه التماثيل.

اتَّهم رجل يُدعى تيوكروس Teucrus ثمانية عشر شخصًا بتحطيم التماثيل؛ فأعدِم بعضهم ونُفي البعض الآخر، وتضمَّنت القائمة بعض أعضاء النادي الذي كان ينتمي إليه أندوكيديس. وقال مبلغ آخر يدعى ديوكليديس Dioclides إنه قد ثبت اشتراك ما يربو على ثلاثمائة رجل في تلك الجريمة، وذكر اسم اثنين وأربعين منهم، من بينهم أندوكيديس واثنا عشر من أقرب أقربائه. وكانت تجتاح أثينا بأسرها في ذلك الوقت موجة ذعر وهلع، وكان جلُّ همِّ الشعب موجَّهًا إلى معرفة الجناة والانتقام منهم؛ فسجن من سمَّاهم المبلغ في الحال وأصبحوا في مركز حرج. ولكي ينقذ أندوكيديس أباه وغيره من الأبرياء، صمَّم في النهاية على الاعتراف بما يعلمه بعد أن حصل على وعد بعدم معاقبته، فأدلى بمعلوماته، بَيدَ أنه وفقًا لقرار تالٍ، عوقب بالحرمان من دخول السوق والمعابد. ولمَّا حيل بذلك بينه وبين الأعمال العامة، عزم على الرحيل إلى الخارج.

ويذكر أندوكيديس في خطبته «عن العودة de Reditu»، التي ألقاها عام ٤١٠ق.م. بعد الثورة بخمس سنوات، أنه اشترك شخصيًّا في تلك الجريمة، ويطلب العفو عن «طيش شبابه» (فصل ٧).

وتتضمَّن أقوال ثوكوديديس[١٧] أنه اتَّهم نفسه مع آخرين. وعلى أيَّة حال فليست لغة خطبته «عن العودة» واضحةً تمامًا، وليس من الضروري عدم مطابقتها للبيان الذي أدلى به بعد اثني عشر عامًا في خطبته «عن الأسرار» de Mysteriis.

يؤكِّد أندوكيديس في تلك الخطبة أنه كان على علم بالخطة وعارض في تنفيذها، ولكنها نُفذت دون علمه. ويبرهن على صدق أقواله بأن تمثال هرميس القائم أمام منزله، هو التمثال الوحيد الذي لم يمسَّه سوء.

«إذَن فقد أخبرتُ المجلس أنني كنت أعرف الجناة وأدليت بالحقائق، وهي أن يوفيليتوس Euphiletus اقترح الخطة بينما كنا نحتسي الخمر، وقد عارضته فيها مانعًا تنفيذها في ذلك الوقت، غير أنه بعد مدة بينما كنت راكبًا مهري في كونوسارجيس Cynosarges، سقطت من فوقه فانكسرت عظمة ترقوتي وجُرح رأسي؛ فحُملت إلى منزلي على نقَّالة. فلما علم يوفيليتوس خبري، قال للآخرين إنني قد اقتنعت بفكرة الانضمام إليهم موافقًا على الاشتراك في تشويه تماثيل هرميس ومحراب فورباس Phorbas. وعلى ذلك خدعهم بهذا البيان؛ وهذا هو السبب في عدم تشويه التمثال الذي ترونه أمام منزلي؛ ذلك التمثال الذي شيَّدته قبيلة إيجيد Aegeid، وهو التمثال الوحيد الذي سلِم من التشويه؛ لأنه كان مفروضًا أن أقوم أنا بتشويهه كما أخبرهم يوفيليتوس. فلما علم المتآمرون بذلك استشاطوا غضبًا، وظنوا أنني علمت بتنفيذ الجريمة ولم أشترك فيها، فجاءني ميليتوس ويوفيليتوس في اليوم التالي وقالا لي:

«لقد قمنا بالمهمة يا أندوكيديس وانتهى كل شيء؛ فإذا لزمت الصمت وجدتنا أصدقاء أوفياء كما كنَّا، وإلا فسوف يكلِّفك عداؤنا أكثر مما ترجوه من خيانتنا.»

فأجبتهم أنه بالنظر إلى فداحة ما حدث، ظهر أن يوفيليتوس وغد دنيء، وأن عليهم أن يخشوا حقيقة جرمهم أكثر من خشيتهم معرفتي له.»[١٨]

---

[١٧] ثوكوديديس، فصل ٦، ٦٠.

[١٨] عن الأسرار، الفقرة ٦١ ... إلخ.

هذه قصة تستحق الإعجاب على أقل تقدير، والنقطة الوحيدة التي تحوطها الريبة هي اعتراف الخطيب بأن جميع من اتهمهم ما عدا أربعة، قد سمَّاهم تيوكروس قبله وعُوقبوا؛ البعض بالإعدام والبعض الآخر بالنفي. وعلى هذا فلم يضرَّهم اعتراف الخطيب في قليل أو كثير. أما الأربعة الآخرون الذين ذكرهم فلم يُقبَض عليهم وإن كان معروفًا اشتراكهم مع الآخرين؛ فقد كان أمامهم متَّسع من الوقت فتمكَّنوا من الهروب إلى المنفى (الفقرة ٦٨).

ولنا أن نشكَّ في احتمال إنذار أندوكيديس لهؤلاء الأربعة في الوقت المناسب، وبذا يكون قد اضطر أربعة، ربما كانوا مذنبين، إلى الفرار للمنفى، في نظير إنقاذ حياته وحياة والده وشقيق زوجته وباقي الاثنين والأربعين سجينًا.

عندئذٍ عدَّل المُبلغ ديوكليديس أقواله قائلًا إن ألكيبياديس وأميانتوس Amiantus اضطراه إلى الإدلاء بمعلومات كاذبة، وعلى ذلك حُوكم هذا المُبلغ الكاذب وأُعدِم (الفقرة ٦٦).

ولما حُرم أندوكيديس من امتيازاته وحقوقه المدنية، وكان بعيدًا عن أثينا عدة سنوات؛ فقد اشتغل بالتجارة في عدة أمصار وكوَّن ثروة طائلة؛ بعضها بطرق غير مشروعة. وتعامل مع صقلية وإيطاليا والبلوبونيس Peloponnese وتساليا Thessaly وإيونيا Ioinia وهيليسبونت Hellespont، وأخيرًا مع قبرص؛ حيث منحه إيفاجوراس Evagoras، ملك سالاميس، ضيعة قيِّمة.[١٩]

وقد قام في سنة ٤١١ق.م. بمحاولة لاستعادة حقوقه، فزوَّد الأسطول الأثيني المرابط في ساموس Samos بالمجاديف، وعاد إلى أثينا ليدافع عن قضيته، ولسوء الحظ كان الأربعمائة قد اغتصبوا الحكومة في نفس ذلك الوقت ورفضوا دفاعه؛ لأنه كان قد ساعد أعداءهم. ثم قام بمحاولة أخرى بعد ذلك حوالي عام ٤١٠ أو ٤٠٨ق.م. وألقى خطبته «عن العودة»، غير أنه فشل عودًا على بدء.

لم يسترجع أندوكيديس جميع حقوقه كمواطن إلا بعد أن منحه ثراسوبولوس Thrasybulus عفوًا شاملًا كاملًا سنة ٤٠٣ق.م. ومن ثم قام بدور فعَّال في الحياة العامة كديمقراطي غيور، يخطب في المجالس ويؤدِّي الطقوس الدينية. إلا أن بذور الضغائن القديمة بدأت تدبُّ فيها الحياة من جديد، فاتُّهم بعدم التقوى لسببين: الأول اشتراكه

[١٩] عن الأسرار، الفقرة ٤.

في الأسرار الإليوسينية في وقت حرم عليه شرعًا الاشتراك فيها. والثاني أنه وضع غصن المتوسل فوق المذبح الموجود في إليوسيس Eleusis — في موسم الأسرار — وكان يُعَد مثل هذا العمل إلحادًا.

وقد كان الإعدام عقوبة كلٍّ من هاتَين الخطيئتَين، ولكن خطبته «عن الأسرار» جاءت ردًّا مقنعًا ناجحًا في درء كلتا التهمتين.

أوفد أندوكيديس عام ٣٩١ق.م. لعقد الصلح مع إسبرطة، وألقى خطبته «عن السلم de Pace» ولكن الصلح لم يعقد. وكان هذا آخر ذكر لهذا الخطيب المغامر، ولو أن بلوتارخوس الكاذب يؤكِّد ذهابه ثانيةً إلى المنفى. فإن كان هذا صحيحًا؛ فإننا نعلم أنه كانت لديه أماكن مريحة للإقامة في قبرص وغيرها.

٣

تناول النقَّاد القدامى شخصية أندوكيديس بالنقد اللاذع، وبالرغم من أن النقد الإسكندري قد وضعه في قائمة الخطباء النموذجيين العشرة؛ فإن ديونوسيوس لم يذكره إلا نادرًا.[٢٠] أما كونتليانوس Quintilianus فيستخف بعمله،[٢١] ويرى هيروديس أتيكوس Herodes atticus في تواضع أنه كان يفوق شخصيًّا أندوكيديس[٢٢] على الأقل. ويلخِّص هيرموجينيس Hermogenes عيوبه كخطيب فيما يأتي:

«إنه يهدف إلى أن يكون رجلًا سياسيًّا فلا ينجح ألبتة، ويفتقر إلى النطق الفصيح ووضوح الاستعارات، كما يحتاج إلى النظام في ربط عباراته وصوغها؛ إذ يفقد جلاء المعنى باستعمال الجمل الاعتراضية التي تزيد الجمل غموضًا دون داعٍ. وكذلك نجده لا يجيد ختم خطبه وترتيب عناصرها، علاوة على ضعف قوتها وحيويتها. وكانت مهارته في الحوار المفصَّل قليلةً جدًّا، ومعدومة تمامًا في أي نوع آخر.»[٢٣]

---

[٢٠] ديونوسيوس، عن لوسيا dy Lysia، الباب الثاني.

[٢١] كونتليانوس، الباب الثاني عشر، ١٠، ٢١.

[٢٢] فيلوستراتوس، حياة هيروديس أتيكوس، الباب الثاني، ١ فقرة ١٤.

[٢٣] هيرموجينيس، περί ἰδεῶν الباب الحادي عشر صفحة ٤١٦. سبنجل Spengel «خطباء الإغريق Rhetores Graeci».

وإني لأتردد قليلًا في تقديم هذه الترجمة الحرفية لتلك الفترة الصعبة، ويبدو من معناها أن أندوكيديس رغم استعماله للمحسِّنات البلاغية من طباق ومقابلة وتورية، لم يصل بها إلى حد الإتقان، ولم يجعلها واضحة جليَّة، كما نجد عباراته مشوَّهة أحيانًا؛ فنعثر على جملة اعتراضية أشد قوة من جملة رئيسية. كذلك نجد عباراته غير مصقولة وغير مقنعة. وكل ما يستحق عليه الثناء هو طريقته μέθοδος؛ أي طريقة سرده لوقائع القضية. وقد فكَّر هيرموجينيس في الطريقة التي كان يرتِّب بها هذا الخطيب مادته، من تناوله جزءًا من الرواية ويعلِّق عليه أولًا بأول، بدلًا من تناول الرواية كلها ثم مناقشتها. ويقرظ الخطباء المتأخرون، وهم أكثر خبرة، هذه الطريقة، وربما كان يقصد هيرموجينيس بالمهارة العامة؛ المهارة في استعمال السفسطة العادية لرجال البلاغة.

أما بلوتارخوس الكاذب فأقل قسوة على هذا الخطيب؛ إذ يقول عنه:

«إنه يسرد رواياته بعبارات بسيطة خالية من التكلُّف، مراعيًا الصدق وعدم استعمال الاستعارات.»[٢٤]

ومن المسلَّم به أن كثيرًا من النقد الذي وُجِّه إلى أندوكيديس قد أصاب هدفه، ولكن من المشكوك فيه هل أمكن لهذا النقد أن يتغلغل فيصيب سمعته بلطمة شديدة؟ لقد كان قدامى النقَّاد أكاديميين؛ فلم يهتموا بالتفاصيل العملية، وكان جلُّ اهتمامهم منصبًّا على ما تحدثه الخطابة من أثر في نفسية القارئ، أكثر من تأثيرها على السامعين. كما كانوا يهتمون كثيرًا بالناحية الفنية؛ فعندما كانوا يفحصون إحدى خطبه كانوا يراعون الدقة في تتبُّع استعمال هذا الخطيب لقواعد البلاغة الفنية.

بَيدَ أن هذا النوع من التقدير قد يسوق إلى عدم الإنصاف؛ إذ ليس على الناقد أن يتناول فقط مستوًى فنيًّا قائمًا على العرف، وربما لم يلاحظ معاصروه هذا المستوى، ولكن حتى مع التسليم بأنه يجب عادة مراعاة بعض قواعد البلاغة، ينبغي أن نفهم أن ظروفًا خاصةً تعطي للخطيب عذرًا في أن يحيد عنها. فالبلاغة، كما يقول أفلاطون، فن عملي هدفه استنهاض الهمم، ورغم أن أغلب من يزاولها يُحسن صنعًا باتباع قواعدها، إلا أن بعضهم يستطيع النجاح دون اتباعها.

ولا يمكن مقارنة أندوكيديس بسابقه أنتيفون من حيث مميزاته الرئيسية، من جمال الأسلوب وتوازن العبارات والطباقات اللفظية، غير أن أندوكيديس يسيطر على أسلوب

[٢٤] بلوتارخوس الكاذب، حياة الخطباء العشرة.

واضح معتدل، وله موهبة سرد الحوادث في قصة مسترسلة. وزيادة على ذلك فهناك ميزة واضحة لأندوكيديس، وهي أنه إذا ما قرأنا تتراوجات أنتيفون ملاحظين روعتها في إظهار سيطرة الكاتب على الاصطلاحات الفنية لمهنته، ثم تناولنا إحدى الخطب الحقيقية، كهيروديس مثلًا، نشعر في الحال بعظمة مراعاة الصالح الإنساني؛ فإن خطبة تتناول أشخاصًا حقيقيين لجديرة بالتفوق على التمرينات الخيالية. بَيدَ أننا مع ذلك لا نفتأ نشعر بعدم ظهور العنصر الشخصي كما يجب، وذلك لسبب بسيط؛ وهو أن الخطيب لا يدلي بأفكاره الشخصية في مناسبات تتفق كثيرًا ومصلحته؛ بل يربط عبارات لو قرأها أي شاب ميتيليني غامض، لتعثر فيها دون أن يدرك على الأقل مهارة صوغها.

ولكن أندوكيديس رجل حقيقي حي، يتكلم بشخصه مدافعًا عن نفسه، ليدرأ عنه تهمة غاية في الخطورة. لقد كان في خطر جسيم أوجب عليه أن يبذل قصارى جهده، ويرتفع إلى أقصى ما يمكنه في الدفاع، وإلا دفع الثمن غاليًا، وربما كان هذا الثمن حياته، وهذه مناسبة لا يمكن أن تُتاح للخطيب مناسبة أعظم منها؛ حيث يجعل الأسلوب في المرتبة الثانية، ويوجِّه اهتمامه أولًا إلى المادة ويوليها أهمية أكثر من الأسلوب؛ إذ لا اعتبار للطرق ما لم يمكن الوصول إلى الهدف. فلا تستطيع التورية أن تخفف من جرعة كأس الحمام، وقوانين أثينا أقوى من قواعد الخطابة.

كان من طبيعة أنتيفون الاهتمام بتفاصيل الأسلوب، كما أن أسلوبه كان أرخى اللهجة. أما أندوكيديس فلم يكن خطيبًا محنَّكًا إلا بقدر الخطابة التي تدرَّب عليها كل أثيني في صغره، ولم يكن محاميًا محترفًا أو خطيبًا دائم الظهور أمام الجمهور؛ إذ قضى مدة طويلة في منفاه فلم تسنح له فرص كثيرة للظهور أمام المحاكم أو المجلس. ولما كان طلق اللسان، مسيطرًا تمامًا على اللغة العامية؛ فقد وجد فيها سبلًا كافية للتعبير، ويبدو في أغلب القضايا أنه كان يتمتَّع بسليقته، بما كان يصل إليه لوسياس عن طريق الفن، فكانت طريقته في التعبير واضحة جلية، تنمُّ مباشرة عن أفكاره وآرائه بلغة سهلة بسيطة ليس فيها ما هو غير مألوف أو ثقيل على السمع. إلا أن في أسلوبه أحيانًا عدم تجانس؛ فتأتي مناسبات يستعمل فيها عن غير قصد ألفاظًا وعبارات غريبة بعض الشيء على الكلام الدارج. وإنا لنشعر أن هذا حدث دون تخيُّل؛ لأنه في أثناء سرده الطليق السريع كان يستعمل الألفاظ التي تبدو بالطبع له لائقة.[٢٥]

[٢٥] هذه قائمة ببعض الكلمات الشعرية أو غير العادية، مع بعض عبارات من الخطب:

وفي هذا يختلف عن لوسياس الذي تناول الحديث العام وصاغه في أسلوب أدبي، أكسبه بالدراسة بساطة وصفاءً خالصَين لا يصل إليهما غير الخبير الدقيق.

وبالجملة فإن أثر أندوكيديس يبلغ أشده عندما يكون في غاية البساطة، وعندما يستعمل الكلمات العامة غير لاجئ إلى التكلُّف البلاغي الذي لا يأتيه طبيعيًّا. وتؤكِّد الرواية التالية وجهة نظري:

«عندما أُخِذنا جميعًا إلى الأَسر، وكان الوقت ليلًا وأبواب السجن موصدة، وجاءت أم أحد الرجال وأخت آخر، وزوجة ثالث وأولاده، وعلا نحيبهم باكين حالنا التعسة، خاطبني خارميديس Charmides، وهو خالي ومن نفس عمري وكان قد درج في بيتنا منذ نعومة أظفاره، قائلًا:

عن الأسرار: فصل ٢٩	ταῦτα τὰ δεινὰ καὶ φρικώδη ἀνωρθίαζον
فصل ٦٧	πίστι ... ἀπιστοτάτην
فصل ٦٨	ὁρῶσι τοῦ ἡλίου τὸ φῶς
فصل ٩٩	ἐπίτοιπτον κίνοδος
فصل ١٣٠	Κληδών
فصل ١٤٦	(γένος) οἴχεται πᾶν πρόρριζον
عن السلام: فصل ٧	τόν δῆμον ... ύψηλόν ηρε
فصل ٨ وفي فقرات ثلاث أخرى	κατηργάσατο
كفل، مهد السبيل، قارن يوربيديس، هرميس ٦٤٦	πόλει σωτηρίαν κατεργάσασθαι
فصل ١٨	Κρατιστεύειν
فصل ٣١	ἐκτεῖναι τὸν θυμὸν, ἀρχὴν πολλῶν κακῶν

وتشتهر خطبته «عن السلام» بورود صورتين نحويتين لم تردا في خطبه الأخرى، واستعمال τούτο δέ على طريقة هيرودوتس بدلًا من δέ, μέν وتكرار δέ بقوة رادة مثل فصل ٢٧ ά δέ πός τουτους μόυους. واستعماله غير المنطقي لجمع εκείυοι συνέθευτο ταυτα δ' ουθεπώποτ' αυτους φασι παραβήναι كلمة οúδείε بنفس المعنى الذي للمفرد. (عن الأسرار، فقرة ٢٣: ούδένας والفقرة ١٤٧ ούδένα) ربما يكون دارجًا. وهناك عدة أمثال لاستعمال هذا الجمع في الخطباء المتأخرين، وهي نقطة لم يلاحظها لدل وسكوت Liddell & Scott أو على الأقل فشلا في توضيحها. وعبارة أخرى قد تكون دارجة، وهي τή γνώμη καί ταίν χεροίν ταιν έμαυτού (عن الأسرار، الفقرة ١٤٤).

إنك ترى يا أندوكيديس، حرج موقفنا، ورغم أنني لم أرغب في التفوُّه بشيء من قبل، ولم يسبق لي أن سبَّبت لك أية مضايقة، بَيدَ أنني أراني مضطرًّا إلى ذلك الآن من جراء تلك المصيبة التي حلَّت بنا.

لقد أعدم بعض أصدقائك وشركائك الآخرين، سوانا، الذين هم من ذوي قرباك، بسبب التُّهم التي نساق للموت من أجلها الآن، بينما اعترف آخرون بجريمتهم بفرارهم من البلاد.

فإذا كنت تعلم شيئًا عن هذا الأمر، فقل الصدق لتُنجي نفسك ووالدك الذي تعزُّه، وزوج أختك الوحيدة، ثم باقي أفراد عائلتك وأصدقائك، باستثنائي منهم؛ حيث إنني لم أسبِّب لك أيَّة مضايقة طوال حياتي، بل كنت مخلصًا ومحبًّا لك، وإني لعلى أتم استعداد لأبذل ما وسعني لمساعدتك.»[٢٦]

وتعرُّضه لديوكليديس Dioclides بسيط ومؤثِّر؛ فيكرِّر أقوال المبلغ، ويعلِّق عليها ببضع كلمات فيظهرها في صورة مضحكة:

«لقد تَشجع ديوكليديس بمحنة بلده، فأدلى بمعلومات إلى المجلس، مؤكِّدًا أنه يعلم شخصية من شوَّهوا تماثيل هرميس، وأنهم يبلغون الثلاثمائة، ثم انتقل يروي كيف علم بالأمر فقال:

إن عبدًا له كان يشتغل في لاوريون Laureion، وبذا صار هو مضطرًّا إلى الذهاب إلى هناك ليحصل على أتعاب العبد؛ فاستيقظ من نومه مبكرًا؛ إذ قد أخطأ في معرفة الوقت، وبدأ يسير في طريقه، وكان القمر بدرًا يسطع بنوره، وما إن مرَّ من بوابة ديونوسوس حتى رأي عددًا من الرجال قادمين من جهة الأوديوم Odeum يتجهون نحو الجوقة Orchestra؛ فذعر منهم واختبأ جالسًا بين العمود والقاعدة التي يقوم عليها تمثال القائد البرنزي.

وقدَّر عدد من شاهدهم من الرجال بنحو ثلاثمائة؛ وقد وقفوا في جماعات كلٍّ منها خمسة أو عشرة أو عشرون في بعض الحالات؛ فاستطاع التعرُّف على أغلبهم إذ كان القمر يسطع بضوئه على وجوههم.

لقد أسرع بالإدلاء بهذا البيان الوحشي ليكون في طوقه أن يتهم من يشاء من مواطنيه، بأنه كان من هؤلاء القوم.

---

[٢٦] عن الأسرار، فصل ٤٨–٥٠.

ثم قال إنه بعد أن شاهد كل ذلك ذهب إلى لاوريون، ثم سمع في اليوم التالي عن تشويه تماثيل هرميس، فعرف لتوِّه أنه عمل أولئك الرجال الذين رآهم.»[٢٧]

وتوضح بداية الخطبة استخدامًا معقولًا لنوع الأقوال العامة التي جرت العادة أن تتطلَّبها مقدمة النقاش؛ من حقد ومهارة أعداء الخطيب، والارتباك الناجم من عديد اتهاماتهم مما يجعل من الصعب معرفة من أين يبدأ.

«تعرفون كلكم أيها السادة، بأيِّ تعنُّت قد تكاتف أعدائي على أذاي منذ وطئت قدماي أرض أثينا، بكل طريقة مشروعة وغير مشروعة، ولست محتاجًا إلى الاستمرار في هذا الموضوع، ولكني أطلب منكم فقط أن تعاملوني معاملة عادلة، وهذا جميل من اليسير عليكم منحه، فله أهمية في إظهار براءتي.

وأحب قبل كل شيء، أن تعلموا جيدًا أني قد مثُلت الآن أمامكم دون أن أكون مجبرًا بأي حال على انتظار محاكمتي، ولم أرغب في دفع كفالة أو مقاومة الأسر، ولكني مثلت أمامكم لثقتي التامة أولًا في عدالة قضيتي، وثانيا في خلقكم، شاعرًا أنكم ستصدرون قرارًا عادلًا، ولن تسمحوا بأن يصيبني الخراب على يد أعدائي بوساطة حيادكم عن الحق، بل ستعملون على إنقاذي بجعل العدالة تأخذ مجراها وفق قوانين المدينة، واليمين التي أقسمتموها كخطوة أولى للقرار الذي توشكون تسجيله.

من المعقول أيها السادة، في حالة من يواجهون المحاكمة مختارين، أن تأخذوا عنهم الفكرة نفسها التي يأخذونها هم عن أنفسهم؛ فإن من لا يقبلون انتظار محاكمتهم يتهمون أنفسهم عمليًّا، ويصبح من الحكمة أن تصدروا عليهم الحكم نفسه الذي أصدروه هم على أنفسهم، أما الذين ينتظرون محاكمتهم واثقين من عدم اقترافهم إثمًا، فلكم الحق في أن تأخذوا عنهم الفكرة التي أخذوها عن أنفسهم، ولا تصدروا حكمكم بإدانتهم دون سماع أقوالهم.

لذا تجدونني أفكِّر في أي النقط أبدأ بها دفاعي؛ هل أبدأ بالنقطة التي ذكرتها أخيرًا، وهي أن اتهامي غير شرعي؟ أم بالحقيقة القائمة على عدم سلامة قرار إيسوتيميديس Isotimides؟ أم أستنجد بالقوانين والأيمان التي أقسمتموها؟ أم هل أبدأ بسرد الوقائع من بدايتها؟

---

[٢٧] «عن الأسرار» فصل: ٣٧–٣٩.

وأعظم صعوبة تقابلني هي أن نقط الاتهام المختلفة لا تثير استياءكم جميعًا بدرجة واحدة، وكل واحد منكم لديه نقطة يريدني أجيب عنها أولًا. ومن المستحيل أن أتناول جميع هذه النقط دفعة واحدة؛ ولذا يخيَّل إليَّ أن خير ما أفعله، هو أن أسرد القصة كلها منذ بدئها غير تارك منها شيئًا؛ لأنكم لو درستم ما حدث فعلًا لأصبح من السهل ملاحظة الأكاذيب التي اختلقها المدَّعون ضدي.»[٢٨]

إن المغزى بسيط وقوي في استقامته:

«لا تتخلوا عن الأمل في مساعدتكم لي، كما لا تحرموني الأمل في أن أساعدكم؛ فإني أطلب ممن أثبتوا شعورهم النبيل نحو الديمقراطية، أن يعتلوا المنصة ويدلوا إليكم بما يعرفونه عن أخلاقي. تقدَّم يا أنوتوس anytes وكذلك أنت يا كيفالوس Cephalus، وأنتم يا أفراد عشيرتي يا من وقع عليكم الاختيار في الدفاع عني؛ ثراسولوس Thrasyllus وغيره من الباقين.»[٢٩]

لقد سبقت الإشارة إلى حيوية خطبته، وإذا ما قورنت بنشاطه الحي، تصبح خشونة أنتيفون عقيمة جعجاعة. وأهم ما تمتاز به أعماله، سهولة إعادة أقوال الأصلية نفسها عند سرده للمحادثات وشرحه للدوافع؛ فيتذكر أقواله بالنَّص وأقوال غيره كما تفوَّهوا بها شخصيًّا أو فكروا فيها. ونلاحظ في ذلك طابعًا هوميريًّا، ويمكن مقارنته بالاستعمال الملحمي Epic للعبارتين:

καὶ ποτέ τις εἴπῃσι, ὧδε δέ τις εἴπεσκε.

وتبيِّن الفقرة التالية كيف يضيع الهدف الأصلي للعبارة خلال شبكة الأقوال الأصلية الموضوعة بين شولتين:

«فمنذ البداية، رغم أن كثيرين أخبروني أن أعدائي كانوا يقولون إنه لا يصحُّ لي أن أنتظر محاكمتي؛ «ما الذي يدفع أندوكيديس لينتظر محاكمته في حين أنه كان في طوقه ترك المدينة فينجو؟ فلو أبحر إلى قبرص التي أتى منها لوجد في انتظاره هناك ضيعة واسعة عظيمة الخيرات؛ فيصبح سيدها المطلق. أيفضِّل وضع عنقه في المشنقة؟ وما غرضه من ذلك؟ ألم يعرف اتجاه الريح هناك؟»

[٢٨] عن الأسرار، فصل: ١–٣، ٨.

[٢٩] عن الأسرار، فصل ١٥٠.

إنني أخالف هذا الرأي كليةً أيها السادة، فلا أفضِّل حياة النعيم والبذخ في مكان آخر مقابل أن أخسر وطني، حتى ولو هبَّت الريح هنا ضدي كما يقول أعدائي، فلأكونَنَّ مواطنًا في أثينا أحب إلى نفسي من الحياة في مدينة أخرى وافرة الرخاء الآن كما تبدو لي المدن الأخرى. ولَمَّا كنت متشبِّعًا بمثل هذه العقيدة؛ فقد تقدَّمت إليكم وتركت لكم أمر البتِّ في مصير حياتي.»[٣٠]

سبق أن ذكرنا أن أندوكيديس لم يكن مغرمًا باستعمال الطباق اللفظي، كما جعل كلٌّ من ثوكوديديس وأنتيفون استعماله أمرًا عاديًّا جدًّا. فنجده لا يهتم بالمقارنات بين «القول والعمل» و«ما يكون وما يبدو» بمثل هذا الإطراء على وتيرة واحدة.

على أن هناك نوعًا من الطباق يميل إليه بعض الشيء؛ وهو طباق الفكر أكثر من اللغة، فهو مغرم بشرح صعوبة من التخيُّر بوساطة وضعها في صورة معضلة.

أما فيما يتعلق بسلوكه الشخصي؛ فكان دائمًا يواجه المعضلات؛ فمنذ الدور الذي لعبه في انتهاك حرمة الدين، والمواقف الحرجة التي ترتبت عليه؛ وجد أن من الخطر عليه أن يكذب، ومن الخير له أن يقول الصدق؛ لذا كان من غير المستغرب أن تجد دائمًا عبارات كهذه:

«كيف كان يتصرف كلٌّ منكم أيها السادة لو خُيِّرتم بين أن تموتوا ميتة شريفة أو أن تنقذوا حياتكم بإتيانكم عملًا مشينًا؟ قد يقول البعض إن ما أتيته عمل وضيع، ولكن أكثركم كان يختار ما اخترته أنا.»[٣١]

فهذه الاستغاثة بالمشاعر الفردية، ولا سيما ذلك الالتماس المصدَّر بأن يحكموا بـ «مقاييس بشرية» αυθρωπίνως، ذات تأثير عظيم في جرأته. فلا بد أن كان الخطيب واثقًا من مستمعيه قبل أن يجرؤ على الاستغاثة في هذا الموقف بالطبيعة السفلى التي يميل إلى نبذها كل فرد.

ومن الفوارق الظاهرة بينه وبين هيبة أنتيفون، أن أندوكيديس كان يهبط بين آونة وأخرى إلى البذاءة والسفاهة، واضعًا في خطبته قصصًا مشينة عن خصومه، لا تمتُّ إلى الموضوع الأصلي بصلةٍ ما، وإنما تساعد فقط على إثارة الضحك في حينه، فليس لبيانه الطويل عن حياة كالياس Callias المنزلية (فصل ١٢٣–١٣) أي علاقة بالمحاكمة إطلاقًا.

---

[٣٠] عن الأسرار، فصل: ٤، ٥.

[٣١] عن الأسرار، فصل: ٥٧.

فرجل تزوج والده ثلاث مرات، لسوء حظه، يمكن اعتباره شاهدًا موثوقًا منه، وليست إذَن مقدمة القصة الخارجة عن الموضوع على شيء من الإنصاف بالمرة، بَيدَ أنه لما كانت مثل هذه الأمثلة ذات الذوق الرديء، مباحة بحُرية في أثينا، كان من الممكن انتهاز هذه الفرصة وتسديد ضربة مشينة كهذه، ولا سيما لو أمكن تسديدها بمهارة كما في الفقرة التالية:

«وتبعا لطلب الأم، حمل الأقارب الطفل إلى المذبح في وقت الأباتوريا Apaturia. لقد أحضروا الذبيحة وطلبوا من كالياس أن يذبحها؛ فسأل عن والد هذا الطفل؛ فقالوا: «هو كالياس بن هيبونيكوس Hipponicus.» فأجابهم: «ولكني أنا كالياس.» فقالوا: «نعم وهو ابنك.»».[32]

وهناك أقوال أكثر من ذلك لتبرير مهاجمة إبيخاريس Epichares، فلكي يبرهن أو يؤكِّد على أن متَّهمه كان عدوًّا للديمقراطية وسيئ الأخلاق، كوَّن مزاعم في صالح المدَّعى عليه. وقد اعتاد ديموستينيس نفسه مثل هذا العمل، ولم يكن في شططه أو عدم دقته بأقل من أندوكيديس:

> «بَيدَ أن إبيخاريس، الذي هو أسوءُهم جميعًا، وكان يريد المحافظة على سمعته، فعمد الخطيب إلى الانتقام منه، لا بد أن كان عضوًا في المجلس إبان حكومة الثلاثين، وما هي مواد القانون المكتوب على العمود أمام قاعدة المجلس؟» «كل من يحتلُّ وظيفة في المدينة، عندما تسقط الديمقراطية، سيُقتَل دون أن يُعاقَب قاتله الذي سيكون بريئًا من دمه ويغنم كل ممتلكاته.» «إذَن يا إبيخاريس، إذا فُرِض وقتَلك الآن امرؤ، يصبح بريئًا من دمك تبعًا لقانون صولون. وإني لأطلب قراءة هذا القانون المكتوب على العمود بصوت مرتفع.»[33]

ولكن أندوكيديس كان يخالف قوانين الذوق السليم في مثل هذه الأحوال، وكان في مثل موضوع هذا الحقد الشخصي قدوة أولى لأعاظم الخطباء، ولو أن مفردات ألفاظه كانت أقل متانة. ومن النادر تبرير سفاهته بعدم إتقان توررياته.

«أيها الوحش، يا ابن آوى، أيها المبلغ العام، أيُسمَح لك بالحياة والتجول بين ربوع هذه المدينة؟ لست مستحقًّا لذلك؛ لأنك عشتَ من تجارة التبليغ في عصر الديمقراطية،

[32] عن الأسرار، فصل ١٢٦.

[33] عن الأسرار، ٩٥.

ولكنك في العصر الأوليجاركي، خشية أن تجبَر على تسليم الأموال التي جمعتها بوساطة التبليغ، أصبحت أدنأ شخص في حكومة الثلاثين.»[٣٤]

«ونتيجة لقرارك، بملاحظة القوانين الحالية، قد استرجع من المنفى ليصير مواطنًا، ومن الحرمان من التكسُّب شرعًا إلى ممارسة تجارة التبليغ بحُرية».[٣٥]

كان أندوكيديس يستعمل الجمل الاعتراضية أحيانًا إلى حد الإفراط، وقد اقتبس لذلك مَثل يختلُّ فيه التركيب النحوي؛ لأنه قدَّم في وسط محادثة خيالية.[٣٦] وقد يكون الأسلوب مفكَّكًا وملتويًا، لدرجة لا يتعذَّر معها متابعة التركيب فحسب؛ بل ويكون الحوار غامضًا كذلك.

ومن عيوب هذا الكاتب، عدم استطاعته الاستمرار في الكلام على نقطة واحدة؛ فنراه يحاول تفسير عدة أشياء دفعة واحدة، فتكون النتيجة أنه لا يوضح شيئًا. ويمكن العثور على مَثل واضح لذلك في الفصل ٥٧ ... إلخ. من خطبته «عن الأسرار»؛ حيث تنساب أفكاره على لسانه بسرعة عظيمة، في حين أنه لا يملك المهارة الفنية التي تمكِّنه من وضعها في مواضعها الصحيحة. وتزوِّدنا مثل هذه العبارات بتعليق عملي على مقدمة تلك الخطبة نفسها التي يقول فيها إنه لا يعرف من أين يبدأ.[٣٧]

ومن ناحية أخرى يمكن العثور على فقرات بها مجموعات من عبارات قصيرة لا رباط بينها، يشوِّهها التغيير المفاجئ في الأفكار فتفقد تأثيرها؛ إذ تنتقل المشاعر فجأةً من ناحية إلى أخرى. ومثال ذلك ما يأتي:

> «وبعدئذٍ سأل الرسول عمَّن وضع «غصن المتضرِّع»؛ فلم يجبه أحد. وكنا نقف في تلك الآونة متجاورين، وكان يستطيع كالياس رؤيتي، فلما لم يجِب أحد عاد إلى المعبد. حينئذٍ تقدَّم يوكليس Eucles قائلًا: «أتسمح لي بأن أستدعيه؟» إذَن الآن، تقدَّم يا يوكليس واشهد بأنني أقول الصدق.»[٣٨]

---

[٣٤] عن الأسرار، فصل ٩٩: ὦ συκόφαντα καὶ ἐπίτριπτον κίναδος, κ.τ.λ.

[٣٥] عن الأسرار، فصل ٩٣.

[٣٦] انظر ص٧٣.

[٣٧] عن الأسرار، فصل ٨.

[٣٨] عن الأسرار، فصل ١١٢.

٤

تناولتُ حتى الآن خطبة أندوكيديس «عن الأسرار»، وهي خير أعماله، والآن يجب أن أقول كلمة قصيرة عن خطبه الأخرى.

تختلف خطبته «عن العودة» اختلافًا بيِّنًا عن خطبته «عن الأسرار»، ولو أن التغيير كله في اللهجة؛ فالأسلوب اللفظي هو أسلوبه نفسه، وإن كان هناك ميل أكثر إلى الطباق، واللغة سهلة، والعبارات أقل ازدحامًا بالجمل الاعتراضية. ولكن أندوكيديس يتواضع هنا فيبدو شابًّا عديم الأصدقاء يتحدَّث أمام هيئة ناقدة معادية؛ فنراه معتدلًا في لغته، يعتذر في لهجة الحريص على ألا يغضب أحدًا بأي لفظ تهكُّمي أو كلمة بذيئة.

فيتكلم في خطبته «عن الأسرار» واضعًا نصب عينيه، لا الغرض الأحسن فحسب؛ بل والقوى الزائدة والمركز المضمون في الدولة كذلك. إنه واثق من نفسه، وغالبًا ما يكون متعجرفًا. وإنه لقاسٍ وعنيف في مهاجمة خصومه.

ويشبه أسلوب خطبته «عن السلم» أسلوبه في الخطب الأخرى مع بعض استثناءات نحوية، وقد أعلن ديونوسيوس أنها زائفة، ولكن أغلب النقَّاد المحدثين يعتبرها صحيحة.

وأهم أسس الشك عدم دقة الرواية التاريخية (فصل ٣–٩)، والحقيقة الغريبة من أن هناك فقرة مشابهة تمام الشبه في أيسخينيس (عن البعثة الزائفة، فصل ١٧٢–١٧٩)؛ حيث تظهر من جديد بعض شواذ التركيب.[٣٩] أما عن التاريخ؛ فقد كان الخطباء دائمًا عديمي الدقة فيما يختص بالتاريخ الماضي لوطنهم؛ فترد بيانات غير دقيقة حتى في خطبة «عن الأسرار».

إن ديموستينيس حجة موثوق به حتى في الحوادث التي تكاد تكون معاصرة له. أما عن الموضوع الآخر؛ فهناك عذر عظيم في الاعتقاد بأن أيسخينيس قد انتحل مؤلَّفات أندوكيديس، بدليل أن الإشارة إلى أندوكيديس — جد الخطيب — الواردة في كلتا الخطبتَين، قد وردت في مكانٍ ما بخطبة لأندوكيديس؛ فلو كان أيسخينيس هو مؤلفها ما كان هناك داعٍ إلى ذكره، وفي نقطة أقل أهمية، كما أظهر جِب Jebb، أن أندوكيديس أكثر دقة من أيسخينيس.

---

[٣٩] مثلًا التعبير الشعري ὑψηλον ἦρε أندوكيديس فصل ٧، أيسخينيس فصل ١٧٤. قارن يوربيديس، المتضرعات ٥٥٥، وهرقل، ٣٢٣.

ومن العسير الأخذ بالاقتراح القائل بأن خطبته «عن السلام» زائفة، وضعها بليغ متأخر انتحل مؤلفات أيسخينيس؛ فيبقى بعد ذلك احتمال ثالث، وهو أن كلًّا من أيسخينيس وأندوكيديس قد نقل من نفس المجموعة نصف التاريخية، التي قد تكون تمرينات بلاغية مفقودة.

ولم تنتعش خطبتاه «عن السلم» و«عن العودة» بالميل إلى القصص التاريخي أو الاقتباس المباشر للحديث الذي يميِّز خطبته «عن الأسرار»؛ فإن الحوار التاريخي السابق الذكر عقيم في حد ذاته، ولكنه يتخلَّص أحيانًا من الملل من خطبته «عن السلم» بعدم تكرار العبارات البلاغية.

«ماذا يتبقى لنا للمناقشة؟ موضوع كورنثة Corinth، ودعوة أرجوس Argos. فأودُّ أولًا أن أعلم شيئًا عن كورنثة؛ فما قيمة كورنثة لنا إذا لم يشترك البويوتيون Boeotians معنا في الحرب وعقدوا صلحًا مع إسبرطة؟ تذكروا يا رجال أثينا، ذلك اليوم الذي اتحدنا فيه مع البويوتيين، وماذا كان شعورنا نحو هذا الاتحاد؟ ألم نكن نحن والبويوتيون من القوة بحيث نستطيع الوقوف في وجه العالم كله؟ ولكن مشكلتنا الآن هي كيف يمكننا مقاتلة إسبرطة دون مساعدة البويوتيين، لو عقد هؤلاء الصلح مع إسبرطة؟ يقول البعض إنه يمكننا مقاتلتهم لو أمكننا حماية كورنثة وتحالفنا مع أرجوس.

وهل نساعد أرجوس أو نتخلَّى عن معاونتها عندما يهاجمها الإسبرطيون؟ لا بد لنا أن نقرِّر أي السبيلين نختار.»[٤٠]

لا يعطي طلب الصلح فرصة للخطابة كالنداء لحمل السلاح مثلًا، ومع ذلك يستطيع الخطيب العظيم أن يزيد من أهمية الموضوع.

ولا شك أن الخطبة «ضد ألكيبياديس» زائفة، وتاريخها متأخِّر كثيرًا؛ فهي تقوم على سوء فهم تامٍّ لطبيعة قانون الحرمان من حقوق المواطنين. وفيها يمثل الخطيب ويناقش الموضوع على أن المحروم من حقوق المواطنين هو إما الخطيب نفسه أو نيكياس Nicias أو ألكيبياديس. وهذا موقف جد عسير، وهذه الخطبة عبارة عن مجموعة أو أكثر قليلًا من القصص المحفوظ عن ألكيبياديس كالتي توجد في بلوتارخوس.

وأسماء الخطب المفقودة محفوظة:

[٤٠] «عن السلم»، فصل: ٢٤–٢٦.

πρὸς ἑταίρους, συμβουλευτικός, περὶ τῆς ἐνδείξεως, ἀπολογία πρὸς Φαίακα.

ولا يوجد غير شذرات — عبارة عن بضعة أسطر — من خطبتَين مجهولتَي الاسم، تشير إحداهما إلى أن هوبربولوس Hyperbolus لا يزال في أثينا، وعلى ذلك يجب ألا توضع في تاريخ أبعد من عام ٤٠٧ق.م. أي العام الذي طرد فيه هوبربولوس. وهي جديرة بالاقتباس؛ لأنها صورة طبق الأصل لكبرياء ذلك الأرستوقراطي الصغير الذي لم تحنِّكه نوائب الدهر.

«إني لأخجل إذ أذكر اسم هوبربولوس، فوالده عبد موصوم، يعمل حتى الآن في المصنع العام لسكِّ النقود، وهو نفسه أجنبي، بربري وصانع مصابيح.»[٤١]

[٤١] شذرة ٥ (بلاس).

الفصل الرابع

لوسياس

١

عندما نحاول ترتيب الخطباء ترتيبًا زمنيًّا، نجد هذا الأمر مضللًا؛ إذ تتفاوت حياتهم وأزمنة نشاطهم تفاوتًا بيِّنًا. فحوالي سنة ٣٩٠ق.م. كان أندوكيديس لا يزال يؤلِّف خطبًا، بينما كان لوسياس Lysias في مهده. أما إيسوكراتيس فكان قد كوَّن لنفسه شهرة، وبدأ إيسيوس Isaeus يكون معروفًا؛ لذا قد يكون تهورًا إن حاولنا في أعمال أحدهم تتبُّع أثر أي خطيب غيره؛ فمن حيث الكلام والكتابة، كان لكل المعاصرين شيء يُعلمونه وشيء يتعلمونه، بَيدَ أننا لا نستطيع الجزم بأن هذا بالذات كان سابقًا أو تلميذًا لغيره بالمعنى الحرفي.

كان لوسياس من أصل سيراكوزي، وكان والده كيفالوس Cephalus، الذي يعطينا أفلاطون صورة رائعة عنه في الفصول الأولى من «الجمهورية»، قد أغراه بركليس بالإقامة في أثينا حيث ولد لوسياس. ويقول بلوتارخوس الكاذب إنه ولد عام ٤٥٩ق.م. وهو نفس العام الذي يذكره لنا ديونوسيوس، غير أن هذا التاريخ قائم على الحدس والتخمين؛ فمن المعروف أنه ذهب إلى ثوريي Thurii في الخامسة عشرة من عمره، وثوريي هذه أُسِّست عام ٤٤٣ق.م. إلا أنه ليس هناك ما يثبت أن لوسياس ذهب إليها في سنة تأسيسها، ولكننا نعلم فقط أنه لا يمكن أن يكون قد وُلد قبل سنة ٤٥٩ق.م. وتذكر الروايات المتناقلة أنه عاش حتى الثمانين أو الثالثة والثمانين، كما أن آخر خطبة له معروفة، مؤرَّخة حوالي ٣٨٠ق.م. فإذا فُرِض أنه مات بعد عام ٣٨٠ق.م. فقد اتفقنا.[١] والرأي الحديث الذي يؤيده بلاس، من أن لوسياس لم يولد قبل عام ٤٤٤ق.م. يفتقر إلى دليل يعززه؛ فهو

[١] خطبتان مفقودتان لإفيكراتيس Ephicrates، ٣٧١ق.م. ٣٥٤ق.م. اعتبرهما ديونوسيوس زائفتَين، ولكنه إذا سلم بتاريخ مولد لوسياس سنة ٤٥٩ق.م. اضطره إلى الاعتراف بأن هاتَين الخطبتَين ليستا له.

قائم قبل كل شيء على بيان لبلوتارخوس الكاذب يقول إن لوسياس لم يذهب إلى ثوريي إلا بعد أن مات والده، والاعتقاد بأن كيفالوس كان على قيد الحياة سنة ٤٣٠ق.م. ذلك التاريخ الذي يفترض أن رواية «الجمهورية» وُضعت فيه، غير أن بلاس قد جمع بنفسه أمثلة تدلُّ على عدم دقة أفلاطون في تقدير التواريخ، كما أن كاتب حياة مشاهير الرجال في حد ذاته حجة ضعيفة.

إذَن فقد ذهب لوسياس مع أخويه بوليمارخوس Polemarchus ويوثوديموس Euthydemus، ويقال إنه درس على البليغ تيسياس Tisias السيراكوزي. وبعد ضياع الجيوش الأثينية في صقلية سنة ٤١٣ق.م. كان لوسياس وشقيقاه ضمن ثلاثمائة رجل متهمين بالتحيُّز إلى أثينا، فطُردوا من ثوريي وعادوا إلى أثينا عام ٤١٢ق.م. ومن هذه السنة حتى سنة ٤٠٤ق.م. عاش الإخوة في رغد من العيش وسعادة، وكوَّنوا ثروة عظيمة؛ إذ كانوا يملكون مصنعًا للدروع يشتغل به ١٢٠ عبدًا.

لقد كان لهم أصدقاء عديدون، وكانوا ينتمون إلى الطبقة الراقية من الأجانب المعروفة باسم isoteleis، ويثبت دليل أفلاطون وديونوسيوس أنهم اختلطوا بالطبقة المثقفة جدًّا، وكانوا يفخرون بجميع الخدمات العامة التي قاموا بها.

ولكن الدهر بالناس قلب، فقد قلب لهم ظهر المجنِّ، فتغيَّر حظهم بقيام حكومة الثلاثين عقب ثورة حدثت عام ٤٠٤ق.م. ويصف الخطيب الطريقة التي تم بها خرابهم وصفًا دقيقًا فيقول: أقسمت حكومة الثلاثين بأن تطهِّر المدينة من الأشرار الآثمين، وتجعل الفضيلة والعدل رائد باقي المواطنين، وأشار اثنان من القادة إلى أن بعض الأشراف metoecio غير راضٍ عن الدستور الجديد؛ لأنهم كانوا أثرياء، وبذا لا يكون إعدامهم فرضًا أدبيًّا فحسب، بل وحركة مالية سليمة. وقد تغلَّب هذان على زملائهما الذين يصفهم لوسياس بدقة فيقول: «إنهم لم يفكِّروا مطلقًا في التمتع بالحياة، بل كان كل همِّهم منصرفًا إلى جمع ثروة.» وكان اسم الخطيب في القائمة فقبض عليه في داره في أثناء حفل عشاء، ويصف هو ما أعقب ذلك:

> «توسَّلت إلى بيزو Piso أن ينقذ حياتي نظير مبلغ من المال، فأجابني: إنه يفعل ذلك لو كان المبلغ كبيرًا، فأخبرته بأنه يمكنني أن أدفع له وزن تالنت Talent،[٢]

[٢] التالنت وزن كان يستعمله قدماء الإغريق والرومان والعبرانيين، ووزنه من الفضة يعادل ٢٥٠ جنيهًا تقريبًا، ومن الذهب حوالي ٨٠٠٠ جنيه.

فوافق على هذا العرض. وكنت على يقين من أنه لا يهتم بالله أو بأي إنسان ولا يُوثَق في ذمته، ولكن مع ذلك كنت أعلم أن فرصتي الوحيدة هي في ثقتي به، ولذلك عندما أقسم بحياته وحياة أولاده أنه ينقذني لو أخذ التالنت، صحبته إلى خزانة أموالي وفتحتها أمامه.»

«وإن رؤية ٦ تالنت من الذهب والفضة خلاف بعض السبائك، لأكثر مما تتحمَّله ذمة بيزو؛ فطمع فيها كلها، ولما طلبت منه أن يسمح لي بما يكفيني في رحلتي، أجابني بأنه يجب عليَّ أن أقنع بإنقاذ حياتي.»

ترك بيزو السجين في حراسة دامنيبوس Damnippus وثيوجنيس Theognis في منزل الأول، وقد وافق دامنيبوس الذي يظهر أنه كان أرقَّ قلبًا من الباقين على أن يحادث ثيوجنس في أمر لوسياس؛ إذ كان يعلم أنه يأتي أي أمر من أجل الأصفر الرنَّان. وبينما كانا يتساومان أفلت لوسياس من الباب الخلفي دون أن يلاحظه أحد، وأقلع في اليوم التالي في سفينة إلى ميجارا Megara؛ فقبض إيراتوسثينيس Eratosthenes على أخيه بوليمارخوس وأُعدِم.[٣]

وفي أثناء نفيه الذي دام أقل من سنة، أثبت لوسياس أنه صديق حقٌّ للديمقراطية؛ فقد تبرَّع للجيش بمائتي درع، وتمكَّن من تجنيد المتطوعين، وجمع التبرعات؛ فلما انهارت الأوليجاركية في سنة ٤٠٣ق.م. أصدر مجلس الإكليسيا Ecclesia قرارًا، عقب حركة ثراسيبولوس، بمنح لوسياس جميع حقوق المواطن، بَيدَ أنه نتيجةً لبعض الأخطاء، اعتبر القرار غير شرعي؛ ففقد لوسياس تلك الحقوق. ومنذ ذلك الحين حتى عام ٣٨٠ق.م. ولوسياس يجدُّ في كتابة الخطب، وقد ألقى بعضها بنفسه. ولا بد أن كان نشاطه هذا أمرًا ذا بال؛ إذ ينسب إليه ديونوسيوس ما لا يقلُّ عن مائتي خطبة قضائية.

وتدلُّ محاكمة إيراتوسثينيس Eratosthenes سنة ٤٠٣ق.م. على اتصال لوسياس الشخصي بالسياسة الأثينية، وفي فرص الأوليبياكوس Olympiacus نرى لوسياس يترافع أمام جمع غفير من المستمعين في العيد الأوليمبي سنة ٣٨٨ق.م. وتبعًا لحساب القدامى، يكون قد مات عقب عام ٣٨٠ق.م. مباشرة، وقد بلغ من العمر ما يقرب من الثمانين عامًا.

[٣] «ضد إيراتوسثينيس»، فصل: ٥–١٧.

٢

نجد في الأدب، كما هو الحال في السياسة، أننا نملُّ سماع تلقيب أرستيديس Aristides بالعادل، تلك سنَّة الكتَّاب الكاملين، لا نوفيهم ما يستحقون من إعجاب القارئين؛ ففي اللاتينية نرى أن تيرنس Terence، الذي يقرظ أسلوبه الجميع، أقل قراءة من بلاوتوس Plautus ذي الأسلوب الخشن، ونجد في الإغريقية أن لوسياس، الذي يعتبره النقَّاد القدامى المثل الأعلى لكتَّاب النثر الآتيكي،[٤] يحظى بتقدير أقل من ديموستينيس.

وباستخدام اللغة الدارجة كوسيط أدبي، استطاع لوسياس، بمهارته الفريدة، وسيطرته على مصطلحاتها، أن يرفع من شأنها إلى البساطة ودقة التعبير اللتين لم يبذه فيهما كاتب آخر، وهذه البساطة خدَّاعة كما نرى:

Speret idem, sudet multum	‘ut sibi quivis
Ausus idem’	frustraque laborct

ولا يمكننا أن نلمس عظم الدور الذي لعبه الفن في صوغ هذا التركيب الذي يبدو طبيعيًّا، إلا إذا حللنا فقرة أو حاولنا محاكاة الأسلوب.

يبدو لنا اللين بعد حين على وتيرة واحدة، فيتحوَّل كثير من القُراء بارتياح من كمال لوسياس إلى خشونة أنتيفون الزائدة، أو إلى طلاوة أفلاطون المتباينة. وايم الحق إن لوسياس يمدُّنا بمَثل رائع لأنقى أنواع النثر، بَيدَ أن الخشونة النسبية للذوق المتوسط تفضِّل ما هو أقل إتقانًا، وما هو أقل عناية بإصلاح الشوائب الطبيعية التي تحول دون التلذذ والاستمتاع، وما هو أقل خلوًّا من الألفاظ الجوفاء التي تعطي الأسلوب صفةً ما.

وإلى هنا أكون قد ناقشت فقط أثر اللغة العظيم في الأسلوب، دون النظر إلى أي عنصر شخصي.

أما لوسياس كخطيب فيبدو لأول وهلة أنه ميئوس منه، مفتقر إلى الحميَّة وقوة الدقة.

[٤] ديونوسيوس، ضد لوسيا de Lysia، الباب الثاني: Ἀττικῆς γλώττης ἄριστος κανών (أفضل عصًا للسان الآتيكي).

ونظرًا لهذا الضعف الواضح، يجب علينا أن نتسامح بعض الشيء، ونتذكر أننا نحكم عليه بوساطة خطب كتبها لغيره، وخطب لقضايا غير هامة في حد ذاتها، قليلة المتعة في تفاصيلها.

وليس معقولًا أن نطلب صفات أكثر من تقرير واضح للواقع في خطبة عن محاكمة وصي اختلس (ضد ديوجيتون Diogiton)، أو عن تهمة نيكوماخوس Nicomachus الوالي الذي لم يقدِّم حساباته في الوقت المناسب؛ فمثل هذه القضايا ذات أهمية عظمى بطريق غير مباشر، للفقيه لأنها تحمل على شذوذ القانون الآتيكي، وللقارئ العام لأنها تعطي تفاصيل تساعد على تصوير الحياة العامة والخاصة في أثينا. ولا يحق لنا أن نصدر حكمًا سريعًا على الكاتب لأن خطبه، باعتبارها أمثلة من الخطابة، أقل جاذبية وأثرًا من بعض النماذج الأكثر شهرة.

وسأحتفظ للمناقشة فيما بعد بالخطبة الوحيدة التي تتضمَّن صورة عميقة لمشاعر لوسياس الشخصية، وهي اتهام إيراتوستينيس. ولا توجد خطبة واحدة من باقي خطبه، لو أخذت بأجمعها، يمكن مقارنتها بأروع خطب ديموستينيس العامة أو مقالاته. ولو أن لوسياس كان يضطر كثيرًا إلى تناول محاكمات لعامة الشعب؛ فإن هذه المحاكمات لم تكن في الحقيقة ذات أهمية عامة، ولم تكن مهمة لوسياس أن يضع طريقًا محدودًا في السياسة لتسير عليه مدينته، ولم يكُن من شأنه أن يوقظ أمة فاترة ويحثُّها على ضرورة البتِّ السريع في أمورها. ولا يمكننا أن نصدِّق أن أيَّة خطبة من خطبه كانت للمرافعة أو كان يقصد بها المرافعة في أثينا عمومًا.

وحتى عندما كان يتناول الحوادث التي وقعت إبان دكتاتورية الثلاثين، تتسلط علينا فكرة، أن تلك الفئة من الشعب، التي كان يهمها مباشرة تقدُّم الثورة أو عرقلتها، هي التي كانت تهتم بمعاقبة أو مكافأة من لعبوا فيها أدوارًا قليلة الأهمية، في حين أن الأغلبية لم تهتم بالحوادث الجارية إبان فترة الانقلاب في كثير أو قليل، والآن وقد انتهت الفوضى، تلهَّفت هذه الأغلبية إلى أن تفيد من الحالة الراهنة بأقصى ما يمكن؛ فقد كانت الذاكرة السياسية ضعيفة في أثينا.

كان موقف ديموستينيس يختلف عن ذلك تمامًا؛ فلم يكن أعظم نشاط له عقب أزمة، بل كان إبان خطر قومي، فوجد فرصة بل فرصًا عظيمة وتحيَّنها.

وإن تكوين عظماء الرجال السياسيين أو الخطباء، ليتطلَّب حماسة بالغة، وإن رجلًا موهوبًا متشبِّعًا بفكرة إقامة صرح الوطنية، لو صادفته فرص خاصة، لأصبح بركليس آخر، ولو أتيح اجتماع ملائم لمثل هذه الظروف لأمكن أن يولد لنا إسكندر آخر.

وفي الأزمنة الحديثة تتمتع المعارضة عادة بأعظم نصيب من الفصاحة، وكان الفشل في جميع العصور سببًا في خلق رجال عظماء.

يدين ديموستينيس بشهرته العظيمة بعض الشيء إلى مقدرته الخارقة، ولكنه يدين بمعظمها إلى الفرص التي أتيحت له، وإلى محاربته الفتور القوي والعدوان الأجنبي ليصل إلى غرض سامٍ؛ هو تحرير أثينا. وإن المواهب التي تقلُّ عن مواهب ديموستينيس لتتألَّق في مثل هذه الظروف؛ فما بالك بمواهبه النادرة؟ ومن ناحية أخرى؛ فلو لم تُتح له فرصة الخطابة ضد فيليب Philip، لأصبح تقريبًا في مرتبة الخطباء أمثال لوسياس.

٣

لا يقلُّ لوسياس بساطة في ترتيب عناصر موضوعه، عنه في أسلوبه، ويمكن عمليًّا تحليل كل خطبة وصلت إلينا كاملة إلى أربعة عناصر؛ التصدير، والسرد، البرهان، والخاتمة. وقد تكون المقدمة والخاتمة بسيطتَين جدًّا، وقد يكون السرد مقنعًا لدرجة إمكان الاستغناء عمليًّا عن البرهان، وقد لا تكون هناك وقائع يمكن سردها، حتى إنه لا يحتاج زيادة على عبارات الاتهام إلا إلى جمع الأدلة؛ بحيث لا يحدث أي تغيير في ترتيب العناصر.

رأينا أن أندوكيديس كان يقسم روايته بسليقته، إذا كانت هناك قصة طويلة، خالطًا عناصرها مع أدلة التفاصيل، وأن إيسوكراتيس الذي يتمسَّك بضرورة التقسيم الذي استعمله لوسياس، يحيد أحيانًا عن قواعده هو شخصيًّا، بينما كان إيسيوس يقسِّم أجزاء العناصر تقسيمًا فقهيًّا ويرتِّبها؛ وبذا يحاول، كما يقول ديونوسيوس «أن يتغلَّب على مناورات القضاة.»[٥]

هدف لوسياس في حدود هذا النطاق إلى المرونة، ولمَّا كان ترتيب الخطبة يحتَّم البتُّ الدقيق؛ فإن ذوقه الفني كان يتطلَّب عدة تفاصيل متباينة. ويلاحظ ديونوسيوس أنه على الرغم من كون لوسياس قد ألَّف مائتي خطبة؛ فإنه لم يستعمل قط المقدمة الواحدة مرتين، وقد اعتاد بعض الخطباء استعمال بعض الجمل الاستفتاحية التي استخدمت في مقدمات خطب سابقة، وأحيانًا كانوا يستعيرون مقدمات كاملة من خطب أسلافهم.

[٥] ...

أما لوسياس، فبإدراك فطري صحيح لما يناسب المقام، قد أَلَّف مقدمة Proem لكل خطبة يتفق وما تتطلَّبه ظروفها، وإن مقدرته على التنويع في هذا المضمار لمَّا يثير عظيم الإعجاب.

ويجب أن نلاحظ كذلك أن هناك كثيرًا من التنويع في طرق ختم خطَبه، فعلى الرغم من أن خاتماته تذكر الشيء نفسه في ألفاظ مختلفة؛ فإنها تنجح كلها تقريبًا في ذكره بطريقة تجعل كلًّا منها يناسب خطبة معينة دون غيرها.

وكما أن هناك تنويعًا في هذه الصور؛ فهناك كذلك تنويع عظيم في تفاصيل التعبير؛ فنجد تكلُّفات شكلية قليلة يمكننا التشبث بها إذا ما أردنا قلب الأسلوب الجدِّي إلى هزلي، فهناك — والحق يقال — عبارة أو عبارتان من العبارات الضرورية الشائعة كان يستخدمهما دائمًا، ولكن حتى هذه كان يغيِّر من صورتها بين آونة وأخرى.[٦]

٤

يغيِّر لوسياس كثيرًا في تركيب عباراته، فتارة نجد عبارات ذات سجع متقن موزونة الجمل، وطورًا يسترسل في كتابته دون أي سجع، وتارة أخرى يخلط بين الطريقتَين واضعًا في وسط عبارات السجع جملًا اعتراضية أو جملًا بها أسماء موصولة تظل معلَّقةً دون صلات، أو يأتي في آخر السجع بحشو يشوِّه الوزن فنيًّا، ومن العسير إثبات ذلك بالتفصيل دون ذكر عدد عظيم من الأمثلة، غير أننا نستطيع القول بأن أسلوبه أكثر سجعًا في المواضيع الجدِّية ذات المنفعة العامة، ويكون أبسط وأسلس في خطبه الخاصة عن المواضيع التافهة نسبيًّا.

وغالبًا ما يكون هناك تغيير في نفس الخطبة الواحدة، وكما أشار بلاس وآخرون، تُروى القصة عادةً في أسلوب سهل،[٧] بينما يستخدم أروع عبارات السجع في الحوار والبرهان. وكما سبق أن أشرنا في باب سابق،[٨] يختلف عادةً أسلوب السرد عن أسلوب الحوار. ويجوز الظن بأن القضاة وهم يعالجون القضايا الخطيرة؛ كانوا يهتمون بأسلوب

---

[٦] مثل: αξιον δ'ευθυμηθήναι ότι: وكذلك δεινὸν δέ μοι δοκεῖ εἶναι εἰ νῦν μὲν… τότε δέ, κ.τ.λ.

[٧] أمثلة ذلك عديدة، منها خطبة بولواينوس Polyaenus (للجندي فصل ٤–٥) التي توضح بساطة في السرد يتعذَّر على هيرودوت أن يأتي بأحسن منها.

[٨] الباب الثاني، صفحة: ٣٣–٣٤.

الخطبة الأكثر كمالًا أكثر من اهتمامهم بالأسلوب البسيط الدارج الذي قد يسمح به في القضايا التي تنظرها محاكم الشرطة الصغرى. بَيدَ أن لوسياس كان يستعمل أكثر من طريقة واحدة حتى في خطبه الخاصة القليلة الأهمية، ونُحس بأنه كان ينوِّع من أسلوبه في تركيب العبارات، ليلائم طابع المتحدث الذي كتب له؛ فنرى الشاب مانتيثيوس Mantitheus بسيطًا في حديثه بقدر براعته في أفكاره، بينما نرى المقعد الذي نشعر بأنه وغد يستحق الثناء، يأتي بطباقات سلسة رائعة، مثل:

«يستطيع الأغنياء بأموالهم شراء نجاتهم من الخطر، أما المعدمون فمضطرون بسبب عوزهم إلى التعوُّد على الاعتدال، ويطلب الصغار التساهل من الكبار، غير أن كلًّا من الصغار والكبار لا يصفح عن زلَّات غيره.

ويجد الأقوياء فرصًا للإساءة إلى من يشاءون ولا حرج، بينما لا يستطيع الضِّعاف الدفاع عن أنفسهم ضد من يعتدي عليهم، كما لا يمكنهم التغلُّب على من يريدون الاعتداء عليه.»[٩]

٥

ليس تنوُّع التراكيب سوى سبيل بسيط يساعد على تصوير الطابع، وهذا جزء ضروري من مهمة محترف كتابة الخطب الذي يريد توخِّي الحقيقة والواقع. ولكي تبدو الخطبة مناسبة لمن يلقيها، لا يكفي أن تطابق عباراتها وألفاظها طابعه وأخلاقه، بل ويجب أن تطابق نبرات صوته ومشاعره هذا الطابع أيضًا، وقد حاول لوسياس الحصول على هذا الأثر، ويعتقد أنه نال نجاحًا باهرًا.

ويمكننا إلى حدٍّ ما أن نكشف عن طبيعة الخطباء من خطبهم، ولا نقول عن طبائعهم كلها؛ إذ ليس لدينا ما ينبئنا عن لهجاتهم وطرق إلقائهم.

ونستطيع من فروض مختلفة تكوين وجهات نظر عن كثير من الخطباء؛ فإن المدَّعى عليه في قضية الرشوة (الخطبة الحادية والعشرون) يلقي بيانًا مستفيضًا مفصَّلًا عن خدماته للدولة في نثر كله سجع، مبيِّنًا حساب الأموال التي أنفقها في الطقوس الدينية (الباب ١–١٠)، ويستنتج من كل ذلك أنه كان ذلك الشخص الذي يقنع بالقليل، منفقًا جلَّ ثروته في صالح بلاده، وبذا لا يمكن أن يكون لديه أي باعث على أخذ رشوة فيضر بلاده.

[٩] لأجل المقعد For the Cripple، فصل ٧.

ومن مانتيثيوس يمكننا أن نكوِّن صورة حية ممتعة عن شاب أثيني عريق النسب حسن التربية، يعترف صراحة بأن عنده عاطفة مهذبة، وأنه طموح وقوي إلى حد إبراز نفسه كخطيب في الإكليسيا (مجلس الأثينيين الأحرار)؛ حيث قد أدى خدمات طيبة في هذا المضمار.

فالخطبة في مجموعها صريحة وتدلُّ على الثقة التامة بالنفس؛ بَيدَ أنه ليس فيها ما يشير إلى الفخر والمباهاة.

«فمن مثل هذه البيانات، يجب عليكم إنصاف الرجل الطموح في حد الاعتدال في حياته العامة؛ فلا ينبغي أن تمقتوا رجلًا لأنه يصفِّف شعره على الطراز الحديث؛ إذ مثل هذه العادات شخصية بحتة لا تؤذي أي فرد بالذات، ولا تسبِّب أي ضرر للمجتمع، كما أنكم جميعًا تفيدون ممن يواجهون أعداءكم بمحض إرادتهم؛ لذا ليس من العدل في شيء أن تحبوا أو تكرهوا شخصًا ما بسبب مظاهره الخارجية، بل يجب الحكم عليه بأعماله. فكم من فئة قليلة الكلام، تلبس في هدوء، كانت مصدر متاعب وأضرار بالغة، بينما كانت فئة أخرى على عكس تلك السجايا وقامت بخدمات جليلة.

كذلك قد لاحظت أن البعض حانق عليَّ لأني تجرَّأت على الحديث أمام الجمهور؛ كنت في اعتقادهم لا أزال غضَّ الإهاب، ولكنني قد أُجبرت أولًا على الكلام أمام الجمهور عن أمور تخصُّني، وعلاوة على ذلك فإني أعتقد أنني طموح بالفطرة لدرجة بالغة.

وإني لأتذكَّر أن أجدادي لم يكفُّوا أبدًا عن خدمة الدولة، وصراحة أرى أن مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع تقديركم.

وطالما كانت هذه عقيدتكم، فمن ذا الذي تكون عنده الشجاعة إذَن للدفاع عن الدولة بالقول والعمل؟ ولمَ تغضبون على من يفعل ذلك؟ وليس لأحد سواكم أن يحكم عليهم؛ فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق.»[١٠]

والخطبة الرابعة والعشرون على لسان المقعد تختلف عن ذلك كل الاختلاف، فهو يدافع عن نفسه عن تهمة الحصول على معاش من الحكومة بادعاءات كاذبة، ويبدو أنه كان كثير الاحتجاج بعاهته وفقره وعجزه العام، في نغمة دائمة التهكُّم، ولا يحاول إخفاء حقده إلا نادرًا.

[١٠] من أجل مانتيثيوس، فصل: ١٨–٢١.

«شكرًا للمدَّعي على إقامة هذه المحاكمة؛ فلم أكن أجد حتى الساعة دافعًا لأعطي بيانًا عن حياتي، وقد أتاح لي المدَّعي هذا الدافع الآن، وسأحاول تكذيبه في خطبتي، وأدلي بالبرهان على أن حياتي كانت حتى اليوم تستحق كل عطف وثناء وإعجاب، بدلًا من الغيرة والحسد، ولا يمكنني الاعتقاد بأنه قدَّمني للمحاكمة إلا لدافع الحسد. وما ظنكم بالخسَّة التي يهوي إليها من يحسد شخصًا يشفق عليه ويرثي لحاله الجميع؟

طبيعي، أنه لم يقُم بالتبليغ عني ليجني من وراء ذلك أموالًا، ولم يقصد معاقبة عدو، بل قام بالتبليغ لسوء خلقه، ولم يسبق لي أيَّة معاملة مع ذلك الذميم الطباع في عداء أو صداقة. ومن هذا يتضح لكم أيها السادة أنه يغار مني؛ فإنني على الرغم من عاهتي هذه، مواطن أحسن منه، وأعتقد أن المرء يعوَّض دائمًا عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة، ولو أبديت عقلية تتناسب وجسدي المنكود الحظ، وصغت حياتي تبعًا لذلك، لصرت سيئًا مثله.[١١]

ليس هناك كثير أقوله عن ركوبي الذي تجرَّأ على ذكره، غير هيَّاب من الدهر ولا محترمًا لكم؛ فإني أعلم أن جميع من يشتغلون تحت أي ضغط أو يعملون أعمالًا فوق طاقتهم، يتلمَّسون وقتًا للاستجمام، ويتخيَّرون أحسن سبل التمتُّع بالراحة من عناء التعب، وأنا أحد أولئك، وقد وجدت كما ترون، في الركوب لأي مسافة متعة وراحة بالغتَين.

ولو تيسَّرت لي المادة لركبت في راحة على بغل بدلًا من جواد مستعار، ولكن ما الحيلة وليس عندي ما أشتري به دابة؟ إذَن كنت مضطرًّا غالبًا إلى استعارة جواد.

وإني لأعجب كيف لم يتخذ من استعمالي عصوين للسير، بينما يستعمل غيري عصًا واحدة، موضوعًا لاتهامي، متذرِّعًا بأن الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين.[١٢]

ويقول أيضًا: إنني أسير مع كثير من الأشرار الذين أنفقوا كل أموالهم ويتآمرون على من يريدون الاحتفاظ بما يملكون، ألا تلاحظون أن هذا الاتهام لا يمسُّني أكثر مما يمسُّ أي شخص آخر يشتغل بالتجارة؟ كما أنه لا ينطبق على زائري أكثر من انطباقه على بقية الطبقة العاملة؛ فكلٌّ منكم يزور بائع العطور والحلَّاق والحذَّاء وكل ذي مهنة، ويذهب أغلب الناس إلى المحالِّ القريبة من السوق، ولا يقصد البعيدة إلا قليلون.

---

[١١] لأجل المقعد، فصل: ١–٣.

[١٢] لأجل المقعد، أجزاء من فصل: ١٠–١٢.

فإذا ما حكمتم بأن زوَّاري أوغاد، وجب عليكم أن تتهموا كذلك كل من يقضون أوقاتًا في حوانيت غيرهم، وإن أذنب زوَّاري، أصبح كل سكان أثينا مذنبين؛ لأن من عادتكم جميعًا التزاور وتمضية أوقاتكم هنا أو هناك.»[١٣]

ومن الأمثلة الجيدة الأخرى لهذا المذهب الواقعي في تصوير الأخلاق خطبة «عن مقتل إيراتوسثينيس de Caede Eratosthenes»، ويبدو أن لوسياس قد أعطانا نوع الخطبة الذي يلائم شخصًا أحمق من الطبقات الوسطى الوضيعة، الذي مهما بالغ في الظهور لا يكون خيرًا ولا أسوأ من جيرانه. وبالصدفة، تزيد هذه الخطبة في معلوماتنا عن الحياة المنزلية في البيت الأثيني:

«وهكذا سارت الأمور حتى رجعت يومًا من الريف على غير انتظار، وبعد الغذاء أخذ الطفل يصرخ ويتململ فقد كان الخادم يعاكسه قصدًا حتى يصرخ؛ لأن إيراتوسثينيس كان بالمنزل. لقد علمت كل ذلك فيما بعد، فطلبت من زوجتي أن تذهب وتطعم الطفل وتمنع بكاءه؛ فرفضت في بادئ الأمر متظاهرة باغتباطها بعودتي بعد طول الغياب، ولكن عندما تملَّكني الغضب وأمرتها ثانيةً بالذهاب، قالت: «نعم سأذهب، وأترككما أنت والخادم وحدكما؛ فإني أعرف سلوكك ذات ليلة وأنت سكران.» فضحكت، ولكنها نهضت وذهبت وهي تتظاهر بالمزاح في غلق الباب، فأوصدَته بالمزلاج من الخارج.

لم أكن أفكر في ذلك ولم يساورني أي شك قط، وسررت بالذهاب إلى مضجعي بعد العمل المضني في الريف ذلك اليوم. وفي الصباح الباكر عادت وفتحت الباب، فلما سألتها لماذا اصطفقت الأبواب في الليل، أجابت بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ، فذهبَت لتبحث عن مصباح عند جارة لها.

لم أعلِّق على هذا ظانًّا أنه عين الحقيقة، وإني لأتذكر أنه كان على وجهها مسحوق رغم موت أخيها منذ أقل من شهر، ولم أقل شيئًا عن ذلك أيضًا، ثم غادرتُ المنزل وقصدتُ إلى عملي دون تعليق.»[١٤]

---

[١٣] لأجل المقعد، فصل: ١٩–٢٠.

[١٤] عن مقتل إيراثوسثينيس، فصل ١١–١٤.

٦

على الرغم من أن لوسياس يظهر غريزة درامية في عرضه للأخلاق، فهو نادرًا ما يلجأ إلى المؤثِّرات المسرحية ليتغلَّب على مشاعر المحكمة؛ فهو يثق بالمنطق أكثر من وثوقه بعناصر الحنو والفزع، ويظهر اعتدالًا في اللغة بالقياس إلى التحفُّظ الذي يميِّز أسلوبه عامة، ويتجنب أنواع المبالغة، حتى في قصة القبض عليه؛ إذ يرويها بأسلوب هادئ وغير شخصي تقريبًا.[١٥] ومما لا شك فيه أن لوسياس كان يجني من وراء ذلك تقديرًا وإجلالًا عظيمَين. ويوافق مشهد السجن كما يصفه أندوكيديس [١٦] مشاعرنا كثيرًا، بَيدَ أنه من المؤكد أن ما هو أكثر تأثيرًا من ذلك، هو هيبة مثل ذلك المنظر في لوسياس:

«فلما أُدِينوا بالقتل واقتربت نهايتهم، أرسلوا يطلبون قريباتهم — من أخت وأمٍّ وزوجة، كلٌّ حسب حالته — ليزرنهم في السجن حتى يودِّعوهن الوداع الأخير. وقد استدعى ديونوسودوروس Dionysodorus أختي، وكانت زوجته؛ فلما علمَت بالدعوة جاءت في ثياب الحداد، كما يجب، حزنًا على حالة زوجها.»[١٧]

وبعد أن تصرَّف السجين في ممتلكاته، أوصى زوجته في خشوع بأنها إذا أنجبت ولدًا، تخبره بأن أجوراتوس قد قتل أباه، وتأمره بالانتقام من القاتل.»

لا نجد هنا أية إشارة للبكاء والعويل كما يصف أندوكيديس، لا شيء سوى الشجن الصامت للقصة نفسها، الذي يأتي بأثره المرجو في تحريك المشاعر. وإن لمثل هذا الأسلوب لأثرًا أكثر استدرارًا للعطف عند طبقة خاصة من المستمعين، أكثر من أي مبالغة في الحزن. ومثل هذه الفقرات كافٍ لدرء التهمة عن لوسياس إذ ينقصه الحنان.

٧

لم تنقص لوسياس روح الفكاهة والمداعبة؛ فقد كان في بعض الأحايين يستعمل التهكُّم، الذي يكون تارة رقيقًا مرحًا، وطورًا لاذعًا قاسيًا إلى حد الوحشية حسب ما تقضي به

---

[١٥] صفحة ٨٣.

[١٦] صفحة ٧٩–٨٠.

[١٧] أجوراتوس Agoratus، فصل: ٣٩–٤٠.

الظروف، فنراه في الإبيتافيوس Epitaphios يشير إلى كيف كان يعتقد الفرس أن خير فرصة لنجاحهم هي غزو بلاد الإغريق، بينما كانت بلاد الإغريق نفسها تتنازع فيما بينها على خير السبل للدفاع ضد الغزو.[١٨]

ويمكن العثور على عبارات أخرى في خطبته «لأجل المقعد».[١٩] وأحيانًا يقدِّم إشارة تهكمية بوساطة التلاعب بالألفاظ مثل βουλευειν-δουλευειν في فيلو Philo (فصل ٢٦)، «إنه يرغب في مركز خادم عام، ولكن ما يستحقه هو مركز عبد عام.» ونذكر مثلًا من بين الأمثلة العديدة في النيكوماخوس Nicomachus للمقارنة بينه وبين فقرة مشابهة بعض المشابهة في أندوكيديس: «لقد أصبح الآن مواطنًا بدلًا من أن يكون عبدًا، وثريًّا بدلًا من أن يكون معدمًا، ومشرِّعًا بدلًا من مساعد كاتب.» ويقلُّ هذا كثيرًا في تأثيره عن الدور غير المنتظر الذي يعطيه أندوكيديس لفقرة مشابهة.[٢٠]

وأخيرًا تحتوى شذرة الخطبة ضد أيسخينيس السقراطي Aeschines the Socratic على فقرة فكاهية طويلة، وكان لدى أيسخينيس شغف باقتراض المال دون أن يردَّه «لقد عامل جيرانه معاملة سيئة لدرجة أنهم كانوا يهجرون مساكنهم بأسرع ما في طاقتهم ويسكنون بعيدًا جدًّا عنه ... ويخيَّل إلى من يرى جموع الدائنين المتزاحمين إلى باب داره في الصباح الباكر، أنهم مجتمعون لتشييع جنازة.»

وهكذا يستمر في أسلوب هزلي حتى يختم أقواله بتعليق كله حقد على معشوقة أيسخينيس «لأن تَعُد أسنانها أيسر بكثير من أن تَعُد أصابع يدها.»

٨

لقد ألَّف لوسياس عددًا خارقًا من الخطب؛ فمن بين الأربعمائة والخمس والعشرين خطبة المنسوبة إليه، يصرِّح ديونوسيوس بأن مائتين وثلاثًا وثلاثين صحيحة،[٢١] ولدينا الآن

---

[١٨] انظر صحيفة ٩٩، عن موضوع الحقيقة Authenticity.

[١٩] انظر صحيفة ٨٩ وما يتلوها.

[٢٠] لوسياس، نيكوماخوس: فصل ٢٧، أندوكيديس «عن الأسرار» فصل ٩٣، الآتي ذكره في صحيفة ١٠٤.

[٢١] بلوتارخوس الكاذب، حياة الخطباء العشرة. ديونوسيوس، عن لوسيا، الباب السابع عشر: διακοσίων οὐκ ἐλάσσους δικανικοὺς γράψας λόγους.

أربع وثلاثون خطبة إما تامة وإما تنقصها أجزاء في بعض الحالات، وتُعرف مائة وسبع وعشرون خطبة ببقاء عناوينها أو قطع صغيرة منها.

وحيث إننا لا نستطيع أن نتتبَّع بالدقة تطوُّر أسلوبه حسب الزمن، إذَن فخير تقسيم للخطب هو بحسب مواضيعها.

الخطب البليغة

لا شك في أن شذرة الخطبة «الأوليمبية» حقيقية، وهي مثل رائع لمؤلفات هذه الطبقة.

لقد عرف السفسطائيون Sophists قبلًا قيمة الفرص التي أعطاها مجلس الحكومة الإغريقية العظيم للتعبير عن الشعور القومي، ورغم أن صناعة الخطابة ربما كانت لإظهار الخطابة نفسها؛ فقد نمت العادة بجعلها فرصة لمناقشة المشاكل السياسية الواسعة. وعلى ذلك قام جورجياس يخطب عن ضرورة الاتحاد بين الإغريقيين، وبعد ذلك بمدة ألقى إيسوكراتيس خطبته في المدح، فحثَّ فيها على وجوب ترك المنازعات بين المدن لصالح الأمة الإغريقية.

وفي عام ٣٨٨ق.م. أرسل ديونوسيوس وفدًا عظيمًا إلى العيد الأوليمبي، ولما أحسَّ لوسياس بأن طاغية الغرب الذي استرجع بعض المدن الهامة في صقلية، وهزم قرطاجنة Carthage، وأضحى الآن يهدِّد مدن بلاد اليونان العظمى Magna Graecia، قد يصبح خطرًا داهمًا على استقلال المدن الإغريقية نفسها، ولا سيما إذا تحالف مع الفرس؛ فحثَّهم على ترك عداءاتهم الخاصة في سبيل المصلحة العامة. وإذ كان لديه شعور سابق بعدائهم، طلب إليهم تقويض السرادق الملكي في أولومبيا Olympia وبعثرة كنوزه.

ويحذِّر الخطيب مستمعيه في الشذرة الباقية، من أن جزءًا عظيمًا من العالم الإغريقي في أيدي الطغاة، وجزءًا كبيرًا منه تحت الحكم البربري، وذلك بسبب الضعف الذي نشأ عن الانقسام الداخلي، ويعتمد قوام الإمبراطوريَّة على السيطرة على البحار، وإن كلًّا من ديونوسيوس وأرتاكسيركسيس Àriaxerxes قوي في إدارة السفن.

«إذَن يجب عليكم أن تطرحوا عنكم الحرب فيما بينكم وتعملوا متآزرين في سبيل سلامة البلاد، وينبغي أن تنظروا إلى الماضي بخجل وإلى المستقبل بروية وإدراك.»

ويدعو إسبرطة إلى تولِّي زمام القيادة. أما مادة نهاية الخطبة فمعروفة لنا من «الحوار»، بَيدَ أن الشذرة طويلة جدًّا حتى لا يمكننا الحكم عليها بأنها إنشاء بسيط قيِّم.

أما الإبيتافيوس Epitaphios، أو خطب الرثاء، فتهدف إلى التحدث عن الأثينيين الذين سقطوا في ميدان الحرب الكورنثية حوالي عام ٢٩٤ق.م. وإن كان من الصعب تحديد السنة بالضبط.

جرت العادة بإلقاء مثل هذه الخطب في أثينا؛ فيختار لذلك عادةً خطيب ذائع الصيت، ولما لم يكن لوسياس مواطنًا؛ فقد استحال اختياره. وإن كانت الخطبة قد أُلقيت، فمن النادر أن يكون هو مؤلفها؛ إذ ربما لا يحتاج الخطيب المتمرِّن إلى خدمات كاتب محترف.[٢٢]

ويمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن الأسلوب من إحدى فقرات الخاتمة:

> «وهكذا يمكننا اعتبار هؤلاء الرجال أسعد الناس حظًّا؛ لأنهم واجهوا نهايتهم ولقوا حتفهم في سبيل كل ما هو عظيم وشريف غير تاركين أنفسهم ليموتوا الميتة الطبيعية، بل اختاروا أنبل سبيل للموت.»
>
> «سيخلد ذكرهم مدى الأجيال، وسيحسدهم الجميع على ما نالوه من شرف. إننا نبكيهم كأموات في طبيعتهم، ولكننا نحتفل بهم خالدين من أجل شجاعتهم، ويشيِّع الجمهور جنازاتهم، وتكريمًا لهم نقيم استعراضات القوة والحكمة والثروة، معترفين أن من يموت في ساحة الوغى جدير بأن يبجَّل تبجيل الخالدين. ولذا أسمِّيهم سعداء في موتهم وأحسدهم على ذلك، وأظن أنه يجب أن يقال إنما الحياة جديرة بأن يملكها مثل هؤلاء الرجال فقط، الذين بأجسادهم الفانية، تركوا ذكرى خالدة بشجاعتهم السامية. ومع ذلك فإنه ينبغي أن نتمسَّك بالتقاليد القديمة ونسير على قانون الآباء والأجداد؛ فنبكي ونحزن على من نحتفل اليوم بدفنهم.»[٢٣]

لا شيء في هذه الخاتمة خارق أو أصلي فهي تذكِّرنا بشذرة مرثاة جورجياس، ولا سيما في المقارنات المتكلَّفة والمتكررة بين «فانٍ» و«خالد». أما من حيث طبيعتها ومادتها

---

[٢٢] ولو أن سقراط يظن في مينيكسينوس Menexenus، ٢٣٦ب، أن خطبة بركليس الرثائية قد وضعها أباسيا Apasia له.

[٢٣] الإبيتافيوس، فصل ٧٩–٨١.

فهي أقل بكثير من خطبة بركليس الشهيرة، التي رغم المغالاة في أسلوبها، تحوي طابع الشعور الصادق.

إن خطبة لوسياس في الرثاء جوفاء؛ فهي ضعيفة الخيال، ولا تشير إلى الأموات إلا إشارة بسيطة جدًّا، ولا تبشِّر بأمل الأحياء في الراحة.

والإشارة إلى الحرب الفارسية جزء من المتاع البلاغي، كالذي أثار شهية أريستوفانيس Aristophanes، في حين أن المراجع التاريخية للظروف المفروضة لهذه الخطبة غامضة غموضًا يجعلها لا تتفق وأية مناسبة معينة.

ومن حيث الدليل الداخلي، يمكننا الاعتقاد بأنها ليست خطبة بالمعنى الحقيقي، بل هي تمرين خطابي.

كذلك يسأل البعض؛ هل أَلَّف لوسياس هذه الخطبة أم أَلَّفها غيره؟

يسمح مؤلف «الخطب الحماسية declamation» لنفسه بحُريَّات لا يسمح بها في الخطب الواقعية، ومع ذلك فمن الصعب أن نثق بأن لوسياس قد اقترف مثل هذه الأخطاء الذوقية؛ كأن يناقش حروب الأمازون أو يبالغ في الفصول الافتتاحية: «لا يكفي الوقت، لجميع الناس، لإعداد خطبة تناسب هذه الأعمال!» وكذلك «في كل مكان، وبين كل الناس، من يبكي أحزانه الشخصية، إنما يبكي هؤلاء الموتى!»

لا تناسب هذه الفقرات الحرب الكورنثية ولا أية حرب وقعت إبان حياة لوسياس، كما أن لوسياس لم يذكر أشياء غير مناسبة كهذه.[٢٤]

ويحتمل أن تكون الخطبة تمرينًا أَلَّفه كاتب وضع أمامه خطبة بركليس ومؤلفات أخرى مماثلة. إن أرسطو يذكرها فعلًا، غير أنه لا ينسبها إلى لوسياس.[٢٥] وافتقارها العام إلى التحفظ في اللهجة يثير الشك، ولكنه على العموم أقوى حجة ضد صحتها.

ولا تبقى غير شذرة واحدة (خطبة ٢٤) من خطبه، وضعت للإكليسيا. ونعلم من عنوانها أنها أُلقيت لمعارضة بعض المقترحات لإلغاء أو تجديد الدستور القديم بعد سقوط حكومة الثلاثين (سنة ٤٠٣ق.م.) ويشك ديونوسيوس في أنها قد أُلقيت فعلًا، ويعتبر أنها كتبت في أسلوب صالح للجدال.[٢٦] ومن الواضح تاريخيًّا أن الخطيب يجسر على مقارنة

---

[٢٤] إن الإشارة إلى الأمازون Amazons والغموض العام للوضع التاريخي يتناسبان تمامًا مع خطبة أفلاطون الرثائية في «مينيكسينوس»، التي تعتبر عادةً جِدًّا في هزل.

[٢٥] البلاغة، الباب الثالث، ١٠، ٧.

[٢٦] عن لوسياس، الباب ٣٢.

موقف أثينا بالنسبة إلى إسبرطة أو أرجوس ومانتينيا Mantineia. إذَن لا بد وأن كان الأثينيون مهيضي الجناح حتى إنهم تحمَّلوا مثل هذه الإشارة.

القضايا العامة

تقع هذه القضايا γραφαί تحت عناوين مختلفة، وتتناول جميع أعمال الشَّغب ضد الدولة، وتتضمن الخيانة المباشرة، وانتهاك حرمة الطقوس الدينية، والاختلاس، والإجراءات غير الدستورية، والتهرُّب من الخدمة العسكرية، والبلاغات الكاذبة للحصول على وظيفة أو ضد الدولة في شخصية فردٍ ما كتُهم القتل أو الشروع في القتل.

وإذا ما رتَّبنا هذه القضايا حسب أهميتها، نبدأ بالخيانة العظمى، (مثل إرجوكليس Ergocles) والقتل عمدًا (مثل إيراتوسثينيس Eratosthenes) ومحاولة المقعد the Cripple الحصول على معاش بادعاءات باطلة (الخطبة ٢٤).

الخطبة العشرون عن بولوستراتوس (٤١١–٤٠٥ق.م.)

وضعت هذه الخطبة «دفاعًا عن بولوستراتوس For Polystratus في تهمة محاولة قلب نظام الحكم الديمقراطي».

كان بولوستراتوس يشغل منصبًا في حكومة الأربعمائة Four Hundred، وكان عضوًا في هذه الحكومة، ولا يعرف بالضبط نوع التهمة التي وجِّهت إليه، بَيدَ أنه من حيث أن عقوبتها لم تكن سوى غرامة مالية؛ فلا يمكن اعتبارها خطيرة كما يتضمن العنوان. ويجزم النقَّاد المحدثون بأن هذه الخطبة زائفة مستندين إلى أسباب تتعلَّق بالأسلوب والطريقة؛ فترتيبها مضطرب في بعض الأحيان، وحوارها غامض، وأسلوبها ضعيف.

يجب أن يكون هذا النوع من المناقشة ضد صحة الخطبة أمرًا ثانويًّا؛ حيث إن البرهنة عليه عسيرة جدًّا.

وبالخطبة ضد ثيومنستوس Theomnestus (انظر صفحة ١٠٩) أخطاء لا يجدر بلوسياس الوقوع فيها، ومع ذلك فإنها تعتبر دون شك صحيحة بناءً على آراء النقَّاد أنفسهم.

وينبغي أن نتذكر أن هذه الخطب كتبت قبل أية خطبة اعتبرت صحيحة ببضع سنوات (حوالي عام ٤٠٧ق.م.)؛ إذ عدم الدقة والإتقان مما يُنتظَر في أول أعمال ومجهودات أي خطيب.

الخطبة الحادية والعشرون، عن تهمة الرشوة

ليست سوى النصف الثاني للخطبة، أما جزؤها الأول الذي يتناول موضوع التهم فمفقود، ويشير المدَّعى عليه إلى خدماته العامة البارزة كدليل على عدم إمكان اعتباره من النوع الذي يُرتشى ليخون بلاده، وربما كان تاريخ هذه الخطبة سنة ٤٠٢ق.م.

الخطبة السابعة والعشرون ضد إبيكراتيس Epicrates، والثامنة والعشرون ضد إرجوكليس، والتاسعة والعشرون ضد فيلوكراتيس Philocrates

يمكن اعتبارها كلها خطبًا ألقاها المدَّعي العام سنة ٣٨٩ق.م. ويظنون أن الخطباء السابقين قد تغلغلوا تمامًا في التهم، حتى إنهم قد احتاجوا هم أنفسهم إلى تلخيصها فحسب. كان الخطباء نشيطين وموجزين ولكنهم مبهمون. ولم تكن هناك حاجة في مثل هذه الخطب الشكلية إلى ضرورة الملاءمة لطابع الخطيب الذي نراه في مكان آخر. لقد حُوكِم إرجوكليس وأعدم لخيانته المدن الإغريقية الآسيوية وجمع الثروة بالسرقة، وكان يساعده ويشاركه في ذلك فيلوكراتيس. أما إبيكراتيس فاتُّهم باختلاس الأموال العامة عندما كان في منصب ثقة.

الخطبة الثلاثون ضد نيكوماخوس (حوالي ٣٩٩ق.م.)

اتُّهم نيكوماخوس Nicomachus بالإهمال في عمله وعدم إنجازه في الوقت المعين عندما عيِّن لمراجعة بعض القوانين، كما تسبب في إنفاق مبالغ زائدة على الحاجة من الأموال العامة، مع ملاحظة أن ذلك لم يكن لمنفعته الشخصية. كان نيكوماخوس مكسالًا وغير ذي رأي صائب؛ فرأى المدَّعي أن يمطره وابلًا من السُّباب، ولا سيما لأصله الوضيع إذ كان والده عبدًا وأعتِق.[٢٧]

[٢٧] قارن ما ورد بصفحة ٩٧.

الخطبة الثانية والعشرون ضد بائعي الحبوب

خطبة صريحة لا ادِّعاء فيها، نتجت عن القوانين الخاصة بتوريد الحبوب؛ فلم يكن مسموحًا لمن يتَّجر في الحروب أن يربح أكثر من أوبول Obol[٢٨] واحد في كل بوشل Bushel،[٢٩] كما كان الاحتكار ممنوعًا منعًا باتًّا. وتاريخ هذه الخطبة مشكوك فيه، ويحتمل أن يكون عام ٣٩٠ق.م.

الخطبة الثامنة عشرة، عن مصادرة أملاك شقيق نيكياس Nicias (حوالي سنة ٣٩٦–٣٨٥ق.م.)

أعدمت حكومة الثلاثين يوكراتيس Eucrates شقيق نيكياس سنة ٤٠٤ق.م. وبعد ذلك بوقت صدر قرار بمصادرة ضيعته، فاحتجَّ أبناء يوكراتيس وابن أخيه على ذلك الحكم الذي وقع عليهم ظلمًا. ويحتوي الجزء الأكبر من الشذرة الباقية على التماس بالرحمة، وهو شيء غير عادي في خطب لوسياس.

الخطبة التاسعة للجندي (٣٩٤–٣٨٧ق.م.)

وهي دفاع بولواينوس Polyaenus المتهم بعدم دفع غرامة، وهذه مشكوك في صحتها ولو أن المناقشات التي تتعلَّق بها ليست قاطعة.

الخطبة التاسعة عشرة عن أملاك أريستوفانيس (عام ٣٨٧ق.م.)

وهذه قضية أخرى تدور حول المصادرة، وهي جيدة التركيب تتفق في الواقع مع صعوبة القضية.

الخطبة السادسة والعشرون ضد إيفاندروس Evandrus (عام ٣٨٢ق.م.)

هذه شذرة هامة من خطبة تتعلق باختبار (δοκιμασία). لما رفض انتخاب ليوداماس Leodamas، وهو المرشح الأول ليكون أرخونًا لسنة ٣٨١ق.م. لعدم لياقته، كان على

---

[٢٨] الأوبول عملة إغريقية قديمة تعادل حوالي ثمانية ملِّيمات بالعملة المصرية، أو حوالي ٣/٤ و١ بنس بالعملة الإنجليزية.

[٢٩] البوشل مكيال إنجليزي للحبوب مقداره ٨ جالونات أو ٣٦ لترًا.

إيفاندروس المرشح الثاني لذلك المنصب أن يجتاز اختبارًا، بَيدَ أن خصومه يعارضون في انتخابه مشيرين إلى أعماله في عصر الأوليجاركية ومع أنهم يعترفون بحسن سيرته منذ عهد الإصلاح؛ فإنهم يصرُّون على عدم أحقيَّته لهذا المنصب. وإن قسوة وظلم هذه الخطبة لأمران غير عاديين في لوسياس، ولكن صحة هذه الخطبة لا يتطرَّق إليها أي شك.

الخطبة السادسة عشرة[٣٠] من أجل مانتثيوس Mantitheus (حوالي ٣٩٢ق.م.) والخطبة الحادية والثلاثون ضد فيلو Philo (٤٠٥–٣٩٥ق.م.) والخطبة الخامسة والعشرون وهي المعنونة خطأً «دفاع عن قلب الديمقراطية» (٤٠٢–٤٠٠ق.م.)

تتعلَّق كلها بالاختبار δοκιμασία وهناك صرامة في الخطبة ضد فيلو أكثر مما في الخطبة ضد إيفاندروس ولو أنها خفيفة الوطأة؛ لأنه لو صحَّت الروايات التي تُروى عن فيلو، لكان نذلًا ممقوتًا.

الخطبة الرابعة والعشرون دفاعًا عن المقعد (حوالي عام ٤٠٠ق.م.)

وتتناول الاختبار أيضًا δοκιμασία ولو أنه من نوع يخالف النوع الأول؛ فقد منحت معاشات لعدة أفراد عاجزين عن كسب قوتهم بسبب عاهات جثمانية ولم يكن لهم مورد رزق آخر، والمدَّعى عليه في هذه القضية متَّهم بالحصول على معاش عن غير حق؛ إذ هو في يسر نسبيًّا.[٣١]

الخطبة الثانية عشرة ضد إيراتوستينيس (٤٠٣ق.م.)

هذه أشهر خطب لوسياس، وقد سبق أن تناولناها بعض الشيء،[٣٢] وتعتبر عادة للمرافعة في قضية قتل، ولكن الأكثر احتمالًا أنها ألقيت في مناسبة فحص حسابات εὔθυνα إيراتوستينيس؛ لأنه كان قد صدر عفو شامل بعد انهيار حكومة الثلاثين، على شريطة

[٣٠] انظر صفحة ٩١، ٩٢.

[٣١] انظر صفحة ٩١–٩٣.

[٣٢] انظر صفحة ٨٣-٨٤.

أن من يريد منهم أن يقدِّم حسابًا عن تصرفاته بمحض إرادته سيلقى محاكمة عادلة،[٣٣] ولم ينتهز هذه الفرصة سوى إيراتوستينيس وفيدون Pheidon.

ويلقى الرأي الأخير تعضيدًا حيث إن الجزء الأول من الخطبة (الفقرات ١–٣٧) يتناول مقتل بوليمارخوس Polemarchus، أما الجزء الأكبر (من ٣٧–١٠٠) فيدور بصفة عامة حول أخلاق إيراتوستينيس وما اقترفته حكومة الثلاثين من جرائم بوجه عام.

الخطبة الثالثة عشرة ضد أجوراتوس Agoratus (٤٠٠–٣٩٨ق.م.)

كان أجوراتوس مبلغًا، وقدِّم للمحاكمة لأنه تسبَّب في موت ديونوسودوروس Dionysodorus خال الخطيب. وتحوي هذه الخطبة مادة تارخية غزيرة، ولكن المدَّعي يتمسَّك باستمرار بتهمة القتل، ولا يتناول المواضيع السياسية إلا نادرًا.

الخطبة الأولى حول مقتل إيراتوستينيس (تاريخها غير موثوق منه)

هذه الخطبة ذات متعة عظيمة لأنها تصوُّر الحياة المنزلية للطبقة الوسطى في أثينا.[٣٤]

الخطبة الثالثة، ضد سيمون Simon (بعد عام ٣٩٤ق.م.) والخطبة الرابعة حول الإصابة عمدًا بجرح (تاريخها غير موثوق منه)

كلا هاتَين الخطبتَين دفاع عن تهمة الإصابة بجرح مع تعمُّد القتل (τραυματος εκ προνοίας)، والمتهم في الخطبة الأخيرة يريد البرهنة على أنه كان على علاقة حسنة بالمدَّعي من قبل، فيروي حكاية غريبة عن الفساد. فقد رشَّح المتهم المدَّعي لمنصب قاضٍ في الديونوسيا Dionysia،[٣٥] على شرط أنه إذا تم انتخاب المدَّعي؛ فإن هذا الأخير يمنح الجائزة لقبيلة المتهم، وكتبًا مذكِّرةً بهذا المعنى، غير أنه لسوء الحظ لم يُنتخَب؛ فآلت

[٣٣] أندوكيديس، «عن الأسرار»، فصل ٩٠.

[٣٤] انظر صفحة ٩٤.

[٣٥] الديونوسيا أعياد كان يقيمها الإغريق القدماء مرتين كل عام تكريمًا لإله الخمر ديونوسوس أو باخوس Bacchus، وكان يقام أعظم احتفال بها في أتيكا. والعيد الأكبر كان في أوائل الربيع، والأصغر في ديسمبر، وكان الإغريق يتبارون فيهما في الأناشيد معدِّدين مآثر ذلك الإله.

الجائزة إلى جوقة من المرتِّلين؛ لأنها إما تفوَّقت في الأناشيد، وإما أفلحت في مسعاها غير الشرعي بمهارة أكثر.[٣٦]

الخطبة الخامسة من أجل كالياس Callias (وتاريخها غير موثوق منه)

وهي عبارة عن دفاع يظهر أنه كان عند انتهاك حرمة الطقوس الدينية، والتهمة غير معروفة بالضبط.

الخطبة السابعة عن شجرة الزيتون المقدسة (حوالي عام ٣٩٥ق.م.)

كتبت هذه الخطبة دفاعًا عن رجل اتُّهم باقتلاع شجرة زيتون مقدسة، وهو عمل دنس عقوبته النفي ومصادرة الممتلكات.

الخطبتان الرابعة عشرة والخامسة عشرة، ضد ألكيبياديس ١، ٢ (حوالي عام ٣٩٥ق.م.):

تتناول أولاهما تهمة ترك الديار، وثانيتهما تهمة التهرُّب من الخدمة العسكرية، وهما قضيتان مختلفتان في مظهرهما ولكن عقوبتهما واحدة، وكان مفروضًا أن يخدم المتَّهم، ابن ألكيبياديس، في فرقة الفرسان، في حين أنه لم يكن يستحق سوى العمل في فرقة المشاة. ولا شك أن ألكيبياديس الصغير قد عوقب عن آثام والده الذي يرجع إليه نصف التهمة الحالية. ويمكننا أن نقارن بصدد هذه النقطة موضوع خطبة إيسوكراتيس دفاعًا عن ألكيبياديس، والخطبة ضده التي تنسب إلى أندوكيديس ولكنها قد تكون عملًا متأخرًا.[٣٧]

خطب خاصة

الخطبة العاشرة ضد ثيومنستوس Theomnestus (٣٨٤-٣٨٣ق.م.)

هي خطبة للاتهام في قضية قذف وسباب، وفيها يطنب الخطيب في مرافعته إطنابًا مملًّا مستخدمًا ما شاء من ألفاظ المراوغة التي حاول المتَّهم بوساطتها أن ينجو من العدالة.

---

[٣٦] الباب الرابع، الفصل الثالث.

[٣٧] انظر صفحة ٨٠.

وتتجلَّى المهارة وسرعة الخاطر في الحوار، غير أنه بسبب تفاهة موضوع هذه الخطبة، فلا متعة فيها إلا لطلاب دراسة الأسلوب.[٣٨]

الخطبة الثانية والثلاثون ضد ديوجيتون Diogiton (٤٠٠ق.م.)

هي اعتراف رائع حقًّا لوقائع قضية ضد حارس خائن، فعلاوةً على تناول التفاصيل المالية بمهارة، نجد روايتها للوصف والحكم على الطابع الشخصي في غاية الإبداع.

الخطبة السابعة عشرة حول أملاك إيراتون Eraton (٣٩٧ق.م.)

ألقيت هذه الخطبة في διαδικασια[٣٩] لقضية بين أحد الأفراد والدولة، ويتمسَّك فيها الخطيب بملكية إيراتون للأملاك التي صودرت نظير سداد دَين.

الخطبة الثالثة والعشرون ضد بانكليون Pancleon (وتاريخها غير موثوق منه)

اتُّهم بانكليون بهتمة مبهمة، ويعتبرها الاتهام إخلالًا بالنظام، فقدَّم دفعًا بأنه مواطن من بلاتيا Plataea لا يخضع للقانون الذي حوكم بمقتضاه، وأخيرًا يتضح أنه عبد هارب.
وتتكوَّن الخطبتان الأخيرتان غالبًا من سرد فقط.

خطب زائفة أو مشكوك فيها

الخطبة السادسة ضد أندوكيديس Andocides (٣٩٩ق.م.)

يعتقد عادةً أن هذه الخطبة ليست للوسياس، وأهم اعتراض عليها هو أن كاتبها قليل التبصُّر. وكما يشير جِب، يدلي كاتبها بثلاثة إقرارات هدَّامة تضرُّ قضيته نفسها، ومع ذلك فيمكن اعتبارها حقيقة خطبة ضد أندوكيديس؛ فهي تحوي بعض تصريحات لا

[٣٨] ما الخطبة الثانية التي بنفس العنوان سوى ملخَّص للأولى.
[٣٩] الفصل في قضية، حكم.

تتفق واعترافات أندوكيديس، إلا إنه كما رأينا، لا يمكن البرهنة على توخِّي أندوكيديس الصدق دائمًا.

ومن حيث مطابقتها لاعترافات أندوكيديس، يمكننا الاعتقاد بأنها كتبت بوساطة خطيب معاصر، وليست بوساطة سفسطائي كما يؤكِّد البعض أحيانًا. وربما كانت قد ألقيت فعلًا عند محاكمة أندوكيديس سنة ٣٩٩ق.م.

إيروتيكوس Eroticus

يقرأ فايدروس Phaedrus بصوت عالٍ، في حوار أفلاطون المسمَّى فايدروس، خطبة للوسياس ينتقدها سقراط.

فلو تتبَّعنا أفلاطون حرفيًّا، لكان علينا أن نؤمن بأن ما يقرأ هو حقيقة من تأليف لوسياس، بَيدَ أن أفلاطون نفسه، إذا ما حاول تأكيد شيء؛ فإنه يجري على عادته ويعطيه مظهر الحقيقة والواقع. وربما يرسخ في ذهن أغلب القرَّاء أن أفلاطون قد توخى الحقيقة كعادته. وليس ما أنتجه هنا سوى محاكاة تقرب جدًّا من الحقيقة حتى ليمكن تسميتها جدًّا في هزل.

ويمكننا مقارنة محاكاة أفلاطون لخطبة أسباسيا Aspasia في مينيكسينوس Menexenus.

الخطبة الثامنة، عن زملائه

ليس معقولًا أن تنسب هذه الخطبة إلى لوسياس؛ فإنها في الحقيقة عمل تافه جدًّا لا يمكن أن يقوم به أي مزوِّر محترم. ويمكن اعتبارها تمرينًا خطابيًّا.

يشكو الخطيب من أن أصدقاءه قد افتروا عليه بتأكيدهم أنه قد فرض عليهم صداقته فرضًا. لقد باعوه جوادًا عليلًا، واتهموه بإغراء أشخاص آخرين بالوشاية بهم، وهو لذلك يتبرَّأ من صداقتهم.

وهناك فقرات من ست خطب مفقودة، حفظت بطريق الاقتباس من كتَّاب مختلفين:

(١) ضد كنيسياس Cinesias (أثينايوس Athenaeus، الباب الثالث عشر، ٥٥١ د).
(٢) ضد تيسيس Tisis (ديونوسيوس، عن ديموستينيس، الباب الحادي عشر).

(٣) من أجل فيرينيكوس Pherenicus (ديونوسيوس، عن إيسايوس de Isaeo، الباب السادس).

(٤) ضد أبناء هيبوكراتيس Hippocrates (ديونوسيوس، عن إيسايوس، الباب السادس).

(٥) ضد أرخيبياديس (ديونوسيوس، عن إيسايوس، الباب العاشر).

(٦) ضد أيسخينيس (أثينايوس، الباب الثالث عشر، E611-C612).[٤٠]

وشذرات الخطب الأخرى في سويداس Suidas، وهاربوكراتيون Harpocration، وغيرهما قليلة الأهمية.

[٤٠] قارن صفحة ٩٧.

الفصل الخامس

إيسايوس

١

لم يعثر ديونوسيوس فيما عكف عليه من نصوص، على أية معلومات عن حياة إيسايوس، فتاريخَا مولده ووفاته غير معروفَين، ولا نستطيع، كما يلاحظ ديونوسيوس، أن نعرف اتجاه آرائه السياسية أو حتى إذا كانت عنده أية آراء سياسية.[١] كذلك يحوط الشك مكان ميلاده؛ فبعض النصوص تشير إلى أنه وُلد في أثينا، بينما يشير البعض الآخر على أن مولده كان في خالكيس Chalcis.

والرأي القائل بأنه ربما كان ابن رجل أثيني اشتغل كاتبًا في خالكيس من الممكن قبوله، ولكنه يفتقر إلى دليل.[٢] وهناك رأي استنتج من عدم اشتراكه في الحياة العامة، باحتمال كونه غريبًا، ولكن هذا الرأي غير صائب. والواقع أنه سواء أكان أثينيًّا أم غير أثيني؛ فإنه لم يخطب مطلقًا في أية مجالس قومية عظيمة؛ حيث كان الخطباء من جميع البقاع الإغريقية يُظهرون مواهبهم؛ وذلك لأنه لم يكن يميل إلى الظهور كخطيب، بل اقتنع باحتراف كتابة الخطب.

هناك أسطورة تروي أنه لما أعجب ديموستينيس الصغير بأثر خطابة إيسايوس، حثَّ الأخير على أن يعيش معه في منزله ويدرِّبه تدريبًا تامًّا على جميع فنون الخطابة القضائية، حتى إنه ليُقال إن أولى خطب ديموستينيس ضد آفوبوس Aphobus كتبها في الحقيقة أستاذه، بَيدَ أن الدليل على صحة هذه الرواية ضعيف؛ ومع ذلك فإن أثر إيسايوس في ديموستينيس عظيم، سواء كانا أم لم يكونا على اتصال شخصي.

---

[١] ديونوسيوس «عن إيسايوس»، الباب الأول.

[٢] جِب Jebb، المجلد الثاني صفحة ٢٦٥.

وقد سجَّل ديونوسيوس مستندًا إلى هرميبوس Hermippus، أن إيسايوس كان تلميذ إيسوكراتيس Isocrates وأستاذ ديموستينيس، وقد اتصل اتصالًا وثيقًا بخير الفلاسفة.[٣]

وليس هناك دليل ما على أنه كان يومًا صديق سقراط، ما دام اسمه لم يذكر في أي مكان بوساطة أفلاطون.

وتنسب أولى خطبه (عن ضيعة ديكايوجينيس Dicaeogenes) مع بعض الاحتمال إلى سنة ٣٩٠ق.م. وآخر خطبه «عن ضيعة أبولودوروس Appollodorus» إلى عام ٣٥٣ق.م.

فإذا كان التاريخ ٣٩٠ق.م. صحيحًا، كان من المعقول وضع فترة دراسته على يد إيسوكراتيس بين عامَي ٣٩٣، ٣٩٠ق.م. عندما بدأ هذا الخطيب مدرسته. وعلى هذا الزعم يمكننا تقدير تاريخ ميلاد إيسايوس بحوالي سنة ٤٢٠ق.م. غير أنه من الضروري أن يستند تقدير التواريخ على دليل داخلي، وهذا الدليل هنا مبهم.

ومن المحتمل أيضًا أن يكون تاريخ خطابته متأخرًا، وعلى ذلك تكون أولى خطبه هي عن ضيعة أريستارخوس Aristarchus عام ٣٧٧–٣٧١ق.م. وبذا لا يكون إيسايوس قد ولد قبل سنة ٤٠ق.م.

ومن الأكثر تأكيدًا أن تاريخ آخر خطبة باقية هو حوالي عام ٣٥٣ق.م. إلا إنه ليس لدينا ما يثبت أنه عاش طويلًا بعد تأليفها؛ فيجوز أنه ارتاح عدَّة سنوات.

ظل إيسوكراتيس يكتب حتى قابل الرفيق الأعلى، وكانت لديه أفكار عظيمة يعبِّر عنها. وربما سرَّ إيسايوس، الذي لم يملَّ قط إلى السياسة، من عدم وجود ضرورة للتأليف بعد أن استراح من عمله المستمر في كتابة الخطب لغيره؛ ومع ذلك فإن التاريخ التقريبي لحياته من ٤٢٠–٣٥٠ق.م. تقدير معقول.

قد يكون إيسايوس الخطيب الوحيد الذي لا نشعر نحوه بأي حماس؛ فلو كان لدينا من المصادر الخارجية أبسط دليل على مشاعره الحقيقية، لاستطعنا أن نجمع من خطبه بعض تلميحات قد تساعدنا على تكوين صورة لشخصيته؛ فإننا لا نعرفه إلا من خطبه التي كتبها لغيره، ولو استثنينا كسرة واحدة؛ فإن جميع خطبه تتناول قضايا تتعلَّق بالوصايا، وليس هذا النوع بألذِّ ما يتناوله القانون، ولم يكن هو شخصيًّا مغرمًا بأية

[٣] عن إيسايوس، الباب الأول.

محاكمة لهذه القضايا، إلا إذا أمكننا تصديق النقاش الإغريقي المشكوك فيه حول الخطبة الرابعة، والذي يؤكد أنه ترافع هو بنفسه مؤيِّدًا قريبيه هاجنون Hagnon وهاجنوثيوس Hagnotheus.

ويمكننا مقارنة حالته بحالة أنتيفون الذي عرفناه من خطبه في نوع واحد من أبواب القانون؛ أعني قضايا القتل، بَيدَ أن الحظ كان في جانبنا في حالة أنتيفون؛ إذ يعطينا ثوكوديديس نبذة قصيرة ولكنها وضَّاءة عن مجمل صورة حياته. وزيادة على ذلك فإن لدينا التترالوجات التي تساعدنا إلى حدٍّ ما بالتفاصيل الناقصة.

ويقل ما نعرفه عن إيسايوس كفرد عما نعرفه عن هوميروس؛ فإننا نجمع فكرة فقط عن مقدرته العجيبة في تناول موضوعات من نوع معين؛ وذلك لدرايته الواسعة بمعالجة مختلف المشاكل المعقَّدة لقضايا الوصايا، ولباقته في استخدام درايته هذه في خير الأغراض، وتلك مقدرة جديرة بكل إعجاب.

إن إيسايوس حجَّتنا الرئيسية في القوانين الآتيكية للوراثة،[٤] فقد كانت هذه القوانين غالبًا تعسفية، ومع أنها كانت مبسطة إلى حدٍّ أن من له أبناء لا يستطيع شرعًا أن يدخل غيرهم في وصيته، إلا إن جداول القرابة وشجرة المواريث كانت غاية في التعقيد، حتى إنه لا يمكن لغير الخبير الإلمام التام بها.

لم يكن بأثينا طبقة من المحامين المحترفين، وكثيرًا ما كان الهواة يشرِّعون القوانين، ولدينا الدليل على ذلك في كثير من القضايا التي حُوكِم فيها من اقترح قانونًا وظهر عدم شرعيته؛ أي قانونًا يخالف القوانين الموضوعة. ولما كان اقتراح هذه القوانين أمرًا ارتجاليًّا توحي به الظروف؛ فإن تفسيرها كان دائمًا كما يتراءى للمحلف وظروف القضية المطروحة أمامه في تلك اللحظة. ولا شك أن بعض سجلَّات الأحكام قد حفظت، ولكن لم يكن للأثينيين احترام عظيم للسلف، وعلى أية حال لم يكن في مقدورهم الانتفاع به انتفاعًا كاملًا بسبب نقص القضاة الفنيين الذين يجب أن يكونوا خبراء في مثل هذه الموضوعات. وهكذا كانت هناك فرص عظيمة لرجل مثل إيسايوس جمع بين معرفة دقيقة للقانون ومهارة في تطبيق هذه المعرفة، كما كان يستطيع تطبيق نصوص القانون، أو الأحكام

[٤] إنه يفوق غيره إلى حد بعيد، وفي بعض الحالات نستطيع أن نكمله من ديموستينيس، ولكن الأسانيد الأخرى مهملة.

السابقة حسبما كان يوافقه ليتهرَّب من منطوق النصوص الحرفي. وفي الحالات التي كان يمكن فيها تأويل القانون بعدة تأويلات، كان إيسايوس يفسِّره تفسيرًا ملتويًا يتفق وصالح قضيته.

اختار إيسايوس لنفسه قسمًا هامًّا من أقسام القانون، وذلك لكثرة عدد قضايا المواريث التي يظهر أنها جاءت قبل المحاكم الأثينية، وكانت هذه القضايا هامة في حد ذاتها نظرًا لأهمية الوراثة دينيًّا. فقد رغب أحد الأثينيين في أن يترك وارثًا ذكرًا، لا لتبقى أملاكه في عائلته فحسب، بل وليكون للأسرة ممثِّل يستطيع مداومة العبادة الخاصة لآلهة تلك العائلة، وخاصةً ليقوم بالطقوس الجنائزية عند وفاة المورث، وليقدِّم جميع الذبائح اللازمة عند قبره. وعلى ذلك كانت تحمل الوراثة بعض التزامات دينية محدودة، ومن لم يكن له طفل على قيد الحياة، كان يتبنَّى طفلًا مدة حياته أو يوصي بتبنِّي طفل بعد موته؛ ليتأكَّد من استمرار العبادة العائلية.

إن مهارة إيسايوس في معالجة القضايا المعقَّدة لتظهر بوضوح إذا ما درسنا حوار خطبه الباقية؛ فمثلًا الخطبة الخامسة «عن ضيعة ديكايوجينيس» خاصة بطعن ابن شقيق شخصٍ ما، في استيلاء ابن عمه على ثلث الميراث بوساطة وصية ثبت فيما بعد أنها مزوَّرة. وبالطبع نجح في الحصول على الميراث كله بوساطة وصية أثبت المدَّعون تزويرها. ففي هذه القضية وصيتان ونتيجتا محاكمتَين سابقتَين يجب على الخطيب أن يدرسها علاوةً على قرابة الخصوم المعقَّدة. بَيدَ أن إيسايوس يتناول القضية فيجعلها واضحة.

كذلك في الخطبة الحادية عشرة «عن ضيعة هاجيناس» يذكر أسماء ثلاثة وعشرين عضوًا من عائلة واحدة، ومن الضروري تتبُّع سلسلة نسب العائلة التي يتخلَّلها عدد كبير من أبناء أولاد الأعمام تتأثَّر قرابتهم كثيرًا بتزاوج والديهم؛ أي بتزاوج أولاد الأعمام الأصليين. وليس من السهل تتبُّع وقائع هذه القضية حتى على الورق. ويظهر أن الأمر التبسَ على القضاة أنفسهم في هذه الحالة فأصدروا حكمًا خاطئًا.

ويمكن دراسة طرق الخطيب بسهولة أكثر من الخطبة الثامنة عن ضيعة كيرون Ciron، وهي أبسط من السابقتين، وأهم وقائعها ما يأتي:

رزق كيرون من زواجه الأول ابنةً هي والدة المطالبين بالميراث، وقد تزوَّج كيرون ثانيةً أخت ديوكليس Diocles، فحثَّ ديوكليس ابن أخ كيرون على رفع دعوى مضادة على الأسس الآتية:

(١) كانت ابنة كيرون غير شرعية، وعلى ذلك يصبح ابناها غير شرعيين.
(٢) ابن الأخ، في أية قضية، أحق بالمطالبة بالميراث من ابن الابنة.

فأثبت الخطيب، وهو أكبر المدعيين، شرعية أمه بدليل أن كيرون كان يعاملها دائمًا كابنة، وأعطاها مرتين جهازًا وصداقًا، واعتبر ابنَيها وارثَين شرعيَّين له.

«لم يمُت جدنا كيرون بدون ذرية، بل تركني أنا وشقيقي نجلَي ابنته الشرعية، ولكن المدَّعي يدَّعِي حق الوراثة على زعم أنه القريب التالي، ويهيننا ملحًّا بأننا لسنا ابنَي ابنة كيرون، وأنه لم يكن له ابنة بالمرة. وهذا راجع إلى جشع ذلك المدَّعي، واتساع ضيعة كيرون التي استولى عليها ويديرها الآن. ومن الوقاحة أن يقول إنه لم يترك شيئًا بينما يطالب في الوقت نفسه بالميراث.»

«والآن، من رأيي، يجب ألا يكون حكمك على الرجل المطالب بالميراث، بل على ديوكليس Diocles الآتي من فلوا Phlya والشهير باسم أوريستيس Orestes، الذي أغراه بمضايفتنا محاولًا أن يستولي على الضيعة التي تركها كيرون بعد وفاته، فيعرِّض مصالحنا للخطر كيلا يترك منها جزءًا لو ضلَّلكم المدَّعي بتوكيداته. وحيث إن هذه غايته، ينبغي أن أخبركم بجميع الوقائع حتى لا تغيب عنكم إحدى التفاصيل، وتعلموا بكل ما حدث قبل أن تصدروا حكمكم.»

«وبناءً على ذلك، ألتمس منكم أن تعطوا العدالة حقها، وتُولوا هذه القضية عناية جدية كما فعلتم بكل قضية قبلها، وهذا عدل وإنصاف. وإذا ما رجعتم إلى ما سبق أن نظرتموه من القضايا الكثيرة، وجدتم أنه لم يقدِم أي مدَّعٍ على المطالبة بملكية، بأكثر خزي ووقاحة من هذَين الشخصَين.»

«والآن، إنها لمهمة شاقَّة أيها السادة، لشخص مثلي عديم الخبرة بإجراءات المحاكم، أن يتولَّى قضيته في محاكمة كهذه، ضد خطَب مدبَّرة وشهود زور. غير أن لي أملًا صادقًا في أن أحظى بعدالتكم، وأن خطبتي ستحظى على الأقل بأن تمكنني من عرض قضية عادلة، اللهم إلا إذا حيل بيني وبين ذلك بأي عائق من العوائق التي أعرفها. ولذا فإني أحثُّكم أيها السادة على أن تهبوني أذنًا صاغية، حتى إذا ما ظهر لكم أني قد ظلمت حقيقة، أيَّدتم عدالة دعواي.»

«سأبرهن لكم أولًا على أن والدتي كانت ابنة كيرون الشرعية، مستندًا من الوقائع التي حدثت منذ أمد بعيد إلى الرواية والأدلة. وسأستشهد عن الحوادث التي ما زالت عالقة بذاكرتي، بشهود يعرفون تلك الوقائع، وبالأدلة التي تؤيِّد صحتها، وهذه أقوى من

الاعترافات. فإذا ما أدليت إليكم بكل ذلك، أمكنني أن أبرهن لكم على أحقيتي في وراثة ضيعة كيرون أكثر من أحقية خصمي فيها.»

«وسأبدأ من حيث بدأ خصومي إلى ما بعد ذلك، ذاكرًا لكم الوقائع.»

«تزوَّج جدي كيرون، أيها السادة، جدتي التي كانت ابنة خالته؛ فأنجبت منه أبي بعد مدة الحمل العادية، ثم توفِّيت بعد ذلك بأربع سنين.»

«ولما لم يكن لجدي سوى ابنة واحدة، تزوَّج للمرة الثانية من شقيقة ديوكليس التي أنجبت له ابنين، ثم أحضر أمي إلى منزله مع زوجته الثانية وطفلها. وفي أثناء حياة الطفلين، بلغت ابنته سن الزواج فزوَّجها إلى ناوسيمينيس Nausimenes القادم من خولارجي Cholarge، ووهبها جهازًا من الملابس والحلي الذهبية، كما أعطاها خمسة وعشرين ميناي Minae.[٥]

وبعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات، مرض ناوسيمينيس وتُوفِّي قبل أن تلد له أمي أي طفل؛ فأرجعها جدي إلى منزله عودًا على بدء، غير أنه لم يستطع إرجاع كل جهازها نظرًا لاضطراب شئون زوجها، ثم زوَّجها للمرة الثانية من أبي، واهبًا إيَّاها ١٠٠٠ دراخمة.[٦]

«وبمواجهة التهمة التي يوجِّهها إليَّ المدَّعي، كيف يمكن إثبات هذه الوقائع؟ لقد بحثت فوجدت السبيل.»

«يعرف عبيد كيرون الذين يشتغلون في منزله، ذكورًا وإناثًا، إذا كانت والدتي ابنته أم لا، وهل عاشت في منزله، وهل احتفل بزواجها مرتين أم لم يحتفل، وما الجهاز والصَّداق الذي تلقَّاه كل من زوجيها. وإني لأرغب في استجوابهم بطريق التعذيب حتى تتأيَّد أقوالي وتثقوا في اعترافاتهم أكثر مما لو أدلوا بها عن طريق الإخبار. وقد طلبت من المدعيَين تسليم عبيدهما وإمائهما لاستجوابهم عن النقط السابقة وغيرها مما يعرفونه، غير أن هذا الرجل الذي سيطلب منكم قريبًا أن تثقوا بشهوده، رفض الإذعان إلى مثل هذا الاستجواب، ولو استطعت إثبات رفضه لسهل كل شيء، ولكن كيف نستطيع تجنُّب احتيال إدلاء شهوده بأقوال كاذبة عندما يرون أنه خاف مثل ذلك الاستجواب؟»

«وللبرهنة على صدق أقوالي، خذوا أولًا هذا التقرير واقرءوه.»[٧]

---

[٥] الميناي، عملة إغريقية قديمة تعادل ١٠٠ دراخمة أو حوالي ٤٠٠ قرش.

[٦] الدراخمة عملة إغريقية قديمة أول استعمالها في أثينا وتعادل حوالي ٤ قروش.

[٧] الفصل الأول والثاني.

التقرير

«من رأيكم الآن، شخصيًّا ورسميًّا، أن التعذيب أضمن سبيل للاستجواب، وإذا ما تقدَّم إليكم العبيد والأحرار كشهود، وأردتم الوصول إلى معرفة الحقائق اعتمدتم أقوال الأحرار، وعذَّبتم العبيد كي تحصلوا منهم على الحقيقة. وإنكم لعلى حقٍّ في تفضيلكم هذا؛ لأنكم تعلمون أنه في حين احتمال الشك في صحة أقوال بعض الشهود، لم يحدث مطلقًا أن أدلى العبيد بشهادات كاذبة عند التعذيب.»[٨]

«من تظنُّون عنده علم بالحقائق الأولى؟ بالطبع من عاشروا جدي وأخبرونا بما سمعوا، ومن ذا الذي يعلم عن زواج أمي؟ هم طرفا عقود الزواج وشهودهما، وقد أعطى أقارب ناوسيمينيس وأقارب أبي الدليل المطلوب عن هذه النقطة. ومن ذا الذي يعرف أن والدتي ربِّيت في بيت كيرون وكانت ابنته الشرعية؟ لقد أعطى المدَّعيان الحاليان برهانًا واضحًا على صحة ذلك برفضهما التعذيب. إذَن ليس هناك أدنى شك في أن يكون من غير المعقول ألا تثقوا بشهودي، في حين أنه لا يعسر عليكم تكذيب شهود الطرف الآخر.»

«وعلاوةً على ذلك يمكننا تقديم براهين أخرى تستطيعون بوساطتها أن تتأكدوا من أننا أولاد ابنة كيرون؛ فقد كان يعاملنا كما يعامل عادة أبناء ابنته؛ إذ لم يقدِّم ذبيحة قط في غيابنا، بل كنا دائمًا نحضر، مهما كانت الذبيحة صغيرة أم كبيرة، كما كنا نشترك فيها. ولم نكن نُستدعَى في مثل هذه المناسبات فقط، بل اعتاد دائمًا أن يصحبنا إلى عيد الديونوسيا القروي، وكنا نشاهد العرض معه جالسين بجانبه، وكنا نذهب إلى منزله لنحتفل بجميع الأعياد. وعندما قدَّم ذبيحة لزوس كتيسيوس Zeus Ktesios، تلك الذبيحة التي أولاها أهمية عظمى، ولم يسمح للعبيد أو للأحرار الغرباء عن العائلة بالاشتراك فيها، بل قام بكل شيء بنفسه، اشتركنا نحن فيها وساعدناه في مناولة الذبائح، وعاونَّاه في وضعها على المذبح، كما ساعدناه في كل شيء، وكجدِّنا طلب من الله أن يهبنا الصحة والثروة. بَيدَ أنه إذا لم يكن يعتبرنا أولاد ابنته، وإذا لم يكن يرى أننا النسل الوحيد الذي خلَّفه، ما كان ليفعل معنا شيئًا من ذلك، وكان يقرِّب منه ذلك الرجل الذي يدَّعي الآن أنه ابن أخيه. لا يعرف هذه الحقيقة أكثر من سواهم غير خدم جدي الذين رفض المدَّعي

[٨] لقد ترجمت هذا الفصل ولو أنه لا يمُت إلى الموضوع الذي نحن بعدده، ولكنه يعطينا فكرة حسنة من الشعور الأثيني نحو موضوع تعذيب العبيد.

تقديمهم للتعذيب. ولكن بعض أصدقاء جدي يعرفونها كذلك بدقة كافية، وسأقدِّم دليلهم (الفصل ١٤–١٧).»

ثم يستمر الخطيب في أقواله، فيقول إنه هو وأخوه قد سُجِّلا في العشيرة Phratria بوساطة كيرون، وسمح لهما ديوكليس بالإشراف على الجنازة بعد أن وافق على طلبهما في صمت.

ثم يثبت بعد ذلك بالنقاش القانوني، أن الذرية المباشرة لها الأفضلية في أحقية المطالبة بالميراث، على الأقرباء من نسل الأشقَّاء. ويختتم الخطبة ببيان الملكية ودسائس ديوكليس الذى يهاجم الخطيب خلقه الشخصي، وفي النهاية يقدِّم دليلًا على ثبوت إدانة ديوكليس في تهمة الزنا.

٢

المميزات الأدبية

درس إيسايوس على إيسوكراتيس، ولذا كان من الحكمة أن نتبع الترتيب الزمني ونبدأ بالمدرِّس أولًا، غير أن المدرِّس عاش عدة سنوات بعد تلميذه، ونشط في الاشتغال بالأدب حتى فارق الدنيا، وعلى ذلك لا تنطبق الاعتبارات العادية للأقدمية على هذه الحالة. والأوفق أن ندرس إيسايوس من حيث علاقته، لا بإيسوكراتيس، بل بأنتيفون ولوسياس كاتبي الخطب السابقين لإيسوكراتيس؛ فقد كان إيسايوس أكثر اتصالًا بهما في موضوعه، ولا سيما في كونه كاتبًا متمرِّنًا مثلهما، كما أن أسلوبه أكثر شبهًا بإيجاز لوسياس منه بالسجع المتكلَّف في أسلوب مؤلف البانيجوريك «المديح» Panegyric.

ليس هناك فارق عظيم بين لوسياس وإيسايوس من حيث اللغة؛ فكلاهما يستعمل الألفاظ الشائعة، متخذًا من حديث الشعب اليومي وسيطًا أدبيًّا. وبالبحث في خطب الأخير نعثر على عدد معين من الألفاظ ذات النغمة الشعرية، كما تدلُّنا معلوماتنا، ولكن عمليًّا يمكن وجود كل هذه في غيره من الخطباء وكتَّاب النثر.[٩]

كذلك هناك قليل من الاستعارات الجديرة بالاعتبار مثل ἐκκόπτειν «يضرب فيطرح أرضًا» أو «يضرب على الرأس». وقد استعمل هذه دينارخوس – Dinarchus

[٩] جِب، الخطباء الآتيكيون، المجلد الثاني، صحيفة ٢٧٧.

καθιπποτροφειν «يبذِّر أمواله»، أي ينفقها على حظيرة للخيول. وإننا لا نعرف سوى القليل من مصطلحات اللغة التي كان يتحدَّث بها في شوارع أثينا في القرن الرابع، غير أننا نعرف أن الخطبة العامة دائمًا تكون ذات ميل إلى استعمال الاستعارات الجافة؛ فإذا ما درسنا ما استعمل من ألفاظ، توقَّعنا العثور على مصطلحات من هذا النوع.[١٠] وبدراسة المراسلات الخاصة الموجودة بين أوراق بردي أوكسورونخوس Oxyrhynchus نعثر على أمثلة عدة لمثل تلك المصطلحات.[١١] وأخيرًا هناك ألفاظ قليلة تذكِّرنا بلغة الروايات الهزلية.[١٢]

ويمكننا الاعتقاد بأنه لو سلَّمنا بهذه العيوب في صفاء لهجته الآتيكية؛ لوجدنا أن هذا الخطيب كان يتمسَّك دائمًا بالمذهب الواقعي الذي نجد عادةً آثارًا قليلة منه في النثر الأدبي.[١٣]

وتبعًا لقواعد اللغة الآتيكية، يشتمل أسلوبه أحيانًا على أخطاء، ويوجد في المخطوطات عدد معيَّن من صور الألفاظ المعتبرة غير أتيكية.[١٤]

وسواء صححنا هذه الفقرات حتى تلائم المستوى المفروض، أم جعلنا المستوى أكثر مرونةً حتى يسمح بهذه الفقرات؛ فإن هذا الأمر متروك للنقاش. ففي مخطوطات ثوكوديديس ثروة من المضادَّات المصاغة بمهارة عن طريق قواعد اللغة، وفي تلك الحالة، رغم أن كثيرًا من النقَّاد قد بذلوا نبوغهم في إعادة تنظيم النصوص؛ فإن آراء مدرسة النقَّاد المعارضة، تتمسَّك باحتمال اختيار الخطيب الكتابة كما يشاء. وإن أعظم الفنانين فوق قوانين فنهم، وربما كان إيسايوس قد وصل إلى مستوًى لم يعرف أنه أسمى مستوى.

---

[١٠] أشار كليستينيس Cleisthenes (هيردوتس، الكتاب السادس، ١٢٩) في لحظة انفعال شديد، إلى هيبوكليديس Hippoclides απωρχήσαο τόν γάμον «لقد أضعت فرص زواجك بانهماكك في الرقص.»

[١١] قارن كذلك استعمال υπωπιαξω في العهد الجديد من الإنجيل.

[١٢] مثل: γρυξαι.

[١٣] لقد سبقت الإشارة إلى أن كتَّاب الخطَب لم يوفَّقوا بشكل مضحك في محاولتهم جعل زبائنهم يتكلمون بطريقتهم الطبيعية (انظر صحيفة ٤٣).

[١٤] مثل «الخطبة الخامسة، ٢٣»: τ.λ ἡγούμενοι οὐκ ἂν αὐτὸν βεβαιώσεινκ. و«الخطبة الخامسة، ٣١»: ωμολογησαυεν έμμευειυ οίς άυ γυοΐεν δαπανηθεις» و«الخطبة الخامسة، ٤٣» (بمعنى وسطى).

وبالنظر إلى صفاء اللغة، لم يقُل إيسايوس كثيرًا عن لوسياس وإيسوكراتيس ولو أنه لم يتفوَّق عليهما. فهو في مستوى لوسياس من حيث صفاء ودقة الأفكار، ومن حيث ما يسمِّيه ديونوسيوس εναργεια حيوية العرض. بَيدَ أنه توجد اختلافات بينهما في تركيب العبارات؛ فكما سبق أن ذكرنا، قد نوَّع لوسياس كثيرًا في تراكيبه بما يتفق وموضوعات خطبه؛ فيعترض المد المتتابع بأسلوب أكثر مرونة، ولكنه في الوقت عينه كان يميل إلى الطِّباق الذي اضطر للتضحية من أجله أحيانًا.

ويخلو أسلوب إيسايوس تمامًا من الشدة بعد الطباق، ونادرًا ما يتقيَّد بالقواعد المدرسية. ولا نستطيع الجزم بأن أسلوبه خالٍ من السجع؛ لأنك تعثر في أعماله على سجع شكلي، والميزة الظاهرة في أسلوبه، هي مهارته في استعمال العبارات القصيرة، الموجزة أحيانًا، والقوية في أغلب الأحايين. ويكثر من استخدام صورة السؤال والجواب وبخاصة في الحوار، أما في الروايات فيعطينا سيلًا من الجمل القصيرة المرتبطة في الفكرة، العديمة الاتصال ببعضها في الشكل. ويبدو أنه كان يؤلف بإهمال، ولكننا نستخلص من أثره أن ذلك الإهمال قد دُرس. والفقرات الآتية توضح هذه الأساليب:

«خلَّف والد الأشقاء يوبوليس Eupolis وثراسولوس Thrasyllus ومنيسون Mneson أملاكًا واسعة مكَّنتهم من القيام بالخدمات العامة. فاقتسم الثلاثة الأشقاء الميراث فيما بينهم، وحدث في أثناء ذلك أن مات اثنان من هؤلاء الأشقاء في نفس الوقت تقريبًا[١٥] ... إلخ.

وتحتوى خطبته عن «ميراث كيرون» على خير مثال للحوار بوساطة السؤال والجواب:

«على أي أساس يمكن تصديق بيان؟ ألا نقول إننا نصدقه على أساس الدليل؟ أظن ذلك. وعلى أي أساس نصدق الشهود؟ أنصدقهم على أساس أنهم عذِّبوا؟ طبعًا. وعلى أي أساس يجب علينا عدم تصديق بلاغ المدَّعين؟ ألأنهم رفضوا الإذعان لهذا الاختبار؟ مؤكد.»[١٦]

وهناك عبارة ثالثة تعطي مثالًا حسنًا لاستخدام السؤال البلاغي استخدامًا زخرفيًّا بحتًا، ولهذه العبارة قيمة عظيمة في توضيح أن إيسايوس كان في طوقه أحيانًا التخفيف

[١٥] ضيعة أبولودوروس Apollodorus (الخطبة السابعة)، فصل ٥.

[١٦] كيرون (الخطبة الثامنة)، فصل ٢٨.

من حدة أسلوبه. وفي العادة نجده منطقيًّا جدًّا حتى إننا نرتاح كثيرًا إلى عرضه للشعور العادي:

«من ذا الذي كان حاضرًا عندما حضر الذهب (ومقداره ٢ تالنت) ولم يقطع شعره؟ من كان حاضرًا إذ ذاك ولم يلبس الحداد على أمل أن حداده هذا قد يعطيه حقًّا في المطالبة بالميراث؟ أو، كم كان عدد الأقارب والأبناء الذين ادَّعوا الحق في ضيعة نيكوستراتوس Nicostratus، عن طريق العقود أو المنح؟ قال ديموستينيس إنه ابن أخيه، غير أنه تراجع عندما أثبت المدَّعون الحاضرون خطأه. وقال تيليفوس Telephus إن نيكوستراتوس قد أوصى له بكل ضيعته، ولكن سرعان ما بطلت مطالبته. ثم تقدَّم أماينياديس Ameiniades إلى الأرخون وقدَّم ابنًا لنيكوستراتوس؛ طفلًا يقل عمره عن ثلاث سنوات، مع أن نيكوستراتوس لم يحضر إلى أثينا منذ أكثر من إحدى عشرة سنة. وقال بوروس اللامبارتي Pyrrhus of Lamparta، إن نيكوستراتوس كرَّس الأموال إلى أثينا، ولكن نيكوستراتوس قد أعطاه الأموال. وقال كتيسياس البسايي Ctesias of Besaea وكرانوس Cranus، قالا أولًا إن حكمًا صدر في صالحهما ضد نيكوستراتوس بمقدار تالنت واحد، ولمَّا لم يستطيعا إقامة الدليل على ذلك، قالا إن نيكوستراتوس كان عبدًا لهما وأعتقاه، ولكنهما فشلا أيضًا في إثبات ذلك كباقي المطالبين بالميراث.»

«تلك هي الفئة التي انقضَّت لأول وهلة على ضيعة نيكوستراتوس، ولم يقدِّم خاربياديس Chariades طلبًا في ذلك الوقت.»[١٧]

«وينسى ديونوسيوس، وهو ناقد دقيق في الناحية الأدبية، في إيسايوس، جمال وسحر أسلوب لوسياس، ولكنه يعترف له بمهارة أكثر.»[١٨]

هذا السحر الذي يستطيع ديونيسيوس أن يميِّز به خطبة صحيحة للوسياس، لا يمكننا تعريفه، ولا يقدر ذكاؤنا المتعب فهم غوامضه، بَيدَ أنه يمكننا أن نكوِّن فكرة عامة عن وجود متعة في أقوال لوسياس أكثر مما في إيسايوس. وربما يكون هناك شيء في التصوير الذي يستخدمه الناقد القديم في مقارنته خطب الأول على أنها تشبه صورة واضحة بسيطة الألوان والتصميم، بخطب الأخير التي يشبِّهها بصورة أكثر إتقانًا ومهارة

[١٧] نيكوستراتوس (الخطبة الرابعة)، فصل: ٧–١٠.

[١٨] من إيسايوس، الباب الثالث.

كأن المصوِّر قد أبدع استخدام الضوء والظل مع تلألؤ الألوان وقوتها، فيخفي بذلك أحيانًا بعض الخطوط؛ مما يوحي بوجود خطأ.[١٩]

ينطبق هذا التشبيه على تركيب الخطب أكثر من القول، ثم يعود ديونوسيوس إلى الأسلوب،[٢٠] فيقتبس فقرات متماثلةً من مقدمات خطبهما ليثبت بساطة لوسياس وتكلُّف إيسايوس، ولكن عرضه لا يكون قويًّا. والحق يقال إن أول فقرة اقتبسها من لوسياس بسيطة وواضحة تمامًا، غير أن الفقرة التي اقتبسها من إيسايوس تبدو مناسبة للغرض المقصود منها رغم أن لغتها أكثر إتقانًا.

وقد كتب لوسياس هكذا:

> «أشعر يا سادة، أنه من واجبي أن أخبركم عن صداقتي بفيرينيكوس Pherenicus حتى لا تعجبوا من دفاعي عنه الآن، أنا الذي لم يسبق لي مطلقًا أن دافعت عن أي فرد آخر؛ فقد كان والده كيفيسودوتوس Cephisodotus صديقًا لي، وعندما نفي حزبنا إلى طيبة، بقيت أنا معه كما فعل أي أثيني آخر رغب في ذلك.»

«لقد قدم لنا عدة خدمات جليلة، بصفة رسمية وبصفة خاصة، قبل أن نعود إلى بيوتنا. ولذلك عندما أصاب عائلته ما أصابنا ونفيت إلى أثينا، شعرت بأنني مدين لها بجميل سابق؛ فاستقبلتها استقبالًا عائليًّا حتى إن أي شخص من الحاضرين لم يعرف مَن منَّا رب البيت. والآن يعرف فيرينيكوس أن هناك خطباء كثيرين أقدر مني على الخطابة وأكثر مني مرانًا في هذا المضمار، غير أنه يعتمد على صداقتي؛ لذلك أرى من العار أن أتخلَّى عنه عندما يسألني ويلحُّ في أن أعضده في دعاويه، كما لا أسمح له بأن يفقد هدية أندروكليديس لو استطعت إلى ذلك سبيلًا.»[٢١]

وإليك فقرة تقابلها من إيسايوس:

«لقد خدمت يوماثيس Eumathes قبل الآن، وكان يستحق تلك الخدمات، والآن سأحاول ما وسعني أن أعاونكم على إنقاذه. فاستمعوا لي لحظةً حتى لا يظن أحدكم أني أقدمت على قضية يوماثيس بدافع الطيش أو بأي دافع آخر تأباه العدالة.»

---

[١٩] من إيسايوس، الباب الرابع.

[٢٠] من إيسايوس، الباب الخامس.

[٢١] لوسياس، الشذرة ٤٦.

«عندما كنت بحَّارًا في حكم (عهد) كيفيسودوروس Cephisodorus، وبلغ أقاربي أنني قتلت في معركة بحرية، وكنت قد تركت مبلغًا من المال وديعة عند يوماثيس؛ فأرسل يوماثيس إلى أقاربي وأصدقائي، واعترف لهم بالمبلغ ودفعه إليهم بالكامل:

«وكانت نتيجة ذلك أنني لما عدت سالمًا إلى وطني، عاملته كصديق حميم، وعندما شرع يفتتح مصرفًا أمددته بالمال. وبعد ذلك عندما طالب به ديونوسيوس كعبد، أثبتُّ حريته لأني كنت أعلم أن إبيجينيس Epigenes قد أعتقه في المحكمة، ولكني سأكتفي بما قلته في هذا الموضوع ولن أزيد عليه شيئًا.»[٢٢]

وينتقد ديونوسيوس هاتَين الفقرتَين بهذا النحو:

«ما الفرق بين هاتَين المقدمتَين؟ إن مقدمة لوسياس تدخل البهجة والسرور على النفس؛ لأنها سردت بصورة طبيعية وببساطة. «أشعر يا سادة، أنه من واجبي أن أخبركم عن صداقتي بفيرينيكوس.»

أما ما يلي فليس به أي مظهر من مظاهر إعمال الفكر، بل وضع كما يعبِّر عنه أي هاوٍ:

«حتى لا تعجبوا من دفاعي عنه الآن، أنا الذي لم يسبق لي مطلقًا أن دافعت عن أي فرد آخر.»

ولكن ما يبدو بسيطًا جدًّا في إيسايوس، هو في الواقع قد كتب بعد تفكير، ونلاحظ في الحال أنه بليغ:

«لقد خدمت يوماثيس قبل الآن، وكان يستحق تلك الخدمات، والآن سأحاول ما وَسعني أن أعاونكم على إنقاذه.»

في هذا غرور أكثر وبساطة أقل مما في القول الآخر، وكذلك هذا صحيح فيما يختص بالعبارة التالية:

> «فاستمعوا لي لحظةً حتى لا يظن أحدكم أنني أقدمت على قضية يوماثيس بدافع الطيش أو أي دافع آخر تأباه العدالة.»
>
> προπέπεια, ἀδικία, πρὸς τὰ Εὐμαθοῦς πράγματα προδῆλθον.

[٢٢] إيسايوس، الشذرة ١٥.

تبدو متكلفة أكثر منها طبيعية، وقد يكون على حقٍّ في ذلك، ولكنا نشعر أنه ناقد مجحف عندما يعيب على العبارة التالية افتقارها إلى البساطة، ويحاول ببعض التغييرات اللفظية أن يوضح كيف كان يمكن تحسينها؛ فقد يعيد كتابة العبارة هكذا:

«عندما كنت بحَّارًا، ووصل نبأ إلى داري بأنني قتلت؛ فإن يوماثيس الذي كان مودعًا لديه بعض مالي ... إلخ.»

لقد أفلح هنا حقًّا في حذف اسم يوماثيس مرة، لأن إيسايوس كرَّره مرتين، وتنحصر التعبيرات الأخرى، فقط في الاستعاضة بعبارتَين زمنيتَين مصدِّرتَين بالكلمة ὁτε «عندما»، عن عبارتَين مشتقتَين في حالة المضاف إليه المطلق؛ وهو تركيب شائع تمامًا في جميع الكتَّاب الإغريق، ليتحاشوا الرقابة على كونهم «بلغاء».

٣

تركيب الخطب

لا تتوقف قوة إيسايوس الخارقة على أي سحر لغوي أو موهبة خطابية، ولكنها تعتمد على معرفته الواسعة للقانون ومهارته الفائقة في الحوار؛ فله موهبة فريدة لتقدير الوقائع الاستنتاجية والبرهنة على الوقائع التي تتعلق بقضيته.

هذه هي المهارة δειυότης التي كثيرًا ما يشير إليها ديونوسيوس بإعجاب ينمُّ عن الحسد.

ليست خطب إيسايوس مرتَّبة على طريقة واحدة، ولكن فيها كثيرًا من تنوُّع التركيب. إن لوسياس كان يتبع دائمًا صورة واحدة من التركيب — مقدمة فسرد فبرهان فخاتمة — أما إيسايوس فلا يسرد الرواية مرة واحدة إذا كانت طويلة أو معقدة بدرجة أنها لا تفهم كلها على الفور، بل يقسمها إلى أجزاء يشفع سرد كلٍّ منها ببرهانه وحواره.[٢٣] ويظن ديونوسيوس «أن هذا الخطيب يخشى صعوبة الحوار نتيجة لتعدُّد أجزائه، كما يخشى عدم وضوح البراهين على جميع النقط لو جمعت كلها مع بعضها البعض؛ نظرًا لكثرتها وتناولها موضوعات شتى.»

[٢٣] قارن، عن إيسايوس، الباب ١٤.

ويشير الناقد بوجه خاصٍّ إلى الخطبة الثانية عشرة «من أجل يوفيليتوس For Euphiletus، وهي شذرة كبيرة بقيت عبارات عديدة منها محفوظةً لنا. بَيدَ أننا لو حلَّلنا أيًّا من الخطب الباقية لتبيَّن لنا أنها صِيغت بمهارة وفق خطط متنوعة لا تعترضها القواعد الفنية، وقد روعي في تركيبها فن جعل موضوعاتها تتفق وحاجة القضية. فهذه المهارة التي تهدف إلى النجاح قبل الكمال الأدبي، تبيَّن أن إيسايوس كان قبل كل شيء قديرًا في وضع الخطط، وأنه كان سيد الحوار بدرجة أنه «عندما نكون على استعداد لتصديق لوسياس حتى عندما يكذب، يعسر علينا أن ننظر إلى إيسايوس دون أن نشك حتى عندما يقول الصدق.»[٢٤]

ما من شك في أن ديونوسيوس قد ذهب مذهبًا بعيدًا جدًّا بسبب رغبته في المقارنة بالفوارق، فأعطى إيسايوس اسمًا سيئًا، وعمل جهده في البحث عن الوسائل التي يثبت بها صحة اتهامه لذلك الرجل «الذي ينتهز فرصة دنيئة لخصمه ويثير عليها مناورات يتغلَّب بها على القضاة.»[٢٥]

إن هذا الرجل الإغريقي الذي عاش في عصر هيلينيٍّ متأخر، قد فهم تمامًا الروح الأثينية التي كانت تطلب تأليفًا فنيًّا وترتاب في أي رجل ماهر جدًّا، تلك الروح التي يثور ضدها أنتيفون أول الخطباء، عندما يجعل شخصياته يحتجُّون بعدم خبرتهم، ويلمِّحون بأن منافسيهم على قسط وافر من المهارة؛ بحيث يمكنهم أن يجعلوا أسوأ قضية تبدو بمظهر خير القضايا.[٢٦]

وفي بعض الأحايين يكرِّر إيسايوس حواره، بل ويذكر حتى نفس الموضوع مرتين، وهذا يخالف الفن ولكنه يفيد منه. ويلاحظ في صور بعض خاتماته نقط تفوَّق بها على سابقيه تفوُّقًا ملحوظًا. فقد كان الخطباء الأوَّلون يكتفون عادةً بعد عرضهم للقضية، بأن يختموها بالتماس عامٍّ للعدل والرأفة. ولكن إيسايوس يزيد على ذلك باستخدام عبارات ختامية فيميِّز قضيته مشيرًا إلى أنه قد برهن على ما شرع في برهنته،[٢٧] أو يذكر ملخصًا موجزًا للرواية التي يرى أنها قائمة حينذاك، أو لمطالبه ومطالب خصمه. وفي إحدى

[٢٤] عن إيسايوس، الباب ١٦.

[٢٥] عن إيسايوس، الفصل الثالث.

[٢٦] قارن ما ذكر بصحيفة ٤٤ و٤٥.

[٢٧] مثال ذلك الخطب ٢، ٣، ٧، ٨، ٩.

خطبه[٢٨] وصل فعلًا إلى النهاية ثم لخَّص نتائجه في الوقت الذي يفاجئنا بكلماته الأخيرة بهجوم غير منتظر على سلوك خصمه.

«لا أظن أنني في حاجة إلى المزيد من الكلام، فما من نقطة إلا وتعلمون عنها كل شيء، ولكن سأطلب من الكاتب أن يدوِّن هذا الإقرار الأخير الذي يوضِّح كيف اتَّهم المدَّعي بالزنى وأن يتلوه على المحكمة.»

ولقد حاول بعض كتَّاب الخطب الأوائل تصوير الأخلاق، وحاولوا جعل خطبهم تلائم أخلاق (ἦθος) موكِّليهم، بَيدَ أن هذا التصوير لا يوجد في إيسايوس. فيختلف أسلوبه بعض الشيء تبعًا للموضوع، ولكن كل خطبة من خطبه تحمل، كما يلاحظ ديونوسيوس، طابع الكاتب المحترف الذي صاغه بطريقة تخدع ثاقب فطنة القاضي الأثيني.[٢٩] ومن المحتمل أن خبرة الخطيب المكتسبة قد برهنت على أن مثل هذه المحاولات الخدَّاعة غير مجدية؛ إذ قد يكون من الضروري لبعض طبقات خاصة من الزبائن، إما أن تكتب الخطبة رديئة، وإما أن يجعلها توضح أن الخطيب لا يتكلم إلا عن لسان محامٍ أمهر منه، وبما أن المهم في القضية هو النجاح وليس الخداع الفني، كان من الجلي ضرورة الاختيار السليم.

وكان من عادة إيسايوس ألا يحصر جلَّ همه في جعل شخصياته يتكلمون كما لو كانوا يتكلمون طبيعيًّا، بل في أن يضع لهم الحجج بطريقة يستسيغها العقل وتوافق مشاعر القضاة. وقد دلَّت التجربة علاوةً على ذلك، على أنه، ولو أن الخطبة إذا ألقاها خطيب حقيقي، قد يكون لتحريكه للمشاعر والعاطفة تأثير عظيم، إلا أن مثل هذه المرافعات يضر أكثر ما يفيد إذا لم يعضد بالحجج الدامغة، أو إذا ألقي في لحظة مشئومة. فالمرافعة القائمة على المعقول أقوى دائمًا على شرط أن يتجنَّب الخطيب الإساءة بتحامله الشديد.

وإذا ما اقتنعت المحكمة مقدَّمًا بعدالة القضية، أصبح طلب الرأفة أمرًا محقق الإجابة، أما إذا أهمل ذلك الإقناع كان هذا الطلب آخر ملجأ للضعف.

ورغم أن إيسايوس كان يستعمل مثل هذه التوسُّلات، كما يفيد من كل سلاح في جعبة الخطيب؛ فإنه كان يستعملها باعتدال وتبصُّر؛ فيظهر في ذلك كما يظهر في جميع خططه، دراية تامة بكيفية الإفادة عمليًّا من جميع الظروف.

---

[٢٨] الخطبة الثامنة «كيرون»، فصل ٤٦.

[٢٩] عن إيسايوس، الباب ١٦.

٤

الخطب

نعلم من كتاب «الحياة» لبلوتارخوس الكاذب أن أربعًا وستين خطبة تنسب إلى إيسايوس، منها خمسون تعتبر صحيحة، وأنه قد ألَّف كذلك كتابًا في فن البلاغة. وفي حوزتنا الآن إحدى عشرة خطبة، وشذرة كبيرة من خطبة ثانية عشرة، كما نعرف عناوين اثنتين وأربعين خطبة أخرى. وتتناول الإحدى عشرة خطبة، الموجودة، قضايا المواريث، سواء مباشرةً أو عن طريق غير مباشر. وتتعلق ستٌّ خطب من هذه بـ διαδικάσιαι؛ أي محاكمات للفصل في أي الطرفين صاحب الحق الصحيح، وعناوينها كالآتي:

الخطبة الأولى «عن ضيعة كليونوموس Cleonymus» و تاريخها ٣٦٠–٣٥٢ق.م.

الخطبة الرابعة «عن ضيعة نيكوستراتوس» وتاريخها غير موثوق منه. ويؤكِّد مؤلف «الحجة» أن إيسايوس ألقى هذه الخطبة بنفسه.

الخطبة السابعة «عن ضيعة أبولودوروس»، حوالي عام ٣٥٣ق.م.

الخطبة الثامنة «عن ضيعة كيرون» (انظر صفحة ١١٨–١٢٠)، وتاريخها غير موثوق منه، وربما كان حوالي عام ٣٧٥ق.م.

الخطبة التاسعة «عن ضيعة أستوفيلوس Astyphilus»، وربما كان تاريخها حوالي ٣٦٩ق.م.

وخطبة «عن ضيعة أرستارخوس Aristarchus»، وربما كان تاريخها بين ٣٧٧–٣٧١ق.م.

وتتناول ثلاث خطب قضايا محاكمة شهود زور في قضايا الوصايا، وهي: الخطبة الثامنة «عن ضيعة مينيكليس Menecles»، وتاريخها حوالي ٣٥٤ق.م.

الخطبة الثالثة «عن ضيعة بوروس Pyrrhus»، وتاريخها غير موثوق منه.

الخطبة السادسة «عن ضيعة فيلوكتيمون Philoctemon»، ويمكن تحديد تاريخها بالضبط بعام ٣٦٤–٣٦٣ق.م. حيث إننا نعلم من الفقرة الرابعة عشرة أنه قد مضى اثنان وخمسون عامًا على الحملة الأثينية التي أبحرت إلى صقلية.

أما الخطبة الخامسة «عن ضيعة ديكايوجينيس Dicaeogenes»؛ فهي لإجبار ليوخاريس Leochares الضامن لديكايوجينيس في اتفاق خاص بوصية ابن عم الأخير المسمى ديكايوجينيس أيضًا؛ ليقوم بتنفيذ عقد الاتفاق حيث ثبتت إدانة ديكايوجينيس الأصلي. ويمكن تحديد تاريخ هذه الخطبة فقط بالرجوع إلى موت الموصي الذي قُتل في

أثناء معركة في كنيدوس Cnidos. وهناك معركتان يمكن الرجوع إليهما؛ الأولى في عام ٤١٢ق.م. والثانية عام ٣٩٤ق.م. وقد مضى اثنان وعشرون عامًا بين موت الموصي وهذه المحاكمة، وعلى ذلك إما أن يكون تاريخ هذه الخطبة عام ٣٩٠ق.م. — أي قبل أي خطبة أخرى لإيسايوس بعدة سنوات — وإما عام ٣٧٢ق.م.

والخطبة الحادية عشرة «عن ضيعة هاجنياس Hagnias»، وتتناول محاكمة وصيٍّ لسوء معاملته الشخص الذي تحت وصايته.

والخطبة الثانية عشرة «من أجل يوفيليتوس»، وهي شذرة كبيرة حافظ عليها ديونوسيوس، وهي النموذج الوحيد لما نملكه من خطبه التي لا تناول قضايا الوصايا، وتشير إلى دعوى رفعها يوفيليتوس أمام القضاء ضد سكان دائرته الانتخابية لشطبهم اسمه من قائمة النوَّاب المرشَّحين لتلك الدائرة.

أما باقي الشذرات فقليلة الأهمية إلا فيما يختص بإعطائنا أسماء عدة خطب مفقودة، وتحوي إحداها (الشذرة ٢٣) عدة عبارات مكررة من الخطبة الثامنة «كيرون» فصل ٢٨.

أما شذرة الخطبة «من أجل يوماثيس» التي حافظ عليها ديونوسيوس؛ فقد سبقت الإشارة إليها في صحيفتي ١٢٨ و١٢٩.

الفصل السادس

إيسوكراتيس

١

حياته

وُلد إيسوكراتيس عام ٤٣٦ق.م. وعاش متمتعًا بكامل قواه العقلية حتى بلغ السابعة والتسعين من العمر، وقد قضى سني طفولته وشبابه بين أهوال الحرب البلوبونيزية Peloponnesian، وعندما فشلت الحرب الصقلية كان في شرخ الصبا؛ فرجحت الكفة ضد أثينا. وفي ريعان شبابه أبصر بعيني رأسه خراب مدينته وتسليمها إلى لوساندر Lysander، وعاش إبان السيادة الإسبرطية، وشاهد أساس الحلف الأثيني الجديد سنة ٣٧٨ق.م. وقيام وانهيار سلطة طيبة. وكان في سن الشيخوخة تقريبًا عندما اعتلى فيليب عرش مقدونيا، وقد أخطأه قانون الفناء فترة من الزمن فوضع أهم أعماله بعد الثمانين من عمره. ولا يظهر في خطبته فيلبوس Philippus التي كتبها في سن التسعين أي نقص في قواه، وكتب مؤلَّفًا من أطول مؤلَّفاته «الباناثينايكوس Panathenaicus» في العام السابع والتسعين من عمره، وعاش ليهنِّئ فيليب على انتصاره في خايرونيا Chaeronea سنة ٣٣٨ق.م.

ومن المتوقع في حياة طويلة كهذه، وتنوُّع عظيم في الخبرة، أن نجد تغييرات عدة في المظهر، وتعديلًا في الأسلوب بين آونة وأخرى، بَيدَ أن إيسوكراتيس كان رجلًا ذا آراء فريدة ثابتة. وكانت له آراء عن التعليم، صاغها في خطبته ضد السفسطائيين (سنة ٣٩١ق.م.) آراء تكاد تكون مطابقة لما سبق أن عبَّر عنه بعد أربعين سنة في الأنتيدوسيس Antidosis، وهي آراء يحتفظ بها في آخر عمل له «الباناثينايكوس» (٣٣٩ق.م.) أما بخصوص آرائه في السياسة الإغريقية، فقد ظل محتفظًا حتى نهاية حياته بالآراء الموجودة

في «البانيجيوريكوس Panegyricus» لعام ٣٨٠ق.م. فلم تتغيَّر أهدافه ولو أنه بدافع الضرورة قد عدَّل السُّبل التي كان يأمل بوساطتها أن يخرجها إلى حيِّز التنفيذ.

ومعلوماتنا عن أول حياة هذا الخطيب ضئيلة، ويخبرنا هو نفسه أن الحرب البلوبونيزية[١] قد بددت ميراثه حتى اضطر إلى أن يتخذ له حرفة يكسب منها عيشه.

ولا يؤيد القصة التي جاءت في «حياته» من أنه حاول إنقاذ ثيرامينيس Theramenes عندما أدانته حكومة الثلاثين، نقول لا يؤيد تلك القصة غير بلوتارخوس الكاذب، ويبدو مما كتبه أفلاطون في «محاورة فايدروس»[٢] أنه كان من أعز أصدقاء سقراط، وأنه كان لسقراط آراء سامية فيه؛ فذكر أن ذلك الشاب سوف يجعل لنفسه مكانة بارزة في عالم الخطابة أو الفلسفة، ويذكر لنا العرف، أن من بين معلِّميه الأوائل من السفسطائيين بروديكوس وبروتاجوراس وجورجياس، ومن المعروف أنه زار جورجياس في تساليا.

ويؤكد بلوتارخوس أن إيسوكراتيس في وقتٍ ما افتتح مدرسة للبلاغة في خيوس Chios كان بها تسعة تلاميذ، وأنه تدخَّل في الشئون السياسية بينما كان هناك، وساعد على إقامة الديمقراطية،[٣] ويمكن تصديق هذه القصة بتحفظ؛ فإن إيسوكراتيس نفسه لا يشير إليها أبدًا، وفي خطبته السادسة فصل ٢ «إلى أطفال جاسون Jason» يعتذر عن عدم زيارته تساليا، بحجة أن الناس قد يتقوَّلون على من عاش طوال حياته عيشة هادئة، لو أنه بدأ يتجوَّل في شيخوخته.[٤] ويظن جِب أنه مكث مدة قصيرة في خيوس سنة ٤٠٤–٤٠٣ق.م.

وقد أَلَّف إيسوكراتيس فيما بين عام ٤٠٣ وعام ٣٩٣ق.م. عددًا معينًا من الخطب للمحاكم، بَيدَ أنه لم يترافع فيها شخصيًّا بسبب مزاجه العصبي وافتقاره إلى صوت يساعده على الاسترسال في الكلام بصوت مرتفع، وقد أشار هو إلى هذَين العيبَين الطبيعيَّين في شيء من الحسرة.

---

[١] أنتيدوسيس، فصل ١٦١.

[٢] فايدروس Phaedrus، صحيفة ٢٧٨–٢٧٩.

[٣] καὶ ἀρχὰς δέ “και” (τὰς?) περὶ τὴν Χίον κατέστησε καὶ τὴν αὐτὴν τῇ πατρίδι πολίτειαν بلوتارخوس الكاذب، ٨٣٧ ب.

[٤] وعلى أية حال، فلو اعتبرنا هذه الفقرة لكانت الرحلة مع تيموثيوس غير تاريخية، ويمكن العثور على جميع الأدلة في بلاس، الخطباء الآتيكيون، المجلد الثاني صحيفة ١٦–١٧.

وحوالي عام ٣٩٢ق.م. أنشأ مدرسة في أثينا، وفي عام ٣٩١ق.م. نشر آراءه عن التعليم في خطبته ضد السفسطائيين. وكان جلُّ تلاميذه من الأثينيين الذين أصبح عددٌ غير قليل منهم فيما بعد رجالًا بارزين.[٥]

ويحتمل قيام إيسوكراتيس فيما بين ٣٧٨–٣٧٦ق.م. بعدة رحلات بحرية مع تيموثيوس بن كونون Conon's Son, Timotheus، الذي كان مشغولًا بتنظيم الحلف البحري الجديد. ومنذ ذلك الوقت حتى سنة ٣٥١ق.م. تتلمذ عليه جملة تلاميذ مختارين من أقطار بعيدة — من صقلية وبونطوس Pontus ومن جميع نواحي بلاد الإغريق — وهذا كما يقول هو تنافس معقول إن لم يكن ثروة عظيمة.

وعندما عقدت أرتيميسيا Artimesia أرملة ماوسولوس الكاري Mausolus of Caria مباراة في الفصاحة سنة ٣٥١ق.م. تكريمًا لذكرى زوجها، يقال إن جميع الفائزين كانوا تلاميذ إيسوكراتيس.

وقد ظل إيسوكراتيس يعلِّم في الفترة الأخيرة من حياته، ٣٥١–٣٣٨ق.م. كما شغل نفسه بالكتابة والتأليف؛ فنشر خطبته فيلبوس إحدى مؤلفاته الهامة وواحدة من بين المؤلفات التي كان لها أهمية تاريخية عظيمة سنة ٣٤٦ق.م وأنشأ يؤلِّف مطوَّلته الباناثينايكوس سنة ٣٤٢ق.م. ولما أتمَّ نصفها انتابه مرض عضال أخَّر إتمامها مدة ثلاث سنوات، فانتهت في عام ٣٣٩ق.م.

وفي العام التالي تُوفي إيسوكراتيس، بعد معركة خايرونيا Chaeronea بأيام قلائل. وقد شاع في ذلك الوقت أنه انتحر بامتناعه عن الطعام عِقب انهيار الحرية الإغريقية، وهذه قصة لا يقبلها العقل، لا سيما إذا علمنا أن نتيجة تلك المعركة جعلت من المحتمل تحقيق الآمال التي كان يصبو إليها إيسوكراتيس مدة نصف حياته، والهدف الذي كان يعمل من أجله أكثر من أربعين عامًا، وهو تركيز السلطة كلها في يد رجل واحد يستطيع إنقاذ بلاد الإغريق بأن يعمل على اتحادها وجمع كلمتها، ويقودها في فتح بلاد الشرق.

حقًّا، إن آخر رسالة له كتبها بعد معركة خايرونيا، يهنِّئ بها فيليب على انتصاراته، وحتى لو سلَّمنا جدلًا بأن تلك الرسالة زائفة؛ فإنه يمكن الحكم من لهجته في مؤلفاته السابقة، بأنه كان يرحِّب بالنجاح المقدوني كانتصار لآرائه في الإمبراطورية.

---

[٥] أنتيدوسيس، فصل ١٥٩ وما بعده.

٢

الأسلوب

على الرغم من أن إيسوكراتيس قد أَلَّف في شبابه قليلًا من الخطَب القضائية؛ فلا يجدر بنا أن نُصدر حكمنا عليه بمثل هذه المؤلفات؛ فقد استخدم هو نفسه لهجة اعتذارية في سني حياته المتأخرة، عندما كان يتكلم عن مؤلفاته المبكرة. وقد اكتسب شهرة عظيمة كمعلِّم للبلاغة، وكما افتخر هو، كان من بين تلاميذه بعض الملوك، وكانت له سيطرة تامة على جميع مصطلحات الفن البلاغي.

وكان إيسوكراتيس كذلك إمامًا في الأسلوب. له نظريات في التأليف مثل بها عمليًّا بمهارة فائقة جعلت من الواجب أن يحتل المكانة الأولى في أية رسالة عن تطوُّر النثر الإغريقي.

وأسمى تقدير له جدير بالاعتبار، هو كمفكر سياسي، فقد عبَّر عن نظرياته الجريئة في السياسة الإغريقية بأسلوب نثري كامل بليغ العبارات، أضفى عليه صورة فنية كحلية إضافية فحسب. وإذا كان قد كتب بأسلوب في منتهى الجرأة، فلا بد وأنه قد كوَّن اسمًا بمقالاته في العلوم السياسية وبآرائه عن الروح الهيلينية التي لا يدانيه فيها أي أثيني قبله أو بعده من حيث اتساعها وحريتها، وبذا أصبح ذلك الشخص الذي ربما لم يُلقِ خطبة عامة قط، أعظم الخطباء أهمية. ورغم أنه لم يكن سياسيًّا بالمعنى الضيِّق؛ فإنه أظهر نفوذًا أوسع من نفوذ أي خطيب كرَّس حياته للنشاط السياسي، حتى ديموسثينيس؛ فقد أوجد إيسوكراتيس ونشر آراءً غيَّرت مجرى الحضارة الإغريقية تغييرًا تامًّا، وربما كان هو أول من حثَّ فيليب على محاولة غزو آسيا، كما حثَّ ديونوسيوس وآخرين على القيام بتلك المحاولة؛ كل هذا من أجل وحدة الولايات الإغريقية وانتشار الروح الهيلينية. ولا مراء في أنه قد شجَّع الملك المقدوني على مشروعه، وربما يعود إليه الفضل في تيسير الطريق أمام الإسكندر عند موت فيليب.

لم يكن إيسوكراتيس ليتنبَّأ بنتائج فتوحات الإسكندر؛ فإن الإسكندر نفسه كان يعدِّل ويوسِّع أطماعه كلما تقدَّم، بَيدَ أنه مما لا جدال فيه، أن إيسوكراتيس هو الذي أثار الرغبة العامة في تلك الحملة، ووضع إلى حدٍّ ما، الخطط الواضحة التي يجب أن تسير عليها. وإن القضايا الصغيرة التي شغلت لوسياس وأندوكيديس لتبدو تافهة عديمة الأهمية، وحتى خطب ديموسثينيس في الحماسة الوطنية ثانوية القيمة، لو قورنت بخطب

إيسوكراتيس الأدبية في قضايا كان خصومها، المدنية والبربرية، الوحدة والشقاق، بينما كانت المحكمة هي العالم.

ويعتبر إيسوكراتيس في نظر ديونوسيوس، مثال الأسلوب السهل أو المسترسل للتأليف، الذي يشبه تمامًا المنسوجات الرفيعة الدقيقة الصنع، أو الصور التي يتداخل الضوء في ظلِّها بطريقة غير محسوسة.[٦]

ومن الجليِّ أنك إن قصدت الحصول على مثل هذه النتائج؛ فلا بد لك من أن تسمو بالتعبير إلى أرقى درجات السمو، مجازفًا بفقد الوضوح والتوكيد. ونستطيع جمع آراء إيسوكراتيس عن التركيب النثري، تارة من تقاريره هو نفسه، وتارة أخرى من نقد ديونوسيوس، وطورًا من دراسة مؤلفاته. وقد درس بلاس هذا الموضوع دراسة وافية متقنة، ولا يمكننا في هذا المجال سوى سرد ملخص موجز لأهم النتائج.

وأهم ظاهرة في أسلوبه هي عنايته باجتناب المد في الحروف، وأخص من لاحظ هذا ديونوسيوس الذي يقول بعد أن ذكر فقرة طويلة أعجبته كثيرًا من الأريوباجيتيكوس Areopagiticus:

«لا يمكنك العثور على تعقيد لفظي في حروف العلة، في الفقرة التي ذكرتها أو في أي فقرة من الخطبة كلها على ما أظن، إلا ما يكون قد فاتني من الأمثلة.»[٧]

وللحصول على مثل تلك النتيجة، كان لا بد له من أن يحيد مرارًا عن الصور الطبيعية للتعبير، بإدخال ألفاظ غير ضرورية، ويحتمل أن يكون إيسوكراتيس قد لجأ إلى مثل هاتَين الوسيلتَين. ولكن هذه هي المهارة التي يتناول بها موضوعاته، حتى إنه يصبح من الضروري قراءتها بإمعان للكشف عن تلك الحيل والالتواءات.[٨]

وكذلك، يلاحظ ديونوسيوس ندرة التعقيد اللفظي والتقاء الحروف الساكنة في مواضع الثقل، وهنا يظهر أن إيسوكراتيس قد ضاق ذرعًا باتباع قواعد تناسق النغمات الصوتية التي يفرضها عليه فنه.

---

[٦] عن تركيب الكلمات de Comp, Verb، الباب الثالث والعشرون.

[٧] عن تركيب الكلمات، وإنه يقتبس من الأريوباجيتيكوس الفقرات من ١–٥.

[٨] يسمح إيسوكراتيس بحذف بعض حروف العلة القصيرة المد، ولكنه يقلل من استعمالها عن معظم الشعراء. وأكثر الحذف شيوعًا في خطبه التي قصد بها الظهور هو استعماله لاختصارات الألفاظ أو شبه الاختصارات (τε, δέ, etc.)، والضمائر، أما إدغام حروف المد فنادر ما عدا καί άν والحذف أقل بكثير في خطبه القضائية التي هي باكورة أعماله.

ويخبر قرَّاءه في شذرة حافظ عليها هيرموجينيس Hermogenes، أن يتحاشَوا تكرار نفس المقطع في الكلمات المتوالية مثل، ἔνθα Θαλής, ηλικὰ καλά.[٩] وقد اكتشف بلاس بعبقريته فقرات غيَّرت فيها الطريقة العادية لاجتناب تجاور مثل تلك المقاطع المتشابهة.[١٠] كذلك يثقل النطق ببعض مجموعات من الحروف الساكنة؛ ولذا يجب اجتنابها. وفي الحقيقة، لقد كان ديونوسيوس عادلًا في ملاحظته أنه يلزم عند قراءة إيسوكراتيس، أن ننظر إلى الجمل كاملة لا إلى الألفاظ منفردة.

وثالثة مميِّزات أسلوب إيسوكراتيس، هي عنايته بالوزن.

وقد حال إسراف جورجياس دون تقدُّم اللغة، بإدخاله في النثر أوزان ولغة الشعر. ولقد درس ثراسوماخوس، كما نعلم من كتاب البلاغة لأرسطو، أثر الوزن (-ببب أو ببب-) في بداية ونهاية فقرات السجع، وفي الوقت الذي يأسف فيه إيسوكراتيس لاستخدامه الأوزان الشعرية في أي معنًى ظلف، نجده في حالة النثر الخطابي يؤكد ضرورة استخدام أوزان خاصة به، ومجموعات متآلفة من التروخي والإيامبوس الذين يفضِّلهما.[١١] وفي هذا نراه يخالف سقراط الذي لا يستسيغ الوزن الإيامبي لشدة مشابهته لطريقة الكلام العادي، ولا التروخي لأنه خفيف جدًّا وكثير الزلل بالنسبة إلى الوزن السداسي Hexameter الذي يعتبره مناسبًا جدًّا للغة التخاطب.[١٢]

يشتهر سجع إيسوكراتيس بروعته، وتظهر تحليلات بلاس، تعقيدًا في تركيب بعض الجمل الطويلة التي يمكن مقارنتها إلى حدٍّ ما بأسلوب قصيدة بندار الغنائية، وربما لا يكون هناك كاتب قط، استعمل مثل ذلك التركيب الرائع للجمل المركَّبة في تأليف عباراته. ولكن إيسوكراتيس كان طوع فضائل نفسه؛ فعبارات سجعه طويلة وكاملة، ومنتظمة فنيًّا، لدرجة أنها تظل على وتيرة واحدة باستمرار. أما لوسياس الذي يقل عنه في كمال الشكل، فأكثر تنوُّعًا. وديموسثينيس الذي استطاع تكوين عبارات سجع طويلة، لم يقتصر عليها، بل أعطى لأسلوبه روحًا بعبارات متناقضة.

---

[٩] Maxim. Planud. ad Hermog., V. 469.

[١٠] صحيفة ١٤٤ من المجلد الثاني.

[١١] التروخي في الشعر الإغريقي واللاتيني وزن يتألف من مقطعين الأول طويل والآخر قصير. والإيامبوس في الشعر الإغريقي واللاتيني وزن يتألف من مقطعين الأول قصير والآخر طويل.

[١٢] كتاب البلاغة، الباب الثالث، ٨، ٤.

يدين تركيب السجع بطبيعة الحال إلى صور التعبير الخاصة بالطباق والمقابلة؛ فقد لاحظنا في أنتيفون كثرة أنواع الطباق اللفظية المتنوعة، فهناك δέ, μὲν, ἔργῳ, λόγῳ وغيرها. ولمَّا كان أمام إيسوكراتيس نماذج أسلافه، وحكم رجال البلاغة، ونظرياته الخاصة بتركيب الجمل؛ فقد كوَّن طريقة كاملة للموازنة بين اللفظ والإحساس والصوت.

وعلى ذلك تتركب عبارات السجع كما رأينا من κώλα أو أعضاء، تطابق كل منها الأخرى في الطول، وأزواج الـ κώλα المتقابلة تحوي أزواجًا من الكلمات المتقابلة في المعنى أو الشكل أو الصوت، وبذا تصبح عبارة السجع كلها مرتبطة ببعضها البعض تمامًا.

المفردات والصيغ

تحاشى إيسوكراتيس الإفراط في المفردات، وإنه تبعًا لحكم ديونوسيوس أنقى الخطباء الآتيكيين باستثناء لوسياس، ولو قارنَّا بين إيسوكراتيس ولوسياس؛ لوجدنا أن إيسوكراتيس أكثر ميلًا إلى الكتابة الرائعة؛ إذ استطاع باستخدام الألفاظ العادية أن يُنتج آثارًا ملحوظة، فضلًا عن أنه كان يسعى دائمًا وراء عظمة خاصة في القول. ونلمس هذا كثيرًا في الكتابات الاستعراضية مثل «هيلين» و«بوسيريس Busiris»؛ حيث تكثُر الألفاظ الفصيحة ويشيع استعمال المجازات والاستعارات أكثر مما في المواضيع الحقيقية.

ومما كان يغرم به ويحاكيه فيه كل من جاء بعده من الخطباء تقريبًا، عدم الحشو بالمترادفات للتعبير عن فكرة واحدة.[١٣] وفي بعض حالات نعثر على مترادفات تتضارب ظاهريًّا في مختلف أجزاء العبارة، ومثل هذا التضارب لفظي فحسب، ويقصد به وزن العبارة في وقعها على الأذن. وفي كلا الحالَين نلاحظ أن هذا الخطيب كان يخرج عن البساطة ليجعل عباراته ترتاح لسماعها الأذن، غير أنه لا يخرج كثيرًا عن المعنى.[١٤]

---

[١٣] θαυμάζειν καὶ ζηλοῦν, ἐπαινεῖν καὶ τιμᾶν, etc.

[١٤] مثلًا البانيجوريكوس، فصل ٥، ὅταν ἤ τὰ πράγματα λάβῃ τέλος ... ἤ τὸν λόγον ἴδῃ τις ἔχοντα πέρας, τέλος بمعنى ختام أو تكميل، أو يكون تمييزهما ضئيلًا، ففي إيفاجوراس، فصل ٢، εὐλογεῖν, ἐγκυμιάζειν تستعملان للتناقض (مدحًا أو ذمًّا).

ومن مستلزماته الأخرى استعمال جمع المصدر بنفس معنى مفرده.[١٥] فكل هذه التفاصيل — من الميل إلى المركَّبات، وتكديس المترادفات، واستعمال الجمع بدل المفرد — يمكن جمعها تحت اسم «المبالغة في التعبير»، وقد سجِّلت كمميزات للأسلوب البلاغي.

وعلى العموم فإن لهجته رفيعة، ويميل إلى الظهور بالروعة عند مقارنته بلوسياس. أما إذا أخذنا جورجياس كنموذج ومستوًى؛ فإننا نرى إيسوكراتيس الذي كان يقلِّد الأسلوب الصقلي، يفوق هذا النموذج من ناحية تهذيب الأسلوب.

٣

التعليم

لما كان إيسوكراتيس محرومًا من إظهار مواهبه أمام الجمهور بسبب عجزه الطبعي، ولما كان مضطرًّا إلى كسب رزقه؛ حيث إن الحرب البيلوبونيزية قد استنفدت كل ثروته؛ فقد احترف مهنة كان يصلح لها كل الصلاحية، ألا وهي مهنة التعليم؛ فكان لعدة سنوات، كجورجياس، معلِّمًا للبلاغة، ويمكن اعتباره كجورجياس، سفسطائيًّا. وهذا الاسم مضلل، فلا يقصد به في حد ذاته أكثر من معلم أو مدرِّس للحكمة، ويستعمله قدامى الكتَّاب في معنًى تقريظي، ويستخدمه هيرودوت في حالة الحكماء السبعة. وفي القرن الرابع كان الشعراء الهزليون ينظرون إلى اسم السفسطائيين نظرة ازدراء، وهي عادة كانت شائعة في ذلك الوقت لاحتقار كل ما لا يفهمه العامة، ولكن أفلاطون كان يزدري هذا الاسم على أساس معقول؛ فعلى الرغم من أنه كان يعترف بأن بعض السفسطائيين أمثال بروتاجوراس كانوا رجالًا جديرين بكل احترام وإجلال، إلا أنه كان ينتهز فرصًا عدة ليستخفَّ بالسفسطائية كفِئة، وبالسفسطة كمهنة.

وما من شك في أنه كان جد مخلص، إذ كان يجد صعوبة جمَّة في التفرقة بين المعلمين وبين مدرِّسه سقراط الذي أشار إليه أريستوفانيس كأحد العامة.[١٦]

---

[١٥] مثلًا، إيفاجوراس، فصل ١٠، αὐταῖς τοῖς εὐρυθμίαις καὶ ταῖς συμμετρίαις ψυχαγωγοῦσι τοὺς ἀ οὑοντας. ونجد في مكان آخر μετριότητες, λαμπρότητες, αὐθάδειαι, ἀργίαι ... إلخ.

[١٦] أريستوفانيس، السحب.

ويبدو لنا أنه لا يمكن الاحتفاظ بذلك الفارق الملموس، فبصرف النظر عن شذوذ سقراط في رفضه أخذ أتعاب من تلاميذه؛ فهو يتميَّز فقط بخلق أرفع من خلق باقي السفسطائيين. وكان مثلهم دائم الشك في الآراء الفلسفية، وكان مثلهم معلِّمًا.

على أية حال، لقد قبلنا هذا اللفظ، بقيمته التي قدَّرها له أفلاطون، بَيدَ أنه لا ينبغي أن نحسب أن هذه هي القيمة التي كانت شائعة عادة. ويتضح هذا من الواقع في أن إيسوكراتيس كان يمكنه استعمال تلك الكلمة دون أية فكرة للاستخفاف.

ورغم أنه كتب خطبة «ضد السفسطائيين»؛ فإنها لم تكن موجَّهة ضد المهنة عامة، بل ضد فئات خاصة كان يسمِّيها «ἀγέλαιοι σοφισταί» سفسطائيين من النوع الوضيع».

وأول عمل لإيسوكراتيس عن التعليم، هو الخطبة أو المقالة «ضد السفسطائيين» (الخطبة ١٣)، وتاريخها منذ بدء احترافه تلك المهنة، أي حوالي عام ٣٩٠ق.م. ولدينا جزء فقط من تلك الخطبة ربما يقل عن نصفها. وما يتبقى فهو محض نقد هدَّام يقصد به إظهار نظرية الكاتب نفسه، كما يتضح من الكلمات الختامية، وإنه ليحق لنا أن نأسف على فقد ما ضاع من تلك الخطبة، ولو أنه ليس من العسير تعويضه؛ إذ إن الخطبة «عن أنتيدوسيس Antidosis»، التي كتبت بعد ذلك بخمس وثلاثين سنة، تكملها ببيان تركيبي كامل.

ومقدمة خطبته «عن السفسطائيين» قاسية في شدتها:[١٧]

«لو اقتنع جميع معلِّمينا المحترفين بقولهم الصدق، ولم يعدوا بأكثر مما ينوون القيام به، لما كانت لهم سمعة سيئة بين العوام. فالواقع، أن سفاهتهم الوقحة قد شجَّعت الرأي القائل بأن حياة الكسل والتغافل خير من حياة موقوفة على الفلسفة.»

ثم يستطرد في حديثه لينقذ طبقات مختلفة فيقول:

«لا يمكننا أن نتجنَّب كراهية واحتقار أساتذة النقاش الجدلي الذين، في الوقت الذي يدَّعون فيه بأنهم يسعَون للوصول إلى الحقيقة، يقدِّمون الكذب في مستهلِّ ادعاءاتهم؛ فيعترفون بأنهم يستطيعون التنبُّؤ بالمستقبل، وهذه قوة أنكرها هوميروس حتى على الآلهة، كما يؤكدون لتلاميذهم معرفتهم التامة للسلوك القويم، ويعدونهم بالسعادة نتيجة لذلك. إنهم يعرضون للبيع تلك البضاعة الفاسدة بسعر فاحش يبعث على الضحك — ثلاثة أو أربعة ميناي.[١٨] حقيقة إنهم يدَّعون بغضهم للمال — مجرد مقدار تافه

[١٧] قارن إشارة إيسوكراتيس إلى هذه الفقرة في أنتيدوسيس، فقرة ١٩٣.

[١٨] انظر صحيفة ١٢٠.

من الفضة، أو كما يسمونه «نظير ذلك الربح الضئيل»، سيرفعون تلاميذهم إلى مستوى الخالدين تقريبًا. إنهم يدَّعون بأنهم يعلمون كل فضيلة، غير أنه يلاحظ أنه يجب على التلاميذ تقديم ضمان عن سداد مصروفاتهم قبل أن يسمح لهم بتلقِّي المنهج.

تعيد إلينا نغمة هذا الطغيان، ذكرى هجمات سقراط الأفلاطوني ضد «السفسطائيين المجادلين eristic Sophists» غير أنه من المسلَّم به قطعًا أن الذين يهاجمهم إيسوكراتيس هنا، هم بعض السقراطيين الأقل أهمية، ويتجلى هذا بوضوح إذا ما رجعنا إلى فقرة ٣ عن المعرفة (ἐπιστήμη) التي، تبعًا لهؤلاء المعلمين، سوف تسوق إلى مسلك قويم، أو فضيلة، ومن ثَم إلى السعادة.

والرأي السقراطي بأن المعرفة أساس الفضيلة، والفضيلة أساس السعادة، معروف تمام المعرفة. ولم يعترف سقراط نفسه بأنه يعلِّم الفضيلة نظير أجر، بَيدَ أن الميجاريين Megarians أتباع تلميذه يوكليديس Euclides فعلوا ذلك، ويبدو أن تهكُّم إيسوكراتيس موجَّه إليه. ويؤكد إيسوكراتيس في مكان آخر أن المدرسة الأفلاطونية تتعلق بطبقة الجدليين[١٩] eristic class.

«يأتي بعد ذلك معلِّمو النقش السياسي بالممنوعات، أعني معلِّمي البلاغة العملية سواء أكانوا قضاة أو مستشارين،[٢٠] فهم لا يهتمون بالحق إطلاقًا، في حين أن الجدليين يهتمون بالبحث عنه. إنهم يعتبرون مهمتهم جذب أكبر عدد مستطاع من التلاميذ بما يتقاضونه منهم من أجور زهيدة، أو بما يعدونهم به من وعود خلَّابة. حقًّا إنهم في منتهى الغباوة ويظنون غيرهم أغبياء، حتى إنه بالرغم من كون الخطب التي يكتبونها أسوأ مما يستطيع ارتجاله غير المحترفين؛ فإنهم يتعهَّدون بأن يجعلوا من تلاميذهم خطباء يتساوون مع أية شخصية بارزة. إنهم يدَّعون أن في مقدورهم تعليم الخطابة بالسهولة التي يعلَّمون بها الحروف الأبجدية، وأن الخطابة موضوع ذو قواعد محددة غير قابلة للتغيير، في حين أن ظروف المتكلم ليست واحدة في أي فرصتَين.

يتوقَّف نجاح الخطبة على ملاءمتها للموضوع، وللظروف، وللخطيب، ويجب أن تكون إلى حدٍّ ما طبيعية. ويمكن للتعليم أن يكسبنا مهارة فنية؛ ولكنه لا يستطيع أن

---

[١٩] هيلين (خطبة ١٠) فصل ١، οἱ δὲ διεξιόντες ὡς ἀνδρία καὶ σοφία καὶ δικαιοσύνη ταὐτόν ἐστι.

[٢٠] فقرة ٩ وما بعدها.

يوجد ملكة الخطابة التي يلزم أن تكون متأصِّلة في نفس الخطيب الجيد بمحض الطبيعة والسليقة.»

لا ريب في أن إيسوكراتيس قد اعترف بإعطائه تدريبًا عمليًّا عن الحياة العامة، ولكنه يذكر هنا ما يكرره بتأكيد أكثر، في شيء كتبه فيما بعد.[٢١]

«ولا بد للتوضيح في الكلام أو العمل، أو في أي عمل آخر، من ثلاثة ضرورات؛ استعداد طبعي، وتدريب نظري، وخبرة عملية. ولا يُستغنى عن أولاها، بل على العكس هي أهمها كلها.» غير أن السفسطائيين ادَّعوا استغناءهم عن تلك الضرورة الأولى، وهذا أسُّ تنازع الفلاسفة معهم.

ويتناول القسم الثالث من الخطبة، القائم طبيعيًّا على القسم الثاني، كتابًا للإرشادات الفنية للبلاغة (τέχναι).

«يدَّعون أنهم يعلمون قوانين القضاء، مختارين لأنفسهم ذلك اللقب البغيض الذي يصبح أكثر بلاغة في أفواه معيريهم. إنهم شر ممن ينغمسون في حمأة «الجدل»؛ إذ يتظاهرون باهتمامهم بالفضيلة والاعتدال، في حين أن من نحن بصددهم الآن يعلِّمون الناس ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم، وأن يبتعدوا عن خلَّة الحسد الدنيئة.»[٢٢]

وهنا أيضًا نرى أن إيسوكراتيس، الذي كوَّن بنفسه فنًّا للبلاغة، لا يتهم كل من يحاول تعليم ذلك الموضوع، وجلُّ شكواه في أن أغلبية أولئك المعلمين قد تفرَّغوا للقسم الوضيع من تلك المهنة، وجليٌّ أن هذا النقد وجيه ويردده أرسطو الذي يعلن أن الخطابة أمام مجمع عام أقل تفاهة من الخطابة في محكمة.[٢٣]

حقًّا إن الخطبة «عن الأنتيدوسيس (عن تبادل الأملاك)» دفاع لإيسوكراتيس عن حياته وعن مهنته؛ فقد تحدَّاه ميجاكليديس Megacleides سنة ٣٥٥ق.م. في تحويل السفن وإعدادها، وإلا كان على إيسوكراتيس أن يقبل «الأنتيدوسيس» أو تبادل الأملاك؛ فكان ذلك الأمر موضوع محاكمة ترتَّب عليها أن قام إيسوكراتيس بقيادة السفن الحربية، وبعد ذلك بمدة — عامين تقريبًا — كتب هذه الخطبة، وهي ليست ذات أهمية تاريخية طالما أن اسم المدَّعي «لوسيماخوس Lysimachus» نفسه اسم خيالي. وتبدأ الخطبة

---

[٢١] أنتيدوسيس، فقرات ١٨٧–١٨٩.

[٢٢] أنتيدوسيس، فقرة ١٩ وما بعدها.

[٢٣] البلاغة، الباب الأول، ١، ١٠.

بتشبيه ذي صورة قضائية في فقرة ١٤، غير أنه سرعان ما يسقط الادعاء. وتلخَّص الحجة في الخاتمة (فقرات ٣٢٠–٣٢٣) إلا أن الجزء الأكبر من الخطبة لا يمتُّ بصلة إلى أية محاكمة حقيقية أو خيالية.

وتنقسم المقالة، كما يمكن أن نسميها، إلى قسمين؛ ففي الفقرات ١٤–١٦٦ يدافع كاتبها عن أخلاقه الشخصية، وفي الفقرات ١٦٧–٣١٩ يدافع عن طريقته في التعليم.

والتهمة التي يدافع عنها هي أنه كان من عادته إفساد الجيل القادم بتعليمه قوانين المقاضاة؛ فلم يجد صعوبة تذكر في البرهنة على أن عمله الرئيسي كان أكثر نبلًا من البلاغة القضائية؛ ففي الوقت الذي شغل فيه غيره بقضايا المحاكم الصغيرة، أَلَّف هو خطبًا تحمل على الشئون السياسية لبلاد اليونان بأكملها. وقد برهن على ذلك بسرد فقرات طويلة من أشهر مؤلفاته: البانيجوريك (فقرة ٥٩)، وعن السلم (فقرة ٦٦)، ونيكوكليس Nicocles (فقرة ٧٢).

وكما سبق أن ذكرنا يشتمل النصف الثاني من الخطبة على بيان ودفاع عن نظرية إيسوكراتيس، فيقول:

«إن الفلسفة للروح كالرياضة البدنية للجسد.»

أما تشبيهاته فيحكم إتقانها تمامًا:

«يعلِّم مدرِّب الرياضة البدنية تلاميذه أولًا القيام بالحركات واحدةً واحدة، ثم يجمعها بعد ذلك مع بعضها البعض كذلك المعلم، يتبع نفس النظام، ويصر الاثنان على تمرين طويل شاقٍّ، بَيدَ أنه لا يستطيع مدرِّب الجسد أن يخلق من الرجل بطلًا رياضيًّا، كما لا يتسنى لمدرِّب العقل أن يجعل من كل فرد خطيبًا. فلا بد للنجاح من مستلزمات ثلاثة؛ استعداد طبعي، وتعليم صحيح، وتمرين طويل، وزيادة على ذلك يجب وجود إرادة مستمرة من جانب كلٍّ من المعلم والتلميذ. والمقدرة الطبعية أهم هذه العناصر؛ فقد ينهار التدريب مهما كان كاملًا لو كان الخطيب تنقصه الجرأة.[٢٤]

ومما يثير الضحك أن يتوقَّع بعض الناس تحسُّنًا ملموسًا بعد دراسة أيام قلائل على يد سفسطائي، ويطلب مرانًا تامًّا في عام واحد. وهيهات لأية مرتبة من التعليم أن تأتي

[٢٤] το τολμαν، الفقرة ١٩٢.

بمثل هاتيك النتائج، ولا مبرر للاستخفاف بنا كطبقة معلِّمين لعدم استطاعتنا القيام بأكثر مما نعترف بإمكاننا القيام به، فلا يمكننا جعل جميع الناس خطباء، ولكن يمكننا تهذيبهم.»

«ويؤكد آخرون أن لفلسفتنا ميولًا تتنافى مع الأخلاق، وإني لن أدافع عن كل من يدَّعون كونهم مهذبين، بل سأدافع عمن يستحقون هذا اللقب؛ فلن نربح شيئًا من إفساد أخلاق الناس، بل بالعكس؛ فإن خير ما يصبو إليه السفسطائي، هو أن يجعل تلاميذه عقلاء ونبلاء يخدمهم زملاؤهم، وإن تلاميذنا ليأتون إلينا من صقلية، وبونطوس، ومن بلاد أخرى نائية؛ فهل تكبَّدوا مشقة المجيء من تلك البلاد القصية ليتعلموا الشرور؟ كلَّا، وألف مرة كلَّا؛ فقد كان في استطاعتهم أن يحصلوا على كثير من التعليم في بلادهم، ولكنهم يتجشَّمون المتاعب وركوب الأخطار، ويتكبَّدون نفقات باهظة، لاعتقادهم الراسخ بأن في استطاعة أثينا أن تلقِّنهم خير تعليم في العالم.»

«كذلك، ليست قوة المناظرة في حد ذاتها مفسدة للأخلاق؛ فقد درس أعظم ساسة هذه الأجيال والأجيال السابقة الخطابة ومارسوها، أمثال صولون Solon الذي سُمي أحد السفسطائيين السبعة، وثيموستوكليس، وبركليس. وإنك لتلوم الطِّبيبين على افتقارهم إلى التهذيب؛ فلمَ تلومنا إذَن، نحن الذين نسعى لنأخذ قسطًا منه؟ وإن أثينا لتبجِّل ربة الإغراء بذبيحة سنوية، ومع ذلك فيهاجمنا أعداؤنا لبحثنا عن الموهبة التي تمثِّلها هذه الربة.»

«لقد هاجمنا حتى «الجدليون»،[٢٥] وبغض النظر عن الرد؛ فإني مستعد للاعتراف بأنه يمكننا أن نجني خيرًا كثيرًا حتى من النزاع الجدلي ومن علم الفلك[٢٦] ومن الهندسة: فهي تفيد كدراسة تحضيرية لدراسات أعلى.»

«ورأيي في الفلسفة بسيط؛ فمن المحال أن تحصل على معرفة تامة بما يجب وما لا يجب أن تفعله، ولكن العاقل هو من يستطيع التخمين بنجاح بصفة عامة، والفلاسفة هم أولئك الذين يدرسون كي يصلوا إلى هذه الحكمة العملية. فلا يوجد، ولم يوجد قط، علمٌ في قدرته أن يهَب العدالة والفضيلة لمن ليس عندهم ميل طبعي إلى هاتَين الخلَّتَين،

[٢٥] انظر ما سبق ذكره في صحيفة ١٤٨.

[٢٦] أو علم النجوم.

ولكن الرجل ذا الرغبة في الخطابة أو الكتابة الجيدة، وفي إغراء غيره، يصبح صدفة أكثر عدلًا وفضلًا؛ إذ للأخلاق أن تقول كلمتها وتحكم أكثر من أي شيء سواها.»

«فالخطابة، بعد تفكير ورويَّة، تسوق إلى العمل المتقن، وإن تربيتك الراقية لترفعك على من سواك من الإغريق، كما يعلو الإنسان على سائر الحيوانات الدنيا، والإغريق على البرابرة. إذَن فلا تعاقب من يلقِّنونك هذه التربية.»[٢٧]

فإذا ما جمعنا هاتَين المقالتَين وأكملناهما ببضع فقرات من الخطب الأخرى، أمكننا أن نكوِّن فكرة طيبة عن نظام إيسوكراتيس، ويمكن تمييز فلسفته عن التخيُّلات النظرية البحتة، مثلما تتميز نظريات الأيونيين Ionians الطبيعية، أو منطق بارمينيديس Parmenides، عن الجدل — وهو فن الجدل لأجل الجدال — وعن الهندسة وعلم الفلك، وعن العمل الأدبي العديم الفائدة العملية، وعن بلاغة دور القضاء.

قد يفيد الأطفال في المدارس من دراسة النحو والشعر، وفي سنٍّ متأخرة تكون دراسة الرياضيات التطبيقية، وحتى «الجدل»، تمرينات عقلية ملائمة، غير أنه تجب ملاحظة أنها فقط إعداد لفلسفة إيسوكراتيس التي هي للروح بمثابة الألعاب الرياضية للجسد:

فكما أن المدرِّب الرياضي يعلِّم أولًا طرق الدفاع والاتِّقاء، كذلك معلم الفلسفة يطلب من تلاميذه أولًا حفظ جميع أساليب الإنشاء النثري،[٢٨] ثم يجعلهم يربطون ما حفظوه. ويجب حسن اختيار مواضيع مثل هذه التمرينات حتى تكون عملية وتتناول أغراضًا واسعة.

إن تدريب المرء على مثل هذه الأمور يعدُّه، بقدر ما تسمح به طبيعته، للكلام والعمل أمام الجمهور، وعلى ذلك يكون ما يسميه إيسوكراتيس «فلسفة»، هو في الواقع علم السياسة العملية.

ويبدو أن إيسوكراتيس بلغ الكمال في كل شيء؛ فقد كان شخصيًّا محبًّا للجد والعمل، أولى مؤلفاته عناية فائقة، وكان يتوقع من تلاميذه أن يشتغلوا بجِد؛ فلم يقنع كبعض السفسطائيين بجعلهم يحفظون مذكراته المنقَّحة عن ظهر قلب، بل جعلهم يعتمدون على أنفسهم. وكان يسخر من المعلمين الذين يدَّعون إمكانهم تثقيف تلاميذهم في عام؛ إذ كان

---

[٢٧] أنتيدوسيس، خلاصة الفقرات ١٨١–٣٠٣.

[٢٨] أنتيدوسيس، الفقرة الثانية، ιδέαι.

أكثر اعتدالًا في وعوده لتلاميذه، ومع ذلك فقد اقتضى تعليم مقرره ثلاث أو أربع سنوات. وكان يؤمن بالتعليم الفردي أكثر من تعليم الفصول.

وهناك رواية لبلوتارخوس الكاذب تقول إنه قد حضر إليه يومًا ما ثلاثة من تلاميذه في وقت واحد؛ فلم يقبل سوى اثنين منهم، وأخبر الثالث أن يعود في اليوم التالي. وقد حاول أن يربِّي في تلاميذه سعة التفكير الظاهرة بوضوح في خطبه، والتي ساعدته على أن يغضَّ النظر عن محاكمات دور القضاء، وعن صالح الأحزاب، أو حتى عن الصالح الفردي للدولة، واضعًا نصب عينيه فكرة الوحدة القومية، والروح السامية التي مكَّنته في عصر الخطباء الأثانيين والسفلة، من السير قدمًا في طريقه نحو الصدق دون محاباة لأي اعتبارات شخصية، وغير منحدر إلى الطعن أو السب.

٤

الوطنية

لم يكن إيسوكراتيس أقل وطنية من ديموستينيس، ولو أنه كان يختلف عنه كثيرًا في آرائه السياسية التي يمكن جمعها من مجموعة خطب له تدور حول مواضيع قومية وضعها في حقبة تزيد على الأربعين عامًا.

ويحتمل أن تكون «البانيجوريك» أولى هذه الخطب قد أُلِّفت لتنشر في اجتماع من الاجتماعات القومية الكبيرة، وربما كان هو العيد الأوليمبي لسنة ٣٨٠ق.م. تقريبًا. وحقيقة كان هذا وقتًا مناسبًا. وقد رأى إيسوكراتيس أنه ما من حل لتلك المتاعب، وما من فرصة للسلم أو الصلح إلا إذا كان هناك مشروع يربط مشاعر المدن المتنازعة ويحثها على ترك الخصومات الشخصية، ويزجَّها متكاتفة في قضية تتعلق بهيلاس Hellas كأمة واحدة.

وما من باعث أمكنه توحيد الإغريق ولو مؤقتًا سوى عداوتهم للبرابرة؛ فتناوله إيسوكراتيس ورسم صورة حية لحالة البؤس التي آل إليها العالم الإغريقي بسبب الحرب الأهلية، ثم برهن كيف أدى نفوذ بلاد فارس، مع قيام تلك الحرب، إلى خراب بلاد الإغريق. وبعد أن ناقش طلب إسبرطة وأثينا للزعامة، اقترح وجوب الاتفاق على صلح وحثهما على الاتحاد مع غيرهما للقيام بحرب شعوبية ضد الفرس.

ولم يكن ثمة أثر عملي لهذه الخطبة؛ فإن نهضة طيبة بعد ذلك التاريخ بفترة وجيزة، غيَّرت من توازن القوى، وعلى العموم لم تحسن الأحوال. فلما فقد إيسوكراتيس

كل أمل في إيجاد قضية مشتركة داخل بلاد اليونان نفسها، تطلع إلى زعيم يقود البلاد. فكتب سنة ٣٦٨ق.م. أو حوالي ذلك التاريخ إلى ديونوسيوس السيراكوزي الذي كانت له في ذلك الوقت إمبراطورية تفوق أية ولاية إغريقية، يحثُّه على المجيء ليتزعَّم الروح الإغريقية القومية.[٢٩]

وفي سنة ٣٦٥ق.م. حوَّل إيسوكراتيس اتجاهه نحو إسبرطة، فكتب إلى أرخيداموس Archidamus الذي كان قد ورث الملك حديثًا عن والده أجيسيلاوس Agesilaus، يحثه على اتخاذ ما يراه «لوضع حدٍّ للحرب الأهلية في بلاد الإغريق، وكبح جماح البرابرة وتجريدهم من بعض امتيازاتهم التي اكتسبوها بدون حق.»

فلو كان أرخيداموس كأبيه في شدة البأس وزاد عليه في عدم الأنانية؛ لأصبح زعيمًا للجهاد الذي أعدَّه له إيسوكراتيس.

وكانت أغلبية الإغريق تنظر وقتذاك إلى فيليب المقدوني، رغم الشهرة التي بدأ ينالها، كأمير فقير مزعزع على عرشه المغتصب، الذي سوف يُطرَد عنه في أي وقت إما بالثورة وإما بالاغتيال، ولكنه وضع يده في تلك السنة على مناجم الذهب في بانجايوم Pangaeum، وسرعان ما لوحظ أن مقدونيا ستلعب دورًا رئيسيًّا في السيادة الإغريقية.

وفي عام ٣٤٦ق.م. خاطب إيسوكراتيس فيليب في أن يتولى الأخير الزعامة، أولًا لجمع سائر الدويلات الإغريقية في اتحاد واحد، وثانيًا لقيادتهم كي يهزموا البرابرة.[٣٠] وبذلك انتهت العداوة التي كانت قائمة بين فيليب وأثينا لمدة عشر سنوات، بسلم فيلوكراتيس. ولمَّا كان من رأي إيسوكراتيس أن أمفيبوليس Amphipolis التي كانت سبب النزاع، لا يرغب في امتلاكها كلا الفريقَين؛ فقد كان يظن ويؤمِّل في إمكان دوام السلم.

ورغم فشل البانيجوريك والالتماسات التي قُدِّمت إلى ديونوسيوس وأرخيداموس؛ فإن إيسوكراتيس كان يأمل في نجاح تقديم رجاء إلى فيليب؛ فكتب إليه يقول:

«لقد قرَّ رأيي على مفاتحتك في الموضوع، لا كشكوى خاصة، ولو أنه كان يسرُّني أن تحظى كلماتي بعطفك، ولكن دفعني إلى ذلك أني وجدت عامة الرجال البارزين الآخرين

[٢٩] الخطاب الأول، فصل ٨٧. ويشار إلى هذا الخطاب في «خطبة فيلبوس» فقرة، نص الخطاب الباقي لدينا غير كامل.

[٣٠] فيلبوس، ٣٤٦ق.م.

قد وجب عليهم أن يطيعوا بلادهم وقوانينها، وألا يفعلوا غير ما يطلب منهم عمله، ومع ذلك، فليس في مقدور أحد منهم أن يضطلع بالأمر الذي عزمت الآن على مناقشته.»

«فإنك أنت وحدك، عن طريق ثروتك، قد خوَّلت لنفسك سلطة كاملة لتبعث السفراء لمن أردت، وتستقبلهم حيث شئت، وتقول ما تعتقد أنه مجد، وزيادة على ذلك فإنك ذو ثروة وقوة لا يتمتع بمثلهما غيرك من الإغريق؛ وهما أقوى عاملين كي تحثَّ أو تملي إرادتك، وستجد الحث كافيًا للإغريق بينما لا يُجدي مع البرابرة غير إجبارهم.[٣١]

وهاك تلخيصًا لبعض فقرات الخطبة يوضح فحواها:

«من واجبك أن تسعى في عقد الصلح بين المدن الأربع العظيمة؛ أرجوس وإسبرطة وطيبة وأثينا. أَعِد هذه المدن إلى رشدها، عندئذٍ لا تجد صعوبةً مع بقية المدن التي تعتمد عليها (الفقرتان ٣٠–٣١)؛ فإنك من سلالة من أرجوس، وما كان يصح أن تعاديك هذه البلدان أو بعضها، بل كان يجدر التسامح حيث كانت جميعها مخطئة (الفقرات ٣٣–٣٨). فلو كانت الغلبة الآن لأثينا أو إسبرطة، لما أمكن عمل شيء، ولكن جميع المدن العظمى الآن، عمليًّا، في مستوًى واحد. وليست هناك عداوات متغلغلة لا يمكن التغلُّب عليها؛ فقد سبق أن تحالفت أثينا عدة مرات مع كلٍّ من طيبة وإسبرطة. وأن كلًّا من إسبرطة وأرجوس وطيبة، لراغبة في السلم. وقد ثابت أثينا إلى رشدها كغيرها فعقدت الصلح، وهي الآن على أتم استعداد لتمنحكم عطفها الفعَّال (الفقرات ٣٩–٥٦).»

«والتاريخ مليء بأمثلة عدة لرجال ليسوا على كثير من المواهب والميزات، بل وعديمي الكفاءات، قاموا بعظائم الأعمال. أما أنتم مع وفرة مواردكم؛ فستجدون هذه المهمة سهلة يسيرة (الفقرات ٥٧–٦٧).»

«سيكون النجاح في مثل هذه القضية رائعًا، وحتى الفشل نفسه سيكون نبيلًا، وإن الواشين ليوعزون إليكم بإخضاع بلاد الإغريق، ولكنكم ستقنعونهم بخطئهم (الفقرات ٦٨–٨٠).»

«كفى هذا عن واجبكم نحو بلاد الإغريق، ولنَعُد الآن إلى فتح آسيا؛ فقد فشل أجيسيلاوس Agesilaus لأنه أثار الأحقاد السياسية.»

«لقد هزم الإغريق الجيش الفارسي بقيادة قورش Cyrus، وعلى الرغم من أنهم تركوا بلا قائد فقد أجادوا الانسحاب. ألا ترون أن كل الظروف في صالحكم؟ فإن إغريق آسيا في

[٣١] فيلبوس (الخطبة ٥)، فقرات ١٤–١٧.

عداء مع قورش وسيرحبون بكم. وإن ملك فارس الحالي لأقل بأسًا من سابقه الذي حاربه قورش، وقد انقسمت فارس على نفسها، أما قبرص وكيليكيا Cilicia وفينيقيا Phoenicia التي أمدت الملك بالسفن، فلن تفعل بعدئذٍ مثل ذلك العمل (الفقرات ٨٣–١٠٤).»

«وقد تهدفون إلى فتح المملكة الفارسية برمَّتها؛ فإن فشلتم في ذلك فقد تربحون كل ما هو غرب الخط الواصل من كيليكيا إلى سينوب Sinope، وحتى هذا يكون فوزًا باهرًا؛ إذ يمكنكم أن تبنوا مدنًا تضم الجنود المرتزقين الذين دفعتهم الفاقة إلى الارتحال والفتك بمن يقابلونهم من السكان المستوطنين؛ وهذا أمر فيه مضايقة للإغريق والفرس على حدٍّ سواء، وإنكم ستقدِّمون إلى هؤلاء الرجال خدمة جليلة، وفي نفس الوقت تكوِّنون منهم حرسًا دائمًا لحدودكم».

«ولو أصبح هذا فوق طاقتكم؛ فعلى الأقل يمكنكم تحرير المدن اليونانية الآسيوية، وسواء عظم نجاحكم أو قل؛ فلا أقل من أنكم ستنالون صِيتًا عظيمًا، لقيادتكم حملة اتحدت وتكاتفت فيها جميع بلاد الإغريق (الفقرات ١١٩–١٢٦).»

«وليس في طوق أية دولة أو فرد آخر أن يضطلع بهذا العمل؛ فأنتم في حل من كل قيد إذ إن كل هيلاس وطنكم، وستقاتلون لا طمعًا في سلطان أو مال، وإنما من أجل المجد، وستكون رسالتكم إذَن أن تكونوا أصحاب الفضل في بلاد الإغريق، وملك مقدونيا، وحاكم آسيا (الفقرات ١٢٧–١٥٥).»

ولربَّ قائل يقول إن إيسوكراتيس قد غالى كثيرًا في تقدير صفاء دوافع فيليب، ومن ناحية أخرى يمكن ملاحظة أن فيليب ربما كان يفضِّل السير عن رغبة صادقة إلى آسيا كقائد للقوات الإغريقية المتحدة. وإن الرجل الذي اعتبره إيسوكراتيس إغريقيًّا من أصل ملكي أو نصف إلهي، والذي وصفه ديموستينيس بأنه بربري من الصنف الوضيع، كانت تغلب عليه طبيعته الإغريقية أكثر من البربرية؛ فعلى الأقل قد أظهر عطفًا خارقًا نحو أثينا، وعاملها باحترام أكثر مما تستحق مبجِّلًا إياها من أجل عظمتها القديمة. لقد فعل كل ما في الإمكان لإرضائها، وسلم هذه السياسة لابنه، ولكنه لم يستطع الرحيل إلى الشرق تاركًا وراءه أعداءً كثيرين لا سبيل إلى الصلح بينهم. ورفض الولايات زعامته قد جعل من العسير اقتحام خايرونيا Chaeronea.

ومن يقرأ المقالة بأكملها، وليس هذا الملخَّص المقتضب، تأخذه الدهشة من تمكُّن ذلك الكاتب من التاريخ المعاصر، ومن إلمامه التام بحركات القوات في أثناء وجودها في القتال. إنه يقلِّل من قيمة تحفُّظ المدن الإغريقية الحرة، ظانًّا خطأً أن في إمكان الأغلبية أن تكون مثله في رجاحة العقل وسعة التفكير.

وتظهر فصول المقالة عن آسيا دراية بالغة بالظروف والحاجيات، وقد عمل الإسكندر حرفيًّا بنصيحته عن تأسيس المدن؛ فبعد أول نصر له اتبع تلك السياسة لضمان الاحتفاظ بفتوحاته.

وفي سنة ٣٤٢ق.م. كتب إيسوكراتيس إلى فيليب عودًا على بدء يؤنِّبه على تهوُّره في المجازفة بحياته في القتال، مكرِّرًا بعض محاورات المقالة الأولى، ولخَّص نصيحته قائلًا: «إن حصولك على مودَّة المدينة لأكثر نبلًا من استيلائك على أسوارها.»

وبعد خايرونيا كتب إليه ثانيةً عام ٣٢٨ق.م. يذكِّره بنصيحته السابقة مظهرًا رضاءه عن تحقيق بعض أحلام شبابه، وكون البعض الآخر في طريقه إلى التحقيق.

٥

أعماله الأخرى

لقد سبق أن ناقشنا المحتويات العامة لـ «البانيجوريكوس»، بَيدَ أنه ما من شيء سوى دراسة الخطبة دراسة وافية، يكشف لنا عن المهارة التي جعلت الموضوع الواحد يجرُّ إلى آخر، مع بقاء الأجزاء متناسقة تناسقًا جميلًا، والسهولة الواضحة في ربط مختلف خيوط الحوار بعضها ببعض. ويبدو كثير من الفقرات لأول وهلة كأنه دخيل، غير أنه عند تناول الخطبة في مجموعها، نجده ضروريًّا لوحدتها. ورغم تشعُّب المناقشة في موضوعات شتى؛ فإن الموضوع الأصلي لا يغيب مطلقًا عن البال. ومستوى الأسلوب راقٍ طوال الخطبة، ولا يمكن توضيحه بانتقاء بعض نبذ من الخطبة.

وعلى أية حال فإن تحليلًا مختصرًا قد يفيد في توضيح كيفية ربط المناقشات.[٣٢]

«ههنا حضرت لأنصحكم بضرورة محاربة الفرس ووجوب الاتحاد بين الإغريق. وقد تناول هذا الموضوع آخرون قبلي، بَيدَ أن فشلهم في الوصول إلى نتيجة أحبط كل مسعًى لطرق الموضوع مرة أخرى، فالأمر يحتاج إلى علاج أنجع مما سبق.» (فقرات ١–١٤).

«لقد فات من سبقني نقطة هامة، وهي أنه من العبث القيام بعمل ما قبل أن تعقد الزعيمتان أثينا وإسبرطة الصلح وتحثَّان على اقتسام الزعامة بينهما.»

[٣٢] يقال إن إيسوكراتيس قضى عشر سنين في تأليف البانيجوريكوس، وقد نشرت بالضبط عام ٣٨٠ق.م.

«قد تمسكت إسبرطة بتقاليد خاطئة، ألا وهي أنها قد ورثت حق الزعامة عن الأجداد، وسأحاول البرهنة على أن الزعامة في الواقع من حق أثينا، وعلى ذلك يكون على إسبرطة أن توافق على زعامة مشتركة.» (فقرات ١٥–٢٠)

«كان لأثينا إمبراطورية بحرية قبل إسبرطة، وكانت حضارتها أقدم الحضارات في بلاد الإغريق (فقرات ٢١–٢٥) وإليك مسوِّغات حقها في الزعامة:

(١) (أ) يسجِّل العرف الذي لم ينقض قط، أن أثينا كانت أول مدينة قامت بكفاية نفسها بلوازم المعيشة؛ فكانت ديميتير Demeter تعلم في أتيكا زراعة القمح كما أوجدت الأسرار.

(ب) لا ريب في أن أثينا كانت أول من قام بالاستعمار، وبذلك وسَّعت حدود البلاد الإغريقية، ودحرت البرابرة وردَّتهم على أعقابهم (٢٨–٣٧).

(ج) كان لأثينا أقدم القوانين وأقدم دستور، وشيَّدت ميناء بيريوس Piraeus مركز التجارة الإغريقية، كما أنها تقيم لنفسها عيدًا باستمرار تشجِّع فيه الفنون. وإن للفلسفة العملية والخطابة لشأنًا عظيمًا في أثينا، حتى أصبح الاسم «إغريقي» يستعمل استعمالًا صحيحًا لا بحق صلة الدم، ولكن بفضل امتلاك ثقافة أثينية (٣٨–٥٠).

(٢) (أ) منذ عصور الأبطال وما بعدها، برهنت أثينا على أخذها بناصر المظلومين، حتى إن إسبرطة نفسها قد عظم شأنها بتأييد أثينا لها (٥٧–٦٥).

(ب) لقد ميَّزت أثينا نفسها عن البرابرة منذ العصور الأولى وفي الحروب الفارسية (٦٦–٧٤).

«منذ القدم كانت المنافسات بين الأحزاب السياسية المتعارضة وبين أثينا وإسبرطة منافسات شريفة، وقد أخجلت المنافسة الشريفة بين البلدين باقي الإغريق الآخرين، فحملوا السلاح في وجه إكسركسيس Xerxes، وعلى أية حال فقد كان لأثينا سفن أكثر مما كان لكافة البلدان الأخرى مجتمعة، وعلى ذلك فقد ثبت حقها في الزعامة حتى نهاية الحرب الفارسية (٧٥–٧٩).

«نعم، إن أثينا عاملت حليفتيها المتمردتين — ميلوس وسكيوني Melos and Scione — بقسوة. وهل يتوقع المتمرد غير العقاب؟ ومن ناحية أخرى، فقد تمتَّع رعايانا الملكيون لمدة سبعين عامًا بالتحرر من الاستبداد والحماية من هجمات البرابرة، وأسسوا حكومة ووطَّدوا السلم بينهم وبين العالم بأسره (١٠٠–١٠٦).»

«أما إسبرطة فإن الأضرار التي أحدثتها في بضعة شهور تفوق ما أحدثته أثينا طول مدة حكمها كله (١١٠–١١٤).»

لقد كان حكمنا مفضَّلًا عما يسمَّى «السلام والاستقلال» اللذين منحتهما إسبرطة للمدن؛ إذ امتلأ البحر الآن بالقراصنة، وأغير على مدن أكثر مما أغير عليه قبل السلام، وقد جعل الطغاة والحكام الحياة في المدن جحيمًا لا يطاق، كما أن الملك العظيم الذى حدَّدت له أثينا اختصاصات معينة قد أغار على شبه جزيرة البيلوبونيز (١١٥–١١٩). لقد تركت إسبرطة الأيونيين Ionians للعبودية وجرَّت بنفسها الخراب على بلاد اليونان، وأثقلت كاهل أهل الجزيرة بالضرائب. فمن البلية أن نخرِّب نحن الإغريق بلادنا بسبب ما بيننا من خلافات تافهة، في حين أنه كان في استطاعتنا أن نجني من آسيا خيرًا وفيرًا (١٢٠–١٣٢).»

«لقد سمحنا للملك العظيم، بواسطة منازعاتنا، أن يبلغ قوة لم يسمع عنها من قبل، مع أنه في الحقيقة ليس على شيء من القوة.»

«هناك أمثلة عديدة من التاريخ تشير إلى انحطاط قادة الفرس وانحطاط نظامهم؛ فكثيرًا ما هزموا على سواحل آسيا، وقد مثَّلنا بهم عندما همُّوا بغزو بلاد اليونان، وأخيرًا قاموا بنحت تمثال مضحك أمام حوائط قصورهم[٣٣] (١٣٣–١٤٩).»

«هذا ما يمكننا أن نتوقعه من نظام حياتهم؛ فإن سواد الشعب لخليق بالاستعباد أكثر من الجندية، أما الأشراف فشيمتهم الغطرسة والدناءة، ونظرًا لانغماسهم في الملذَّات؛ فهم ضعاف خونة وجديرون بكل مقت منا وبُغض، والحقيقة أنه لا يمكن مطلقًا إزالة عداوتنا لهم. ومن أسباب شهرة هوميروس أنه يخبرنا عن حرب طاحنة ضد آسيا (١٠٥–١٥٩).»

«قد آن أوان الهجوم، فقد خربت فينيقيا وسوريا، واقتحمت صور Tyre، كما أن معظم كيليكيا في جانبنا، وشقَّت مصر وقبرص عصا الطاعة، والإغريق الآن على استعداد للنهوض؛ فلنسرع ولا ندَع تاريخ الثورة الأيونية يعيد نفسه. فالعذاب الحالي في بلاد الإغريق فوق كل ما سبق؛ ولذا فالجيل الحالي يستحق بعض التعويض، وهذا سبب آخر للإسراع. وبما أن أعيان المدن غير مهتمين بالحالة، فلنتولَّ زمام القيادة نحن الذين خارج السياسة كما أفعل أنا (١٦٠–١٧٤).»

[٣٣] وهو تمثال فوز العشرة الآلاف عند كوناكسا Cunaxa.

«يجب ألا تقف معاهدة أنتالكيداس Antalcidas حجر عثرة في طريقنا، فقد تحطَّمت روحها. وألا ننظر إلا إلى ما سبَّب لنا العار والخزي، أعني الشروط التي استسلم بها حلفاؤنا للفرس؛ فلم تكن شروطًا عادلةً بل رضخنا لشروط أملاها الملك.»

«إن الشرف والظروف المواتية تتطلَّب منا الاتحاد للقيام بأعباء هذه الحرب التي ستفوق شهرتها الحرب الطروادية Torjan war(١٧٥–١٨٩).»

والآن، يمكننا أن نناقش مجموعة الخطب التي تتناول الشئون الداخلية في بلاد الإغريق:

الخطبة الرابعة عشرة: بلاتيكوس Plataicus

استعادت إسبرطة بلاتيا Plataea سنة ٣٨٦ق.م. بعد أن دمَّرت في عام ٤٢٧ق.م. وذلك لتهدد طيبة Thebes، ولكنها اضطرَّت إلى الدخول في الحلف البويوتي Boeotian Confederacy سنة ٣٧٦ق.م.

وفي عام ٣٧٦ق.م. انقضَّ عليها جيش من طيبة على حين غِرة ودمَّرها من جديد، فهرب سكانها إلى أثينا حيث عرضت قضيتهم في الإكليسيا وفي مؤتمر الحلفاء.

ألقى هذه الخطبة في مجلس الإكليسيا الأثيني، رجل من بلاتيا، وأهم ما تضمنته نداء قصد به تحريك المشاعر عن طريق التاريخ؛ فذكر العلاقات القديمة بين بلاتيا وأثينا، ثم استخلص من ذلك واجب أثينا الحالي. والخطبة في صورة صالحة للإلقاء أمام المجلس، ويحتمل أن تكون قد ألقيت أمامه.

الخطبة الثامنة: عن السلام On the Peace

لهذه الخطبة وجهة أخرى، فهي عبارة عن رسالة سياسية يرجع تاريخها إلى سنة ٣٥٥ق.م. عندما أوشكت الحرب الاجتماعية أن تضع أوزارها. والموضوع الرئيسي لهذه الخطبة هو الحث على ضرورة الصلح واستتباب السلام بين أثينا والعالم كله، بَيدَ أن الحث بهذه الطريقة يوجد بطبيعة الحال نقدًا للحزب الحربي واتهامًا قاسيًا لا للسياسة الحالية فحسب، بل ولأحوال الإمبراطورية الأثينية القديمة أيضًا.

وما جعل هذه الخطبة بارزة، أن إيسوكراتيس خرج فيها عن لهجته المعتدلة المتزنة دفعة واحدة، وجنح إلى الاحتقار والصرامة ليكسب انتقاداته صبغة خاصة، فيقول:

«إن الحصول على إمبراطورية رغم أنف الشعب الكاره لها وغير الراغب فيها، ظلم وسياسة فاشلة، فالطموح كالطعم الذي يغري الحيوان الضاري إلى حتفه في الشرك المنصوب له. إن إدارتنا فاسدة، وقد فقد مواطنونا الثقة في المجهود الشخصي، ونحن نستخدم الجنود المرتزقة لتقاتل في معاركنا. إن ساستنا أسوأ المواطنين، وإننا نعين قوَّادنا من عديمي الكفاءات الذين لا يصلحون لأي منصب ثقة، ونحتفظ بهم لا لشيء سوى أن منافسينا ضعاف مثلنا. وإن طيش مجلسنا ليزيد في عدد حلفاء طيبة، كما أن طيشهم خلاص لنا. لذا كان من صالح كل ولاية أن تقوم برشوة مجلس الأخرى ليكثر من اجتماعاته.»

«إن أملنا متوقف على هجران إمبراطوريتنا، وهذا ليس من العدل في شيء، ولم نستطع القيام به ونحن أغنياء، فما بالك ونحن الآن في فقر مدقع؟ لقد بذل ساسة أثينا كل ما في وسعهم لعدم إذاعة سياسة مدينتهم، وافتخروا بالجزية التي يغتصبونها من حلفائهم، مذكِّرين العالم كله بطغيانهم وظلمهم، واستعرضوا أولاد من قتلوا في سوق الوغى في مختلف جهات العالم، أولئك الذين أصبحوا ضحايا الجشع القومي. أما مركز أثينا إبان حكم ثيموستوكليس Themistocles وأرستيديس Aristides فيختلف عن هذا اختلافًا تامًّا. لقد شوهت الإمبراطورية الحياة القومية».

«إن تاريخ زعامة إسبرطة نقطة أخرى في الموضوع. فقد تزعَّم بركليس الدهماء وقاد المدينة إلى مستقبل سيئ، ولكنه على الأقل زاد في ثروة نفسه. إن رؤساء الدهماء الآن لا يسعون إلا إلى ما يعود عليهم بالنفع الشخصي؛ فلم يزجُّوا الدولة إلى الفقر وإنما دفعوا المواطنين إليه.»

«إن السلام بالثمن الذي أشرت إليه هو العلاج الوحيد؛ فيجب علينا إنقاذ بلاد الإغريق لا خرابها. وينبغي أن تحتل أثينا بين الدويلات الإغريقية مكانة الملوك في إسبرطة؛ فليس أهلها طغاة، ومستواهم الخلقي أرفع من مستوى خلق الفرد العادي، ولهم منزلة مبجَّلة حتى إن الشخص الذي لا يضحِّي بحياته من أجلهم في ساحة الوغى يعتبر أحطَّ من الهارب.»

هناك قدر عظيم من الصدق في المطاعن الموجهة إلى الإمبراطورية القديمة؛ فقد استطاع إيسوكراتيس أن يرى ما وراء الألوان البراقة التي ترسم بها أحيانًا أمجاد العصر

البركليسي، كما أنه هو وديموستينيس قد لاحظا وتحقَّقا من ضعف أثينا في عصره، غير أن نصيحته رغم نبالتها ليست عملية. لقد فشل على الرغم من إلمامه بالتاريخ، في قياس درجة الأنانية الإغريقية؛ فما من أمة اعتمدت كلية أو رأسًا على القيمة الخلقية، واستطاعت أن تنال صوتًا في مجلس بلاد الإغريق أقل سيطرةً من سياستها.

الخطبة السابعة: الأريوباجيتيكوس Areopagiticus

ربما كان تأليف هذه الخطبة في نفس العام، وهي تكمل خطبته «عن السلام» في عدة نقط، وقد وقفها أولًا على المقارنة بين الأيام الغابرة للحكومة المبجَّلة في عصر دستوري صولون وكليسثينيس Cleisthenes، وأحوال الحياة غير المرضية في عصر هذا الخطيب.

قد يكون نصف الدستور القديم صورة خيالية، ولكن المقارنة تساعد على إظهار الشرور التي يرمي إليها إيسوكراتيس في الحكومة الحديثة. وتتناول الخطبة الحياة الداخلية في أثينا أكثر من السياسة الخارجية، كما أن الفضل الرئيسي للحكومة الحسنة والحياة الطيبة إبان الأيام الغابرة، يعطي لمجلس الأريوباجوس تلك الهيئة الآمرة التي لها الآن من النفوذ القوي ما يجعل أسوأ رجال العصور الحديثة، لو رقُّوا إلى العضوية فيه، لتخلَّقوا بخلقه وهجروا الشرور المتأصلة فيهم، وأصبحوا يفكرون ويعملون وفق تقاليد المجلس السامية.

الخطبة السادسة: الأرخيداموس Archidamus

وضعت هذه الخطبة على لسان ملك إسبرطي بهذا الاسم، كان إيسوكراتيس يجلُّه كثيرًا كما نعلم، ويبدو أنها جزء من محاورة في عام ٣٦٦ق.م. خاصة باقتراح الطِّيبيين Thebans منح السلام على شريطة اعتراف إسبرطة باستقلال ميسينيا Messinia. ويحتمل أنها تشمل عرضًا عادلًا لمشاعر الإسبرطيين Spartans في الوقت الذي اقترح فيه إظهار العداء لسكان ميسينيا، الذين اعتبروه لعدة أجيال عبيدًا لهم.

تتبقى بعد ذلك أعمال ذات ثلاث مراتب؛ «خطابات الوعظ والإرشاد، والعرض، والخطب القضائية».

خطابات الوعظ والإرشاد

الخطبة الأولى: إلى ديمونيكوس Demonicus، ٣٧٢ق.م. (؟)

المقصود من هذا الخطاب الموجَّه إلى حاكم صغير لا يعرف عنه شيء، أن يكون ذخيرة (ταμιεῖον) لحكم خلقية تتضمن واجبنا نحو الآلهة ونحو الناس ونحو أنفسنا. ويشتمل هذا الخطاب على عدد غير قليل من الحكم أغلبها ذات طبيعة عملية أو شبه عملية، منها: «إننا نختبر الذهب بالنار والأصدقاء بالملمَّات.» «لا تحلف قط بالآلهة فيما يختص بالمال؛ إذ يظن البعض أنك حانث، والبعض الآخر أنك جشع.»

وأحيانًا تزداد النغمة الأخلاقية سموًّا؛ مثال ذلك: «إذا أذنبت فلا تأمل في عدم انكشاف أمرك؛ فإذا لم يكشف الآخرون أمرك فسوف يكشفك ضميرك لنفسك.»

الخطبة الثانية: إلى نيكوكليس Nicocles، ٣٧٤ق.م.

موجَّهة إلى نيكوكليس الذي اعتلى عرش سالاميس Salamis بقبرص سنة ٣٧٤ق.م. وتتناول واجبات الملك ومسئولياته. «تذكَّر منصبك الرفيع، وتوخَّ دائمًا ألا تفعل شيئا يشينه.»

الخطبة الثالثة: نيكوكليس أو القبرصيون Cyprians، ٣٧٢ق.م.

هي تتمة الخطبة الثانية، وفيها يصوِّر الملك نفسه يتحدث عن واجبات الرعية نحو مليكهم. «اعملوا لمليككم ما تحبون أن يعمله رعاياكم لكم.»

خطب العرض

كتب كثير من السفسطائيين خطبًا خيالية في مواضيع خرافية، ورغم أن هذا الموضوع كان خارج نطاق مهمة إيسوكراتيس؛ فقد اقتحمه كناقد. فالخطبة المسمَّاة بوسيريس Busiris (الخطبة الحادية عشرة ٣٩١ق.م.) الموجَّهة إلى السفسطائي بولوكراتيس Polycrates، تحوي أولًا نقدًا لخطبة ألَّفها بولوكراتيس عن هذا الموضوع، وثانيًا عرضًا للطريقة التي يعالج بها إيسوكراتيس نفسه مثل هذا الموضوع. وأحيانًا يسلِّم إيسوكراتيس بصحة الأساطير القديمة إجمالًا، في حين أنه يرفض بعض أجزاء منها غير مناسبة.

الخطبة العاشرة: مدح هيلين The Encomlum of Helen، ٣٧٠ق.م.

تبدأ هذه الخطبة بنقد مدح معين يعتقد عامة أنه الشيء الوحيد الباقي المنسوب إلى جورجياس. فلم يكتب الكاتب السابق مدحًا، بل اعتذارًا. إن إيسوكراتيس نفسه سيكتب مدحًا يختلف عما سبق أن كتبه غيره.

الخطبة التاسعة: إيفاجوراس Evagoras، ٣٦٥ق.م. (؟)

وضعت لعيد احتفل به نيكوكليس تخليدًا لذكرى والده إيفاجوراس السلاميسي المتوفى عام ٣٧٤ق.م. وتحوي بيانًا لتقريظ مستقبل الملك وتشجيعًا لابنه على التحلِّي بفضائل أبيه.

أما الباناثينايكوس Panathenaicus؛ فقد بدئت عندما كان إيسوكراتيس في سن ٩٤، أي في عام ٣٤٢ق.م. ولم يستطع إتمامها في ثلاث سنوات لمرض أصابه. وتحوي مادة غزيرة استعملت في الأريوباجيتيكوس. وموضوعها الرئيسي عظمة أثينا ومجدها من الناحية التاريخية لا بالنسبة إلى السياسات المعاصرة. وتشتمل كذلك على اعترافات طويلة؛ دفاع عن طريقته الخاصة ضد هجمات بعض السفسطائيين الثقلاء (الفقرات ٥–٣٤)، ونقاش عن أجاممنون Agamemnon (الفقرات ٦٢–٧٣)، وتفسير شخصي (الفقرة ٩٩ وما بعدها)، ويبيِّن فيها المؤلف أن الخطبة قد تنتهي عند تلك النقطة، ويسرد المحادثات والمناقشات التي دفعته إلى إنهائها. وقد لامه البعض على قسوته ضد إسبرطة، ورغم أنه أفحم ناقديه، فقد وجِّهت إليه بعض الاتهامات؛ فنتج عن ذلك زيادة الخطبة بقدر الثلث وإخلال توازنها تمامًا وهدم كل وحدة فيها.

الخطب القضائية

وصلت إلينا خطب قضائية تنسب كلها إلى الأيام الأولى لإيسوكراتيس الذي ندم فيما بعد على اشتغاله بمثل ذلك الفن، ويمكن تلخيصها في كلمات قليلة:

الخطبة العشرون، ضد لوخيتيس Lochites ٣٩٤ق.م. لقضية اعتداء.

الخطبة التاسعة عشرة، أيجينيتيكوس Aegineticus ٣٩٤ق.م. لدعوى ميراث.

الخطبة الحادية والعشرون، ضد يوثونوس Euthynus ٤٠٣ق.م. لاسترداد وديعة.

الخطبة السابعة عشرة، ترابيزيتيكوس Trapeziticus ٣٩٤ق.م. لقضية مماثلة ضد صاحب المصرف الشهير باسيون Pasion.

الخطبة السادسة عشرة (περὶ τοῦ ζεύγους) عن قطيع من الجياد ٣٩٧ق.م. لدعوى أقامها ألكيبياديس الصغير ضد رجل يدعى تيسياس Tisias. ويؤكد هذا الأخير أن ألكيبياديس الكبير والد الخطيب سرق منه أربعة جياد، وهي قضية لتعويض خسارة قدرها خمسة تالنتات.

خطبة ضد كاليماخوس Callimachus، ٣٩٩ق.م. وهي دفاع خاص παραγραφή يقدِّمه المدَّعى عليه الذي يقول إنه لا يمكن الاحتفاظ بقضية ترفع ضده للمطالبة بتعويض عن خسارة.

الرسائل

سبقت الإشارة إلى بعض الرسائل الخاصة:

- إلى ديونوسيوس Dionysius سنة ٣٦٨ق.م.
- إلى أرخيداموس Archidamus سنة ٣٦٥ق.م.
- إلى فيليب والإسكندر سنة ٣٤٢ق.م.

رسائل أخرى موجَّهة إلى أولاد جاسون (الرسالة السادسة) سنة ٣٥٩ق.م. وهم ثيبي Thebe وإخوتها غير الأشقَّاء أولاد الطاغية فيراي Pherae الذي قتل سنة ٣٧٠ق.م.

الرسالة السابعة: إلى تيموثيوس Timotheus سنة ٣٤٥ق.م. ملك هيراقليا Heraclea الواقعة على بحر اليوكسين Euxine.

الرسالة الثامنة، سنة ٣٥٠ق.م. إلى حكَّام ميتوليني Mitylene، أولئك الحكام الأوليجاركيين الذين قلبوا النظام الديمقراطي حديثًا.

الرسالة الرابعة: سنة ٣٤٠ق.م. إلى أنتيباتر Antipater، ويظهر أنها كانت في عصر حاكم مقدونيا في أثناء غياب فيليب في تراقيا Thrace. تساعدنا هذه القائمة من راسلهم إيسوكراتيس، وكانت علاقته ببعضهم ودِّية رفعت فيها الكلفة، على إيضاح أهمية ذلك الخطيب في العالم الإغريقي.

كذلك ينسب إلى إيسوكراتيس تأليف «فن τέχνη» أو رسالة فن البلاغة، وهي الآن مفقودة ما عدا فقرة واحدة منها، وتحوي نسخ النصوص عددًا من الأقوال المنسوبة إليه، وكلها عديمة الأهمية.

الفصل السابع

صغار الخطباء

ظهر إيسوكراتيس بعبقريته على معاصريه من الخطباء؛ فلم يلمع نجم واحد منهم بجانب ضوئه الوضَّاح، ومع ذلك فقد كان في عصره خطباء ومدرِّسون آخرون أكفاء، ولا سيما أجدرهم ألكيداماس Alcidamas تلميذ جورجياس أو أحد من تعلَّم في مدرسته، ورغم أنه كان أحد منافسي إيسوكراتيس إلا أنه تأثَّر بأسلوبه، ولدينا باسمه تمرين سفسطائي عبارة عن اتهام أودوسيوس Odysseus لبالاميديس Palamedes، وهو عديم الفائدة وقد يكون مزورًا. وكذلك مقالة عن السفسطائيين يحتمل صحتها، وعلى الأقل يمكننا القول بأنها عمل ناقد قدير وكاتب خبير، وتحتوي أعماله الأخرى على تمرينين بلاغيين هما امتداح الموت ومدح نايس Nais، وخطبة ميسينية كانت على ما يظهر لطمة موجهة إلى خطبة أرخيداموس لإيسوكراتيس.

إن الخطبة التي عنوانها «السفسطائيون» في الواقع مهاجمة لطرق إيسوكراتيس، وموجهة مباشرة ضد ممارسته الخطب المكتوبة الشاقة التأليف، التي لا تساعد الخطيب، في الحقيقة، سواء كان خطيبًا للمحاكم أو خطيبًا للجموع. فيناقش موضوع من يسمون سفسطائيين، أولئك القوم الذين لا يستطيعون الخطابة قط، ولكن على الرغم من ذلك فقد مارسوا الكتابة وافتخروا بمزاولتهم لها. ورغم عدم إلمامهم إلا بالنزر اليسير من البلاغة؛ فإنهم يدَّعون سيطرتهم على ذلك العلم بأكمله. إنه لم يذمَّ فن الكتابة، ولكنه اعتبره ثانوي الأهمية بالنسبة لأمور أخرى؛ فأي شخص ذي مقدرة لو أعطِي الوقت الكافي لأمكنه أن يتعلم كيف يكتب بدرجة لا بأس بها، أما أن يتعلم كيف يتكلم بطلاقة فذلك يتطلب مواهب خاصة. فالقدرة على الكلام ارتجالًا هبة هامة جدًّا، ويستطيع من يملكها أن يكيِّف نفسه تبعًا لحالة مستمعيه، بينما يفقد غالبًا من يعتمد على الخطب المحضَّرة، فرصة عظيمة؛ إذ حِفظ مقدار كافٍ من الخطب لتكون على استعداد تام للكلام في أي موضوع يطلب منك أمام أي نوع من المستمعين، ليس في مكنة البشر. وإذا ما اضطر مَن اعتاد استعمال

الخطب المكتوبة، إلى الكلام ارتجالًا؛ فلن يحتفظ بمستواه اللائق في الخطابة.[١] وقد ورد كثير من المحاورات ذات قيمةٍ ما، عظيمة أو قليلة، وتظهر فيها كلها مهارة خاصة.

وقد زعم ديونوسيوس أن أسلوب ألكيداماس جافٌّ وتافه.[٢] ويقول أرسطو إنه أكثر من استعمال مرادفات الصفات الشخصية، لا على أنها زخرف للموضوع بل على أنها لبٌّ له.[٣] غير أن ذلك لا ينطبق على العمل الوحيد الباقي، ويبدو أن ألكيداماس قد سما عن المستوى العادي لعلماء البلاغة بأفكاره؛ فقد وردت هذه العبارة في خطبته التي يدافع بها عن أهل ميسينيا: «لقد خلق الله الناس أحرارًا، ولم تجعل الطبيعة أي فرد عبدًا.» وكذلك وصفه أودوسيوس بأنه «مرآة نبيلة للحياة الإنسانية»؛ تعبير رائع في حد ذاته، وإن كان أرسطو يعترض قائلًا إن مثل تلك الزخارف يقلِّل من قيمة الخطبة؛ لأنه يعطي فكرة التكلُّف في إعدادها.[٤]

ويُعرَف أن بولوكراتيس Polycrates، وهو بليغ معاصر، قد ألَّف اتهامًا خياليًّا لسقراط يشير إليه إيسوكراتيس.[٥]

وإن خطبته في مدح بوسيريس، ملك مصر آكل لحوم البشر، دفعت إيسوكراتيس ليكتب «بوسيريس» خاصًّا به ليبيِّن كيفية معالجة مثل تلك المواضيع. وقد وجد ديونوسيوس أسلوبه خاويًا وتافهًا ودارجًا.[٦]

أما لوكوفرون Lycophron الذي كان يقلِّد جورجياس؛ فقد اقتبس منه أرسطو عدة مرات، وكتب كيفيسودوروس Cephisodorus خير بلغاء مدرسة إيسوكراتيس المعروفة، دفاعًا رائعًا عن سيده ضد هجمات أرسطو.[٧]

وهؤلاء الأساتذة الصغار الذين وردَ ذكرهم كمحض فروع للمدارس البارزة، لم يكن لهم أي تأثير على نموِّ البلاغة أو الخطابة.

---

[١] تظهر حقيقة هذه الحكمة في سجلَّاتنا عن خطب ديموستينيس.

[٢] عن إيسايوس، باب ١٩، παχύτερον ὄντα τὴν λέξιν καὶ κοινότερον.

[٣] البلاغة، فصل ٣-٣، ٢.

[٤] أرسطو، البلاغة، فصل ٣-٣، ٤.

[٥] بوسيريس، فقرات ٥-٦، لقد حاول أن يحمِّل سقراط مسئولية شرور ألكيبياديس.

[٦] عن إيسايوس، الباب الثاني.

[٧] ديونوسيوس، عن إيسوكراتيس، باب ٢٨: τὴν ἀπολογίαν τὴν πάνυ θαυμαστὴν ἐν ταῖς πρὸς Ἀριστοτέλη ἀντιγραφαῖς ἐποιήσατο.

الفصل الثامن

أيسخينيس

١

حياته

كان أيسخينيس عدوًّا لدودًا لديموسثينيس مدة ٢٠ عامًا، وربما كانت هذه العداوة أهم متعة له في الحياة، فكانت دافعًا قويًّا له على تأليف خطبه الباقية، أما ديموسثينيس نفسه فلم يرَ بدًّا من الاستماع إلى ذلك العدو ذي الذكاء النادر والموهبة الخطابية الحقة؛ فكان يصغي إليه باهتمام زائد في المحاكم وأمام الإكليسيا، وبذلك أعطاه نفوذًا لم يستطع إفساده غموض آرائه السياسية وتذبذب خلقه الشخصي.

لم تكن لأيسخينيس سياسة بنائية، ولكن كانت له المواهب اللازمة لزعيم معارضة شديدة حقودة. وإننا لنَدين إلى العداوة التي استحكمت بين هذَين الرجلَين، بمقدار عظيم من معلوماتنا عن كلٍّ منهما فيما يختص بحياتهما الخاصة والعامة. حقيقة إنه لا يمكننا أن نقبل دون تحفُّظ اعترافات وانتقادات كلٍّ من هذَين الخطيبَين لذلك النزاع، بَيدَ أنهما يتفقان في حالات كثيرة في الوقائع، وإن كانا يختلفان في تفسير كلٍّ منهما لها، وبذلك يمكننا جمع ملخص للحقيقة بحذر.

وُلد أيسخينيس حوالي عام ٣٩٠ق.م.[١] وقد نفت حكومة الثلاثين والده أترومیتوس Atrometus، وهو مواطن أثيني عريق النسب،[٢] فهرب إلى كورنثة مع زوجه، وخدم مدةً

---

[١] انظر تيمارخوس فقرة ٤٩؛ حيث يقرر أيسخينيس عام ٣٤٦ق.م. أنه يبلغ من العمر أكثر من ٤٥ سنة.

[٢] أيسخينيس، عن السفارة، فقرة ١٤٧، ويؤكد ديموسثينيس (عن كورنثة فقرة ١٢٩) أنه كان في الأصل عبدًا يدعى ترومیس Tromes (أي الجبان)، ثم غيَّر اسمه إلى أترومیتوس (أي الجريء).

كجندي مرتزق في آسيا، ثم عاد أخيرًا إلى أثينا حيث أنشأ مدرسة. وقد احتلَّت زوجة جلاوكوثيا Glaucothea منصبًا دينيًّا بسيطًا تعلِّم التلاميذ الحديثي الإيمان بعضَ الأسرار الخاصة بديانة أورفيوس Orpheus. ويبدو أن أيسخينيس قد ساعد كلًّا من والديه في عمله، هذا على فرض أن هناك ذرة من الصدق تمتزج بحقد ديموستينيس:

«لقد كانت مهنتك ملء المحابر وتنظيف القماطر وكنس حجرة الدراسة، كما يفعل الأرقَّاء دون أبناء النبلاء، ولما كبرت ساعدت أمك في تدريس الديانة؛ فكنت تسمِّع للتلاميذ أصول الدين والإيمان، وتقوم بعمل نافع لها. كذلك كنت تشتغل أثناء الليل في تغليف قرابين الاحتفالات في جلود الغزلان، وتحضير الشراب المقدَّم كقرابين، وتكسوها بالطين والنخالة.»[٣]

إن الوصف الكامل الذي استُمدَّت منه الفقرة السابقة، عبارة عن صورة هزلية ظاهرة، قيمتها الرئيسية هي لتوضح أن ديموستينيس، لو لم تجعله الظروف من الساسة لكان من المحتمل أن يصبح كاتبًا ناجحًا للهزليات المتوسطة. ولكن يبدو أنها تشير إلى حقيقة أن والدَي أيسخينيس كانا وضيعي الحال، حتى إن حياته شخصيًّا وهو صبي كانت حياة ضنك وتعب، ولم يتمتع بالفرص العادية من الحصول على التعليم الذي يؤهِّله ليكون سياسيًّا.[٤] وبعد ذلك لَمَّا كان في السن التي يتعلم فيها غيره من الراغبين في الحياة العامة على يد أساتذة البلاغة، اضطُر هو إلى كسب قوته بعرق جبينه؛ فكان أولًا كاتبًا لبعض صغار الموظفين، ثم ممثلًا، وتبعًا لقول ديموستينيس، كان يقوم بتمثيل أدوار صغيرة حقيرة، وكان يعتمد في معيشته على ما يقذفه به المتفرِّجون من تين وزيتون،[٥] وزيادة على ذلك فقد خدم كمواطن بسيط، ثم أبرز نفسه بنفسه في مانتينيا وتاموناي Mantinea & Tamynae. وفي سنة ٣٥٧ق.م. حصل على عمل سياسي تحت إدارة أريستوفون الأزيني Aristophon of Azenia أولًا، ثم تحت إشراف يوبولوس Eubulus، وأخيرًا نجده يعمل كاتبًا في الإكليسيا.

تزوج أيسخينيس من عائلة محترمة حوالي عام ٣٥٠ق.م. وفي سنة ٣٤٨ق.م. ظهر لأول مرة في منصب يدل على ثقة الشعب به؛ إذ عُيِّن عضوًا في مجلس ميجالوبوليس

[٣] ديموستينيس، عن كورنثة، الفقرتان ٢٥٨ و٢٥٩. انظر أيضًا ما يرد في الباب التاسع، الفصل السادس.

[٤] وعلى أية حال فقد اختير أخوه الأكبر فيلوكراتيس قائدًا ثلاث مرات متواليات، وأرسل أخاه الأصغر أفوبيتوس Aphobetus سفيرًا إلى الملك العظيم؛ أيسخينيس. «عن الأساطير»، فقرة ١٤٩.

[٥] ديموستينيس، عن كورنثة، فقرة ٢٦٢، انظر ما يرد في الباب التاسع، الفصل السادس.

Megalopolis في أركاديا Arcadia، وفي هذه الآونة خرج معترفًا بأنه خصم لفيليب، ولكنه عاد ثانية حليفًا للسلام. وسنناقش فيما بعدُ أسباب هذا التحوُّل في الرأي، وتفسيره هو نفسه الذي يقول فيه إنه لمس أن الحرب شيء غير عملي؛ تفسير معقول في حد ذاته.[٦]

بعد مرور عامين على ذلك، اشترك أيسخينيس مع ديموسثينيس في السفارات الشهيرة لفيليب، التي نتج عنها بعد تأخيرات خطيرة، سلم فيلوكراتيس الذي لم يقبله الشعب. وقد صرَّح ديموسثينيس أن ذلك السلم لا يليق بكرامة أثينا،[٧] غير أنه كان يحثُّ على ضرورة العمل به سواء أكان حسنًا أم سيئًا، وعلاوةً على تقوُّله بما يشين سلوك أيسخينيس كسفير؛ فقد أعدَّ العدة لاتهامه بخيانة الثقة الموضوعة فيه، بواسطة الاستيلاء على رشاوٍ من فيليب، وأشرك معه تيمارخوس ليقوما بمحاكمة أيسخينيس، بَيدَ أن أيسخينيس أعدَّ العدة لهجوم مضادٍّ، فاتَّهم تيمارخوس بسوء السلوك، واستشهد على ذلك بأنه منع من الكلام أمام الجمهور نتيجةً لذلك. ويظهر أنه ثبتت إدانة تيمارخوس. وفي عام ٣٤٣ق.م. عُقدت الجلسة التي ألقيت فيها خطبة ديموسثينيس «عن السفارة الكاذبة de False Legatione» وكذلك خطبة أيسخينيس التي بنفس العنوان، وقد بُرئ أيسخينيس بأغلبية ثلاثين صوتًا. ثم استعد أيسخينيس في العام التالي للانتقام، بَيدَ أنه ما كاد يبدأ باتهام ديموسثينيس حتى واجهه هذا الأخير بحركة مضادَّة.[٨]

وفي سنة ٣٣٩ق.م. كان أيسخينيس عضوًا في مجلس الشورى الأمفيكتيوني، فألقى خطبة حماسية كانت سببًا في قيام الحرب المقدسة.

وفي عام ٣٢٧ق.م. وهو العام التالي لمعركة خايرونيا، وجد أيسخينيس سلاحًا جديدًا يقذف به خصمه، وهو اقتراح كتيسيفون Ctesiphon بمنح ديموسثينيس تاجًا نظير خدماته لأثينا؛ فاتهم أيسخينيس كتيسيفون بعدم احترام القوانين، غير أن القضية لم تُنظر إلا عام ٣٣٠ق.م. عندما فشل أيسخينيس في الحصول على خمس الأصوات؛ فحكم عليه بغرامة قدرها ألف دراخم، ولَّما عجز عن الدفع أو لم يرد الدفع، ذهب إلى المنفى، فرحل إلى آسيا الصغرى وعاش في إفيسوس Ephesus أو رودس Rhodes. ويقول بلوتارخوس إنه قضى بقية حياته سفسطائيًّا محترفًا، ومعنى ذلك أنه كان معلِّمًا للبلاغة

---

[٦] عن السفارة، فقرة ٧٩، انظر صحيفة ١٨١.

[٧] انظر الخطبة «عن السلم» التي ألقيت في نفس العام.

[٨] أيسخينيس، كتيسيفون، الفقرات ٢٢٢–٢٢٥.

دون أدنى شك.[٩] وليس لدينا أية معلومات أخرى عن حياته أو عن كيفية وفاته أو تاريخها.

٢

دوره السياسي

لا يمكن اعتبار أيسخينيس رجلًا سياسيًّا بأي حال من الأحوال طالما ليست له سياسة معيَّنة؛ فقد كان كما يعترف هو «نهَّازًا للفرص»، ويقول: «يجب على الأفراد والأمة أن يغيِّروا مكانهم حسب مقتضيات الأحوال، وأن يهدفوا إلى أحسن ما في كل وقت.»[١٠] ورغم أنه يدَّعي كونه «ناصح أعظم مدينة في العالم»،[١١] فلم يكن له في الشئون العامة مبدأ أسمى من السير على الخط الأقل مقاومة.

ومع ذلك يجب علينا أن نبحث عمَّا إذا كان أيسخينيس هو حقًّا السياسي المفسد الذي يحدثنا عنه ديموستينيس.

والآراء الأثينية أقل دقةً من آرائنا فيما يختص بالأعمال المفسدة، ويعترف هوبيريديس Hyperides بأن هناك درجات مختلفة من الإثم في موضوع أخذ الرشاوى. فأكبر جريمة هي قبول الرشوة من مصادر غير لائقة، أي من أعداء الدولة ولضرر الدولة.[١٢]

وينصُّ هذا المبدأ على أن قبول الفرد الرشوة ليعمل واجبه ويعمل لخير ما يفيد وطنه، إثم بسيط إن صح أن يُسمَّى إثمًا. وفي هذه الحالة يكون إثم الشخص أو براءته موكولًا لضميره الشخصي يبتُّ فيه كما يتراءى له.

لقد اتَّهم ديموستينيس أيسخينيس بتغيير سياسته نتيجة للرشاوى التي حصل عليها من فيليب، ويعرف أنه كان في بدء حياته العامة معارضًا لمقدونيا، ولدينا إقراره هو شخصيًّا عن تحوُّله في مناسبة السفارة إلى ميجالوبوليس إذ يقول:

---

[٩] ديموستينيس، باب ٢٤، ‘περὶ Ρόδον καὶ Ἰωνίαν σοφιστεύων κατεβίωσεν’.

[١٠] عن السفارة، فقرة ١٦، τοῖς γὰρ καιροῖς ἀνάγκη συμπεριφέρεσθαι πρὸς τὸ κράτιστον καὶ τὸν ἄνδρα καὶ τὴν πόλιν.

[١١] عن السفارة، فقرة ١٥٧، ὁ τῆς μεγίστης σύμβουλος πόλεως.

[١٢] هوبيريديس، المحامي ديموستينيس ٢٤.

«إنك تلومني على الخطبة التي ألقيتها، كمبعوث، أمام عشرة آلاف شخص في أركاديا، وتقول إنني قد تحوَّلت، أنت أيها المخلوق الوضيع، يا من كِدت أن تُتَّهم بهجر وطنك. والحقيقة أنني قد حاولت جهد طاقتي في أثناء الحرب، أن أوحِّد الأركاديين مع بقية الإغريق ضد فيليب، لكنني أعترف أنني لَمَّا وجدت الجميع يُعرضون عن مساعدة أثينا؛ إذ كان بعضهم ينتظر ما سيحدث، والبعض الآخر يسير ضدنا، واستغل الحرب كوسيلة تمدُّهم بنفقاتهم اليومية، نصحت الشعب بالاتفاق مع فيليب وعقد الصلح معكم، أنتم يا من لم تُشهروا سيفًا مطلقًا، وتقولون إن ذلك عار، ولكني أقول إنه أكثر نبلًا من الحرب.»[١٣]

وبعد انتهاء سلم فيلوكراتيس أصبحت الاتهامات أكثر تحديدًا من ذي قبل؛ فيؤكد ديموستينيس أنه كانت لأيسخينيس اتصالات خاصة مع فيليب؛ فمنحه بعض أراضٍ خاصة في بويوتيا لقاء خدماته.[١٤] ثم يعود إلى تهمة التاج بعد ذلك بسنوات عدة. ولا ينكر أيسخينيس هذه التهمة، ولا يذكرها، لا في خطبته «عن السفارة» ولا في اتهام كتيسيفون. ولما استطاع ديموستينيس العثور على دليل بسيط مباشر، أقام دعواه مؤكِّدًا علاقة أيسخينيس بالخائن فيلوكراتيس، بَيدَ أن حجَّته كانت واهية، فعلى الرغم من مباهاة أيسخينيس بتلك العلاقات إحدى المرات؛ فقد أنكرها في مناسبة أخرى، وليس هذا فحسب، بل تجرَّأ أيضًا على مساواة ديموستينيس بفيلوكراتيس.[١٥]

ربما كان يجدر بنا أن نعلِّق أهميةً أكثر على قول ديموستينيس بأن أيسخينيس كان يحرِّض المدينة بين آونة وأخرى، على قبول وعود فيليب الغامضة، بأن يعمل لصالحها، ولكن قبل أن نتهمه على هذا الأساس، خليق بنا أن نتذكر أن إيسوكراتيس الذي يفوق أيسخينيس في الذكاء، ولا يمكن الشك في أمانته، قد استسلم كليةً لشخصية فيليب، فوثق بحسن نيَّاته تمام الثقة،[١٦] وربما يكون أيسخينيس قد خُدع بنفس الطريقة.

لكن أقوى اتهام وجِّه إلى سياسة أيسخينيس ينحصر في خطَبه؛ فقد اتُّهم في أثناء زيارة للجيش المقدوني في فوكيس Phocis بمشاركته فيليب في رقصة البيان Paean

[١٣] عن السفارة، فقرة ٧٩.

[١٤] ديموستينيس، «عن السفارة الكاذبة»، الفقرات ١٤٥، ١٦٦، ١٧٧، «عن كورنثة»، فقرة ٤١.

[١٥] تيمارخوس، فقرة ١٧٤، كتيسيفون، فقرة ٥٨.

[١٦] انظر صحيفة ١٦٠.

احتفالًا بهزيمة فوكيس. ومن الغريب أنه يعترف بتلك الواقعة ويَعُدها أمرًا عاديًّا لا غبار عليه.[١٧]

كذلك كان مسلكه في المجلس الأمفكتيوني أكثر خطورة،[١٨] فقد دُعي لإلقاء خطبة، وما إن بدأ في إلقائها حتى قاطعه بوقاحة رجلٌ لوكري Locrian من أمفيسا Amphissa. ولَمَّا أراد أيسخينيس الانتقام، «حدث له»[١٩] أن تذكَّر عدم تقوى الأمفيسيين Amphissians باحتلالهم سهل كيرا Cirrha، وعلى ذلك قرأ بصوت عالٍ، اللعنة التي تُليت بعد الحرب المقدسة الأولى، وبإعادة ذكر حوادث الأجيال الماضية التي كانت قد نُسيت، أثار حماسة سامعيه؛ حتى إنه في الصباح التالي — لأن الوقت كان متأخرًا فلم يُسمح باتخاذ أي إجراء تحت جنح الظلام — زحف جميع سكان دلفي على كيرا، وهدموا مباني الميناء، وأضرموا النار في المدينة. ورغم أن هذا العمل قد ساق بلاد الإغريق دون شك إلى حرب أمفكتيونية؛ فإن أيسخينيس لم يأبه لما نتج عن ذلك من سوء المغبَّة، واهتم فقط بتأثير خطبته الملحوظ.

٣

شخصيته

يُمكن جمع خصائص شخصية أيسخينيس من كتاباته وكتابات ديموسثينيس؛ فلا بدَّ وأنه كان محترمًا بين أهله وعشيرته؛ لأنه وإن لم يلعب إلا أدوارًا بسيطةً في الحياة، كما يؤكد ديموسثينيس، إلا أنه كان يلعب أدوارًا هامة كلما سنحت له فرصة، كما اعترف عدوُّه في لحظة من لحظات سهوه. وإن الظروف التي تمَّت فيها المأساة الإغريقية كانت تتطلَّب شخصيات عظيمةً لتحمل الأعباء، حتى ولو كانوا حكامًا مستبدين. وإنَّ طعن ديموسثينيس الذي يلقِّبه فيه بـ «تمثال نبيل» ليؤكد عدم افتقاره إلى تلك الصفات.[٢٠] ويحتمل أن تنصَّ كلمات ديموسثينيس على أن الكرامة اندثرت وقتئذٍ حتى إن الوضع

---

[١٧] عن السفارة، فقرة ١٦٣.

[١٨] انظر صفحة ١٧٩.

[١٩] ἐπήλθέ μοι، أيسخينيس، كتيسيفون، فقرة ١١٨؛ حيث يسرد أيسخينيس الواقعة برمتها.

[٢٠] «عن كورنثوس»، الفقرات ١٢٩، ٢٦٣ ... إلخ. كذلك «عن السفارة الكاذبة»، فقرة ٢٤٦. فمن الطبيعي أن يقوم الحاكم المستبد بدور الملوك والطغاة الذين يجب كقاعدة أن يكونوا شخصيات ملكية. (قارن الفقرة ٢٤٧ من «عن السفارة الكاذبة» ὁ Κρέων Αἰσχίνης).

السابق كان يبدو عظيمًا وعظيمًا جدًّا في ساحة القضاء. وكان أيسخينيس نفسه يحتقر استخدام إشارات التهييج التي يقوم بها الخطباء، ويحثُّ على ضرورة التزام الهدوء والسكينة وكبت العواطف الثائرة، وكثيرًا ما كان يُصر على وجوب وضع الخطيب يده داخل ردائه وهو يتكلم.[٢١] وقد كان هذا الاعتراف بالتحيُّز فرصة مكَّنت ديموسثينيس من الرد عليه بردٍّ وجيه إذ قال: «يجب أن تضع يدك داخل ردائك وأنت موفد في سفارة، لا وأنت تتكلم.»[٢٢] لقد ضرب ديموسثينيس في هذه المناسبة على وتر حسَّاس، بَيدَ أنه لو استخدم الذكاء والحزم لكان الشرف عادة لأيسخينيس.

إن صوت أيسخينيس الرائع ميزة بارزة حبَته بها الطبيعة، وإنه ليجيد استخدام نبراته، فحسده على ذلك ديموسثينيس الذي كانت تنقصه بعض المواهب الطبيعية للخطيب؛ ولذا كان يحاول دائمًا الحطَّ من قدر خطابته.[٢٣] غير أن أيسخينيس لم يُعِر ذلك أي اهتمام؛ لأنه كان يعلم بدون شك مزايا نفسه، التي دفع ديموسثينيس ذات مرة، ثمنها غاليًا.[٢٤] فلم يظهر أيسخينيس أي اهتمام. ولكن يبدو أنه حزَّ في نفسه أن يقارنه ديموسثينيس بجماعة السيرينيس Sirens اللواتي يطربن الرجال بأصواتهن العذبة ليسُقنهم إلى حتفهم. فلم يلقَ احتقار ديموسثينيس آذانًا صاغية، وكان الرد الوحيد عليه، أنَّ ذلك اتهام وضيع، وحتى على فرض صحته؛ فإن ديموسثينيس ليس بالرجل الكفء لإثارته؛ فإن الرجل ذا الأعمال المجيدة هو وحده الذي يستطيع اتهام غيره، وليس منافس أيسخينيس إلا ثرثارًا. وعندما يتمالك نفسه قليلًا، تريحه فكرة أن ديموسثينيس خاوٍ كالمزمار، ولا يصلح لشيء إذا جُرِّد من لسانه.[٢٥]

لم أهتم في حالة الخطباء الآخرين بالمزايا الشخصية؛ فالقاعدة أن يُحكَم على الخطيب كرجل، دون أي اعتبار لمزاياه الشخصية؛ ففي حالة إيسايوس مثلًا، وهي حالة متطرفة، لو نظرنا إلى ميزاته الشخصية وشواذه، لوجدناها عديمة القيمة، بينما يتجلى كثير من

---

[٢١] تيمارخوس، فقرة ٢٥.

[٢٢] ديموسثينيس، «عن السفارة الكاذبة»، فقرة ٥٢، ٢.

[٢٣] ديموسثينيس، «عن السفارة الكاذبة»، فقرة ٢٥٥ etc ,σεμνολογεῖ, φωνασκήσας. وعن كورنثوس فقرة ١٣٣ σεμνολόγου ومراجع عديدة لـ τριταγωνίσης.

[٢٤] أيسخينيس «عن السفارة»، فقرة ٤١، etc ,τὴν φύσιν μου μακαρίζων. (عن تصرف ديموسثينيس إبان السفارة الأولى).

[٢٥] كتيسيفون، الفقرتان ٣٢٨–٣٢٩، etc, ἐξ ὀνομάτων συγκείμενος .

المميزات الشخصية في كتابات أيسخينيس، لدرجة أننا لا نستطيع إهمالها بحالٍ ما؛ فهي مادة هامة لتقديرنا إياه كخطيب وكشخصية عامة. إذَن لنا بعض العذر في إعارة شخصيته اهتمامًا أكثر من أي خطيب أتيكي آخر. أما خُلقه العام فقد سبق لنا أن ناقشناه إلى حدٍّ ما.[٢٦] وقد يُلقي فحص صفاته الخاصة ضوءًا أكثر على موضوع إدانته.

كان أيسخينيس كما رأينا، رجلًا عصاميًّا، ارتفع على الأقل فوق مرتبة البيئة التي ولد فيها؛ فنجده خلال خطَبه كلها يفتخر بالثقافة والمنزلة اللتين وصل إليهما، أو كما يعبِّر م. كروازيه M. Croiset «فخر حديث النعمة vanité de parvenu.»

فيفتخر بعلمه ويغرق في المباهاة به دون أن يلاحظ أنه بذلك يعرِّض نفسه لتهمة عدم التخلُّق بخير ما يمكن للتعليم أن يهب. إن ديموستينيس عادل رغم صرامته، ويسأله قائلًا:

«بأي حقٍّ تتكلم عن التعليم؟ فما رأينا إنسانًا نال قسطًا من التعليم الحر، يتحدث عن نفسه بمثل تلك النعرة التي تتكلم بها؛ فإن وجهه ليحمرُّ خجلًا إذا ما تحدث عنه شخص آخر بمثل هذه الأقوال، ولكن من لم يتعلم التعليم الصحيح، مثلك، وتبلغ به الصفاقة أن يدَّعي التعلُّم الحق، لا ينجح إلا في إيذاء سامعيه عندما يتكلم عن علمه، كما أنه يفشل في الوصول إلى الأثر المطلوب.»[٢٧]

لقد اعتبر أيسخينيس ἀπαιδευσία أي الحاجة إلى التعلُّم، جريمة مدنية تقريبًا، ولم يطرأ على مخيِّلته قط أنه شخصيًّا واقع في تلك الجريمة.[٢٨] إنه يُظهر تعلُّمه بالاستشهاد بعض النصوص الشعرية، تلك النصوص التي ينبغي الاعتراف، بأنها أحيانًا تناسب حجَّته تمام المناسبة، وبالإشارة إلى الميثولوجيا والأساطير التي تكون جافة في بعض الأحايين. وإن استخدامه التاريخ ليفضح معرفته السطحية لذلك العلم، والاحتمال قليل في أنه قد درس ثوكوديديس مثلًا. ومع ذلك فقد كان يتمتع بقسط وافر من العلم، وإنما عدم الذوق هو الذي جعله يشطُّ. وخير إجادة له في استعمال النصوص هي عندما يطبِّق أشعار

---

[٢٦] انظر الصفحات ١٨٠–١٨٣.

[٢٧] ديموستينيس، عن كورنثوس، فقرة ١٣٨.

[٢٨] إن الإشارة إلى نفسه ك πεπαιδευμένος وإلى خصومه ك ἀπαίδευτοι ل ἀπαιδευσία, ἀμαθές وغيرها عادية جدًّا في الخطبتَين «ضد تيمارخوس» و«عن السفارة».

هسيود Hesiod على الإنسان الذي تتضمن جريمته أنه اتهم مدينة بأسرها في خرابه، وسنذكر تلك الفقرة فيما بعد.[٢٩]

إن الأبيات تعطي وخزات لاذعة عن تشهيراته، وإن آراءه عن الأثر التعليمي للشعر صادقة، بَيدَ أنه لا يستطيع المحافظة على ذلك المستوى. وقد نتج افتخاره الكثير بعلمه عن حبٍّ لنوع من الأدب الصناعي في اللغة والعمل، والاعتراف بتكلُّف الحشمة التي هي في الواقع غريبة على طبيعته. وهو يعترف بإعجابه بضبط الخطباء الشعبيين في عصر صولون نفوسهم، وعظمة الإمبراطورية.

ويتحدث أيسخينيس باشمئزاز عن تيمارخوس عندما خلع عباءته وقام بتمثيل المصارعة الإغريقية عريانًا أمام حشد غفير من الشعب.[٣٠] وفي مقدمة نفس الخطبة يُدلي بحجة قوية عن فائدة «الاعتدال». وفي محاكمة تيمارخوس ينحصر اعتداله في الإشارة إلى بعض أمور معيَّنة، لا يذكرها بالاسم:

«إني أطلب صفحكم أيها السادة؛ إذا ساقني الحديث عن أمور معينة لا يقرُّها الشرف بطبيعة الحال، وهي من خصال المدَّعى عليه، أقول إذا ساقني الحديث عنها إلى استخدام تعبير يشبه أعمال تيمارخوس ... إذ يقع عليه اللوم أكثر مني. وسيتعذَّر اجتناب استعمال مثل هذه التعابير، بَيدَ أني سأحاول اجتنابها بقدر الإمكان.»[٣١]

لاحظ كذلك الحذف الذي يتمسَّك به، أو «الإيجاز paraleipsis»، وهو ضرب بلاغي مألوف لقرَّاء شيشرون؛ الذي قدَّس ما لا يمكن البرهنة عليه:

«أي رجال أثينا، لاحظوا كيف أحاول الاعتدال في مهاجمتي تيمارخوس، وإنني لأغض النظر عما اقترفه من إهانات في صباه. أما فيما يتعلق بي؛ فإنها قد لا تكون أكثر حيوية، من حكومة الثلاثين مثلًا، أو الحوادث التي سبقت أرخونية يوكليديس، أو أي حادث آخر يكون قد حدث.»[٣٢]

---

[٢٩] انظر الصفحتَين ١٩٧، ١٩٩.

[٣٠] تيمارخوس، فقرة ٢٦، يضيف أيسخينيس نغمة إغريقية خاصة؛ «كان جسمه في حالة غير مرضية بسبب سكره، حتى إن أفاضل القوم أغمضوا عيونهم.» لقد كان إهماله جسده هو الذي أثَّر في النظارة أكثر من كشف ذراعيه ورجليه؛ أضف إلى ذلك إشاراته وحركاته.

[٣١] تيمارخوس، الفقرتان ٣٧، ٣٨.

[٣٢] تيمارخوس، فقرة ٣٩، تستعمل الكلمة "Ακυρος" بمعنَيين ... ليست أعمال تيمارخوس المبكرة مصدَّقًا عليها أي إنها ليست مثبتة، أما أعمال حكومة الثلاثين فلم تصدِّق عليها الحكومات التالية، وإن عدم

«بلغني أن هذا المخلوق (أحد خلَّان تيمارخوس) قد اقترف جرائم مشينة معينة، وأقسم بزوس الأوليمبي Zeus of Olympus أنني لا أستطيع التفوُّه بها أمامكم، مع أنه لم يخجل من اقترافها، ولو أمكنني التفوُّه بها في حضرتكم لما كان لي وجه أن أعيش بعد ذلك.»[٣٣]

ورغم تواضع المدَّعي فإن في الخطبة كثيرًا من الإشارات إلى جرائم تيمارخوس. وقد رُوعي التحفُّظ إزاء هذه الجرائم حتى إنه لم يذكر سوى عشرها. وعلى ذلك يتوافر سوء النية وعدم الشرف في نغمة الخطبة كلها.

ومن ناحية أخرى، فقد أشار الخطيب إلى مراعاته احترام القضاة ... وأخبرهم أن «تيمارخوس قد تعوَّد قضاء أيامه في بيت للميسر حيث توجد ساحة لمعارك الديوك، وحيث تقام ألعاب التقاسم بالأزلام، وأظن أن بعضكم قد شاهد مثل هذه الأشياء أو سمع عنها.»[٣٤]

لا يمكن لأي مجمع عظيم أن يأخذ مثل ذلك الإطراء على محمل جدي ويظن أنه قيل ببراءة، لكن من المحتَّم أن المقصود به كان لتخفيف حدة الجو القاتم المحيط به، ومثل هذه الدعايات غير نادرة، وفي أغلب الأحوال لا ينتج عنها أي ضرر.[٣٥]

وإن بلاس الذي قام بدراسة دقيقة للخطبة «ضد تيمارخوس»، ليواجهنا باتهام لشخصية أيسخينيس أشد عنفًا؛ فهو يجد مزاعم قوية تقوم على أسس تاريخية، بأن أغلب الاتهامات كاذبة؛ إذ يلاحظ أن تُهَم سوء السير قائمة كليةً على أقوال المدَّعي، ويقرر أن ميسجولاس Misgolas، وهو شاهد في غاية الأهمية، إما إنه سوف يرفض الإدلاء بشهادته كلية، أو سوف لا يقول الصدق. فوجود مثل هذه العقبة في منتصف الطريق، اعتراف صارخ بالضعف الذي يؤيِّده تعليق الخطيب في سياق القضية فيما بعد. إنه يقول إن لديه شهودًا آخرين، ولكن «إذا حثَّهم المدَّعى عليه ومؤيدوه على أن يرفضوا الإدلاء بشهاداتهم — وإني لا أعتقد أنهم سيحثُّونهم كلهم بحالٍ ما — يبقى أمر واحد لا يستطيعون فعله،

ارتباط أجزاء العبارة هو الذي لا يفسد المعنى العام. وربما كانت هناك إشارة إلى «العفو» علق عليها بعد طرد حكومة الثلاثين. كذلك يعلن أيسخينيس عفوًا عن جميع جرائم تيمارخوس التي اقترفها قبل تاريخ معين.

[٣٣] تيمارخوس، فقرة ٥٥، وهناك دفاع آخر في الفقرة ٧٠، قارن كذلك الفقرة ٧٦.

[٣٤] تيمارخوس، فقرة ٥٣.

[٣٥] قارن الفصل الخامس من هذا الباب.

ألا وهو تشويه الصدق والسمعة الطيبة اللذَين يتمتع بهما تيمارخوس في هذه المدينة، تلك السمعة التي لم أعطِها له، بل اكتسبها هو لنفسه بنفسه. لأن حياة الرجل المحترم يجب ألا تشوبها شائبة حتى تدفع أي شك في الإثم.»[٣٦]

يعتقد بلاس أن التُّهم البسيطة الموجَّهة إلى تيمارخوس لتبديده ضيعته بطيش، قد طغت على طبيعته وفضائله الموروثة، ولكن هذه وحدها ليست كافية لاتهامه.

يجب علينا أن نطبِّق قليلًا من الحقائق التي نعرفها ضد نظريات بلاس؛ فلا شك في أن تيمارخوس كان متَّهمًا وحُرم من حقوق المواطنين.[٣٧] ولم يكن المحلفون الأثينيون في ذلك الوقت معصومين من الخطأ، وكان لا بد من انتصار النزَعات السياسية على الحياد والنزاهة سواء في المحاكم العادية أو في المحكمة العليا للإكليسيا كما هو الحال في هذه القضية، ومع ذلك فإن رجلًا بريئًا من التهمة المسندة إليه أصلًا، ولا سيَّما إذا كان لم يقترف جريمة سياسية حقيقية، وإنما يلعب دورًا في الشئون السياسية — رجلًا يعضده نفوذ ديموسثينيس القوي — من المعقول أن يتوقَّع حكمًا عادلًا بإطلاق سراحه. وما بالك أنه أطلق سراح أيسخينيس نفسه بعد ذلك بسنوات قلائل في تهمة سياسية، رغم أن مسلكه السياسي كان يتطلَّب كثيرًا من التفسير، وكان وراءه كل نفوذ ديموسثينيس، لا لمصلحته بل ضده.

لقد حُقَّ لأيسخينيس أن يشعر بالكبرياء بسبب ما وصل إليه من مركز رفيع بعد أصل وضيع، ولكن تكرار ذكر أسباب تلك الكبرياء عرض للكبرياء؛ فهو يجب أن يتحدث عن نفسه «كمستشار لأعظم مدينة»، وكصديق للإسكندر وفيليب، ويقول: «إن ديموسثينيس يتمسَّك عليَّ بصداقتي للإسكندر.»[٣٨] فيرد عليه ديموسثينيس بأنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل ويقول له: «أتقول إنني أتمسَّك عليك بصداقتك للإسكندر؟ بالله عليك كيف حصلت عليها، أو استحققتها؟ لست مجنونًا لأدعوك صديق فيليب أو الإسكندر، اللهم إلا إذا صح أن نسمِّي الأُجراء والحُصَّاد «أصدقاء» و«ضيوف» من يستأجرونهم لخدمتهم.»[٣٩]

---

[٣٦] تيمارخوس، فقرة ٤٨.

[٣٧] ديموسثينيس، «عن السفارة الكاذبة»، الفقرتان ٣، ٢٥٧.

[٣٨] ξενια تعبِّر عن العلاقة الودية بين المضيف والضيف، ولا يمكن ترجمتها بالضبط.

[٣٩] عن كورنثوس، فقرة ٥١.

وزيادة على ذلك؛ «على أي أساس صحيح ومعقول، استطاع أيسخينيس، ابن جلاوكوثيا Glaucothea، الطبَّال (ضارب الطار)، أن يكون ضيفًا على فيليب أو صديقًا له».[٤٠]

قد يكون تقدير ديموستينيس للموقف أقرب إلى الصواب؛ إذ لم يكن أيسخينيس مع كل مهارته، رجلًا كإيسوكراتيس يستطيع مقابلة الأمراء مقابلة الند للند.

يستشهد على فخره بخطبه وأثرها، بالفرص العديدة التي يذكرها فيها أو يشير إليها؛ فإنه يعطي ملخَّصًا لخطبة ألقاها وهو سفير لفيليب،[٤١] ويختصر خطبةً ألقاها أمام الإكليسيا،[٤٢] كذلك يذكر خطبةً ألقاها على «آلاف وآلاف من الأركاديين»،[٤٣] ويطنب في ذكر بعض مقتبسات من خطبته المشئومة التي ألقاها على الأمفكتيونيين،[٤٤] وأثرها المنكود؛ وإن لذَّته في التغنِّي بقواه الشخصية قد أعمته تمامًا عن طيشه الإجرامي.

ورغم اعترافاته الهدَّامة في «تيمارخوس»؛ فإن حياته الخاصة تبدو حياة مناسبة للمستوى الأثيني. ويتهمه ديموستينيس بإهانة سيدة أولونثية إهانة بالغة، ولكننا لسنا في وضع يسمح لنا بالحكم على صحة تلك الواقعة أو كونها من نسج الخيال، غير أن أيسخينيس ينكر تلك التهمة حانقًا، مؤكدًا أن الشعب الأثيني رفض الإصغاء إليها بسبب احترامه لشخصيته (أي شخصية أيسخينيس)، ويقول هذا الأخير:

«تأملوا حمق وخسَّة ذلك الرجل الذي تجاسر على أن يختلق ضدي كذبة وحشية كهذه، بخصوص السيدة الأولونثية. لقد ازدريتموه قبل أن يُتم قصته؛ حيث لم تتفق كذبته وخُلقي، وإنكم لتعرفونني حق المعرفة.»[٤٥]

ومهما كان منبت أيسخينيس فإنه لم يخجل منه؛ فيشير باحترام وحب في أكثر من مرة إلى والده؛[٤٦] وقد ذكر حبه لزوجه وأولاده في مناسبة واحدة، بعبارة بليغة، للتأثير

---

[٤٠] عن كورنثورس، فقرة ٢٨٤.

[٤١] أيسخينيس «عن السفارة»، الفقرات ٢٥–٣٣.

[٤٢] أيسخينيس «عن السفارة»، الفقرات ٧٥–٧٨.

[٤٣] أيسخينيس «عن السفارة»، فقرة ٧٩.

[٤٤] كتيسيفون، الفقرات ١١٩–١٢١.

[٤٥] أيسخينيس «عن السفارة»، فقرة ١٥٣.

[٤٦] كما في «عن السفارة» فقرة ١٤٧. ويعبِّر عن تقديره لوالدته في نفس الخطبة، فقرة ١٤٨.

عن مشاعر سامعيه. وقد كان استعمال «التعبيرات العاطفية» شائعًا جدًّا بين جمهور المستمعين اليونانيين، ولكن أيسخينيس كان يظهر نبوغه دائمًا في الأسلوب الذي يصوغ به مرافعته؛ هادفًا مباشرة إلى شعور المستمعين الفردي نحو عائلاتهم، بدلًا من طلب عطف الجمع كله على ضحايا سوء الحظ، فيقول:

«لقد رزقت من زوجتي، ابنة فيلوديموس وشقيقة فيلون Philon وإخيكراتيس Echecrates، ثلاثة أطفال؛ بنتًا وولدَين، وقد جئت بهم إلى هنا مع بقية عائلتي لكي أسأل سؤالًا فأثبت نقطة واحدة لقضاتي، وسأبدأ به الآن. إني أسألكم يا رجال أثينا، هل تظنون أنه يليق أن أضحِّي بوطني وصحبة أصدقائي، وحقي في الاشتراك في العبادة، وقبر آبائي، وأشي بهم إلى فيليب، مؤثرًا صداقته على سلامتهم؟ هل أصبحت عبدًا للملذات الدنيئة؟ أفعلت شيئًا وضيعًا كهذا من أجل المال؟ كلا! ليست مقدونيا هي التي تجعل الرجل صالحًا أو شريرًا ولكنها الطبيعة، وعندما نرجع من سفارة نكون نحن كما كنا عندما أوفدتمونا.»[٤٧]

وأخيرًا كان في مقدوره التحدث عن نفسه بكرامة، كما نرى في الفقرة السابقة[٤٨] التي يدفع بها التهمة عن نفسه، والفقرة الآتية:

«أي ديموستينيس، إن سكوتي هو نتيجة لاعتدال حياتي؛ فإني قانع بالقليل، وليست لديَّ أية رغبة وضيعة في العظمة، كذلك مردُّ صمتي أو كلامي إنما إلى التفكير العميق، لا إلى الضرورة التي تفرضها على المرء عادات التبذير. وإنك، كما أتصور، تسكت عادةً إذا نلتَ ما ترغب، حتى إذا ما أنفقته رفعت صوتك من جديد.»[٤٩]

٤

أسلوبه

تتركب مفردات أيسخينيس غالبًا من ألفاظ عادية الاستعمال، لا تتطلَّب أي تعليق، ورغم أنه من أكثر المعجبين بالشعر؛ فلا نجد في كتابته ألفاظًا ذات خيال شِعري أو شاذة أو أكثر من أي خطيب آخر.

---

[٤٧] «عن السفارة» فقرة ١٥٢.

[٤٨] انظر صفحة ١٩١ (فقرة: لقد رزقت من زوجتي).

[٤٩] كتيسيفون، فقرة ٢١٨.

والفرق بين أسلوبه وأسلوب كاتب آخر مثل لوسياس، هو فرق في النغمة لا في المفردات؛ إذ يميل أيسخينيس إلى التهويل في نغماته، ويتعمَّد استخدام كلمات أقوى مما يتطلبه الأمر، فيقول: «إنك غاضب» حينما لا يتطلب الأمر غير الدهشة، و«إنك تتميَّز غيظًا» عندما يناسب المقام الغيظ المعتدل، و«إنك حانق» عندما يكفي عدم الرضا.[٥٠]

وإنه ليتوسَّل إلى الآلهة في غير ما ضرورة أكثر من أي خطيب آخر عدا ديموستينيس. والمبالغة سبب من أسباب روعة ألفاظه كما وصفها الناقد الروماني، ولكن الجزء الأكبر هو موهبته الفطرية على استعمال كلمات عادية جدًّا في أعظم التراكيب تأثيرًا. وإذا حلَّلنا أحسن فقراته، يندر أن نعثر على كلمات غير عادية، ومع ذلك فلا جدال في قوتها وعظمتها.[٥١] وعلى أية حال فقد أنكر القدامى صفاء أسلوب أيسخينيس، وربما كان هذا على أساس الخواصِّ التي ذكرناها الآن.

وهو غامض أحيانًا كما يلاحظ بلاس، أي إنه من المحتمل أن تجد عبارات غير هيِّنة الفهم، ولكنها على العموم نادرة جدًّا. فما من كاتب، حتى لوسياس نفسه يمكن أن يكون جليَّ العبارات دائمًا،[٥٢] وعمومًا فإن أيسخينيس، كقاعدة، بسيط في تركيب عباراته بقدر ما هو بسيط في ترتيب خطبه، وهو أسهل فهمًا من ديموستينيس مثلًا.

ليس لأيسخينيس الجمال الكامل وشدة الألفاظ التي يشيد بها النقاد كأهم أسس الجمال عند لوسياس؛ فنجد أحيانًا تكرار ألفاظ دون مبرر، وأحيانًا أخرى نجده يستخدم كلمتَين مترادفتَين حينما كان يكفي استعمال كلمة واحدة، غير أنه كثيرًا ما ينتج عن مثل ذلك التكرار جلاء المعنى ووضوحه، ولو أن الشدة وتراكم المفردات تزيد في التوكيد.[٥٣]

إن الفنان العظيم هو وحده الذي يكون واثقًا تمامًا من أنه قد عثر على الكلمة الصحيحة ليعبِّر عن المعنى كله تعبيرًا كافيًا وبالطريقة الصحيحة، غير عامد إلى الحشو أو التطويل. وليس أيسخينيس فنانًا كاملًا في اللغة؛ إذ لا يهدف مطلقًا إلى الجمال الفني، بل إلى الأثر الرائع الذي يجعل الأسلوب أمرًا ثانويًّا. وإن النثر الفني بالنسبة إليه بعيد من أن يكون غاية في حد ذاته.

---

[٥٠] قارن الاستعمال المتكرر لـ δεινῶς, δεινός–δεινὴ ἀπαιδευσία, ἀναισχυντιά; δεινῶς σχετλιάζε, ἀσχημονεῖν, ἀγνοεῖν, etc. والتراكيب مثل: ὑπεραγαναακτῶ, ὑπεραισχύνομαι.

[٥١] مثال ذلك، الفقرة الجميلة عن طيبة صفحة ١٩٩.

[٥٢] فمثلًا خطبة لوسياس ضد إيراتوستينيس Eratosthenes تحوي جملًا كثيرة معقدة لا داعي لغموضها.

[٥٣] δρώντων φρονούντων βλεπόντων ὑμῶν كتيسيفون، فقرة ٩٤.

لم يضَع أيسخينيس خطبة ليقرأها خبراء الأدب، بل لتلقَى من فوق المنبر، ولم يرمِ إلى إرضاء ذوق النقَّاد، لكن إلى التأثير في عواطف المواطن العادي. فبعض خطَبه الهامة لم يُكتب مطلقًا، وإن كان من المحتمل أن يكون قد احتفظ بمذكرات عنها.[٥٤] ولم تحفظ الخطب الثلاث التي كتبها كاملة لجمالها الأدبي، بل لموضوعها. فإن وقت الثقافة البلاغية كان قد ولَّى وقتذاك، وتطلَّب مجرى الحوادث نوعًا من الخطابة يحثُّ الناس على العمل. أما أثر خطبه فلا شك فيه؛ فإننا نعلم — والحجة عليه، وهو لم يجادل في هذا قط — كيف حرَّكت خطَبه الأمفكتيونيين، ونعلم أنه أصبح قوة في أثينا بفضل فصاحته وبلاغته دون أن تكون له أية صفات خلقية ظاهرة، وبدون تأثير المزايا العائلية أو المبادئ السياسية المعينة.

وينوِّع أيسخينيس بشكل ملموس في طول عباراته؛ فبعضها طويل يتكوَّن من سلسلة من الجمل المشتقة والموصولة، وعلى أية حال تقع هذه غالبًا في القصص؛ حيث يلتمس العذر في مثل هذا الأسلوب غير المطَّرد. مثال ذلك الجمل الطويلة في الفقرات ٢٦–٢٧، ٧٥–٧٧، ١١٥ من خطبته «عن السفارة» de Legatione؛ فإنها تحوي أخبارًا عن خطَب أيسخينيس المبكرة.

فأولى هذه الفقرات (٢٦–٢٧) تسير على وتيرة واحدة بسبب مجموعات المضاف إليه المطلق التي تتألف منها الجمل الشرطية الطويلة، أما الفعل الأصلي فلا يقع إلا قرب نهاية الجملة، ثم يتبع بعد ذلك بعبارة أخرى بها مضاف إليه.

وتعطينا جملة طويلة في بداية خطبة «كتيسيفون» ملخَّصًا للظروف التي اضطرت الخطيب إلى الكلام. وترتبط الجمل غالبًا بوساطة και وإن كانت كلها تعود على اسم موصول في البداية؛ لذا لا نجد أية مهارة في تركيب مثل هذه الجمل، ولا يحدَّد طولها إلا بمقدار «الماء الموجود في الساعة المائية.»

وتحتفظ تلك الجمل بتأثيرها لغاية طول محدود، وينعدم أثرها إذا تعدَّته؛ لأن النقطة التي يريد الخطيب ذكرها تتأخر بطول الجملة؛ حيث إن الجملة الأصلية التي تشمل الواقعة الموضَّحة بالجملة الموصولة، لا يصل إلا الخطيب إلا بعد تراكم عدة أسماء موصولة صعبة الفهم.

[٥٤] قارن إشاراته المتكررة إلى خطبه صفحة ١٩٠.

ومع ذلك نجد أيسخينيس على العموم معتدلًا في طول عباراته، ومتوسِّط طول جمله أقل من متوسِّط طول جمل إيسوكراتيس، كذلك نجده يحافظ على القاعدة التي تنصُّ على أن السجع يجب ألا يتعدَّى طولًا يمكن النطق به في نفس واحد.

ورغم أنه ليس من أدعياء العلم؛ فلا يمكن وصفه بأنه خالٍ من ذوق التأليف. ونرى في جميع خطبه أمثلة لاجتناب المد في الحروف، وقد أظهر في خطبته «عن السفارة» اعتناءً زائدًا بذلك الأمر.

وعمومًا لا يمكن تتبُّع اجتنابه المد هذا، وليس ذلك دائمًا، خلال الترتيب العادي للكلمات.[٥٥] وأمثلة السجع الجاف نادرة، ولو أنه يوجد كثير من الأمثلة غير الهامة. وبصرف النظر عن القواعد النظرية؛ فإن الخطيب المجيد يتجنَّب بغريزته التعقيد اللفظي للحروف؛ لأن سلامة النغمة شرط لازم لفصاحة التكلُّم. ومع أن أيسخينيس واثق من مقدرته على حسن الإلقاء؛ فإنه قد يسمح ببعض أصوات يعتبرها إيسوكراتيس وغيره من النظريين، جافة. وقد اختصَّ أيسخينيس بالخطابة العملية.

ومن مميِّزات أيسخينيس البارزة، استعماله العبارات البلاغية. وإن المقابلات البلاغية الشفوية التي أَلَّفها جورجياس والسفسطائيون، والتي يظهر لنا كثير منها جافًّا متعبًا، قد نالت تقدير وإجلال أيسخينيس. ومن أمثلة الطباق الشكلي الخالص: «إنه يذكر أسماء أولئك الذين لم يرَ أجسامهم إطلاقًا.»[٥٦] حيث صوت الطنطنة ,ὀνόματα σώματα أكثر أهميةً من المعنى، ولا يمكن الحصول على مثل تأثير مقاطع الجناس هذه (homoeoteleute)، ولو أن بعض التلاعب بالألفاظ يدلُّ عليها في بعض الأحايين؛ فمثلًا:

οὐ τὸν τρόπον ἀλλὰ τὸν τόπον μόνον μετήλλαξεν.

– «إنه لم يغيِّر طريقته بل مكانه فقط».[٥٧] ولا شك أن الخطيب يهدف إلى التأثير الهزلي باستخدام مثل ذلك الجناس. كذلك نجد تكرار الكلمات المتكلَّف في مثل هذه الجمل:

---

[٥٥] مثال ذلك «عن السفارة» فقرة ١٨٣. τοὺς εἰς τὸν μέλλοντ᾽ αὐτῷ χρόνον ἀντεροῦντας بلاس، المجلد الثالث، الجزء الثاني، صفحة ٢٣٢ يذكر أن هناك اعتناءً زائدًا بتلك النقطة في «عن السفارة» أكثر مما في الخطبتَين الأخريَين.

[٥٦] كتيسيفون، فقرة ٩٩.

[٥٧] كتيسيفون، فقرة ٧٨.

«إن ما رأيته أخبرتكم به كما رأيته، وما سمعته كما سمعته، والآن ماذا رأيت وسمعت عن كيرسوبلبتيس Cersobleptes؟ رأيت ... إلخ»[٥٨] ويبدو أن مثل هذا التكرار وغيره يفلت من زمام الخطيب رغم كل احتياط.[٥٩]

لا يظهر أن أيسخينيس كان يراعي اتزان النغمات في كتابته، وأسلوبه سلس لا يتقيَّد بقيود لا مبرر لها، وعباراته الموزونة المسجوعة مشتَّتة ولكنها نادرة، ويبدو أنه لم يقصد استعمالها بل حدثت مصادفة؛ حيث إنها توجد في مواضع ليس فيها نقط خاصة تستدعي استعمال الرَّجز.[٦٠]

ومن جهة أخرى كثيرًا ما نراه يقتبس مباشرة بعض فقرات شعرية؛ حيث يميل إليها، ولا يشبهه في ذلك الأمر أي خطيب آخر ما عدا لوكورجوس Lycurgus، ويقلُّ لوكورجوس في مقدرته على استعمال المقتبسات الشعرية عن أيسخينيس الذي يستعملها بجدارة، ويحدث فينا تأثيرًا بأن هناك اتهامًا دينيًّا وراء الفقرة التي يقتبسها من شعر هسيودوس:

«كثيرًا ما تعاني بلدة بأجمعها بسبب إثم فرد واحد.»[٦١]

وفي حالات أخرى تكون الفقرات المقتبسة طويلة، وتشبه اقتباسات لوكورجوس في أنها من النادر أن تدور حول نقطة خاصة.

وأحيانًا يستعمل حكمًا واضحةً أحسن اختيارها:

- «يجرد المدينة كما نجرد الكرمة» ἀμπελουργεῖν τὴν πόλιν.
- «لقد صرخت في أذن كل فرد.» ἔναυλον ἦν πᾶσιν.

---

[٥٨] «عن السفارة»، فقرة ٨١.

[٥٩] قارن كتيسيفون، فقرة ١٩٨، ὅστις μὲν οὖν ἐν τῇ τιμήσει τὴν ψῆφον αἰτεῖ τὴν ὀργὴν τὴν ὑμετέραν παραιτεῖται, ὅστις δ᾽ ἐν τῷ πρώτῳ λόγῳ τὴν ψῆφον αἰτεῖ ὅρκον αἰτεῖ, νόμον αἰτεῖ, δημοκρατίαν αἰτεῖ ; ὧν οὔτε αἰτῆσαι οὐδὲν ὅσιον οὔτ᾽ αἰτηθέντα ἑτέρῳ δοῦναι.

[٦٠] مثال الرجز، كتيسيفون، فقرة ٢٣٩ ά σωφρονῶν ὁ δῆμος οὐκ ἐδέξατο و«عن السفارة»، فقرة ٦٦، μίαν δὲ νύκτα διαλιπὼν συνηγόρουν etc. ومثال التأثير العروضي، عن السفارة، فقرة ٢٢٣، ἀεὶ τὸ παρὸν λυμαινόμενος, τὸ δὲ μέλλον κατεπαγγελλόμενος ووصل غريب، عن السفارة، فقرة ٩١، ἁπάντων μετασχὼν τῶν πόνων τῇ πόλει, (ـبـ|ـبـ|ـ ـبـ| ـبـ| ـ ـب).

[٦١] كتيسيفون، فقرة ١٢٥.

ويقع بعضها ذو الأثر الفعَّال في الفقرات التي يظهر أنها مقتبسات من ديموستينيس أو تفاسير له؛ فمثلًا: ἀπορράψειν τὸ Φιλίππου؛ ἐπιστομίσαι أي يحث الهيئة الحربية؛ στόμα أي يخيط فم فيليب.[٦٢] وقد تكون هذه من ثوريَّات ديموستينيس الجريئة.

والآن ننتقل من المادة إلى الإنتاج التام؛ فنجد أن أيسخينيس يستطيع الوصول بأسلوبه إلى مستوًى عالٍ، وقد كان محقًّا في اتهامه للخطابة القاسية التي كانت سائدةً في عصره، وإننا لنعلم أنه إنما يقول الحقيقة من غير مبالغة. ومما يخفِّف من حدَّة ذلك الاتهام، ولا يفسده، سلسلة التهكُّمات الموجودة خلال القطعة بأجمعها:

«إن سماع مثل تلك القضايا، كما اعتاد والدي أن يخبرني، كان يسير على نمط يخالف نمطنا؛ فقد كان القضاة أكثر شدة من المدَّعي، مع من يقترح إجراءات غير قانونية، وكثيرًا ما كانوا يستوقفون كاتب الجلسة ويطلبون منه إعادة قراءة القوانين واللوائح، وعلى ذلك يُدان المقترحون، ليس على عدم اطلاعهم وقراءتهم لجميع القوانين، بل إذا حوَّروا في فقرة واحدة. فيصبح ذلك أمرًا مزريًا يفوق كل وصف، فبينما يقرأ الكاتب اللائحة غير القانونية، يكون القضاة شاردي الذهن في شيء آخر كما لو كانوا يستمعون إلى أحجية لا تُهمُّهم. وعلى ذلك فإنك تعترف بأمور مخجلة خلال طرق ديموستينيس، فقد سمحت بتغيير العدالة، فالمدَّعي يدافع عنه، والمدَّعى عليه يشرف على اتهامه، وينسى القضاة أحيانًا الأمر الذي دُعوا للحكم فيه، ويضطرون لإعطاء أصواتهم في أمور يجب ألا يحكموا فيها. وإذا كان للمدَّعى عليه أن يشير إلى الوقائع، فلا يخبرك أن طلبه قانوني، بل إن شخصًا ما سبق أن طلب مثل تلك الإجراءات وأطلق سراحه.»[٦٣]

وقد اختيرت القطعة الآتية مرارًا كنموذج جيد للأسلوب الراقي لبلاغة أيسخينيس. ولو درسناها بصرف النظر عن متنها ودون أي اعتبار لصحة فحواها، لوجدناها قطعة رائعة للمرافعة «العاطفية». فقد نسب الرومان — مع شغفهم بالتورية والمقابلة — لأيسخينيس نغمةً أكثر، وقوةً أقل من ديموستينيس؛ وهذا صواب إذا اعتبرنا أعمالها بالإجماع، أما إذا نظرنا إلى الفقرات المتفرِّقة كهذه، كان أيسخينيس في مستوى أعظم الخطباء الآتيكيين:

---

[٦٢] عن السفارة، الفقرتان ١١، ٢١.

[٦٣] كتيسيفون، الفقرتان ١٩٢–١٩٣.

«إن طيبة، جارتنا طيبة، قد فصلت وانتزعت من وسط بلاد الإغريق ما بين عشية وضحاها، وربما كان ذلك لاتِّباعها سياسة خاطئة، ومع ذلك فلم يكن الحكم البشري هو الذي قادها إلى الخطأ، بل الشريعة الدينية. وإن أهل لاكيدايمونيا التُّعساء، الذين تدخَّلوا في ذلك الأمر، وكان تدخُّلهم في الأصل للاستيلاء على المعبد، أولئك الذين كانوا قادة الإغريق، لا بدَّ وأن يرسلوا الآن إلى الإسكندر، رهينةً، ويعلنوا عن مصابهم، ولا بد أن يخضعوا هم ووطنهم ويذعنوا لكل ما يتراءى له، ويُحاكَموا بأمر ذلك الفاتح الذي كان قبلًا هو الفريق المغلوب. وإن مدينتنا، تلك المدينة التي كانت الملجأ العام لجميع الإغريق، وكان يفِد إليها السفراء ليطلبوا الأمن منَّا، مدينة مدينة، إنها الآن تناضل، لا لتكون قائدة الإغريق، وإنما من أجل أرضها هي نفسها. لم يُصبنا ذلك إلا مذ تقلَّد ديموستينيس مقاليد سياستنا. وفي هيسيودوس فقرة تحوى تحذيرًا حازمًا يلائم تلك الحالة. وحسب ما أعتقد، إنه يتكلم بقصد تعليم الشعب ونصح المدينة، كيلا يتخذوا لأنفسهم قادةً أشرارًا.»

«ولسوف أذكر تلك السطور؛ لأني أظن أننا منذ الطفولة نحفظ حكم الشعراء عن ظهر قلب، كي نستخدمها ونحن رجال.»

«كثيرًا ما تعاني المدينة كلها بسبب إثم فرد واحد، ذلك الذي يدعو إلى طريق الملذات ويسير في سبل الشرور، وعقابًا على هذا، يرسل الله الدمار، بالمجاعة والطاعون المبيد، ويهدم حوائطهم ويبيد جيوشهم، ويحطم سفنهم في عرض البحار.»[٦٤]

نعلم أن أيسخينيس قد تناول التعليم تناولًا جديًّا — وفي الحقيقة أكثر جديةً من أي شيء آخر — وإن إشارته هنا إلى الأثر التعليمي للشعراء ليؤيِّد لنا اهتمامه الجدِّي بذلك الأمر الذي قد يكون مجرد عاطفة عابرة، ولكنه الآن أصبح عاطفة قوية.

وبفحص قليل من مثل هذه الفقرات الخطيرة، نجد أن خير إجادة لأيسخينيس هي عندما يتهم ديموستينيس اتهامًا مباشرًا، وتتميَّز هجماته بروح الدُّعابة التي لا تعطيها قوة، ولكنها على أية حال تحوي حقائق كافيةً لجعل حقدها فعَّالًا. ولَّما كان أيسخينيس يحترم الصدق احترامًا بالغًا، حتى إنه يتوخَّى منتهى الدقة في ذكر الحقائق؛ فإن ذلك لا يقلِّل من شدة هجماته بحقد ضد صحة أقوال خصمه، بينما تطغى موجة الضحك التي تعقب الفقرة النهائية، على كل سؤال عن صدق وقائعه؛ مثال ذلك قوله:

---

[٦٤] كتيسيفون، الفقرات ١٣٣–١٣٦.

«لهذا الشخص ميزة من الغريب أن تكون له وحده، فعندما يكذب غيره من المغالطين، يحاولون الكلام بإبهام وبدون تحذير خشية أن يُتَّهموا بالكذب، أما ديموستينيس، فإنه عندما يحاول التأثير عليك، يبدأ أولًا بقسم قسمًا يجرُّ عليه الخراب، وذلك لكي يعطي قوة لكذبه، وثانيًا، رغم علمه بأن شيئًا لن يحدث قط؛ فإنه يجرؤ على ذكر اليوم الذي سيحدث فيه ذلك الشيء، بعد أن يظل يحسب حسابًا دقيقًا، ويذكر أسماء أشخاص لم يرَ وجههم إطلاقًا، وبذلك يخدعك لتستمع له واثقًا بصدق روايته؛ فيحصل بذلك على بغضك لمن يتهمه، لأنه وغد ولا يعرف قيمة الأدلة الصادقة.»

«وبعد أن يتكلم هكذا، يعطي لكاتب الجلسة مذكرةً ليقرأها؛ وهي أطول من الإلياذة Iliad، وخاوية أكثر من أقواله أو من الحياة التي يحياها، ومليئة بالآمال البعيدة المنال، والجيوش التي لن تظهر في استعراض.»[٦٥]

هناك أمثلة عدة في أعمال أيسخينيس وخصمه للعادة التي كان يتبعها قدامى الخطباء، الإغريق منهم والرومان، ويجدون فيها متعة، وهي عادة القدح في أجداد خصومهم السياسيين والتشهير بحياتهم الخاصة. ولا تظهر في أيسخينيس أية استعمالات للألفاظ البذيئة — وفي أعمال دينارخوس Dinarchus تشكيلة عظيمة من الكلمات المقذعة — ولكن الفقرة التالية المستخرجة من تخيُّلاته العرضية عن ديموستينيس أكثر تأثيرًا؛ لأن نغمتها أكثر اعتدالًا من الإهانات التي لا يتصورها العقل، التي وصف ديموستينيس بها معيشة وأحوال أسرة أيسخينيس،[٦٦] إذ يقول:

«أما عن والده فلا بد وأن كان عدوًّا للشعب؛ لأنكم حكمتم على أجداده بالإعدام، ولو نُسب إلى أمه فهو من سكوثيا Scythia، أي بربري ولو أنه يتكلم الإغريقية، وعلى ذلك فحتى شروره ليست من أصل وطني. وماذا عن حياته اليومية؟ كان في أول حياته بحَّارًا، ثم ظهر بعد ذلك كاتب خطَب، وقد أنفق ميراثه بطَيش، وكان تحت شبهة إفشاء الخطَب التي كانت ستلقى كمرافعات، إلى من عملت ضدهم، ثم حصل على مركز في المحكمة، ورغم أنه اكتسب أموالًا طائلةً من ذلك المركز؛ فإنه لم يدَّخر لنفسه منها شيئًا؛ إذ لو أُعطِي كنوز الملوك في ذلك الوقت لبذَّرها، وما من ثروة تبقى مع العادات السيئة.»

«وأسوأ من ذلك كله، أنه لا يكسب عيشه من موارده الخاصة، بل من إيذائه لكم.»[٦٧]

---

[٦٥] كتيسيفون، الفقرتان ٩٩–١٠٠.

[٦٦] ديموستينيس، عن كورنثوس، الفقرتان ١٢٩، ٢٥٩.

[٦٧] كتيسيفون، الفقرتان ١٧٢–١٧٣.

وتظهر مواهبه، حقيقةً، بأجلى مظاهرها عندما يزلُّ خصمه؛ فيعطيه فرصة لتهويل أية واقعة تافهة ويجعل من الحبَّة قبَّة. ونراه في الفقرة الهزلية التالية، يمثِّل لجلجة ديموستينيس، بألفاظ تخرج متقطِّعة من فِيه، أمهر مما يمكن لأي وصف آخر أن ينقلها في صيغة الغائب:

«بينما كنت ألقي هذه الخطبة، إذا بديموستينيس يقاطعني في وسطها ويصرخ بأعلى صوته — وإن جميع زملائي في السفارة ليؤيِّدونني في تلك الواقعة — فإنه بالإضافة إلى مساوئه الأخرى، من مواطني بويوتيا، وقد قال شيئًا في هذا الغرض: «هذا الشخص مملوء بروح المشاغبة وعدم المبالاة، وإنني لأعترف بأني مكوَّن من مادة أخف من مادته، وأخشى الأخطار قبل حدوثها بمدة طويلة. ومع ذلك فإني أحرِّم عليه إحداث الشغب بين الولايات، لأني أظن أن خير طريق لنا نحن السفراء، ألا نتداخل في شيء. فإذا ما زحف فيليب على ثرموبولاي Thermopylae فإنني أغطي وجهي؛ إذ سوف لا يحاكمني أحد على كون فيليب قد تسلَّح، وإنما الذي سأحاكم عليه هو ما أقوله دون داعٍ، أو ما أعمله زيادة على التعليمات التي أعطِيت لي.»[٦٨]

وقد انتهز أيسخينيس فرصة فشل ديموستينيس في إلقاء خطبة فعَّالة أمام فيليب إبَّان السفارة الأولى، وجعلها أساسًا لنكاته. وقد ضاق ديموستينيس ذرعًا بأقاصيص خصمه؛ فأصبح كمن رفض زملاؤه الإقامة معه في نفس المسكن كلما وجدوا مسكنًا آخر، ولكنه وجد فرصة ليقنعهم في أسلوبه الخاص بأهميته كخطيب. وقد بيَّن أعذاره في بضع كلمات؛ فإن فشله في تشجيع وتأييد فيليب قد فسَّر ببغضه الدفين له، ذلك البغض الذي جعل من المتعذِّر إبداء أي دفاع أو تفسير، والحقيقة أن ديموستينيس لم يحاول الرد:

«عندما ألقيت هذه الخطبة وغيرها، أتى دور ديموستينيس ليقوم بدوره في السفارة؛ فصمت كل فرد وأصاخ بسمعه ليستمع إلى خطبة ذات قوة خارقة؛ لأننا عندما اجتمعنا بعد ذلك، سمعنا كما سمع فيليب وأتباعه تقريره عن أطماعه. وعندما كان كل فرد مستعدًّا ليصغي إليه، نطق ذلك الوحش بمقدِّمة غامضة، ولَّما تقدَّم في كلامه عن سطح الموضوع بقليل، توقَّف فجأةً وتلعثم، وأخيرًا ضاع منه الموضوع تمامًا فلم يحر كلامًا. فلمَّا رأى فيليب حالته هذه، حثَّه على أن يتشجَّع ولا يفكر في أنه قد فشل لأنه أصبح

[٦٨] عن السفارة، الفقرتان ١٠٦–١٠٧.

كالممثِّل الذي نسي دوره، بل عليه أن يفكر في هدوء ويتذكر شيئًا فشيئًا، ثم يلقي الخطبة التي قصد إلقاءها. ولكنه إذا ارتبك مرة وضاعت من ذاكرته نقط الخطبة التي كتبها، لم يستطع أن يتمالك نفسه؛ فحاول مرة أخرى ولكن دون جدوى، إذ فشل بنفس الطريقة السابقة. تم أعقب ذلك سكوت أعلن بعده الحاجب ارفضاض الجلسة.»[٦٩]

لم يتفوَّق أيسخينيس في تلك الفرص الهزلية فحسب، بل فاز بضحك المستمعين أيضًا بوساطة جملة واحدة نطق بها. ونعلم جيدًا أن ميدياس Midias، بعد عدة مشاجرات شائنة، وضع حدًّا لوقاحته، بأن اعتدى على ديموستينيس أمام الجمع، فصفعه على وجهه في المسرح.

استغلَّ ديموستينيس ذلك الاعتداء جيدًا؛ فجمع منه ثروات عظيمة في عدة مناسبات، تلك الحقيقة التي أوحت إلى ملاحظة أيسخينيس بأن «وجهه هو ثروته».[٧٠] ولنذكر مثلًا واحدًا على مهارته في الرد المفحم: اقترح ديموستينيس ذات مرة، في ثورة غضب، أنه يجب على المحكمة أن ترفض الأخذ بأقوال رجل اشتهر بالرشوة، ويجدر بها أن تتحيَّز بهذا ضده.[٧١] عندئذٍ تمسَّك أيسخينيس عليه، بكلمته أكثر من روح خطابته، وقال: «أيها السادة، رغم أنكم قد أقسمتم أن تكونوا محايدين في سماعكم كلا الطرفين؛ فإنه تجاسر وحثَّكم على ألا تستمعوا إلى صوت المدَّعى عليه.»[٧٢]

٥

معالجة الموضوعات: تقييم عام

لا بدَّ وأن يكون أيسخينيس قد اكتسب خبرة من إجراءات مجلس الشعب، والقانون، عندما كان يشغل منصب γραμματεύς أو كاتبًا لذلك المجلس. ويتضح ذلك جليًّا من معالجته العامة لموضوعاته، وخصوصًا في حججه القانونية الواضحة والمقنعة. فقد أخرج قضية في

---

[٦٩] عن السفارة، الفقرتان ٣٤–٣٥.

[٧٠] كتيسيفون، فقرة ٢١٢. οὐ κεφαλὴν ἀλλὰ πρόσοδον κέκτηται. إن اللعب بالألفاظ ليس أمرًا سهلًا، فالكلمة κεφαλή بالطبع تعني κεφάλαιον، أي «رئيس» أو «عاصمة». بينما πρόσοδος معناها «دخل» أو «إيراد».

[٧١] عن السفارة الكاذبة، فقرة ٣٣٩.

[٧٢] أيسخينيس، عن السفارة، الفقرة الأولى.

غاية القوة في خطبته ضد كتيسيفون؛ حيث وجد في شذوذ الإجراءات التي اتُّخذت، نحو تاج ديموستينيس، موضوعًا هامًّا لأدلته.

ويتبع في تأليف خطبه، ترتيبًا تاريخيًّا. وكان يعلم يقينًا أن فصاحة أسلوبه تخرج سردًا للقضية، واضحًا وجذابًا، وأن عدم استمراره على وتيرة واحدة في خطابته يجعله غير ممل، فمرةً يتكلم بمهارة نبيلة تذكر مسيو كروازيه بفصاحة المنبر،[٧٣] ومرةً أخرى تخفي رقة نغمته حدَّة عواطفه وجدية غرضه.[٧٤]

وإنه ليستطيع الكلام عن نفسه باحترام، وعن عائلته بشعور صادق. وإن الاعتناء بالحجج يولِّد السرد الواضح، والاستجواب غير المباشر المدعَّم بالتهكُّم القوي يولِّد كشف الخصم بمهارة.

يستطيع أيسخينيس أن يوقظ لذة سامعيه في الاستماع إليه، بالإشارة إلى الطريق التي ينوي اتباعها، ويدعم هذه اللذة بكل ضروب الفصاحة، وهذه الطريق — رغم سفسطائيتها أحيانًا، ورغم وجود بعض عيوب قليلة تشوهها أحيانًا أخرى — فإن فيها شكلًا طبيعيًّا أكثر، وتُظهر آثارًا من المحسِّنات العلمية أقل من أي خطيب عظيم آخر؛ فهو أقدر من أندوكيديس، وأكثر تنويعًا من لوسياس، وأعظم حيوية من إيسايوس.

إن مواهب أيسخينيس الفطرية تضعه في مرتبة أرقى من لوكورجوس، ولو أن نظرتنا إلى أخلاق الأخير السامية تعطيه حقًّا قويًّا في تقديرٍ ناله. ويضعه بلاس في مرتبة أقل من هوبيريديس، بَيدَ أن دراسة الفقرات الخفيفة في أيسخينيس، تسوقنا إلى الاعتقاد بأن بلاس لو وجَّه اهتمامه إلى الحالات الخاصة، لساوَى به ذلك الخطيب المثقف أو فضله عليه لنفس الأسباب التي أبداها. ويضعه حكم الأزمنة الغابرة والحديثة بالإجماع، في مرتبة تقلُّ كثيرًا عن ديموستينيس الذي لا ينافسه منافس، ولكنه في صفة واحدة على الأقل يبُذُّ ذلك الخطيب النموذجي. وتبعًا لرأي لونجينوس Longinus، إن ديموستينيس مناسب لجعل سامعيه يضحكون، ليس معه، بل عليه.[٧٥] أما أيسخينيس فلا يجعل الضحك عليه مطلقًا.

---

[٧٣] الأدب الإغريقي La Litt. Grecque، الفصل الرابع، ٦٤٣، مع الرجوع خاصة إلى كتيسيفون فقرة ١٣٣ التي سبق ذكرها بصفحتي ١٩٩–٢٠٠، والفقرات ١٥٢ ... إلخ.

[٧٤] مثال ذلك ما سبق ذكره عن ديموستينيس الصفحات ٢٠٠–٢٠١.

[٧٥] عن السمو de sublim، الباب الرابع والعشرون. οὐ γέλωτα κινεῖ μᾶλλον ἢ καταγελᾶται.

ربما كان أيسخينيس يقرأ أقل مما يستحق؛ فقد عانى من التحيُّز التاريخي، وقد أدَّى الاحتقار السائد لصفاته كسياسي، إلى عدم تقدير فضائله كخطيب، ولا غرابة في ذلك؛ فقد عانى غيره من الخطباء نفس الشيء على يد المؤرِّخين المتعصبين.[٧٦]

ومن الممتع أن تقرأ ما كتب عن أيسخينيس في كتاب بلاس «الخطباء الآتيكيون»؛ فإن ذلك التلميذ الموهوب يبدأ بتعصُّب شديد ضد معلِّمه، ويتمسَّك تمامًا بأخطائه، ولكنه يضطر من آن إلى آخر، إلى الاعتراف بوجود فضائل إيجابية، ويظهر أنه اضطرَّ رغم أنفه في النهاية إلى تعديل حكمه، بينما العناية وعدم المحاباة اللتان وضَّح بهما جميع النقط بالتفصيل، جيِّدها وسيِّئها على حد سواء، تكوِّنان مادة لتقدير ملائم كتقدير كروازيه.

٦

محتويات خطَبه

نختم هذا الباب بإيضاح مختصر لموضوع خطبه الثلاث:

الخطبة الأولى: ضد تيمارخوس

تبدأ هذه الخطبة (الفقرتان ١–٢) بذكر بواعث المدَّعي، والفقرة الثالثة تبيِّن الموقف الذي ينوى اتخاذه؛ إن تيمارخوس، بكسره القوانين قد سبَّب رفع هذه الدعوى. وتقرأ القوانين الخاصة بذلك الموضوع وتناقش مناقشةً كاملةً (الفقرات ٤–٣٦).

وهذه الحقيقة القانونية، بصرف النظر عن هذه القضية بالذات، تدعم مركز المدَّعي أكثر ما لو بدئت الخطبة بسرد الوقائع.

الفقرات ٣٧–٧٦. التهمة الأولى «سوء السلوك». سرد لحياة تيمارخوس الخاصة تتخلَّله البراهين والأدلة على عدم كفاءته السياسية.

[٧٦] وقد استطاع مومسن Mommsen (الكتاب الرابع، باب ١٢، الصفحتان ٦٠٩–٦١٠ من الطبعة الإنجليزية لعام ١٨٨٧م) أن يكتب عن شيشرون: «لم يكن لدى شيشرون أي اتهام أو عاطفة، فلم يكن سوى محام، ومحام غير مجيد …» «وإذا كان في الأمر غرابة، فإنها في الحقيقة، ليست في الخطب وما تحدث من أثر غريب.»

الفقرات ٧٧–٩٣. أمثلة لعدم كفاءته مبنية على أسس أخرى، سابقات للحكم بحسب ما يعرف عن الشخص عامة، حتى ولو كان بالدليل عيوب.

الفقرات ٩٤–١٠٥. التهمة الثانية «تبذير تيمارخوس». السرد والدليل على تبذيره.

الفقرات ١٠٦–١١٥. التهمة الثالثة «فساد حياته العامة».

الفقرة ١١٦. التلخيص.

الفقرات ١١٧–١٧٦، توقُّع الدفاع.

الفقرات ١٧٧–١٩٥. الخاتمة، يسبق الإعلان عنها (في الفقرة ١١٧) كحضٍّ على الحياة الفاضلة.

الفقرة ١٩٦. خاتمة قصيرة: «لقد أوضحت تعليماتي حسب القانون، وفحصت حياة المدَّعى عليه، وإني لأنزل الآن تاركًا الأمر بين أيديكم.»

الخطبة الثانية: عن السفارة

اتَّهم ديموسثينيس أيسخينيس بخيانة الوطن، ويلاحظ أن خطبته كانت في الحقيقة عن السفارة الثانية فقط، والحوادث التي نجمت عنها في أثينا، ولو أنه يشير إلى بعض وقائع السفارة الثالثة، ويقول إن أيسخينيس قد فسد حتى قبل السفارة الثانية. ولا يتَّبع ترتيبًا تاريخيًّا، وبذا يتعسَّر تتبُّع قصته. أما أيسخينيس فواضح جليٌّ، يتناول جميع الحوادث في ترتيب تاريخي، غير أن في ذلك تمويهًا، فلكَي يصرف الانتباه عن المدة التي كان خلقه فيها مدعاةً للتساؤل، يقضي وقتًا غير مناسب في وصف السفارة الأولى التي لا يتهمه ديموسثينيس فيها بشيءٍ ما.

(الفقرات ١–١١) المقدمة، وتحوي استعطافًا قويًّا لطلب استماع دون تحيُّز.

(الفقرات ١٢–٣٩) السفارة الأولى إلى فيليب، وهي موضوع سرد ممتع على حساب ديموسثينيس.

(الفقرات ٤٠–٥٥) عودة السفراء وتقاريرهم ... إلخ.

ولا يظهر نفس الوضوح في باقي الخطبة؛ فقد كان على أيسخينيس أن يدافع عن عدة تهمٍ وجِّهت ضده، فلا يكفي لذلك سرد بسيط. وكانت التهم الرئيسية أن أيسخينيس كان مأجورًا من فيليب، وأنه خدع الشعب عن نوايا فيليب، وبذا ساقهم إلى أعمال كانت وبالًا عليهم.

لم يستطع ديموستينيس إثبات التهمة الأولى مهما كانت شكوكه قوية؛ فإن وقائع صلح فيلوكراتيس، وتأخير إصلاح الاتفاق مع فيليب، لم تكن جديدة على الشعب، بل كان يعلمها الجميع، ولكن المسألة كانت فقط إما حسن النية وإما سوءها. وكان دفاع أيسخينيس أنه خدع الشعب لأنه هو نفسه كان مخدوعًا، وهذا اعتراف بسلامة النية وعدم الجدارة. ولم يكُن السرد مستمرًّا؛ إذ اختلطت فيه إلى حدٍّ ما تفاصيل السفارة إلى فيليب، والسفارة إلى الأركاديين، وحتف كيرسوبلبتيس.

وهناك أيضًا إشارة إلى بعض تهم معينة، كقضية السيدة الأولونثية، وإفشاء البيان، وما إليهما، ولا يوجد أي دفاع في هاتين القضيتَين الأخيرتَين، وإنما محاولة لتبريرهما (الفقرات ٥٥–١٧٠). وتبدأ الخاتمة ببيان تاريخي للشئون الأثينية، وذلك البيان إما مسروق من أندوكيديس، وإما من كتاب عام شهير، ويشمل الطلب العادي بحماية المتكلم من كيد خصومه.

وينتهي مناديًا يوبولوس Ebulus وفوكيون.

Phocion ليتكلَّما عنه (الفقرات ١٧١–١٧٨).

لقد شددنا الضغط في هذه الصفحات على الأبواب المفككة الحلقات الخاصة بالتهم الرئيسية، ولا ننكر أن الدفاع كان غامضًا أحيانًا، حتى ليظهر أن أيسخينيس لم يكن يهدف إلى تفنيد التهم بل إلى التهرُّب من الاتهام. وتبدو هذه العيوب عند التحليل، أما إذا أخذت الخطبة في جملتها فإنها قطعة محاماة رائعة، تجمل تبرئة المتكلم أمرًا واضحًا.

الخطبة الثالثة: ضد كتيسيفون

تبدأ الخطبة بمقدِّمة عادية مبتذلة، مؤلفة على أسلوب أندوكيديس، عن لؤم ومهارة خصوم الخطيب، وثقته هو بالقانون. ويقترح أيسخينيس إثبات عدم شرعية إجراءات كتيسيفون وكذب أقواله، وضرر أفعاله. (الفقرات ١–٨).

التهمة الأولى: «عدم شرعية اقتراح منح ديموستينيس تاجًا؛ لأن ديموستينيس كان في ذلك الوقت عرضةً للمحاسبة εὔθυνα (الفقرات ٩–١٢). وجميع الأقوال على خلاف ذلك، رغم أن الرجوع إلى القانون يثبت قطعًا أن ديموستينيس كان عرضةً لها.» (الفقرات ١٣–٣١).

التهمة الثانية: «ليس من الشرعي أن يعلن موضوع التاج في المسرح». (الفقرات ٣٢–٤٨).

التهمة الثالثة: «بطلان الأقوال التي قدَّم الاقتراح بناءً عليها، تلك الأقوال التي تنصُّ على أن النصيحة العامة والأعمال العامة لديموسثينيس، كانت لصالح الشعب.» (الفقرة ٤٩).

وقد عولجت التهمتان الأوليان بالحجج القانونية، التي يظهر فيها أيسخينيس كالعادة، مقدرة بالغة. والجزء الثالث والأطول من الخطبة (الفقرات ٤٩–١٧٦) أقل إجادة. فيقترح الخطيب ترك الحياة الخاصة لخصمه جانبًا، ولو أنه يشير إلى إمكان استنتاج عدة وقائع للبرهنة على عدم قيمتها العامة (الفقرات ٥١–٥٣)، وأنه يجدر التعرُّض فقط لسياسته العامة؛ فيتناول ذلك في ترتيب تاريخي، وبالتطويل، ويشرح عدة مناسبات كانت فيها سياسة ديموسثينيس وبالًا على أثينا. وكانت الحجج الكثيرة المبعثرة خلال السرد تافهة في طبيعتها، وتشمل أحيانًا استنادات إلى الخرافات. مثال ذلك، عندما يخبرنا أنه قد أرسلت جيوش إلى خايرونيا رغم عدم تقديم الذبائح اللائقة، ويحاول إثبات أن ديموسثينيس هو المذنب ἁλιτήριος الذي من أجله يجب أن تعاني المدينة بأسرها.

وإذا ما تناولناها بالتفصيل، نجد أن بعض هذه الفقرات مثير للعواطف، ولكن ضعفها كلها هو أن أيسخينيس نفسه لم يعلن أية سياسة جدية أو منظمة. ويشمل هذا الجزء بعض شذوذ، حسب ذوق ذلك الوقت، في كلامه عن عائلة وأخلاق ديموسثينيس.[٧٧]

وتحوي الفقرات ١٧٧–١٩٠، إشارات إلى قدامى الأبطال عن طريق المقارنة المثيرة للحسد.

والفقرات ١٩١–٢٠٢، فساد الإجراءات في المحاكم.[٧٨]

والفقرات ٢٠٣–٢٠٥، التلخيص.

والفقرات ٢٠٦–٢١٢، اتهامات أخرى لديموسثينيس.

والفقرتان ٢١٣–٢١٤، عن كتيسيفون.

وتتناول الفقرات ٢١٥–٢٢٩، أصلًا تفنيد الاتهامات ضد أيسخينيس.

الفقرات ٢٣٠–٢٥٩، مناقشة عامة أخرى لعدم شرعية إجراءات ديموسثينيس وعدم أحقيته. وخاتمة مرافعته نداء إلى الماضي: «ألا تظنون أن ثيميستوكليس Themistocles

---

[٧٧] مثال ذلك، خاصة، الفقرات ١٧١–١٧٦ التي ذكر جزء منها في صفحة ٢٠١.

[٧٨] ذكرت في صفحة ١٩٩.

والأبطال الذين سقطوا في ماراثون Marathon وبلاتيا، وقبور أسلافنا، ستتأوَّه عاليًا، إذا ما مُنِح تاجٌ لشخص يتفق مع البرابرة على خراب اليونان؟» ثم ينتهي بغتة وبشكل يثير الضحك متوسِّلًا إلى «الأرض والشمس والفضيلة والذكاء والتعليم، التي نميِّز بها بين ما هو نبيل وما هو وضيع.» فتُذكِّرنا هذه الخاتمة بالتوسُّلات التي فاهَ بها يوربيديس Euripides عن لسان أريستوفانيس.[٧٩]

[٧٩] الضفادع Frogs، ٨٩٢: αἰθὴρ ἐμὸν βίστημα, καὶ λώττης στροφίγξ, καὶ ξύνεσι, etc.

الفصل التاسع

ديموستينيس

١

المقدمة

لن يتقدَّم فن البلاغة بعد إيسوكراتيس، الذي بالإضافة إلى أسلوبه المتقن كل الإتقان الذي يمكن أن تحقَّقه البراعة الفنية، قد لقَّن تلاميذه العديدين فن تأليف جمل متفقة النغمات، وربطها مع بعضها البعض في عبارات موزونة، فكل طامح صغير إلى الشهرة الأدبيَّة، يستطيع الآن أن يتعلم منه كيف يكتب نثرًا سلسًا سهلًا، كان يتعذَّر على ثوكوديديس وأنتيفون. وإذا بدا الأسلوب في بعض المناسبات بالغ الدقة حتى يصبح موضوع الخطبة ذا مرتبة ثانوية؛ فليس ذلك خطأ الفنان بقدر ما هو خطأ المتكلم. لم يكتب إيسوكراتيس قط بحرارة شديدة؛ فقد صدرت أعظم أعماله بعد دراسة وروية، وهو هادئ رزين، لا يتعجَّل في كتابته، بل يكتب بعد تفكير عميق حتى يكون قوة حيوية حقيقية.

ولكن ديموستينيس ومعاصريه كانوا على نقيض ذلك؛ فقد شغلوا بالسياسة بتحريض من شعور الحزبية القوي، فتسلَّطت عليهم العاطفة الشخصية، نتيجة للموقف السياسي. وكان لمثل ذلك الشعور أثر قوي في ظهور حكومة الثلاثين الأوليجاركية في أثينا، حتى إنه عندما تحاربت أثينا وجميع بلاد الإغريق، ليس ضد الأوليجاركية، بل ضد إمبراطورية ملك قاهر، تحرَّكت الأعماق.

وكان نشر الخطب السياسية من المظاهر الجديدة في ذلك العصر؛ فمنذ عصر أول الخطباء — أنتيفون — يحفظ كاتبو الخطب logogaphoi خطبهم كتابة. وقد أُلقيَ معظم تلك الخطب في قضايا صغيرة ذات أغراض شخصية بحتة، ولو أن بعض الخطب التي كتبها لوسياس وآخرون، تشير مباشرة إلى شئون سياسية.

ومن أنواع الخطب الأخرى التي حفظت، خطب الظهور epideictic، وهي خطب أعدَّت لتُلقى أمام المجامع العظيمة، كمجامع الأعياد الدينية والجنازات العامة. لقد كان

إيسوكراتيس مبدعًا في كتاباته لدرجة أنه يستطيع أن يكتب في شكل خطب ما هو في الحقيقة معاهدات سياسية، بَيدَ أن هذه قد أُلِّفت لتُقرأ فقط ولم يُقصد إلقاؤها مطلقًا.

هناك تنوع في أعمال معاصري ديموستينيس؛ فبعض الخطباء أمثال ديماديس Demades وفوكيون Phocion، لم ينشروا أية خطَب، ويظهر أنهم نادرًا ما كانوا يُعدُّونها قبل إلقائها، معتمدين على مهارتهم في الارتجال. بينما غيرهم أمثال أيسخينيس ولوكورجوس وديناركوس Dinarchus، قد نقَّحوا ونشروا خطبهم القضائية، لا سيما ما كان منها ذا صبغة سياسية. وفي بعض الحالات قدَّم هوبيريديس وديموستينيس إلى العالم، زيادة على ذلك، تراجم منقَّحة لخطَبهم العامة.

لم ينشر ديموستينيس أمثال هذه الخطب دائمًا؛ لأن هناك فترات طويلة من حياته السياسية لم تمثَّل بأعمال تحريرية، ولكن يظهر أنه كان يرغب في عمل سِجل دائم لخطَب معينة تحوي شرح سياسته، حتى إن من لم يسمعه يخطب، أو من لم يستطع الإلمام بكل أقواله، يمكنه أن يجد فرصة ثانية لدراسة آرائه بعد أن مر تأثير فصاحته. ومن المحتمل أن معظم الخطب التي نشرت بهذه الطريقة كانت في عصر لم يكن لحزبه فيه أي نفوذ في الحكومة، فكان على المعارضة أن تقوِّي خطابتها بالتسجيل.

كانت النتيجة بالغة الأهمية من جهتَين؛ فالخطابة مصدر خطير للأدب، عظيم القيمة في دراسة تقدُّم النثر الإغريقي، وكذلك لها قيمة تاريخية أعظم، لأنها رغم عدم الوثوق بها في بعض التفاصيل؛ فإنها تكوِّن مادة رائعة لفهم الموقف السياسي، وأغراض ومبادئ الحزب المناهض للمقدونيين.

٢

حياته

ولد ديموستينيس الخطيب في أثينا عام ٣٨٤ق.م. وكان والده ديموستينيس صانع سيوف من أثرياء دائرة باينيا Paenia الانتخابية، وكانت أمه ابنة رجل أثيني يُدعى جولون Gylon، ترك أثينا بسبب تهمة خيانة الوطن، بعد الحرب البيلوبونيزية، واستوطن بجوار «كريميا Crimea»،[١] وتزوج امرأة ثرية من تلك المنطقة، ولا نعرف عنها زيادةً على ذلك إلا

[١] يقول أيسخينيس (كتيسيفون، فقرة ١٧١) ἀφικνεῖται εἰς Βόσπορον وهو قول غامض نظرًا لوجود عدد كبير من الـ Βόσποροι أما حقيقة تسميته المرأة Σκυθίς فدليل، فيما يبدو، على أنه يقصد كريميا.

ما وصفها به أيسخينيس من أنها سكوثية Scythian، ويجوز أنها كانت من أصل هيليني. وحتى بلوتارخوس نفسه يشك في تأكيد أيسخينيس من أنها كانت بربرية، وقد كانت تلك الشبهة كافية لأيسخينيس كي يستطيع تلقيب عدوه برجل سكوثي يتكلم الإغريقية.

مات ديوسثينيس الكبير تاركًا ابنه في السابعة من عمره، وبنتًا عمرها خمس سنوات. وفي وصيته أقام عليهما أوصياء، ابنَي أخيه أفوبوس Aphobos وديموفون Demophon، وصديقًا يدعي تريبيديس Therippides. وتبعًا للتقاليد الآتيكية كان على الأوَّلَين أن يتزوَّجا الأرملة وابنتها؛ إذ كانا أقرب الناس إليهما، بَيدَ أن ذلك لم يحدث. وفي أثناء المدة التي كان فيها ديموستينيس قاصرًا، خرَّب الأوصياء مصنع السيوف بسوء إدارتهم، وبدَّدوا كل ما جُمع من الأرباح.

ولَّما بلغ ديموستينيس الثامنة عشرة من عمره بعد أن ربَّته أمه، طلب وضع يده على أملاك والده؛ فحاول الأوصياء إحباط مسعاه بعدة طرق، ومضت مدة ثلاث سنوات في محاولات للصلح ونظر الدعوى أمام بعض القضاة العُرفيين. وفي أثناء تلك المدة كان ديموستينيس يدرس البلاغة وإجراءات القضاء على يد إيسايوس، الذي تَدين إلى طرقه كثيرًا خطَب ديموستينيس المبكرة، حتى لاحظ أحد المعاصرين «لقد التَهم إيسايوس بأكمله.»[٢] وأخيرًا عندما بلغ الحادية والعشرين ساعده الحظ في تقديم دعواه أمام المحكمة، وبفضل تدريب إيسايوس استطاع أن يترافع بنفسه في دعواه وكسبها. ولَّما كان خصومه ماهرين؛ فقد ساعدتهم مهارتهم في أن يشغلوه في إجراءات قانونية أخرى استغرقت حوالي سنتَين أخريَين، وأخيرًا كسب القضية. غير أنه حين استولى على ميراثه، لم يكُن قد بقي منه إلا القليل.

ولَّما اضطر إلى إيجاد وسيلة يكسب منها قوته، اتخذ صناعة كتابة الخطب وظل يمارسها معظم حياته.[٣] وقد كتب خطبًا ليستعملها غيره كما صنع والده سيوفًا لغيره، وقد أجاد مهنته كوالده، ونجح في مهنته الجديدة في تعويض ثروته التي بدَّدت.

---

[٢] بوثياس Pytheas، ذكره ديونوسيوس.

[٣] الخطب الأخيرة الخاصة التي يُشكُّ في صحتها، تاريخها عام ٣٤٦ أو ٣٤٥ق.م. ولكن غيرها مثل «ضد فورميو Phormio» التي لم يتساءل عن صحتها في العصور القديمة، يرجع تاريخها إلى سنة ٣٢٦ق.م. ثم أصبحت صحة «الفورميو» بعد ذلك محتملة.

وعلاوةً على صنعه أسلحة لغيره؛ فقد لقَّن تلاميذه فن البلاغة. ويظهر أنه ترك تلك المهنة بعد عام ٣٤٥ق.م. عندما بدأت الأعمال تتطلَّب جلَّ نشاطه.[٤] ومن ذلك الوقت فصاعدًا، عمل سيفًا واضحًا من صنعه هو نفسه.

ويقال إنه حاول وهو لا يزال صبيًّا غضَّ الإهاب، أن يتكلم في مجلس الشعب «الإكليسيا»، غير أنه فشل؛ فقد كان صوته ضعيفًا جدًّا، وإلقاؤه غير كامل، وأسلوبه غير ملائم. ولكن الفشل شحذ عزيمته ليتمرَّن حتى يتغلَّب على عيوبه الطبيعية، وكلنا يعلم قصص خطابته وقد وضع الحصى في فمه، وتسميعه الخطب وهو يجري صاعدًا التل، ودراسته في كهف على شاطئ البحر؛ حيث حاول جعل صوته مسموعًا أكثر من خرير الأمواج الصاخب.

وقد مكَّنه ذلك التمرين من أن يتغلَّب لدرجة كبيرة، على أية عيوب كان يشكو منها، بَيدَ أنه لم تكن له ميزة صوت وإلقاء أيسخينيس. وتمثِّله الأساطير التي كانت شائعة في عصر بلوتارخوس، منهمكًا في دراسة خير كتَّاب النثر. وتقول إحدى الروايات إنه نقل تاريخ ثوكوديديس ثماني مرات، وخليق بنا ألا نقبل رواية كهذه، ولكن من المسلَّم به أنه درس أسلوب ذلك المؤلف دراسة مستفيضة.

ويحتمل أنه لم يكن تلميذًا لإيسوكراتيس أو أفلاطون، غير أنه تعلم عن الأول كثيرًا من طرق تأليف النثر والنظم. أما عن أعمال الأخير، فرغم أنه كان يخالف المبدأ العظيم لأفلاطون، في أن ذلك الرجل العظيم كان يتجنَّب المجامع الشعبية Agora ودور القضاء، إلا أنها أوحت إليه بكثير من الآراء الكريمة التي كانت أساس سياسته.

ومن دراسة بعض الفقرات، كالبحث الميلي Melian وغيره؛ حيث يسند المؤرِّخ أساس العدالة إلى حق الأقوى، يحتمل أنه كان يعود إلى ما يرتاح إليه ضميره من المناقشة الأكثر نبلًا، وهي مناقشة العدالة في الجمهورية. وفي الحقيقة إن رأي ديموستينيس عن الصواب والصالح أقرب إلى الفيلسوف منه إلى المؤرِّخ.

قد يتخصص محترف كتابة الخطب، في أثينا، في نوع معيَّن من القضايا، وبذا يحصر اختصاصه فيصبح خبيرًا حقيقيًّا في نوع خاص، كما فعل إيسايوس مثلًا في محاكم

[٤] أيسخينيس (عام ٣٤٥ق.م.) في خطبة «تيمارخوس»، الفقرات ١١٧، ١٧٠–١٧٥ تشير إليه كمدرِّس. وفي السفارة (٣٤٣ق.م.) لا توجد أية إشارة إلى هذه المهنة.

الوصايا، وإلا كان يمكنه أن يشتغل بالقضايا العامة. فمثلًا قد يحدث نزاع بين أحد المزارعين وجارٍ له على الحدود، أو خسارة سببها فيضان المياه السطحية؛[٥] وقد يطلب أحد المواطنين الوادعين، تعويضًا من الحكومة في قضية اعتداء لم يستطع أو لم يودَّ مقابلته بالمثل؛[٦] وقد يرغب ضامن خدع في صفقة بحرية كاذبة، في أن يقدِّم محتالًا آخر إلى القضاء.[٧] بَيدَ أنه بجانب هذه القضايا الخاصة، سواء أكانت قضايا مدنية،[٨] أم قضايا جنائية عملية إن لم تكن جنائية فنية، يوجد عمل أكثر أهميةً لكاتب الخطَب Logographos.

قد ترغب الحكومة في محاكمة موظف أساء استعمال الثقة الموضوعة فيه. فعندما تندر الأمانة عن المهارة، توجد الحاجة إلى تعيين مدَّع يتوافر فيه الإخلاص أكثر من الكفاءة القضائية. وإن مثل ذلك المدَّعي لفي حاجة إلى مساعدة فنية، وقد شغلت هذه الحاجة بعض الخطب السياسية المبكرة لديموستينيس، وهي الخطب ضد أندروتيون Androtion، وتيموكراتيس Timocrates، وأريستوكراتيس Aristocrates (٣٥٥–٣٥٢ق.م.).

ويلاحظ أنه ليس لدينا أي أثر من أعماله بين الخطب التي ألقيت ضد الأوصياء وأولى خطب المجموعة الأخيرة هذه. ويحتمل أنه قضى بعض هذه السنين العشر في الدراسة، والبعض الآخر في الإشراف على قضايا المبتدئين. ولا بد أن يكون قد كوَّن شهرة بالتدريج في ذلك الوقت، ولكنه لم يودَّ أن يحتفظ بأي سجلٍّ لأعماله المبكرة التي ربما لم تبد له أنها تليق بشهرته في أوج مجده في المحاماة.

من المستحيل أن نبالغ في أهمية هذا النشاط المتنوِّع، في مستقبل ديموستينيس، فلا بد وأنه قد ألمَّ بعدة فروع من القانون في خلال سنواته المبكرة، فقد كان على علاقات ودية بشخصيات من جميع الطبقات، وبجميع ألوان الآراء السياسية؛ فلكي يكون ذا فائدة

---

[٥] ضد كاليكليس Callicles.

[٦] ضد كونون Conon.

[٧] الخطَب ضد زينوثيميس Zenothemes، ولاكريتوس Lacritus، وديونوسودوروس Dionysodorus، وفورميو.

[٨] مثال ذلك الخطبة ضد بويوتوس Boeotus.

لغيره في القضايا السياسية، لا بد وأن يكون قد أمعن في دراسة السياسة، وإن لمثل هذه الدراسات أهمية عظمى في التعلم السياسي، ولا بد أن تكون آراؤه السياسية قد تكوَّنت بالتدريج بوساطة القضايا شبه الشعبية التي اشتغل بها، ولو أنها لم تكُن لحسابه، وربما لم تتفق دائمًا مع معتقداته.

وفي عام ٣٥٤ق.م. وهو العام التالي لمحاكمة أندروثيون، ظهر ديموستينيس بنفسه أمام المحكمة موكَّلًا من كتيسيبوس Ctesippus في قضية ضد لبتينيس Leptines كانت لها أهمية سياسية. وبعد ذلك ببضعة شهور، تقدَّم إلى المجمع ليلقي خطبته «عن السوموريين Symmories»، لحقتها بعد مدة وجيزة خطبة شعبية أخرى «بالنيابة عن أهل ميجابوليس» (٣٥٣ق.م.) وبعد ذلك بسنتين تقدَّم إلى الأمام، لا كمجرد محامٍ، بل كمستشار للشعب، ثم بدأ مجموعته العظيمة من الخطب الفيليبية Philippics.

وتنقسم حياته طبيعيًّا من تلك النقطة فما بعدها إلى ثلاث حقبات: الحقبة الأولى من ٣٥١–٣٤٠ق.م. وكان مناهضًا للحزب القوي في أثينا، وتتميَّز الفترة الأولى لهذه الحقبة ببعض خطب شهيرة، وهي الفيليبية الأولى First Philippic، والثلاث خطَب الأولونثية Olynthiac الأولى (٣٥١–٣٤٩ق.م.) وحتى ذلك الوقت لم يُدرك الأثينيون أهمية ازدياد القوة المقدونية؛ فقد كان بعد ثماني سنوات فقط من تولِّي فيليب العرش، أن قام بعمله العظيم من توحيد أجزاء المملكة التي مزَّقتها الحرب الأهلية، وخلق شعور وطني؛ وتجنيد جيش. ففاز بنجاح عظيم في سنوات قلائل. فبمزيج من القوة والدهاء جعل نفسه سيد أمفيبوليس Amphipolis وبودنا Pydna في عام ٣٥٧ق.م. وفي السنة التالية وضع يده على مناجم الذهب في جبال بانجايوس Mt. Fargaeus التي أمدَّته بثروة لا ينضب معينها ومكَّنته من تحضير كثير من مشروعات مطامعه. وكانت هذه أزمةً في حياته، فقد انتشرت الرشوة التي اشتهر بها والتي وثق بها كثيرًا، على نطاق واسع.

وليس في خطب ديموستينيس المبكرة إلا إشارات بسيطة إلى فيليب إذ لم ينظر إليه كمنافس خطر على أثينا. وهناك إشارة عابرة إليه في «اللبتينيس» (٣٨٤ق.م.)[٩] ويلعب دورًا أكبر في «الأريستوكراتيس Aristocrates»، ولكنه يعامل بتهكُّم: «طبعًا تعلمون من أعني بهذا الفيليب المقدوني.»

[٩] الفقرة ٦١، بودنا وبوتيدايا Potidaea، اللتان هما من أتباع فيليب، وخصومكم. وكذلك الفقرة ٦٣.

(ἴστε δήπου Φίλιππον τουτονὶ τὸν Μακέδονα)، وهذه هي الطريقة التي كان يقدِّم بها اسمه (فقرة ١١١)، وكان يعتبر عدوًّا، إنما كان يدرج بين طبقة الأمراء البرابرة أمثال كيرسوبليتيس التراقي.

لكن فيليب لم يقنع بضم المدن والمقاطعات المجاورة له، التي كانت تسرُّ أثينا بإخلاصها؛ أمفيبوليس، بودنا، بوتيدايا، ميثوني Methone، وجزء من تراقيا. بل تدخل في شئون تساليا Thessaly التي جلبت المتاعب قريبًا من أثينا (٣٥٣ق.م.) واقترح في عام ٣٥٢ق.م. أن يمرَّ من وسط ثرموبولاي، وأن يشترك في الحرب المقدسة ضد فوكيس Phocis، ولكن أثينا تدخَّلت هنا للمرة الأولى وأوقفت تقدُّمه.

وبعد هذه الضربة القاصمة، عمد الأثينيون، رغم نشاط فيليب المتجدِّد في ترافيا وبروبونتيس Propontis، إلى الركود وعدم الاهتمام، اللذين حاول ديموستينيس عبثًا أن يوقظهم منهما.

يظهر من لغة «الفيليبية الأولى» أن ديموستينيس كان يدرك تمامًا حرج الموقف، والخطر الجسيم الذي يتعرض له مواطنوه بسبب ملاطفتهم فيليب؛ فكان يرغب في أن يشعرهم بأن الحالة، ولو أنها لم تكن ميئوسًا منها حتى ذلك الوقت، قد تصبح كذلك إذا ركنوا إلى ركودهم وجمودهم وعدم قيامهم بأي عمل، بينما يمكنهم إعادة السلام إن قاموا بعمل جِدي.

الفقرة الثانية: «سادتي، يجب علينا بادئ ذي بدء ألا نيأس من حالة شئوننا الحالية، ولو أنها في خطر؛ لأن عظم ضعفنا في الماضي سيكون قوتنا في المستقبل. وماذا أعني؟ أعني أنكم الآن في متاعب؛ لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم، وإذا ظلت الأمور كما هي، رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاقٍّ، فلا أمل في التحسين. ثانيًا، أودُّ أن تفكروا في القوة التي كانت لإسبرطة منذ أمد بعيد، والتي يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر، ومع ذلك فقد قمتم في وجه تلك القوة بشرف ونبل، ولم تحطُّوا من قدر مجد وطنكم، فواجهتم الحرب غير هيَّابين ولا متردِّدين، لعدالة غرضكم ...»

الفقرة الرابعة: «لو ظن أحدكم أن فيليب لا يُقهر، ناظرًا إلى عظم القوات التي تحت تصرفه، وإلى أن مدينتنا قد فقدت كل تلك الأماكن، لكان محقًّا في ظنه، وكان اعتقاده يستند إلى أسس، ولكن دعوا ذلك الشخص ينظر إلى أننا في وقت ما كنا نملك بودنا وبوتيدايا وميثوني وسائر تلك المقاطعة، وأن كثيرًا من القبائل الخاضعة له الآن كانت حرةً مستقلة، وكانت تفضِّل الخضوع لنا على الخضوع لمقدونيا، ولو كان فيليب قد شعر

كما تشعرون الآن، أن محاربة أثينا أمر جلل؛ لأنها كانت تملك كثيرًا من الحصون التي تشرف على مملكته، بينما لم يكن له حلفاء، لما فاز بأيٍّ من انتصاراته الحالية، ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التي ترتجفون منها الآن. ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هي إلا جوائز الحرب التي تمنح في مسابقة حرة، وأن أملاك من يغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعيًّا لمن يتقدَّم إلى الحرب مطالبًا بها، وأن من يرغب في العمل بجدٍّ وفي المجازفة قد يحلُّ محلَّ من يهمل الفرص.»

الفقرة الثامنة: «لا تظنوا أنه إله آمن في ممتلكات أبدية؛ فهناك رجال يبغضونه ويخافونه ويحسدونه، حتى بين أقرب خاصته. وإنهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجدون منفذًا في تباطئكم وإهمالكم. وإني أقول إنه ينبغي عليكم أن تخلعوا عنكم هذه العادات.»

الفقرة العاشرة: «وإذا ما سألت، متى تهبُّون من سباتكم وتقومون بواجبكم؟ تقولون: عندما يحين وقت الضرورة. وماذا تظنون في الأزمة الحالية؟ أعتقد أن أمَّة حرة لن تكون في أزمة أعظم من الوقت الذي يكون فيه سلوكها مخجلًا وعارًا عليها. أخبروني، أتريدون أن تذرعوا الطرقات سائلين بعضكم بعضًا، «هل هناك أخبار جديدة اليوم؟» وأي أخبار أخطر من أن أحد المقدونيين يسحق أثينا الآن، ويملي سياسة اليونان؟ فيقول أحدكم: «إن فيليب ميت.» ويقول آخر: «لا بل هو مريض.» وما الفرق بين هذا وذاك لكم؟ فحتى لو حدث له شيء، سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر إذا كنتم تراعون مصالحكم بالعناية التي تراعونها بها الآن. فليست قوته هي التي رفعته بقدر ما رفعه جمودكم.»

يبدأ الخطيب ببذل النصائح المطوَّلة عن قيادة الحرب، ولا يطلب منهم «قوات من الورق»،[١٠] كأخذ الأصوات في المجمع الشعبي، دون الاهتمام بالحصول على القوات أو عدم الحصول عليها — عشرة أو عشرون ألفًا من الجنود المرتزقة أو ما إليها. فهو يريد حملة صغيرة ولكنها قوية ذات جدارة، نواتها جيش من المشاة المواطنين يكون ربع الحملة كلها، وأسطول صغير قوي، ومال يسدُّ به نفقات الجيش والبحرية — وقد فات المجلس هذا الأمر — وقائد أثيني يثق فيه المواطنون.

لقد كانت هذه النصيحة معتدلة وسليمة للغاية، وربما كان ديموستينيس يعي ما يقول عندما قال: إنه يكفي في الوقت الحاضر ألفان من المشاة، ومائتان من الفرسان،

[١٠] فقرة ١٩: ἐπιστολιμαίους δυνάμεις.

وخمسون من جنود البحرية. وإن هجوم مثل تلك القوة على فيليب بعزيمة صادقة؛ ليجدِّد الجرأة في قلوب أعدائه العديدين الذين لم يخضعهم تمامًا.

هناك نقطة أخرى يتميز بها الفرق بين هذه النصيحة ونصائح من سبقه، وهي عدم تحديد حملة معينة واحدة للجيش، بل يحتفظ بقوته الأصلية لأي مدة يتطلَّبها الأمر.[١١] ويخدم الجنود مدة معينة محدودة يستبدلون عند انتهائها بجنود جدد.[١٢] والجيش الذي يقترح تكوينه غير كافٍ ليهزم فيليب دون مساعدة، ولكنه كافٍ لإحداث أثر قوي؛ فإنه يمكنهم إرسال قوة كبيرة، ولكنها لا تكون مجدية، ولا يستطيعون الاحتفاظ بها.[١٣]

وقد فشلت خطبته «الفيليبية الأولى» في إحداث الأثر المقصود، كما لم تجد كذلك الخطب الأولونثية التي تلتها. وفي سنة ٣٤٩ق.م. وجد حجة لشن الحرب على أولونثوس Olynthus التي طلبت المساعدة من أثينا.

ويظهر أن التحالف الذي سعى إليه عبثًا في سنة ٣٥٧، ٣٥٢ق.م. قد عقد الآن دون معارضة كبيرة؛ فأوفد خاريس Chares على رأس ألفي جندي مرتزق لمساعدة العصبة الأولونثية. ويحاول ديموستينيس تأكيد أهمية الموقف؛ فإن القوة التي قرروا بالتصويت إرسالها لم تكُن كافية، وكان ينبغي أن يعملوا بسرعة، فيرسلوا قوتَين من المواطنين وليس من الجنود المرتزقة، إحداهما لحماية أولونثوس، والأخرى لعرقلة أعمال فيليب حيثما وجد. ويلزم كذلك مبالغ عظيمة من المال، مشيرًا إلى أن لدى الأثينيين أمدادًا حاضرةً من الأموال. ويشير إلى قرض الأعياد (θεωρικόν) Festival Fund، ولكنه إزاء ذلك يجد نفسه في موقف دقيق. فقد كان الحكم لوزارة يوبولوس Eubulus، وقد أصدر يوبولوس قانونًا بأن أية محاولة لإفساد الـ (θεωρικόν) تُعَد جريمة. ولمَّا كان ديموستينيس أحد الأقليات الضعيفة؛ فإنه كان يتحرك بحذر، مقترحًا أن الحاجة تقضي بتغيير الإدارة، ولكنه لا يقترح أية حركة معينة.

هناك فرق ملحوظ بين نغمة الخطبتَين الأوليَين والخطبة الثالثة؛ فيصر ديموستينيس في الأوليَين على أنه لا يزال كل شيء في حاجة إلى الإنجاز، غير أنه يشير إلى أن هناك عدة

---

[١١] الفقرة ١٩: ... ἢ συνεχῶς πολεμήσει ... δύναμιν.

[١٢] الفقرة ٢١: χρόνον τακτὸν στρατευομένους, μὴ μακρὸν τοῦτον ἀλλ᾽ ὅσον ἂν δοκῇ καλῶς ἔχειν, ἐκ διαδοχῆς ἀλλήλοις.

[١٣] الفقرة ٢٣: οὐ τοίνυν ὑπέρογκον αυτήν (οὐ γὰρ ἔστι μισθὸς οὐδὲ τροφὴ), οὐδὲ παντελῶς ταπινὴν εἶναι δεῖ.

نقط ضعيفة في تسلُّح فيليب، وأن سياسة الاتحاد القوية قد تستطيع قهره. أما في الخطبة الثالثة فيوضح أنه قد سبق السيف العذل، وضاعت الفرصة بعد أن كانت مواتية، ولا يمكن استرجاع الأراضي التي امتلكها فيليب إلا بوسائل قوية مستميتة. ويقترح صراحة تحويل قرض الأعياد إلى عدد حربية لأن ذلك هو الموضوع الأساسي للعمليات، الذي تنصبُّ عليه كل حجَّة بدورها.[١٤]

كانت جهود أثينا فاترة وغير كافية؛ فسقطت أولونثوس ومدن الحلف الخالكيدي Chalcidian League الأخرى في السنة التالية (٣٤٩ق.م.) فدمَّرت وأخذ جميع السكان عبيدًا. وقد فشلت كل المحاولات في توحيد الولايات البيلوبونيزية ضد العدو؛ فبدأت المفاوضات بين فيليب وأثينا. وقد باشر بعض الخاصة تلك المفاوضات بصفة غير رسمية في أول الأمر، ولكن في عام ٣٤٧ق.م. أرسل وفد إلى فيليب تبعًا لاقتراح فيلوكراتيس. وتسلم رد فيليب سنة ٣٤٦ق.م. وفيه يطلب استثناء فوكيس Phoces وهالوس Halus من المعاهدة المقترحة، وقد عارض ديموستينيس في هذه النقطة بينما وافق عليها أيسخينيس. ثم أرسل وفد آخر فوقَّع على صلح فيلوكراتيس الموصوم بالعار، وكانت النتيجة خراب فوكيس.

وعلى الرغم من أن ديموستينيس أظهر عدم موافقته على ذلك الصلح، في السنة التالية في خطبته «عن السلم»، إلا أنه نصح الأثينيين بتنفيذ شروطه، قائلًا إنَّ نقضه يجرَّ عليهم بلاءً أعظم.

ونتيجة لذلك الصلح تمكن فيليب من عقد المجلس الأمفيكتيوني Amphictyonic Council وطلب التصويت على إدانة فوكيس؛ فاندحرت اثنتان وعشرون مدينة، وانتقلت الأصوات الفوكية في المجلس إلى جانب فيليب الذي نصِّب رئيسًا للألعاب الأولونثية أيضًا. وعلى ذلك حصل ذلك — الذي كان بربريًّا منذ بضع سنوات — على أسمى مصادقة دينية على طلبه ليكون قائد بلاد الإغريق. وقد رفضت الاعتراف به، أثينا وحدها التي اغتصب حقها، ورأى ديموستينيس أن التمسُّك بخطة العداء، قد يرمي بكل الولايات في حرب أمفيكتيونية جديدة، وأنه من الأوفق أن يستسلموا ويعتبروا تلك المعاهدة مؤقَّتة، وأنها ليست سوى فترة يقومون فيها باستعدادات جديدة.

---

[١٤] لقد فرضت أن الترتيب التقليدي للخطب الأولونثية هو الصحيح، وقد حدث نزاع شديد في هذا الأمر، ولكن م. وايل M. Weil يناقشه بوضوح في مقدمته للخطب (Les Harangues de Démosthène).

بقيت البلاد بعد ذلك في سلم اسميٍّ لمدة ستة أعوام، وسَّع فيليب خلالها نفوذه سياسيًّا. لقد عامل أثينا باحترام، إما عن مبدأ وإما عن سياسة، مشيرًا بوساطة وُلاته إلى الخدمات العظيمة التي هو مستعدٌّ لمنحها. وقد وثق كثير من المواطنين في صدق أقواله، ولا سيَّما إيسوكراتيس الذي خطب في سنة ٣٤٦ق.م. عن الشكوك التي لا أساس لها، الناجمة عن تأكيدات دعاة السوء، وهي رغبة فيليب في سحق الحرية الإغريقية.[١٥] بَيدَ أن ديموستينيس لم تخدعه تلك المظاهر قط، وكان في ذلك الوقت قائدًا بارزًا، جمع إلى جانبه قوةً لا يستهان بها من الخطباء المتحمسين أمثال لوكورجوس وهو بيريديس. وبعد أن نظم فيليب حكومة تساليا، وتحالف مع طيبة، تدخَّل في الشئون البيلوبونيزية بتعضيده مسينا Messene وأركاديا Arcadia وأرجوس ضد إسبرطة.

ذهب وفد أثيني برئاسة ديموستينيس إلى الولايات ليحذِّرها من الخطر المحدق بها نتيجةً لتحالفها الجديد، وقد كان لهذا التحذير بعض الأثر، ويظهر أن بعض الولايات أرسل وفدًا إلى أثينا. وردًّا على توكيلهم، الذي لم يحفظ منه أي أثر، ألقى ديموستينيس «الفيليبية الثانية Second Philippic». وفيها يكشف عن نفاق الملك قائلًا: «إن الخطط التي تتخذها أثينا ضد مناوراته غير كافية، فإننا نتكلم بينما هو يفعل. إننا نتكلم بأقصى ما يمكن ونتراخى عن العمل بأقصى ما يمكن؛ فكلا الطرفين جادٌّ في سبيله إلى أقصى حد، غير أن سبيله أكثر فعلًا وأعظم أثرًا (الفقرات ١–٥). فإن الشعب يقبل في الحال تأكيدات فيليب بحسن نواياه، وقد أدرك هو أن طيبة، لقاء ما أسداه إليها من معروف، ستعضده في مشروعاته المقبلة.»

«إنه يظهر الأن العطف على مسينا وأرجوس للباعث ذاته. وقد أدَّى إلى أثينا أسمى إطراء بكونه لم يعقد معها شروطًا غير مشرفة (الفقرات ٦–١٢). إن سابق أعماله تكشفه، فقد أرغم المدن البويوتية على الخضوع لطيبة؛ فلا يبدو إذَن أنه سيحرر الولايات البيلوبونيزية من سلطان إسبرطة. وهو يعلم أنه في الحقيقة يقصدكم، ويعلم أنكم تعرفون ذلك تمامًا، وهذا هو السبب في يقظته الدائمة، وتعضيده الطيبيين والبيلوبونيزيين Peloponnesians ضدكم، أولئك الذين يظنهم على درجة من الطمع بحيث يقبلون كل ما يمنحهم، ومن الغباوة لدرجة عدم تبصُّرهم بالعواقب.» (الفقرات ١٢–١٩).

[١٥] إيسوكراتيس، فيلبوس، الفقرتان ٧٣–٧٤.

وتشمل الخاتمة إدانة كل من يستحق اللوم لتسبُّبه في المتاعب الحاضرة. وإذا ما نظرنا إلى أقوال ديموستينيس العامة، نراه لا يذكر أيسخينيس ولا فيلوكراتيس بالاسم، مع أنه يقصدهم بالذات.

ازداد نفوذ الحرب المناوئ لمقدونيا في سنة ٣٤٣ق.م. وقد اتَّهم هوميرويديس فيلوكراتيس؛ فرحل الأخير إلى المنفى وحُكم عليه بالإعدام. وفي نفس الوقت تقريبًا، أقام ديموستينيس عينه دعوى ضد أيسخينيس، استمرت ثلاث سنوات، لسلوكه ضد الوطن عندما أوفد إلى فيليب. لقد كان الموقف صعبًا لسببين؛ فإن سلوكه هو نفسه في ذلك الشأن لم يمكن تمييزه تمامًا عن سلوك أيسخينيس، وكان جلُّ اعتماد الاتهام على انتقاده للبواعث، دون أن يكون لديه فعلًا أي دليل على إثم أيسخينيس. وباعتبار الضعف الفني لقضية المدَّعي، فليس غريبًا أن يفرَّ أيسخينيس. ومن الملحوظ أكثر أنه بريء بأغلبية قليلة.

وفي سنة ٣٤٢ق.م. بدأ فيليب، الذي تضاءل نفوذه قليلًا في البيلوبونيز، بحملة جديدة على تراقيا، ووصل عام ٣٤١ إلى خيرسونيز Chersonese. ويعني امتلاك تلك المنطقة الإشراف على الدردنيل Dardanelles. ولَمَّا كانت أثينا لا تزال تعتمد على تجارة البحر الأسود Black Sea في الحصول على حاجتها من القمح؛ فقد أصبح تقدُّمه يهدِّد حياتها.

أخذ ديوبيثيس Diopeirthes، أحد قوَّاد الجنود المرتزقة، في سنة ٣٤٣ق.م. بعض الأهلين ليستوطنوا كارديا Cardia، وهي مدينة في الخيرسونيز في تحالف اسميّ مع مقدونيا. فعارضت كارديا في قبولهم، وعلى ذلك أرسل فيليب قوةً من الجند إلى تلك المدينة. وحدث أن ديوبيثيس، الذي جمع — تبعًا لتقاليد ذلك العصر — تبرُّعات من أصدقائه وأعدائه المحايدين ليقوى أسطوله، حدث أنه أغار على بعض مقاطعات ترافيا الخاضعة لنفوذ مقدونيا؛ فأرسل فيليب خطاب معارضة إلى أثينا، وطلب الملتفُّون حوله في تلك المدينة استدعاء ديوبيثيس. وألحَّ ديموستينيس في خطبته «عن خيرسونيز» في أنه لا ينبغي أن تهجر خيرسونيز في مثل تلك الأزمة، وأنه يجب الاحتفاظ هناك بقوة دائمة. ويدافع عن تصرفات ديوبيثيس بأنها كانت لدافع الحاجة. وكان من عادة الأثينيين أن يجمعوا الأصوات عن مدِّ الأجانب بالأسلحة، ولا يجمعوها عن مدِّهم بالمئونة، وعلى ذلك كان على القوَّاد أن يمدُّوا أنفسهم بالمئونة.

«يأخذ جميع القوَّاد الذين سافروا من أثينا، المال من خيوس Chios أو أروثراي Erythrae، أو من أية مدينة آسيوية يستطيعون الحصول عليه منها؛ فكل من معه سفينة أو سفينتان يأخذ مالًا أقل، بينما يأخذ أكثر من كانت معه قوة أكبر. وإن الذين

يعطون ذلك المال، كثر أو قل، ليسوا مجانين ليعطوه دون مقابل؛ فإنهم يشترون به حماية تجارتهم التي تبحر من موانئهم، والضمان ضد العدوان وحماية قوافل سفنهم، وامتيازات أخرى مماثلة. وإنهم ليخبرونك بأنهم يدفعون «تبرعات Benevolences»، كما اصطلح على تسمية تلك الأموال التي كانت تُجمع بالإكراه».

«والآن في قضيتنا الحالية، كان لدى ديوبيثيس جيش، وغنيٌّ عن البيان أن كل هؤلاء القوم سيمدُّونه بالمال. وبما أنه لم يأخذ منكم شيئًا، وليس له أي مورد خاص يدفع منه مرتبات جنده، فمن أين تظنون يحصل على المال اللازم لاحتفاظه بجيشه؟ أتمطر السماء ذهبًا؟ كلا، لا تمطر لسوء الحظ؛ وعليه إذَن أن يعيش من يوم إلى آخر مما يجمعه، وما يتسوَّله، وما يقترضه.»[١٦]

وبالإضافة إلى اشتمال الخطبة على خطة للغزو؛ فإنها تحتوي كذلك، كما يحتوي كثير من الخطَب، على اعتراف صريح بحقيقة الموقف والطعن المعتاد في جمود الأثينيين. ويحوي الجزء الختامي تحذيرًا أكثر صرامة وحزمًا من المعتاد، ويظهر أن ديموستينيس كاد ييأس من النجاح.

«فإذا فهمتم الموقف كما أوضحت لكم، واستنرتم بكل شيء؛ فقد تتحسن الأمور، أما إذا ظللتم في جمودكم، وقصر حماسكم على التفوُّه بعبارات الاستحسان وأصوات الإعجاب، والتنصُّل من العمل وقت الحاجة للعمل؛ فلا أرى أن أية فصاحة لا يعضدها قيامكم بواجبكم، تستطيع أن تقود بلادنا إلى السلامة.»[١٧]

وقد أُلقيت «الفيليبية الثالثة Third Philippic في نفس العام (٣٤١ق.م.) والموقف هو نفسه في جميع النقط الأساسية؛ إذ يعيد ديموستينيس طلب إرسال المساعدة إلى خيرسونيز، وضمان سلامة بيزنطة Byzantium، ولكنه لا يتوسع في هاتَين النقطتَين اللتَين تناولهما الخطباء السابقون.[١٨] «حقيقية، يجب علينا مساعدتهما، وأن نضع نُصب أعيننا ألا يصيبهما أي مكروه، غير أنه يجب أن ينحصر كل نقاشنا في اتخاذ التدابير ضد ذلك الخطر الجسيم الذي يهدد كيان بلاد الإغريق برمَّتها.»[١٩] وإن ذلك الرأي هو ما يميِّز الفيليبية الثالثة، ويجعلها أعظم الخطب العامة.

---

[١٦] خير سونيز، الفقرات ٢٤–٢٦.

[١٧] الفقرة ٧٧.

[١٨] الفقرة ١٩.

[١٩] الفقرة ٢٠.

وقد اقترح ديموستينيس في «خيرسونيز» إيفاد عدة سفارات، ويتوسع الآن في هذا الموضوع؛ فإن مصالح أثينا يجب أن تعرف مع مصالح بلاد الإغريق كلها، ويجب أن تعلم جميع الولايات ذلك؛ فقد وضع فيليب خططه ضد حرية جميع بلاد الإغريق مجتمعة؛ فينبغي أن تتسلَّح أثينا وتضع نفسها على رأس عصبة قوية للمطالبة بالحرية.

«وإذا ما مررت بأولونثوس وميثوني Methone وأبولونيا Apollonia واثنين وثلاثين مدينة أخرى في مقاطعة تراقيا، أراه قد خرَّبها بوحشية حتى لَيصعب على أي زائر أن يعلم أن هناك من كان يسكنها إطلاقًا. وإني لأسكت عن تدمير أمة عظيمة هي شعب الفوكيين Phocians، ولكن ماذا حلَّ بتساليا؟ إنه لم يكتفِ بتجريد المدن من حكوماتها، بل كوَّن حكومات رباعية Tetrarchies،[٢٠] حتى لا يستعبد المدينة الأخرى فحسب، بل أيضًا لتستعبد القبيلة الأخرى. ألا يحكم مدن يوبويا Euboea الآن طغاة، رغم أن هذه الجزيرة قريبة من حدود طيبة وأثينا؟ ألم يؤكِّد في خطاباته قائلًا «إنني في سلام مع من يطيعني»؟ وإن أفعاله لتؤيد وتنطبق على أقواله؛ فقد بدأ بالهجوم على الهيلسبونت، وقبل ذلك زار أمبراكيا Ambracia، وامتلك المدينة الهامة إليس Elis في البيلوبونيز، وفي الأسبوع الماضي فقط تآمر على ميجارا Megara؛ فلا اليونان ولا الممالك التي بعدها تتسع لأطماعه.»[٢١]

إن هذا الاقتباس البسيط لمثلٌ جيد حقيقي لطريقة ديموستينيس في الاستشهاد بالحجج التاريخية، ولكنه لا يعطي سوى فكرة ضئيلة عن الخطبة في مجموعها. وفي الحقيقة يكثر فيه ذكر الحوادث التاريخية الحديثة ذات الأثر الفعَّال في القضية، كما تكثر فيه المقارنات بين الحاضر والماضي.

تحلُّ هذه الاستعانة الواسعة النطاق بالأمثلة، محلَّ الحجج العقلية، ولكن تأثير كل العوامل، من الاستعانة بتحريك المشاعر والعقل، قويٌّ الإقناع.

لا بد أن يكون الخطيب نفسه قد علَّق أهمية عظمى على هذه الخطبة كوسيلة يفصح بها عن سياسته؛ إذ يبدو أنه نشر منها صيغتَين منقَّحتَين مختلفتَين، محفوظتَين في مجموعتَين مختلفتَين للمخطوطات. والصيغة الأقصر الموجودة في S (باريسينوس Parisinus)، L (لورنتيانوس Laurentianus) محذوف منها بعض العبارات، وأحيانًا

[٢٠] حكومة توزَّع السلطة فيها بين أربعة حكَّام.

[٢١] الفقرتان ٢٦–٢٧.

فقرات بأكملها، وبذا تكون أقصر من الصيغة الموجودة بالمجموعة الأخرى. ويعتقد أن الصيغة الأقصر هي الصيغة النهائية التي أراد ديموستينيس أن يحفظ عليها خطبته.[٢٢]

وتحوي «الفيليبية الرابعة Fourth Philippic» اقتراحًا بأنه يجب على أثينا أن تلجأ إلى ملك الفرس طالبةً مساعدته ضد فيليب. ويحتمل أن تكون تلك الخطبة مزوَّرةً وذات طابع غريب، ويتركَّب نحو ثلثها من فقرات مأخوذة من خطبته «عن خيرسونيز»، ويؤيد قسم منها (الفقرات ٣٥–٤٥) جمع تبرعات الملاهي،[٢٣] وهذا ما يعارض روح الخطبتَين «الأولونثية» و«عن خيرسونيز»، ولكن بعض فقراتها في أسلوب ونغمة يليقان بديموستينيس، وتتفق وآراءه.

إذَن لدينا الآن ولا شك مجموعة من خطب ديموستينيس الحقيقية، مطوَّلة بنوعٍ ما من الوسائل البلاغية. أما «الرد على خطاب فيليب» والخطبة «عن التنظيم περι συνραξεως» فهما تزويران بسيطان. وهذه تختم مجموعة الخطب الفيليبية.

ينتهي سجلنا عن خطب ديموستينيس العامة بالخطبة الفيليبية الثالثة، وذلك في اللحظة التي بلغت فيها فصاحته ذروتها. وتتعلق خطبه العظمى بأعوام المعارضة، والآن بعد نضال أحد عشر عامًا، نصَّب نفسه رئيسًا أعلى للمجمع. ولا شك في أنه كان يخطب كثيرًا بألفاظ تثير الحماسة، غير أنه إذ شغل بعمله الإداري، لم يجد متَّسعًا من الوقت أو حاجة للكتابة.

كانت السنوات ٣٤٠–٣٣٨ق.م. وقت انتعاش قوي لأثينا؛ فيبدو أن حكومة المدينة خرجت ظافرة من نضالها ضد الملكية مدة قصيرة زاهرة. وقد أوحى الحماس إلى الحزب

---

[٢٢] ناقش م. ويل M. Weil هذا الموضوع مناقشة رائعة (Les Harangues de Démosthéne) (الطبعة الثانية، صفحات ٣١٢–٣١٦). ويجدر بمن يهمه دراسة هذا الموضوع أن يقرأ حججه بإمعان، وإني لأكتفي هنا بذكر خاتمته: «سبق أن رأينا أن فقرات عديدة تنقص في L, S ولا يمكن أن تكون إلا لديموستينيس نفسه ص٣١٤. ونتيجة لهذا الفحص نوجد أمام نصَّين يتمتعان بدرجة واحدة من الثقة. وإن الإضافات والتعديلات التي تميِّز الأولى عن الثانية يجب أن تنسب إلى الكاتب نفسه» ص٣١٥. ويعتمد بلاس هذه الحجج (الخطباء الآتيكيون، ١٨٩٣م) وساندیز Sandys (١٩٠٠م) الذي يعتبر أن الصيغة القصيرة هي التي كتبها الخطيب أولًا. ويعتبر بوتشر Butcher في «ديموستينيس الطبعة الثالثة عام ١٩١١م» أن الصيغة القصيرة هي آخر تنقيح للخطيب.

[٢٣] Theoric Fund كانت تجمع في أثينا قديمًا للترفيه عن الفقراء بإدخالهم المسرح.

الوطني بجهود نبيلة فانتزعت يوبويا من نفوذ فيليب، وكوَّنت أثينا محالفة جديدة تشمل أكارنانيا Acarnania وأخايا Achaea، وكوركورا Corcyra، وكورنثة، ويوبويا، وميجارا. وقد توقَّف فيليب نفسه أمام البيزنطيين الذين طلبوا المساعدة من أثينا؛ فلم يكن طلبهم عبثًا.

أما عن الشئون الداخلية؛ فقد سُنَّ قانون جديد لبناء السفن وإعدادها، ولم يزِد هذا القانون في مقدرة الأسطول فحسب، بل ألغى مظالم اجتماعية بالغة؛ إذ جعل عبء نفقات بناء السفن على جميع الطبقات بنسبة دخلهم، وعلى ذلك ظُلم فقراء المواطنين. وحدث كذلك إصلاح أعظم من ذلك، وهو تحويل تبرعات الملاهي لنفقات الحرب (عام ٣٣٩ق.م.) وهو مشروع طالما تاقت إليه النفوس. وفي سنة ٣٣٨ق.م. عيِّن لوكورجوس لوزارة المالية، فملأ منصبه بجدارة خارقة مدة اثنتَي عشرة سنة.

غير أنه كان لفيليب عدة ميزات، وكان أشدَّ خطرًا عندما يبدو متغاضيًا عن أعدائه. فلما لم ينجح في الهيلسبونت سحب أسطوله وحمل برًّا ضد أمير سكوتيٍّ كان قد أساء إليه. ولم تؤثِّر هذه الرحلة على خططه العظيمة، وكان يسرُّ أثينا أن تفكر في إمكان هزيمته أو حتى قتله. وقد جرح فعلًا ولكنه عاد إلى مقدونيا في عام ٣٣٩ق.م. متمِّمًا ما يحتمل أنه كان غرضه الأساسي، وهو إعادة ثقة جنوده، بعد انقلابهم في المعارك الحديثة مع الإغريق.

وفي أثناء ذلك كانت الأمور تجري في اليونان في صالح خططه، ويجوز أنَّ نفوذه كان يسيطر بعض الشيء على سير تلك الأمور.

في سنة ٣٤٠ق.م. قام اثنان من أعداء ديموستينيس، وهما ميدياس وأيسخينيس، بتمثيل أثينا في المجلس الأمفيكتيوني. فيشرح أيسخينيس كيف أثار هو نفسه حماسة الأمفيكتيونيين، بدون أي باعث سياسي ظاهر سوى إرضاء حقده الشخصي؛ فأعلنوا الحرب المقدسة على لوكرانيي أمفيسا Amphissa. وكانت أية حرب بين الإغريق وبعضهم، ميزة لفيليب.

سارت الحرب الأمفيكتيونية في بطء وتراخٍ، وفي خريف عام ٣٣٩ق.م. دعا المجلس، الذي لم يزل تحت تأثير أيسخينيس، فيليب لوضع حدٍّ لتلك الأمور. وكان الملك قد شُفي بسرعة من جرحه؛ فسرعان ما قابل بالتَّرحاب والتقبيل تلك المهمة المقدسة التي مكَّنته من احتراق تساليا وثيرموبولاي دون أن يقف في طريقه أحد. وعندما وصل إلى إلاتيا Elatea، التي كانت ذات مرة أهم مدن فوكيس ثم عُزلت، توقَّف وأخذ يحصِّنها للدفاع. فقابلت

أثينا تلك الأنباء بالدهشة والخوف، كما يصف ذلك ديموستينيس.[٢٤] فعقد اجتماع مجلس على عجل، شرح فيه ديموستينيس بالتفصيل ما دعاه إلى ذلك العمل.

كان ذلك تهديدًا لأثينا وطيبة على حدٍّ سواء، وقد بذل ذلك السياسي العظيم كل ما أوتي من فصاحة اللسان في حث الأثينيين على ترك عداءاتهم الطويلة الأمد وتقديم كل قوتهم الحربية مساعدة لطِيبة، دون أجر ودون قيد ولا شرط، ويحتمل أن يكون أعظم ظفر نالته فصاحةٌ ما، أن ديموستينيس نجح في ندائه هذا. وكان لا بد من الحرب قرُب أم بعُد أوانها، وكان شرفًا عظيمًا له أنه كان السبب في عقد التحالف مع طيبة، ولو أن نتيجته كانت وبالًا على جميع الإغريق الذين اشتركوا في موقعة خايرونيا (٣٣٨ق.م.)

وعلى ذلك كان نفوذ أثينا على الشئون الخارجية محدودًا جدًّا، ولو أنها حافظت على استقلالها؛ لأن فيليب كان عدوًّا سخيًّا.[٢٥] لقد شغل ديموستينيس نفسه بالأمور الداخلية فعهد إليه إصلاح التحصينات، فتبرع للإنفاق عليها بمائة ميناي. وقد اقترح كتيسيفون سنة ٣٣٧ق.م. منح ديموستينيس تاجًا ذهبيًّا نظير ذلك العمل. فاتَّهم أيسخينيس كتيسيفون بالقيام بحركة غير قانونية، وكانت نتيجة ذلك الاتهام إقامة قضية «التاج The Crown» الشهيرة التي ألقى فيها الطرفان المتخاصمان خطَبًا عظمى؛ ولكن القضية لم تُسمع إلا بعد ستة أعوام.

قُتل فيليب سنة ٣٣٦ق.م. فكان ديموستينيس قدوةً للابتهاج، بأن ظهر بين الجمهور لابسًا تاجًا من الأزهار مع أنه كان في حداد على ابنته في ذلك الوقت. وقد ضرب الإسكندر الأرض بالآمال العظيمة التي أمَّلت فيها مدن الولايات، ورغم أنه كان في الثانية والعشرين فقط من عمره، فقد أثبت أنه قائد أعظم وسياسي أكثر حنكة من والده.

حرَّض ديموستينيس طيبة على شقِّ عصا الطاعة، وكان الفرس يمدُّون ديموستينيس بالمال، بَيدَ أن الإسكندر سحق وخرَّب طيبة قبل أن تصلها النجدة، وأرسل إنذارًا إلى أثينا طالبًا تسليم ديموستينيس ولوكورجوس وثمانية خطباء آخرين من حزبهما، ولكن يظهر أن ديماديس توسُّط في الأمر وأنقذهم.[٢٦]

---

[٢٤] عن كورنثوس، الفقرتان ١٦٩–١٧٠.

[٢٥] يظهر أن فيليب كان يعجب إعجابًا حقيقيًّا وكان يعاملها دائمًا باحترام خارق. ولكي تدرك ذلك جيدًا، انظر هوجارث Hogarth «فيليب والإسكندر».

[٢٦] بلوتارخوس، ديموستينيس، باب ٢٣.

رحل الإسكندر إلى آسيا تاركًا الساسة الأثينيين يتنازعون حول الشئون السياسية لمدينتهم. وفي ذلك الوقت نظرت القضية العظمى التي شُغل بها كلٌّ من ديموسثينيس وأيسخينيس، وكان موضوع النزاع اسميًّا فقط؛ فقد كان في الحقيقة موضوع استعراض وحكم على الحياة السياسية لهذين الخصمين العظيمين في السنوات العشرين الماضية.

واجه كتيسيفون ثلاث تهم لخرق القانون: (١) إن القرار الذي يؤكد كذبًا أن ديموسثينيس قام بخدمة جليلة للدولة، عبارة عن إثبات وقائع كاذبة في السجلَّات العامة. (٢) ليس من الشرعي أن يتوَّج موظف لا يزال، مثل ديموسثينيس، عرضة للمحاسبة. (٣) إعلان التتويج في المسرح أمر غير قانوني.

كانت قضية المدَّعي قوية عن القسمين (٢)، (٣)، وهما النقطتان الفنِّيتان. أما القسم الأول فكان القسم ذا الأهمية الحقيقية؛ حيث إنه كان يهدف حقيقة إلى ديموسثينيس، وقد خصَّص الجزء الرئيسي من خطبة أيسخينيس عن كتيسيفون للطعن في حياة ديموسثينيس العامة. وقد أخذ منها أربع فترات:

(١) الفترة من الحرب على أمفيبوليس حتى صلح فيلوكراتيس (٣٥٧–٣٤٦ق.م.)
(٢) مدة الصلح (٣٤٦–٣٤٠ق.م.)
(٣) فترة وزارة ديموسثينيس (٣٤٠–٣٣٨ق.م.)
(٤) المدة بعد خايرونيا (٣٣٨–٣٣٠ق.م.)

وينصبُّ رد ديموسثينيس «عن التاج» أساسيًّا على دفاعه عن سياسته، تاركًا النقط الفنية التي اعتمد عليها الاتهام، في المؤخرة. ومن الملحوظ أنه عندما تناول الأعوام المبكرة، لم يحاول الاهتمام بالخطب العظمى التي حاول بوساطتها أن يؤثِّر على وطنه في ذلك الوقت، وهي الفيليبية الأولى والأوليمبيات الثلاث. وأهم ما يناقشه هو مفاوضات الصلح، ويتكلم بتفصيل أكثر عن الفترة الثانية، واضعًا جلَّ الضغط على الفترة الثالثة، تلك المدة التي كان فيها قائدًا للشعب حتى إن تقرير السياسة القومية يشمل ذكر وطنيته. ولا يشير إلى الفترة الأخيرة إلا بتلميحات بسيطة، وهي المدة منذ موقعة خايرونيا.

ليس لتلك الخطَب ترتيب تاريخي ولا تركيب منظم ظاهريًّا، بَيدَ أن خطبة التاج أعظم الخطَب الأثينية قاطبة.

لا يمكن تمثيل الخطبة بذكر مقتبسات منها، وإنما يجب قراءتها كلها حتى يمكن إدراك كنهها وتقديرها حق قدرها. ولا تفيدنا قراءة ملخَّص لها أكثر من لفت النظر

إلى غرائب تركيبها، التي يرجع سببها أحيانًا إلى طول الخطبة وتنوُّع موضوعاتها التي تتناولها.[٢٧]

(١) الفقرات ١–٨: تبدأ مقدمتها العرفية وتنتهي بدعاء حار.

(٢) الفقرات ٩–٥٢: تكذيب لادِّعاءات أيسخينيس. ويتناول هذا القسم أساسيًّا، سرد ديموستينيس نفسه لمفاوضات صلح عام ٣٤٦ق.م. ويوضح فيه أن أيسخينيس وزملاءه مذنبون حقيقةً بالخيانة في معاملاتهم مع فيليب.

(٣) الفقرات ٥٣–١٢٥: دفاع كتيسيفون، ويتعهَّد ديموستينيس بإثبات: (أ) أنه استحق أن يمنح تاجًا. (ب) أنه لا لوم على كتيسيفون من الوجهة القانونية.

ففي (أ) يلخِّص ديموستينيس حالة بلاد الإغريق إبان سنوات الصلح ويعدِّد بعدها مباشرة خدماته هو نفسه للشعب، مبرِّرًا سياسته. وفي (ب) يفحص موضوع شرعية الإجراءات، ويبرهن على أن كتيسيفون في جانب الصواب إزاء القانون.

(٤) الفقرات ١٢٦–١٥٩: طعن في أيسخينيس. ويمكننا تسمية ذلك خاتمة كاذبة، غير أنها في الحقيقة ليست سوى مداعبة في وسط الخطبة، وتتناول (أ) مولد وحياة خصمه، و(ب) على الأخص، تصرفه الذي أشعل نار حرب أمفيكتيونية.

(٥) الفقرات ١٦٠–٢٥١: يستمر ديموستينيس في مناقشة سياسته الماضية فيما يتعلق بالتحالف الطيبي، والحرب الماضية مع فيليب.

(٦) الفقرات ٢٥٢–٣٢٤: خاتمة خارقة الطول، موضوعها الرئيسي مقارنة بين ديموستينيس وأيسخينيس. وينسب الخطيب نفسه إلى المدينة التي شكَّل سياستها، حتى إنه إذا هاجمه أيسخينيس يكون قد هاجم أثينا. وتنتهي الخطبة كما بدأت بالدعاء.

٣

يحتمل أن يكون ديموستينيس قد قضى بعض السنوات التالية في كتابة خطَب خاصة لغيره، ولو أن الخطَب التي بقيت لنا من هذه الفترة مشكوك في صحتها. كذلك ظل هو شخصية بارزة في السياسة الأثينية، فلم يغيِّر آراءه، ولكن يظهر أنه اعتزل رئاسة الحزب الوطني وسلَّمها لغيره ممن كانت وطنيتهم أشد حدة من وطنيته، وعلى ذلك كان يعتبر

[٢٧] انظر كذلك هذا الباب، أول الفصل السابع.

في ذلك الوقت من المعتدلين في آرائهم، وقد يكون مركزه هو الذي أوقعه في الخطر عام ٣٢٤ق.م.

حدث في ذلك الوقت أن هاربالوس Harpalus الذي كان الإسكندر قد تركه وراءه محافظًا من قبله في بابل Babylon، عندما بلغته إشاعة بموت سيده في الهند، استولى على أموال الحكومة وأبحر إلى اليونان على رأس قوة قوامها ستة آلاف رجل، ورسا برجاله بعيدًا عن بيرايوس Piraeus، فالتفَّ حوله الوطنيون المتحمِّسون واقترحوا أن ترحِّب به أثينا وتنتفع بما معه من الأموال والرجال في شق عصا الطاعة.

عارض ديموستينيس فكرة هذا العصيان السافر ضد الإسكندر، وعند إعلانه ذلك لم يسمح للأسطول بالدخول؛ فأقبل هاربالوس وحده بدون رجاله، فسمحوا له بالدخول، ثم جاء في إثره مباشرة رسل من الإسكندر يطلبون تسليمه؛ فعارض ديموستينيس وفوكيون في ذلك. وتبعًا لآراء ديموستينيس قرَّروا مسايرة الأمور حسب الظروف، بأن يعامل هاربالوس كأسير، وتودع الأموال في بارثينون Parthenon. وقد صرَّح هاربالوس بأن تلك الأموال تبلغ ٧٢٠ تالنتًا، ولكن سرعان ما علم أنها لا تبلغ سوى ٣٥٠ تالنتًا أودعت في الأكروبول Acropolis. وفي أثناء ذلك هرب هاربالوس من معقله واختفى. فحامت الشبهات حول كل من كان يظهر عطفًا عليه. وإزاء هياج الشعب، اقترح ديموستينيس على مجلس الأريوباجوس أن يحقِّق في حادث اختفاء بقية الأموال. وبعد ستة شهور قدَّم المجلس تقريره وبه قائمة بأسماء تسعة رجال من الشعب ثبتت إدانتهم بالاستيلاء على جزء من المال المفقود. وكان اسم ديموستينيس نفسه في أول القائمة متهمًا بالاستيلاء على عشرين تالنتًا نظير مساعدة هاربالوس في الفرار.

لم يكن ذلك التقرير بمثابة حكم قضائي، ولكن ترتَّبت عليه المحاكمة وتعيين عشرة مدَّعين، وإدانة ديموستينيس. فحكم عليه بغرامة قدرها خمسون تالنتًا، ولمَّا لم يستطع دفعها أُلقي في غياهب السجن. ولكنه سرعان ما هرب إلى أيجينا Aegina أولًا ثم إلى ترويزن Troezen حيث ظل، على حد قول بلوتارخوس، يجلس يوميًّا على شاطئ البحر يرقب شواطئ أتيكا Attcia البعيدة بعيون ملؤها الحزن والحسرة.

هذا الموضوع جد غامض؛ فلا نعلم كيف دافع ديموستينيس عن نفسه، غير أن لدينا خطبتَين للاتهام؛ إحداهما لهوبيريديس، والثانية لدينارخوس Dinarchus، وهما غير واضحتَين. وقد اعتُمِد تقرير مجلس الأريوباجوس لذكره الوقائع، ولذا استُغنِي عن كل دليل آخر، فلم تكن مهمة المحكمة سوى تقدير الدوافع وتقدير درجة إثم كلٍّ من المتهمين.

يؤكد هوبيريديس[٢٨] أن ديموستينيس بدأ يعترف باستيلائه على النقود، ولكنه أنكر بعد ذلك مقرِّرًا استعداده لقبول الموت لو كان استولى على أية نقود.[٢٩] ومن المؤكد أن ديموستينيس هو الذي طلب من الأريوباجوس التحقيق في الموضوع.

هناك أمران يحيِّراننا في تلك القضية، وهما: الغرامة التي حكم بها — وهي تبلغ قدر المبلغ المستولى عليه مرتين ونصف مرة — غرامة بسيطة لو عرفنا أن القانون يقضي بأن تكون عشرة أمثال المبلغ. وثانيًا، من الصعب معرفة متى أخذ ديموستينيس المبلغ؛ فلم يتمكن هاربالوس من أن يدفع له وقت هروبه، ولا في أي وقت بعد القبض عليه؛ لأنه لم يأخذ المال معه في السجن. ويجوز أن يكون المبلغ قد دفع قبل ذلك، لأن ديموستينيس كان يعمل باستمرار ضد هاربالوس. ويظن الأستاذ بوتشر Butcher، أنه يجوز أن يكون المبلغ قد دفع إلى ديموستينيس عندما عارض في تسليم هاربالوس إلى الإسكندر.[٣٠]

لقد اقترحت نظريتان لتبرئة ذلك الخطيب تبرئة تامة أو جزئية؛ إحداهما أنه كان بريئًا تمامًا ولكنه كان ضحية جماعة من أعدائه السياسيين، وهم الوطنيون المتطرفون الذين لم ترقهم سياسته المعتدلة، والحزب المقدوني خصمه القديم. وتقول النظرية الأخرى إنه استولى على المبلغ وأنفقه، أو قصد إنفاقه في الوجوه السرية التي تنفق فيها كل حكومة بعض الأموال، ولو أنه لا يمكن عادةً إعطاء أية تفاصيل عن وجوه تلك المصروفات.

وحتى إذا لم يستطع إثبات إنفاقه الأموال في تلك الوجوه؛ فإن جريمة أخذ الرشوة جريمة بسيطة يمكن التغاضي عنها إذا لم تكن للإضرار بمصالح الدولة كما يعترف المدَّعي هوبيريديس. ولدينا دليل في صالح ديموستينيس، وهو دليل باوسانياس Pausanias الذي يؤكد أنه عندما حقَّق الإسكندر مع أحد أتباع هاربالوس في ذلك الموضوع، أفشى هاربالوس أسماء عدة أشخاص لم يكن ديموستينيس بينهم.

طلب دينارخوس إدانة ديموستينيس بتهمة الرشوة، مؤكدًا أن ديموستينيس استولى على ثلاثمائة تالنت من الملك العظيم لينقذ طيبة في سنة ٣٣٥ق.م. ولكنه ضحَّى بطيبة

---

[٢٨] هوبيريديس، ضد ديموستينيس، شذرة ٣، عمود ١٣.

[٢٩] دينارخوس، ضد ديموستينيس، فقرة ١.

[٣٠] بوتشر، ديموستينيس، الصفحات ١٢٤–١٢٧.

لصالحه هو؛ لأنه أراد الاحتفاظ بعشرة تالنتات كان الأركاديون قد وعدوا بها نظير مساعدتهم؛ ولكن هذه الرواية غير معقولة.

لمَّا مات الإسكندر عام ٣٢٣ق.م. تجدَّد أمل ديموستينيس في الحرية، فقام في الحال برحلة إلى البيلوبونيزكي يحثُّ المدن على ضرورة العمل جنبًا إلى جنب. فتصالح مع حزب هوبيريديس واستدعيَ من منفاه؛ فسافر إلى وطنه على سفينة حربية، ونزل من الميناء في موكب حتى وصل إلى المدينة. ولمَّا تمسَّك القانون بحكمه، دفع الشعب الغرامة بدلًا منه. ثم بدأت الحرب اللامية بنجاح تحت قيادة ليوسثينيس Leosthenes، بَيدَ أن أنتيباتر Antipater أباد القوات الإغريقية في موقعة كرانون Crannon؛ فاضطرت أثينا إلى قبول قوات مقدونية مرابطة، وأن تفقد دستورها الديمقراطي، وأن تسلِّم قوَّادها إلى المنتصر ليصبَّ عليهم جام انتقامه.

كان بيد ديماديس أمر بقتل ديموستينيس وهوبيريديس، ولكن ديموستينيس كان قد سبقه وهرب معتصمًا بمعبد بوسيدون Posidon في جزيرة كالاوريا Calauria؛ فلحقه إلى هناك رسول من أنتيباتر يدعى أرخياس Archias الملقب بصياد المنفى، وكان يشتغل ممثِّلًا. فحاول ذاك الرجل إغراء ديموستينيس بالوعود السخية، غير أن ديموستينيس أجابه قائلًا: «لم يحمل تمثيلك اتهامًا قط، كذلك وعودك لا يوثق بها.» عندئذٍ لجأ أرخياس إلى التهديد، ولكنه كان يضرب على حديد بارد، وردَّ عليه ديموستينيس بقوله: «الآن، تتكلم بلغة مقدونية، وما كان كلامك قبلًا إلا تمثيلًا، فانتظر قليلًا حتى أكتب بضعة سطور إلى وطني.» ولكنه غافله متظاهرًا بالكتابة، وتجرَّع سمًّا كان في طرف قلمه، وأراح رأسه على يديه كما لو كان يفكر. وعندما قدم إليه أرخياس ثانية، نظر ديموستينيس في وجهه وقال: «لقد آن وقتك لتلعب دور كريون Creon وترمي بجثتي هذه دون أن تدفنها. والآن أيها المعبود بوسيدون أترك معبدك وأنا على قيد الحياة، ولكن أنتيباتر وأتباعه.

المقدونيين لم يتركوا حتى معبدك دون تدنيس.» ثم حاول بعد ذلك أن يسير، ولكنه سقط جثةً هامدةً على سلم المذبح.»[٣١]

يروي لوكيان Lucian في «مدح ديموستينيس» رواية خيالية عن أنتيباتر، مستقيًا أخباره من أرخياس. وإليك كلماتها الختامية:

[٣١] أخذت هذه الرواية من بلوتارخوس (ديموستينيس، باب ٢٩).

«هكذا ذهب إما ليعش مع الأبطال في جزر النعمة، وإما في طريق الأرواح التي تصعد إلى السماء، ليكون روحًا مرافقةً لزوس؛ واهب الحرية، ولكننا سنرسل جثته إلى أثينا، كتذكار لتلك الأرض أنبل من الجثث التي سقطت في ماراثون Marathon».[٣٢]

٤

شهرته الأدبية

إن حكم القدماء الذي ظل مقبولًا حتى الأزمنة الحديثة، قد جعل مرتبة ديموستينيس، أعظم الخطباء. وكان له في عصره منافسون؛ فأيسخينيس كما رأينا جدير بأن يقارن به في وجوه كثيرة، وكان من معاصريه أيضًا فوكيون ذو التأثير الشخصي لوقاره ومهابته، وإخلاصه وإيجازه. «كان يستطيع التعبير عن معان كثيرة في ألفاظ قليلة». وأحيانًا كان ارتجال ديماديس العنيف أكثر تأثيرًا من مهارة ديموستينيس المصقولة. ويفضِّل أيسخينيس كلام ليوداماس Leodamas وأخارناي Acharnae، ولكن النغمة التي يقول بها ذلك فيها كثير من الاعتذار، وإن النقد اللاذع الذي كان يوجِّهه أيسخينيس باستمرار إلى خصمه ليدلَّ دلالةً قاطعةً على أن ديموستينيس كان يعتبر أول خطباء عصره.

إن الثِّقات الإغريق الذين جاءوا بعد ذلك، والذين كانوا يعرفون خطباء العصور قبل المقدونية، يعجبون بديموستينيس إعجابًا لا تشوبه ضغائن. وقد رأى فيه مؤلف السمو Sublime عدة أخطاء، وأقرَّ بتفوُّق هوبيريديس عليه في عدة نواح،[٣٣] ومع ذلك فإنه يرى في ديموستينيس صفات دينية معينة وضعته وحده في مرتبة خاصة، فهو يفوق خطباء سائر الأجيال، وإن ثورته وصخبه ليتغلَّبان على كل معارضة، ويستحيل مواجهة لآلائه المتألق دون خوف ووجل، ولكن هوبيريديس لم يخَف أحدًا قط.

ونجد ديموستينيس في عصور لاحقة يلقَّب بـ «الخطيب»، كما يلقِّب هوميروس بـ «الشاعر». وقد كتب لوكيان، الذي تستحق تقديراته الأدبية اهتمامنا، مدحًا لديموستينيس يحوي حوارًا خياليًّا بطله أنتيباتر. إنه يقدِّر ويحترم عدوَّه الميت الذي «أيقظ مواطنيه من سباتهم العميق.»[٣٤]

---

[٣٢] لوكيان، مدح ديموستينيس، فقرة ٥٠.

[٣٣] «عن السمو»، باب ٣٤.

[٣٤] فقرة ٣٦، ...

وتشبَّه الخطَب الفيليبية بالمنجنيقات والقذائف، ويروى أن فيليب اغتبط لعدم تعيين ديموستينيس قائدًا، فقد هزت خطبه عرش ذلك الملك، فما بالك لو أعطي فرصة العمل! إذَن لقلبت أعماله العرش.

وشيشرون أحد النقَّاد الرومانيين الذين يظهرون إعجابهم العظيم به، ففي عدة فقرات من «بروتوس Brutus»، و«الخطيب Orator»، يعجب شيشرون بامتياز ديموستينيس في كل نوع من أنواع الخطابة، ويعتبر أنه قد بذَّ كلَّ من عداه، ولو أنه لم يصل إلى الكمال في بعض النواحي. وإن مدح كوينتيليان Quintilian ليميِّزه بإخلاص، وفي الحقيقة يمكننا أن نقول أن العالَمَين الإغريقي والروماني قد أجمعا عمليًّا على منزلة ذلك الخطيب.

من الصعب أن نلقي نظرة عامة على أسلوب ديموستينيس، وذلك بسبب تنوُّعه، فإن لكل نوع من أنواع الخطب الثلاثة — أعني الخطب الشرعية، وخطب القضايا الخاصة والعامة، والخطب الحماسية العامة التي ألقاها في المجامع — مميزاته، ومع ذلك فإن هناك ميزات عامة يمكن ملاحظتها في جميع الأنواع.

وأولى مميزاته هي العناية الفائقة بالتأليف، ومن المعروف أن إيسوكراتيس قضى سنوات في صقل موضوعاته التي قصد جعلها نماذج دائمةً لعلم السياسة. وكان أفلاطون يكتب ويمحو فيما كتب، ثم يكتب ثانية قبل أن يطمئن إلى الصيغة التي رغب أن يخرج فيها فلسفته إلى العالم. ولكن ديموستينيس دون أن يتعب لعدة سنوات، استطاع إخراج خطب في أغراض معينة، جعلها بهاؤها جديرة بالتقدير كموضوعات أدبية عظيمة؛ هذا علاوة على قيمتها في السياسة العملية.

وهناك فكاهة شائعة عنه، وهي أن رائحة خطبه كرائحة زيت منتصف الليل، ولكنه لا بد وأن يكون ذا فصاحة طبعية حتى إنه استطاع إجادة تأليف مثل تلك الخطب العديدة. ومن جهة أخرى فقد لا تكون خطبه الباقية لنا، في الصيغة التي ألقاها بها. ويظهر أنه كان من عادة خطباء ذلك العصر أن ينشروا خطبهم التي ألقوها في القضايا الهامة، حتى يستطيع أكبر عدد من الناس أن يقرأ سجلًّا دائمًا لآراء الخطباء في المسائل السياسية أو القانونية ذات المتعة الدائمة.

ولدينا دليل غير مباشر على أن ديموستينيس اعتاد تصحيح نصوص خطَبه، ويذكر أيسخينيس بعض عباراته متهكِّمًا، ولا سيما الأمثال المبالغ فيها التي لا توجد في الخطب المحفوظة لدينا، ولو أنه من الواضح أن بعضها هو النص الحقيقي إن لم يكن النص

قد نقَّح.[٣٥] ومن الجدير بالذكر ملاحظة إيراتوستينيس[٣٦] Eratosthenes أنه كان أحيانًا يخرج عن طوره وهو يتكلم، فيتكلم كمن به مس. وكذلك ملاحظة ديمتريوس الفاليروني Demetrius of Phaleron، أنه خرج على الذوق السليم في إحدى المناسبات؛ فذكر قسمًا شعريًّا يحمل طابع الهزل، إذ قال:

«أقسم بالأرض والنافورات والنهيرات ومجاري الماء.»

لا توجد هذه الفقرة في أية خطبة باقية، غير أنه يلاحظ أن ديموستينيس يستعمل عادة أمثال تلك الصيغ التي تمثَّل عادة بالصيغة المألوفة ὦ γῆ καὶ θεοί «أيتها الأرض والآلهة» حيث إنها في الحقيقة توجد في معاصرة أيسخينيس.

من الجليِّ أن الذوق الآتيكي كان يعاني تعديلًا؛ فإن أمثال تلك المصطلحات لا توجد في الأسلوب المتجانس الموقَّر لإيسوكراتيس، ونادرة الوجود في أسلوب لوسياس الرصين، الذي كان أسلوبه نموذجًا لخطب ديموستينيس المبكرة. وتوجد في خطبه بعض المصطلحات الأخرى الخاصة بالكلام الدارج، التي قد يكون إيسوكراتيس قد تحاشى استعمالها لكونها عامية نحو ὁ δεινα شخصٍ ما وὦ ταν أي صديقي العزيز.

وتحت العنوان نفسه يأتي استعمال المصطلحات الجافة والعبارات الشخصية المستهجنة. وفي كثير من الخطب الخاصة بالقضايا القانونية العامة، يسمح ديموستينيس لنفسه على مدًى واسع بكل ما يجيزه الذوق في عصره. وفي الاستعمال الحقيقي للألقاب والصفات المستهجنة — θηρίον Κατάρατος ونحوها — لا يذهب أبعد مما اعتاد أيسخينيس استعماله، وحتى دينارخوس يفوقه في ذلك، بَيدَ أنه عند تراكم الإشارات اللاذعة إلى ما يزعم أنه أخلاق خصومه السياسيين الخاصة، ينزل إلى الإغراق في القدح المستهجن، حتى إننا لندهش كيف كان جمهور محترم من المستمعين، يحتمل ذلك ولا يسكته.[٣٧] وواضح أن الشعب الأثيني قد أحبَّ الفظاظة من أجل فظاظتها، بصرف النظر عن الأخلاق.

---

[٣٥] أيسخينيس، كتيسيفون، الفقرتان ٧٣، ١٦٦، عن السفارة فقرة ١، كتيسيفون الفقرتان ٨٤، ٢٠٩.

[٣٦] بلوتارخوس، ديموستينيس، باب ٩، ...

[٣٧] وأخص ذلك القدح في حياة أيسخينيس الخاصة وتاريخ عائلته في خطبة التاج de Corona، الفقرات ١٢٩–١٣٠، ٢٦٠. ويبيِّن المستر بيكارد كامبردج Mr. Pickard Camridge أن الأعضاء الدائمين لمحاكم القضايا، من منسوب اجتماعي أقل من منسوب أعضاء مجلس الشعب، وأن المرتب في كلتا الحالتين ضئيل بحيث لم يغر سوى المتعطلين، غير أنه إذا كان هناك باعث قوي لأعضاء من الطبقة الراقية كي يحضروا

وفي بعض الأحايين توجد في الخطب الخاصة خشونة معينة لا يمكن تحاشيها، حيث إن قضايا المحاكم البوليسية غالبًا ما تتعلَّق بالتفاصيل الدنيئة. وأحيانًا يضطر المقام إلى وصف أفعال شائنة،[٣٨] ولكن هذا أمر يختلف تمامًا عن المقدمة غير اللائقة.

لقد وضع ديموستينيس نفسه مثلًا أعلى، في الخطَب التي ألقيت أمام مجلس الشعب. ففي الأمور التي تتعلق بالسياسة العامة، لا يسمح بالتعرُّض للعداءات الشخصية، وقد راعى ديموستينيس هذه القاعدة في طول الخطب الفيليبية والأوليمبية، ولم يتعرَّض قط إلى الشخصيات تحت تأثير أي ضغط، حيث إنه لم يقدح في خصومه السياسيين، ولم يذكرهم حتى بالاسم، محافظًا بذلك على حرمة النقاش أيًّما محافظة.

٥

الأسلوب والتركيب

رغم أن ديموستينيس كان يكتب بلغة أتيكية نقية؛ فإن ديونوسيوس ينسب الفضل في الكتابة بلغة نقية تمام النقاء إلى لوسياس وإيسوكراتيس أكثر من ديموستينيس. ومن المحتمل أن ديموستينيس كان أقرب إلى الكلام الحي، وحتى في الخطَب التي ألَّفها بروية وتأنٍّ، كان يستعمل بعض المصطلحات المألوفة، نحو ὦ ταν, ο δεινα وبعض الحشو مثل νή Δία التي كان يبدو، لإيسوكراتيس أنها لا تستعمل غالبًا إلا في الروايات الهزليَّة. كذلك قد يوجد في أسلوب الظهور بعض العبارات العنيفة، مثل λαγὼ βίον ἐξῆς «لقد عشت عيشة أرنب.» أو بمعنى أصح «عيشة كلب.»[٣٩] أو العبارة المألوفة κακῶν Ἰλιάς «أربعة وعشرون كتابًا من البؤس.»[٤٠] ويظهر في أعماله بجلاء كثرة استعماله للغة الدارجة في بعض الاستعارات ذات الألفاظ الفردية مثل ἔωλα καὶ ψυχρά «قديم وبارد» (حين تستعمل في

جلسات مجلس الشعب، أو إذا ضحَّى رجال الأعمال الخيِّرون بوقتهم الثمين، دون أنانية، لصالح الدولة، فقد يكون هناك بعض ما يغري أولئك القوم في احتمال الروتين الممل لمحاكم القضايا (انظر ديموستينيس باب ٣).

[٣٨] مثال ذلك، كونون Conon، فقرة ٤.

[٣٩] عن كورنثوس، الفقرة ٢٦٣.

[٤٠] عن السفارة الكاذبة، الفقرة ١٤٨.

الجرائم)،[٤١] προδηλῶσθα «ليرفق أسفل»،[٤٢] أو تعاقب الاستعارات الظلفة حين يروي كيف تشاجر أريستوجيتون Aristogiton في السجن مع سجين آخر، «ولَّما كان مقبوضًا عليه حديثًا وطازجًا، كان خيرًا من أريستوجيتون، الذي كان قد وقع في الشبكة منذ مدة وظل مخللًا مدة طويلة، وعلى ذلك لَّما وجد نفسه أسوأ منه، أكل أنف ذلك الرجل.»[٤٣]

وهناك جرأة في استعمال مستلزمات الأشخاص، لغير العقلاء في «الصلح الذي دمَّر حوائط حلفائكم ويبني الآن بيوتًا لسفرائكم.»[٤٤] ومثل هذه التعابير:

τεθνᾶσι τῷ δέει τοὺς τοιούτους ἀποστόλους.

«يموتون خوفًا من كذا وكذا» فيها مبالغة أكثر مما يتطلَّب الأدب.[٤٥]

يبدو أن ديموستينيس كان لا يميل إلى استعمال الاستمارات في أوقات الجد، وإنه ليستعمل مثل تلك التعابير السابقة بروح التهكُّم، عندما يروي المنظر المعيب في السجن، وفي إحدى ثورات غضبه واستهجانه، يتكلم عن منافسيه السياسيين بقوله «هم شياطين مثَّلوا بجثث أوطانهم، وقدَّموا حرِّيتهم كهدية عيد ميلاد، أولًا لفيليب، ثم للإسكندر، ويقيسون السعادة ببطونهم وملاذِّهم الدنيئة.»[٤٦] ولكنه في الأوقات الخطيرة، سواء في السرد أو في الإدلاء بآرائه، نجده يتحوَّل إلى بساطة تماثل بساطة لوسياس. وإن بساطة اللغة التي يصف بها الهياج الذي أحدثه نبأ استيلاء فيليب على إلاتيا، لبساطة مثالية.[٤٧]

«إذا ظل كل فرد ساكنًا، مؤمِّلًا أن ينال بغيته دون أن يسعى لها بنفسه؛ فلا يجد أولًا من يسعى لها من أجله، وثانيًا أخشى أن نضطر إلى عمل كل ما لا نودُّه. هذا ما أقوله لكم، وهذا ما أقترحه عليكم، وإني لواثق من أننا إن فعلنا ذلك، لا بد من أن تستقيم أمورنا عودًا على بدء. وإذا كان لدى أحدكم اقتراح خير من هذا فليتقدَّم به ويبسطه، وأطلب من الله أن يسدِّد اقتراحكم لخير الوطن.»

---

[٤١] ميدياس، الفقرة ٩١.

[٤٢] ميدياس، الفقرة ١٠٥.

[٤٣] ومن جهة أخرى يعتذر عن الاستعارات بواسطة ὥσπερ أو τιτῷ ὥσπερ ἐμπόδισμά οἷον-ἧν τοῦθ᾽ Φιλίππῳ ولو أنَّ ἐμπόδισμα قد تكون الصيغة الطبيعية لعبارتنا «عقبة».

[٤٤] عن السفارة الكاذبة، الفقرة ٢٧٥.

[٤٥] فيلوكراتيس، الفقرة ٤٥، قارن τεθνάναι τῷ φόβῳ Θηβαίους عن السفارة الكاذبة فقرة ٨١.

[٤٦] عن كورنثوس، الفقرة ٢٩٦.

[٤٧] عن كورنثوس، الفقرة ١٦٩.

لا تستوي بساطة اللغة إلا بالنغمة الجدية؛ فإذا ما استعملت أبسط الألفاظ استعمالًا صحيحًا، أحدثت أثرًا بليغًا يزداد أحيانًا بالتكرار الذي يجده ديموسثينيس مفيدًا في بعض الفرص ἀλλ᾽ οὐκ ἔστιν, ὅπως ἡμάρτετε «ولكن، يقينًا، يقينًا، لم تكن مخطئًا.»[٤٨] وإنا لندرك، أنه لا بد أن كان يرفع صوته قليلًا عند لفظه الكلمة في المرة الثانية. ويحاكيه في ذلك دينارخوس أحد مقلِّديه، ولكنه يكثر من استعمال ذلك التكرار استعمالًا غير صحيح، وفي هذا وفي بعض التفاصيل الأخرى يكون أسلوبه تقليدًا غير ناجح، لأسلوب الخطيب العظيم ديموسثينيس.

يقارن ديونوسيوس ديموسثينيس بعدة كتَّاب آخرين كلٍّ بدوره؛ فلا نجد فقرات تذكرنا بأسلوب ثوكوديديس؛[٤٩] فيذكر القسم الأول من «الفيليبية الثالثة»، وبوساطة تحليلها تحليلًا تامًّا وبمهارة، يظهر أوجه التشابه. وأهم خاصية لاحظها هذا الناقد، أن ذلك الكاتب لا يقدِّم آراءه في أي ترتيب طبيعي أو تقليدي، ولكنه يستخدم ترتيبًا للألفاظ يسترعي الانتباه بتحاشيه البساطة.

فنجد جملة صلة تفصل بين الفاعل والفعل في جملة الصلة الرئيسية، بينما نظل في انتظار الأفعال في كلٍّ من جملة الصلة والجملة الأصلية. ولا يمكن إحداث ذلك الأثر الغريب الذي يلاحظه، في لغة غير متصرفة كاللغة الإنجليزية مثلًا.

وفي أحيان أخرى، ولا سيَّما في السرد، ينافس ديموسثينيس جهد طاقته لوسياس في جلائه ووضوحه. ويذكر ديونوسيوس باستحسان تام عن استحقاق العرض الزاهي للقصة التي يدور عليها أساس الاتهام ضد كونون؛ حيث تعطينا القصة صورةً ممتازةً لحياة معسكرات جنود الميليشيا Militia غير النظاميين. ويجدر بنا ذكر بعض الفقرات المقتبسة.

«ولَمَّا جنِّدنا للخدمة العسكرية منذ سنتين، سافرنا إلى باناكتوم Panactum. وقد أقام أبناء كونون في فسطاط قريب منا. ويا ليت الأمر لم يكن كذلك؛ لأن هذا كان السبب الأول في إثارة العداوة والتصادم بيننا. وسأقصُّ على مسامعكم كيف نشأ ذلك العداء. لقد اعتادوا أن يسكروا كل يوم، وطول النهار من بعد تناول طعام الإفطار مباشرة، وقد ظللوا على تلك الحال طيلة وجودنا بالمعسكر. وعلى النقيض من ذلك كنت أعيش أنا وإخوتي

[٤٨] عن كورنثوس، الفقرة ٢٠٨.

[٤٩] عن ثوكوديديس، فصل ٥٣.

كما اعتدنا الحياة في منزلنا، وعندما كان يأتي الوقت الذي حدَّدناه للعشاء، كانوا يبدون عربدتهم ومعاكساتهم كما تُهيِّؤها لهم الحمير، أولًا لخدمنا وأخيرا لنا نحن أنفسنا، قائلين إن الخدم يصعدون الدخان في وجوههم عند طهو الطعام، أو إن الخدم يعاملونهم بغير لياقة، وعلى ذلك كانوا يسومونهم ضربًا ويفرغون أواني البراز فوق رءوسهم … وفي الجملة كان سلوكهم وحشيًّا ومضايقًا من جميع الوجوه.»

«كنا نرى ذلك ونحتمل الإهانة، وقد اعترضنا عليهم في بادئ الأمر، ولكنهم سخروا منا ولم يكفُّوا عن سلوكهم الشائن؛ فذهبنا كلنا وأبلغنا الأمر إلى القائد، لست أنا وحدي، وإنما المجموعة بأسرها؛ فوبَّختهم توبيخًا عنيفًا، لا لسلوكهم المشين فحسب، بل ولسلوكهم العام في المعسكر أيضًا. وعلى الرغم من ذلك لم يرعَووا ولم يشعروا بأي عار، حتى إنهم بمجرد أن أرخى الليل نقابه القاتم، هجموا علينا وقذفونا أولًا بالسباب والألفاظ النابية، ثم أوسعوني ضربًا، وأقاموا الدنيا وأقعدوها حول الفسطاط، حتى إن القائد خرج مع موظفيه وبعض الجنود الآخرين ومنعوهم من إيذائنا، كما منعونا من الانتقام منهم.»[٥٠]

وهاك فقرة أخرى من نفس الخطبة، تعطينا صورة مماثلة لخلق المدَّعى عليه في الحياة المدنية:

«عندما قابلناهم، انقضَّ أحدهم، ولا أستطيع التعرف عليه، على فانوستراتوس Phanostratus، وأمسكه بقبضة من حديد، بينما انقضَّ على كونون وابنه ابن أندرومينيس Andromenes، ثم نزعوا ملابسي، وطرحوني أرضًا، وألقوني في الوحل، ثم وثبوا فوقي، وانهالوا عليَّ ضربًا حتى أصبحت في حالة يرثى لها، لدرجة أن شفتِي شقَّت شقًّا، وأغمضت عيناي كلتاهما. ثم تركوني خائر القوى لا أستطيع حراكًا، ولا أقوى على النطق، وبينما كنت ملقًى على الأرض سمعتهم يقذفونني بوابل من الألفاظ النابية؛ بعضها سافل، والبعض الآخر تشمئزُّ نفسي من تكراره، ولكني سأذكر شيئًا واحدًا على سبيل المثال لوحشية كونون، ولأثبت أنه كان المسئول عن كل ما حدث؛ فقد بدأ يصيح كديك المراهنة بعد فوزه، وطلب إليه الآخرون أن ينشر ذراعيه على كلا جنبيه انتصارًا وظفرًا، وبعد ذلك حملني بعد المارَّة عاريًا إلى منزلي بينما أخذ المدَّعى عليهم معطفي.»[٥١]

[٥٠] ضد كونون، الفقرات ٣–٥.

[٥١] ضد كونون، الفقرتان ٨-٩.

يلاحظ ديونوسيوس أن مجلس الشعب والمحاكم كانت تتألف من خليط من العناصر،[٥٢] ليسوا جميعًا من ذوي المهارة والدهاء؛ فقد كان معظمهم من المزارعين والتجَّار والصنَّاع، الذين كان يروقهم الكلام البسيط وتتحرَّك شهيتهم لأي شيء ذي طعم غير عادي، ولم يكن منهم سوى نسبة ضئيلة جدًّا من ذوي الثقافات العالية، الذين تستطيع التحدث إليهم كما تتحدث إلى عامة الشعب، ولم يهمل الخطيب أيَّ القسمين. وعلى ذلك كان يهدف إلى إرضاء كليهما؛ فكان عليه استخدام طريق وسط متجنِّبًا النهاية القصوى لكل ناحية.

ومن رأي ديونوسيوس، أن كلًّا من إيسوكراتيس وأفلاطون نموذج جيِّد للأسلوب المتوسط، فقد نهجا بساطة يفهمها الجميع ولكنها ممزوجة بشيء من الدهاء لا يعرف قدره سوى الخبير. بَيدَ أن ديموستينيس قد بذَّهما كليهما في كمال ذلك الفن. ويذكر إثباتًا لذلك فقرة «الصلح» التي اختارها إيسوكراتيس نفسه للاقتباس، كنموذج لأسلوبه هو نفسه في خطبته عن «الأنتيدوسيس». ويقارن تلك الفقرة بفقرة من «الأوليمبية» الثالثة، معطيًا الميزة لديموستينيس، الذي وجد أنه أنبل وأسمى وأقوى، وتحاشى سآمة كثرة التهذيب التي يهتم بها إيسوكراتيس.

يظهر أن ذلك النقد مبني على أساس التطويل في التفاصيل الدقيقة، ولكن ما من شك في أن ديونوسيوس لم يركِّز جلَّ اعتماده على التحليل، بل عن تأثير الخطبة. وبعد أن يعدِّد النقط التي تنقص أو يتفوق فيها كل من الخطيبَين، يبيِّن شعوره هو نفسه فيقول:

«عندما أقرأ خطبة لإيسوكراتيس، أُصبح رزينًا يتملَّكني الجد كما لو كنت أصغي إلى قطعة موسيقية هامة، ولكني عند قراءة خطبة لديموستينيس أكون في غير شعوري؛ فتسير أفكاري في هذه الطريق أو تلك، وتحرِّكني عاطفة إثر أخرى؛ من ريبة، وضيق، وخوف، وازدراء، وكراهية، وعطف، وشفقة، وغضب، وحسد؛ فأمرُّ بالتعاقب خلال جميع العواطف التي يمكن أن تهيمن على العقل البشري ... وقد أسأل نفسي عن أي أثر كان يحدثه فيمن أسعدهم الحظ بالاستماع إليه. فإننا نحن الذين بيننا وبينه دهر طويل، ولا تهمُّنا الحوادث الفعلية التي حدثت بحالٍ ما، تملك الخطبة علينا لبَّنا وتسيطر على

[٥٢] عن ديموستينيس، باب ١٥.

مشاعرنا، حتى لنجد أنفسنا نتتبع الخطبة حينما تقودنا، فما بالك بالأثينيين والإغريق الآخرين؟ أين كان يقودهم الخطيب نفسه وقد كان من شأنهم ويهمُّهم أمر القضايا التي كان يتكلم فيها؟»[٥٣]

لقد كان لديونوسيوس أسلوب حادُّ الذوق كما نعلم من كثير من نقده، وكانت له كذلك مخيِّلة قوية، ويروي في نفس المقالة كيف أن تركيب الجمل يبيِّن له النغمة التي قيلت بها الألفاظ، ونفس النبرات التي كانت تصاحبها.[٥٤]

ولو أننا، نحن طلبة العصر الحديث، لا نتوقع أن ننافسه في مواهبه العجيبة، إلا أنه لا يزال من الممكن أن نشاركه مشاعره. وليس بعسير علينا عند قراءة خطبة كالفيليبية الثالثة مثلًا، أن نقدِّر كيف كان ديموستينيس يدرك تمامًا المثل الأفلاطوني الموضَّح في «الجورجياس»، وهو أن البلاغة هي فن الإغراء. ولسنا في حاجة إلى تحليل الوسيلة التي وصل بها إلى هذه الغاية. وقد يشبه لوسياس أحيانًا في السرد البسيط، وأحيانًا أخرى نجده يستخدم الطباق والمقابلة مثل ثوكوديديس أو في زهاء جورجياس. وقد يشبه بروتيوس Broteus، كما يقول ديونوسيوس، في تغيير تراكيبه، غير أنه مهما كان بسيطًا، أو حازمًا، أو مؤثِّرًا، أو حانقًا، أو متهكِّمًا، فإنه مقنع. والسبب في ذلك بسيط، فإن له غرضًا لا يفارق مخيِّلته، وهو أنه يجعل سامعيه يشعرون بما يشعر به هو.

ينتظر من قرَّاء إيسوكراتيس، عندما يتابعون عرض الموضوع، أن يلاحظوا جمال القالب الذي صيغ فيه، أما في ديموستينيس فليس هناك أية فكرة عن عرض كهذا. وكان في عُرفه أن الخطبة الجيدة هي الخطبة الناجحة، وليست هي الخطبة التي قد يعجب بها النقَّاد كقطعة أدبية. ومن النادر أن تكون لخطبة صفة أدبية تجعله في مصافِّ أعاظم كتَّاب النثر الآتيكي، ولكنه كان، كخطيب، لا يعتمد على تلك الصفة.

لقد أبى شعور ديموستينيس العملي القوي، أن يتقيَّد بأية طريقة نظرية لفلاسفة البلاغة؛ فما كان يميل إلى تعقيد الأوزان التي تجعل أسلوب إيسوكراتيس على وتيرة واحدة على الرغم من عبقرية الكاتب العجيبة، بل كان يستعمل جملًا طويلةً وقصيرة، معقدةً

[٥٣] ديموستينيس، باب ٢٢.

[٥٤] ديموستينيس، البابان ٥٣–٥٤. وعلى ذلك صاح أيسخينيس بعد أن قرأ بعض فقرات من ديموستينيس بصوت مرتفع، ولاحظ أثرها في سامعيه: «وماذا لو كنتم سمعتم الوحش نفسه؟»

وسهلة، كل نوع بدوره دون أي ترتيب نظامي، حتى إنه لا يمكننا وصف أي نوع بأنه من خصائصه؛ فإن تركيب الجملة كاللغة، رهن بالغرض الذي تستعمل فيه.[٥٥]

كان ديموسثينيس يراعي حد الاعتدال في عنايته باجتناب المد في الحروف بين الكلمات، وقد عدَّل، في هذا الموضوع، في طريقة إيسوكراتيس بما يفي وحاجة الخطب. لقد كانت تقوده أذنه، لا عينه، لذا نجد المد محذوفًا غالبًا بين الـ cola أو أجزاء العبارة الموزونة. وفي الحقيقة إن أية وقفة في النطق كافية لتبيان عدم إرغام حرف العلَّة قبل الوقفة. وعلى نقيض ذلك كان إيسوكراتيس يتحاشى ظهور المد في مثل تلك الحالات.

هناك طريقة شكلية واحدة لتركيب الجمل، كان ديموسثينيس يتبعها بدقة، وهي اجتناب تعاقب المقاطع القصيرة. ومن المعروف أنه نادرًا ما كان يستعمل المقاطع الثلاثية Tribrach لو أمكن تحاشيها بوساطة عناية بسيطة، بينما أمثلة استخدام أكثر من ثلاثة حروف علَّة قصيرة متعاقبة، نادرة جدًّا بل وشاذة أيضًا.[٥٦] ويمكن إيضاح وجود ترتيب غير عادي للكلمات بالرجوع إلى ذلك الاستعمال.[٥٧]

نعلم من أريسطاطليس وغيره من النقَّاد، أن قدامى كتَّاب النثر الفني من ثراسوماخوس فمن بعده، كانوا يهتمون بعض الاهتمام بالشكل الوزني للألفاظ، وببعض التراكيب المعينة للمقاطع الطويلة والقصيرة. وقد درس ثراسوماخوس على الأخص استعمال الـ Paeonius (-ـــ أو ـــ-) في بدء ونهاية الجملة.[٥٨]

إن تأثير زيادة عدد المقاطع القصيرة، سواء في النثر أو النظم، هو لجعل حركة السطر أو مجموعة الألفاظ التي ينطق بها في نفس واحد، أكثر سرعة. وإن كثرة

---

[٥٥] عن خيرسونيز، الفقرات ٦٩–٧١ تعطي مثالًا لجملة طولها نحو سبعة وعشرين سطرًا. طبعة توبنر Teubner.

[٥٦] تيموكراتيس Timocrates، الفقرة ٢١٧، οὐδ᾽ ὁτιοῦν ἂν εἴη ὄφελος εἴη، ومثال ذلك - (- -ـ ـ ـ ـ)، وفي هذه الحالة لم يمكن ترتيب الألفاظ ترتيبًا آخر، οὐδ᾽ ὅτιοῦν ἂν εἴη ὄφελος تعطي مدًّا ظلفًا. قارن كذلك الخطبة الأولينثية الأولى فقرة ٢٧. ἡλίκα γ᾽ ἐστὶ τὰ διάφορ᾽ ἐνθάδ᾽ ἢ ᾽κεῖ πολεμεῖν حيث توجد خمسة مقاطع قصيرة متتابعة.

[٥٧] مثال ذلك، عن السفارة الكاذبة، فقرة ١١، διεξιὼν ἡλίκα τὴν Ελλαδα πᾶσαν, οὐχὶ τὰς ἰδιὰς ἀδικοῦσι μόνον πατρίδας οἱ δωροδοκοῦντες. إن موقع ἀδικοῦσι غريب، ولكن أغلب الجملة مقاطع قصيرة، ولو رتِّبت ترتيبًا آخر لزاد عددها؛ فمثلًا التريب الأكثر طبعية τὰς ἰδίας μόνον πατρίδας ἀδικοῦσι (ـ-ـ ـ ـ ـ ت) أو ἰδίας μόνον ἀδικοῦσι πατρίδας (ـ ت ـ-ـ ـ ـ ـ-ـ ـ).

[٥٨] أريسطاطليس، البلاغة، الفصل الثالث، ٨، ٤.

استعمال، يوربيديس للمقاطع الثلاثية؛ ليحدث ذلك التأثير باستمرار. وأشد الحالات هو تركيب الوزن الجاليامبيكي Glliambic metre، كما نرى مثلًا في أتيس لكاتولوس Attis of Catullus.[٥٩] وعلى العكس فإن مضاعفة المقاطع الطويلة تجعل الحركة بطيئة وتحدث تأثير المهابة والوقار.[٦٠]

يبدو أن ديموستينيس هو أول كاتب نثر اهتمَّ باجتناب المقاطع الثلاثية، ويظهر أن أفلاطون كان يفضِّل تعاقب المقاطع القصيرة حيثما كان ذلك مستطاعًا. وقد يكون الفرق بين وجهتي نظريهما أن أفلاطون كان يهدف إلى إحداث سرعة طبيعية في الحديث، بينما كان يهدف ديموستينيس إلى أسلوب أكثر رزانة ومهابة يلائم الإلقاء على جمع غفير من المستمعين.

تلك كانت القاعدة الوزنية الوحيدة التي كان يلاحظها ديموستينيس، ويعتقد أحد فطاحل النقَّاد أنه حتى تلك القاعدة كان يستعملها بغريزته وليس عن قصد أو وعي.[٦١] ولم يتخذ أية صيغة وزنية لآخر الجمل لو قورنت بصيغة شيشرون المشهورة esse videatur، أو التروخي المزدوج (ب-ب-) في أول الجملة الذي وافق عليه الكتَّاب المتأخرون. وعند عمل فحص نرى أن عنده تنويعًا غير محدود لكل من أول الجمل وآخرها. ويظهر أنه لم يتبع أية طريقة منتظمة.

لقد بُذِل مجهود «جبَّار»، ولا سيما في ألمانيا، في تحليل العنصر الشعري في أسلوب ديموستينيس. ومما لا مراء فيه أن كثيرًا من الخطباء، من جورجياس فمن بعده، قد بذل مجهودًا للحصول على مطابقات تقريبية للأوزان الشعرية تكون وسطًا بين كل من المطابقات والاختلافات الشعرية في عصورهم. ففي بعض الحالات نجد عدد المقاطع متساويًا في عبارتَين، مع وجود مطابقة تامة أو غير تامة للأوزان الشعرية. ومثل هذه الطرق يؤيِّد صيغ الكلام الغريبة التي كان يميل إليها جورجياس، وهي تناسب نوع الخطب المعدِّ لغرض الظهور قبل كل غرض آخر، غير أنه من الصعب تصديق أن مثل هذه البراعة كانت تبذل عن قصد في أية خطبة قضائية طويلة.

---

[٥٩] Super alta vectus Attis celeri rate maria, etc. «انتصر أتيس فوق البحر انتصارًا سريعًا نادرًا.» وإن الاختتام بخمسة مقاطع قصيرة ليعطي تأثير السرعة المستمرة.

[٦٠] قارن اللحن السبوندي Spondaic, Ζεῦ πάντων ἀρχάν πάντων ἄγητορ Ζεῦ σοὶ σπένδω ταύταν ὕμνων ἀρχάν.

[٦١] كروازيه، تاريخ البلاغة الإغريقية، الجزء الرابع، الصفحتان ٥٥٢–٥٥٣.

إن تذييل المجلد الثالث في الخطابة الآتيكية لبلاس، قطعة أثرية لأعمال الخطباء. ويحوي تحليلًا للسبعة عشر قسمًا الأولى لخطبة «عن التاج»، وكل الخطبة الأولونثية الأولى والفيليبية الثالثة، وتدلُّ على أن ذلك النثر الديموسثيني يمكن اعتباره، يقينًا، كنوع بسيط من الإنشاء مثل النشيد البنداري Pindaric ode؛ ولا يحكم على هذا الموضوع تمامًا دون دراسة طويلة دقيقة. ويحتاج كثير من الحالات إلى تنقيح؛ فيجب أن تقسم الكلمات في الوسط، وتشق الجمل بطريقة غير طبيعية. ولا أعتقد أنه يمكن القيام بالتحليل لهذه الدرجة، فمن المعقول أكثر أن نفرض أنه كان لديموسثينيس أذن حادة طبيعيًّا، وأن الممارسة قد قوَّت هذه المقدرة حتى أصبح كلامه طبيعيًّا ذا وزن شعري معيِّن. ولا أقتنع بأنه كان يُعِد كل ذلك الأثر الشعري.[٦٢]

٦

الوسائل البلاغية

كان إيسايوس — معلم ديموسثينيس — أستاذًا في المناظرة والبيان، ويظهر ديموسثينيس في خطبه المبكرة آثارًا من نفوذ إيسايوس، ولكنه في أعماله الأخيرة قد كوَّن ملكات مختلفة مكَّنته من التفوُّق على أستاذه. ولمَّا أدرك عدم كفايته للظهور أمام جمهور شهير من المستمعين ذي آراء راجحة، قوَّى منطقه بوسائل عرضية مكتسبة تنتمي من عدة طرق غير مباشرة إلى الإحساس والتعصب. وإحدى الطرق القيِّمة لإيقاظ الميل، هي استعماله الفذ للطباق والمقابلة:

«وأما بخصوص موضوع موارد المال التي تحت تصرفنا؛ فإني أعلم أن ما أريد قوله يبدو مناقضًا، ولكن يجب أن أقوله؛ لأني واثق من أنه إذا نظر إلى اقتراحي نظرة صحيحة؛ فإنه يبدو الاقتراح الوحيد الحقيقي والصحيح. أقول لكم إنه لا حاجة بنا إلى إثارة موضوع المال بالمرة؛ فإن لدينا موارد عظيمة يمكننا استعمالها بعدل وشرف عندما نحتاج إليها. وإذا ما بحثنا عنها الآن، خيل إلينا أنها لن تصبح تحت تصرفنا في الوقت الحاضر مطلقًا. ولكن إذا صبرنا حصلنا عليها. وما هي إذَن تلك الموارد غير الموجودة الآن والتي سنحصل عليها مستقبلًا؟ إنها تبدو لغزًا، وسأفسِّره لكم. انظروا إلى مدينتنا

[٦٢] انظر كروازيه، الجزء الرابع، صفحة ٥٥٣، السطر الأول.

هذه كوحدة، إنها تحتوي على أموال تعادل ما تحويه كل المدن الأخرى مجتمعة. بَيدَ أن الأفراد الذين يملكون هذه الأموال عديمو الشعور، لدرجة أنه لو حاول جميع الخطباء إفزاعهم بقولهم إن الملك آتٍ وإنه قريب وإنه لا مفرَّ من الغزو، وحتى لو عضد هؤلاء الخطباء عدد مساوٍ لهم من المنجِّمين؛ فإنهم لا يرفضون التبرع بالأموال فحسب، بل ويرفضون الاعتراف بأنهم يملكون أموالًا بالمرة. ولكن فرضوا أن الأهوال التي تتكلم عنها الآن تتحقق، إذَن لا ترون فيهم من يبلغ به البله أن يضنَّ بأمواله ولا يتبرع في الحال ... لذا أقول لكم إن لدينا أموالًا معدَّة لوقت الحاجة القصوى وليس قبله.»[٦٣]

وبالمثل في الخطبة الأولونثية الثالثة، يثير حبَّ الاستطلاع في سامعيه بإعطائهم لغزًا، ويتركهم فترة قصيرة، ثم يعطيهم هو نفسه حل ذلك اللغز. وموضوع المناقشة في تلك الخطبة هو الحاجة إلى إرسال المساعدة إلى أولونثوس. وهناك كالمعتاد صعوبة الحصول على المال:

«قد تقولون «حسنًا جدًّا، لقد قرَّرنا كلنا أنه يجب علينا إرسال المساعدة، وإن المساعدة سنرسلها، ولكن كيف نقوم بها؟ دلَّنا على ذلك.» والآن لا تعجبوا أيها السادة إذا كان ما أقوله سيكون مفاجأةً لأغلبكم. عيِّنوا لجنة تشريعية؛ مُرُوا تلك اللجنة ألا تصدر أي قانون (فإن عندكم ما يكفي من القوانين)، ولكن تبطل القوانين الضارَّة في الظروف الحاضرة؛ وإني لأشير إلى القوانين الخاصة بالتبرعات الثيورية.»[٦٤]

يعطينا ذكر تبرعات الأعياد هذه فكرة عن تمسُّك الخطيب ومثابرته؛ فلا يقنع بالكلام عن اقتراحه مرة واحدة ويترك كلماته تحدث تأثيرها بنفسها، بل كالمحاضر الماهر يكرر ما يقول مؤكدًا إياه بطرق شتى، حتى يرى أن سامعيه قد وعوا اقتراحه وعرفوا أهميته واستولى على لبِّهم وجَنانهم؛ فإن الأسوار التي يهاجمها لن تسقط من صوت البوق، بل لا بدَّ للمجانيق أن تكرِّر ضربها حتى تحدث فيها ثغرة وتتداعى. وإنه يجب أن تخرج قذائفه المدافعين من مكامنهم. هذا هو تفسير تعليق لوكيان عن الكلمات المنسوبة إلى فيليب.[٦٥]

تقسم خطبة «عن خيرسونيز» مثلًا إلى ثلاثة أقسام؛ تتناول على التعاقب معاملة ديوبيثيس Diopeithes، وجمود أثينا، وجريرة مواطني فيليب، ولكننا نجد في جميع

---

[٦٣] عن السوموربيس، الفقرات ٢٤–٢٦.

[٦٤] الأولونثية الثالثة، الفقرتان ١٠-١١.

[٦٥] سبق ذكرها بصفحة ٢٤٢.

الأقسام تأكيد الحاجة إلى العمل بجهد ونشاط. هذا في الحقيقة هو موضوع الخطبة، وتنحصر أهمية بقيتها فقط في تدعيم الموضوع الرئيسي.

وتوضح الفقرة السابقة[٦٦] بأية براعة يبدأ مقدمة حواره؛ حيث يتصور أنه يسأل أو يجيب على أسئلة ناقد خيالي. هذه وسيلة غالبًا ما تستخدم بنجاح عظيم. ونرى في الفقرة التالية وسيلة أخرى من نوع مختلف:

«إذا استولى فيليب على أولونثوس، فمن ذا الذي يمنعه من دخول بلدنا؟ هل يمنعه الطيبيون؟ يكون هذا من هذر القول؛ فإنهم يرحِّبون بالانضمام إليه في الغزو. أو يمنعه الفوكيون؟ وهم لا يستطيعون حتى الدفاع عن أرضهم إلا بمساعدتكم. أيمكنكم التفكير فيمن يمنعه غير هؤلاء؟ «يا أعزائي، إنه لا يريد مهاجمتنا.» إنها تكون في الحقيقة أعظم مفاجأة للعالم إذا لم يهاجمنا لو أتيحت له الفرصة؛ حيث إنه قد أظهر غباوته الآن بالإفصاح عن نواياه.»[٦٧]

كذلك يمكن للرواية أن تحل محل الجدال؛ فإن سرد أعمال فيليب المشينة في السنين القليلة الماضية ليفعل فعله في إقناع الأثينيين بالحاجة إلى العمل أكثر من أي جدال عن حالة أيٍّ الحلفاء المهدد في تلك اللحظة.[٦٨]

كان ديموستينيس واسع الاطلاع في التاريخ. ويظهر تفوُّق مداركه على مدارك أيسخينيس في استخدامه الاستشهاد بالحوادث السابقة بطريقة أكثر فلسفة، وإن أمثلته لصائبة مقنعة سهلة الفهم. ويستطيع أن يلقي ضوءًا على الحالة الراهنة، لا بالإشارة إلى الحوادث الماضية القديمة فحسب، بل بالبحث الدقيق في داخلية الروح التي حمَّست رجال العصور الغابرة.[٦٩]

---

[٦٦] انظر الصفحة السابقة.

[٦٧] الأولونثية الأولى، الفقرتان ٢٥–٢٦.

[٦٨] الخيرسونيز، الفقرات ٦١–٦٧. إن سرد الحالة الراهنة لفوكيس، قطعة بسيطة من الحوار بالوصف، ولكنها ذات أثر فعَّال: «لقد كان منظرًا بشعًا أيها السادة، ومحزنًا أيضًا؛ فعندما كنا في طريقنا إلى دلفي اضطررنا إلى رؤيته كله؛ المنازل المخرَّبة، والأسوار المدمَّرة، والريف الخالي من الرجال في سن التجنيد، وكل ما هنالك هو بعض النساء الفقيرات والأطفال الصغار والشيوخ في حالة يرثى لها، وإن الألفاظ لتقصر عن وصف مدى البؤس الذي يعانونه الآن.» (عن السفارة الكاذبة، فقرة ٦٥).

[٦٩] قارن الأولونثية الثالثة، الفقرات ٢٤–٢٦.

إن هذه الأمثلة التي ذكرناها لحواره البلاغي بلسان خصمَين وهميَّين، تعطينا فكرة عن استخدامه للنغمة التهكمية، وإن التهكم المستتر قد يسير أحيانًا خلال فقرة بالغة الطول كما في النادرة التالية. وقد نلاحظ بمرورنا أنه عادةً ما يقتر في استخدام النوادر التي لا يستعملها مطلقًا بدون سبب وجيه. ويمكن عذره هنا إذ أنها تظهر كسابقة تاريخية لإجراء يحبذه بتهكم لمعاصريه.

ولكي يطعن في الإجراءات التهورية للساسة الأثينيين الذين يسنُّون القوانين لصالحهم الخاص كل شهر تقريبًا،[٧٠] يذكر عادات اللوكريين Locrlans، ثم يتصنع الجد ويبدي رغبته في فرض قيود مماثلة في أثينا:

«أودُّ أن أخبركم أيها السادة كيف يسنُّ اللوكريون قوانينهم. ولن يضرَّكم أن يكون أمامكم مثال، ولا سيما مثال ولاية حسنة الحكم. فالناس هناك مقتنعون بأنه يجب عليهم اتباع القوانين ومراعاة تقاليده، وألا يسنُّوا قوانين تتفق وملذَّاتهم، أو يساعدوا مجرمًا على الفرار، وأن يوضع حبل حول رقبته كل من يقترح سن قانون جديد، وذلك ساعة عرضه طلب ذلك القانون ومناقشته؛ فإن رأوا أن القانون نافع ولصالح البلد تركوه يحيا وأخلوا سبيله، وإلا جذبوا الحبل فتنتهي بذلك حياته. ذلك لأنهم لا يتحمَّلون سن قوانين جديدة، بل يراعون القوانين القديمة حرفيًّا. ونعلم يقينًا أنهم لم يسنُّوا سوى قانون جديد واحد في خلال عدة سنوات طوال؛ فقد كان هناك قانون يقضي بأن العين بالعين، وحدث أن رجلًا هدَّد آخر أعور بفقء عينه، عندئذٍ ارتاع الأخير، ورأى أن الحياة لا تصبح ذات فائدة إن أضحى أعمى، وعلى ذلك تجاسر على المطالبة بسن قانون يقضي بأن من يفقأ عين رجل أعور، يجب أن يستسلم ويخضع لفقء عينيه الاثنتين حتى يتساوى الخصمان. هذا هو القانون الذي نعرف أن اللوكريين سنُّوه في مدة تربُو على مائتي عام.[٧١]

ومع ذلك فقد كان هذا يحدث فقط في الخطب التي تلقى أمام المحاكم العاديَّة وهي المكان الذي يلائمه، ولا يلائم الأسلوب الرصين الجاد الذي يخاطب به الجمعية. كذلك لا تلائم الخطب الحماسية العامة أية وسيلة بلاغية كالنقد اللاذع الذي يوجِّهه إلى خطبة «عن التاج»، لما فيها من الألفاظ العامية السافلة والتصوير المزري للحقائق

[٧٠] أي في كل اجتماع لمجلس الشعب يمكن تشريع القوانين فيه.

[٧١] تيموكراتيس، الفقرات ١٣٩ ... إلخ.

التي قام بها أيخينيس وأتباعه.[٧٢] وعذره في كل ذلك أنها رغم سوء القصد منها، فيها مبالغة تحول دون تصديقها. ويمكن مقارنتها بانتقاد أريستوفانيس لكليون في «الفرسان Knights» الذي كان ظلفًا جدًّا، ولكنه لم يصِب كليون بضرر خطير. وفي الحقيقة يصبح ديموستينيس أريستوفانيًّا صادقًا عندما يتكلم عن أفعال أيسخينيس:

«وعندما خلصتم على مر الأيام من تلك الواجبات، مقترفين كل الآثام التي يتهمون بها غيركم؛ فإني أقسم أن حياتكم بعد ذلك لم تخلُ من أعمالكم السابقة، فشغلتم أنفسكم مع اللاعبين سيمولوس Simylus وسقراط، الذين كانا يسمَّيان «الصارخين Bellowers»، لتقوموا بأدوار بسيطة، وكنتم تحصدون التين والعنب والزيتون، كالفاكهي الذي يحصل على بضاعته من حدائق غيره، وقد جمعتم أموالًا من هذه المهنة أكثر من ألعابكم التي كنتم تقومون بها، مخاطرين بحياتكم، هذا علاوة على الحرب الشعواء التي كانت بينكم وبين النظارة التي أصبتم منها بجراح عديدة، حتى أصبحتم تسخرون ممن لم يمارسوا ذلك إطلاقًا.[٧٣]

يوصف ديموستينيس عادة بأنه ناقص الذكاء، ويظهر أنه كان أقل ذكاءً من أيسخينيس، ولو أنه استطاع في مناسبة أو مناسبتين أن يردَّ بجواب مفحم.[٧٤]

وكما يقول ديونوسيوس:

«كل موهبة لا تمنح لجميع الرجال.»[٧٥]

وإذا كان في خطر إثارة الضحك على نفسه، كما يؤكد ناقده؛ فإن لديه مواهب خطيرة تعوِّض ذلك النقص، بل وتزيد عليه.

يجب ألا يتطرَّق إلى أذهاننا أنه كان خاليًا من السفسطة تمامًا، فهو ككثير من الخطباء الذين يؤلِّفون في الأغراض الطيبة والسيئة، كان يجهد نفسه من وقت إلى آخر كي يعطي إلى الخطبة الضعيفة مظهر القوة، وهذا المجهود بلا شك نفاق أيَّما نفاق.

وإن جميع خطبة «عن التاج» عبارة عن محاولة لتضليل القضاة عن حقائق القضية وقيادتهم في طريق كاذبة. ويؤكد في دفاعه أن العدالة في جانبه حقيقة في تلك المناسبة،

---

[٧٢] وعلى الأخص «عن التاج»، الفقرات ١٢٩–١٣٠، ٢٥٨–٢٦٢. قارن كذلك ما سبق بصفحة ١٧٧.

[٧٣] عن التاج، الفقرتان ١٨٣–١٩٠.

[٧٤] انظر ما سبق في الصفحتين ١٨٣، ١٩٠.

[٧٥] οὐ γάρ πως ἅμα πάντα βεοὶ δόσαν ἀνθρώποισι.

ولكنه لمَّا وجد أن مركز أيسخينيس يستند إلى أسس قانونية متينة لا تقبل الطعن أو يستطاع إحداث ثغرة فيها، ترك المناقشة في الأسس القانونية وساق المحاكمة في سبيل يختلف عن ذلك تمام الاختلاف. ومن المعترف به في هذه القضية أن النقط الفنية لم تكن سوى السبب في إقامة الدعوى، ويحتمل أن المحكمة لم تعلِّق عليها أهمية كبيرة. فتناولت المحاكمة الفعلية، المبادئ السياسية وأعمال الخصمين العظيمين، بينما لم يكن كتيسيفون سوى آلة لتنفيذ غرض صاحبه. ولكن عند دراسة الخطب الأخرى نكتشف عدة نقط أقل أهمية يقيس فيها الخطيب ذكاء سامعيه ويضلِّلهم عمدًا عن السير الصحيح للقضية. وعلى ذلك كانت معرفته بالتاريخ عميقة، وقد أثبتت التجارب أن معرفة أي جمهور من المستمعين لتاريخ جيلهم نفسه كانت معرفة سطحية وغير صحيحة.

لم تنته الحوادث حسب الخطط الموضوعة لها، ويجب علينا إما أن نعتمد على ذاكرتنا المتأثِّرة بالتعصب، أو على روايات المؤرِّخين القريبين جدًّا من ذلك العصر بدرجة يستطيعون معها تكوين وجهة نظر عادلة. وهذا يعطي السياسي فرصته في جمع الحقائق أو استبعاد ما يعطي فكرة خاطئة.

والأمثلة عديدة على عدم الثقة فيما يختص بديموستينيس، حتى ولو كانت عديمة الأهمية.

فيؤكد في الخطبة «عن السفارة»[٧٦] أن أيسخينيس، بغض النظر عن معارضة زعم فيليب باعتباره أمفيكتيونيًّا، كان الشخص الوحيد الذي تكلم في صالحه، ومع ذلك فإن ديموستينيس نفسه نصح بالإذعان. وبالخطبة «ضد تيموكراتيس» مبالغات واضحة عن الضرر الذي أصاب المدَّعى عليه. لقد اقترح تيموكراتيس إمهال مدينتين معينتين مهلات كي تتمكن خلالها من تسديد ديونهما، ويؤكد ديموستينيس أنه أرجع إليهما كامل حقوقهما المدنية بغير تسديد ديونهما.[٧٧] وقبيل نهاية الخطبة نرى حقيقة تتعارض مع حقيقة أخرى في المقدمة.[٧٨]

---

[٧٦] عن السفارة الكاذبة، الفقرتان ١١٢–١١٣، مع مذكرة وايل Weil.

[٧٧] الفقرة ٩٠.

[٧٨] الفقرتان ٩، ١٩٦. ويلاحظ وايل حقيقة «إن الخطباء لا يفتخرون بصحة أقوالهم، إذ كثيرًا ما يستعملون التورية الكاذبة.»

ما تلك الوسائل البلاغية سوى أخطاء تافهة يتعرَّض لها أغلب السياسيين.[٧٩] وقد يشعر الخطيب نفسه أنه يسمح حتى بالأعمال المريبة من أجل الغرض الذي هو بطله. ويجب أن نتذكر أن جميع القضايا الهامة حقيقة، التي اشترك فيها كان منشؤها أسبابًا سياسية، وأنه خلال حياته العامة لم يدخر وسعًا في المحافظة على تلك المبادئ التي شرحها في خطبه الحماسية العامة. وقد كان له أمل، حتى النهاية، في استقلال الإغريق وتمتعهم بالحرية، وفي حرية أثينا التي لا تعتمد على أي مشروع عديم الفائدة، بل تعتمد على خلق الروح الأثينية القديمة من جديد. وسيكون التجديد الذي تصوره نتيجةً لإحياء روح التضحية. فأول ما يجب على كل فرد، هو أن يعلم أن للمدينة رسالة مجيدة لإكمال شعار الحرية المؤسسة على مبادئ العدالة، ثم يعلم أنه للوصول إلى ذلك الهدف، يجب ألا يحيا كل فرد لنفسه أو لحزبه، بل يحيا لمدينته فقط.

إن ما يجعلنا نميِّز ديموستينيس عن باقي الخطباء هو يقظته في أن تكون هذه الآراء حاضرة دائمًا في ذهنه. ويصبح لوكورجوس، الخطيب من الدرجة الثانية، مؤثِّرًا بوساطة إخلاصه وعدم فساده، كما يصبح ديموستينيس العظيم بين الخطباء مميَّزًا عن الشعب ومبرَّزًا بوساطة نبل طموحه.

٧

تركيب الخطب

يمدُّنا تركيب الخطَب بمَثل أخير عن مقدرة مؤلفها على التنويع وعدم تقيُّده بالصِّيغ العرفية.

حقيقةً نجد له نوعًا خاصًّا من المقدمات والخاتمات، ولكنه يعطي لنفسه الحرية الكاملة في باقي أقسام الخطبة. فلا يمكننا أن نقدِّر وجود حقيقة في مكانٍ ما بقضية

[٧٩] يلاحظ المستر بيكارد كامبردج (ديموستينيس صفحة ٨٠) أن «من يجتمع في حشد من الناس لا يفكر ... وغالبًا ما يضطر الخطيب إلى استعمال حجج لا يقرُّها أي منطق، ويستخدم طرقًا لإغراء الجمهور يخجل من استخدامها هو نفسه مع أصدقائه»؛ وفي هذا شيء من الصحة ويجب الأخذ به بتحفُّظ. وإن حجج ديموستينيس في خطبه الحماسية هي عادة السابقة في هذا المضمار. وقد لقيت الخطب العامة لمشاهير الساسة الإنجليز عن أسباب الحرب العظمي، آذانًا صاغية من طبيعة سامعيهم العالية.

يعقبها دائمًا الدليل، ثم تفنيد حجج الخصم، وهكذا. فقد تكون جميع العناصر مبعثرة في الخطبة؛ حيث إنه لا يرتِّب حججه ترتيبًا تاريخيًّا، ليس من الضروري أن يرتِّبها ترتيبًا منطقيًّا، ولكنه يرتِّبها بالترتيب الذي يراه أكثر ملاءمة. فهو لا يتقيَّد بأية طرق تقليدية للحرب، وقد يترك أجنحة جيوشه دون حماية، بينما يسدِّد ضربة قاصمة إلى الوسط. ويستحيل في بعض القضايا عمل تقسيم منظَّم على قواعد فنية؛ فإن في الخطبة «عن التاج» مادة للنزاع في الموضع الذي تبدأ منه الخاتمة فعلًا.[٨٠]

وتنتهي أغلب الخطب وفقًا للقاعدة الآتيكية التي كانت تخضع لها الماسأة والخطابة، ببضع جمل معتدلة النغمة تلطِّف من حدَّة الانفعال السابق؛ فإن الهدوء يعقب زوبعة هياج العواطف. أما الخطب القضائية فتحتوي على طلب إصدار حكم عادل، أو إقرار الخطيب بأنه يمكن ترك القضية وقتئذٍ إلى قرار المحكمة وهو مطمئن، وعلى ذلك تنتهي خطبة «اللبتينيس» بالبساطة اللائقة (المميزة) بلوسياس.

«لا أرى أنني في حاجة إلى المزيد من القول؛ لأني أظن أنه لا توجد أية نقطة لم تُشرح لكم شرحًا وافيًا.» وخطبة «ميدياس» أكثر رزانة «وتبعًا لكل ما ذكرته أمامكم ولا سيما لإظهار إجلالي للإله الذي ثبت أن ميدياس قد دنَّس عيده، يجب أن تعاقبوه، فتصدروا حكمًا يتفق مع التقوى والعدالة.»

وفي خطبة «عن السفارة الكاذبة» شعور شخصي أكثر من ذلك «يجب ألا تتركوه ينصرف، بل تجعلوا عقابه عبرة لأثينا كلها واليونان بأسرها.» وكذلك خطبة «تيموكراتيس» مشابهة: «لا مجال للرحمة في مثل هذه الظروف؛ فإن إصدار حكم خفيف معناه تعويد وتعليم أكبر عدد منكم على إتيان الشر.» وتنتهي خطبة «أندروتيون» برأي شخصي عن موضوع الجُرم، وكذلك تنتهي «الأريستوكراتيس» بنغمة مماثلة. وتتناول الخطبة الأولى ضد أريستوجيتون مصالح القضاة الشخصية مباشرة: «يمس جرمه كل فرد منكم، وكلٌّ منكم يودُّ التبرُّؤ من شروره، ويرى أنه قد نال جزاءه.»

---

[٨٠] هناك خاتمة كاذبة، الفقرات ١٢٦–١٠٩، أهم ما تتناوله مولد وحياة أيسخينيس، وكان يجوز أن تنتهي الخطبة هناك، بَيدَ أن الخطيب يشير في الفقرة ١٦٠ إلى فحص ودفاع حياته السياسية هو نفسه. والخاتمة الحقيقية موجودة في الفقرات ٢٥٢–٣٢٤. وقد نتج عدم الترتيب بلا شك من الوقائع الغريبة للقضية، وهي أن مواضيع المحاكمة قد اتسعت أكثر مما يبدو. ولا يهتم ديموستينيس كثيرًا بإثبات شرعية قرار كتيسيفون حتى يعتذر عن خلقه السياسي خلال عدة سنوات.

وخطبة التاج ممتازة في كل الوجوه؛ فتلك الخطبة العظيمة التي نشأت عن أسباب تافهة نوعًا ما، قد خرجت من نطاق المواضيع البسيطة وأصبحت دفاعًا بارعًا للسياسة الوطنية، وتبدأ بتوسُّل رزين: «أيا رجال أثينا، أبدأ كلامي بالتوسُّل إلى جميع الآلهة والإلهات، بأن يجعلوكم تظهروا إليَّ في هذه القضية أمنية كأمنيتي التي أبديتها، والتي لا أزال أبديها لأثينا ولجميعكم.» وتنتهي الخطبة بطريقة فذَّة بتوسُّل، لا للمحكمة، بل لهيئة قضائية عليا؛ توسُّل أكثر تأثيرًا؛ لأن لغته تذكِّر بالتوسُّلات المقدَّسة ذات الصبغة الدينية. «أيتها الآلهة السماوية، لا تمنحوا أخلاقهم بركاتكم وصلاحكم قط، بل إن أمكن اجعلوا حتى في أعدائي عقلًا أرجح وقلبًا أسلم. ولكن إذا كانوا لا يُرجى لهم علاج ولا يمكن إصلاحهم، اقذفوا بهم إلى الدمار برًّا وبحرًا، وأنقذوا بقيَّتنا، بأسرع ما يمكن، من المخاوف الجاثمة فوق رءوسنا، وامنحونا خلاصًا ثابت الأركان.»

طبعًا تختلف الخطب التي تُلقى أمام المجلس من الخطب القضائية في خاتماتها، فليس هناك مجرم ليهاجم، ولا جريمة حتى تفضح. فالسامعون أنفسهم يجلسون كأنما يدافعون عن أنفسهم، وديموستينيس يبيِّن أخطاءهم بكل صراحة. غير أن الخصوم الشخصيين كانوا يهزمون، وإذا كان هناك مستشارون أشرار؛ فإن مسئولية اتِّباع النصيحة الخاطئة تقع على عاتق الجمهور الذي يمكن تحذيره فقط ليتبع طريقة أحسن. وتنتهي الخطبة «عن السوموروييس» والخطبة «عن ميجابوليس» بملخص لنصيحة المتكلم. وكذلك تنتهي الخطبة «عن حرية رودس» بنفس النصيحة، وتشمل كلماتها الأخيرة إشارة ظريفة إلى درس العبرة بالماضي. «افرضوا أن آباءكم أقاموا هذه التماثيل لا لتنظروا إليها مليًّا إعجابًا بهم، بل لتقلِّدوا مآثر الذين أقاموها.»

ينتهي كثير من الخطب المتعلِّقة بالقضية المقدونية، بدعاء قصير للتوفيق، ففي الفيليبية الأولى نجد هذا الدعاء: «عسى أن تسود النصيحة التي فيها صالحنا جميعًا.» وفي الأولونثية الأولى: «حري قراركم أن يكون موفَّقًا لكم جميعًا.» وفي الفيليبية الثالثة: «أسأل السماء أن تجعل كل ما تقرِّرونه لصالحكم.» وفي الأولونثية الثالثة: «لقد أخبرتكم أن ما أراه هو لصالحكم، وأرجو أن تختاروا ما فيه صالح الدولة وصالحكم جميعًا.»

ونجد أحيانًا إيمانًا ظاهرًا أكثر من ذلك، كما في الأولونثية الثانية: «وإذا ما فعلتم هكذا، فإنكم لا تقرِّظون ناصحكم الحالي فحسب، بل سيكون لكم مبرر لتقريظ سلوككم في المستقبل عندما تجدون تحسُّنًا في مطامحكم.»

وتنتهي الفيليبية الثانية كذلك بدعاء مماثل للدعاء الموجود في الخطبة «عن التاج»، ولو أنه أقل تأكيدًا، وتنتهي «عن خيرسونيز» ببرهان وتحذير.[٨١] وليس في خطبة «الصلح» خاتمة إطلاقًا، بل تنتهي بتهكُّم.

قد يفيد ذكر طبيعة مواضيع الخطب كمرجع؛ ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: (أ) خاصة. (ب) عامة. (ج) نيابية.

(أ) خطَب القضايا الخاصة

ضد أفوبوس Aphobus ١، ٢ **(٣٦٣ق.م.):** أُلقيت القضية التي أقامها ديموستينيس ضد الوصي عليه لاسترداد ضيعته.

من أجل فانوس Phanos **ضد أفوبوس (٣٦٣ق.م.):** لما وجد أفوبوس نفسه مدانًا في القضية السابقة، اتَّهم الشاهد فانوس بشهادة الزور، فقام ديموستينيس يدافع عن فانوس.

ضد أونيتور Onetor ١، ٢ **(٣٦٢ق.م.):** هذه قضية أخرى نشأت عن الوصاية؛ فعندما أدين أفوبوس، وجد أنه هرَّب بعض الضيعة إلى حميه أونيتور الذي اضطر ديموستينيس أن يقيم ضده قضية تبديد …

عن تاج ربَّان السفينة (٣٦١–٣٥٧ق.م.): لما منح أبولودورس التاج الذي كان يعطى كل سنة إلى أول ربَّان تبحر سفينته في مهمة للدولة، طالب بتاج آخر لأنه قدَّم أحسن سفينة إعدادًا.

ضد سبودياس Spudias **(تاريخها غير معروف):** مات شخص يدعى بوليوكتوس Polyeuctus تاركًا ضيعته لتقسم بين ابنتيه بالتساوي؛ فأقام زوج كبراهما دعوى بأن المهر الذي اتفق عليه مع زوجته لم يدفع كاملًا، وعلى ذلك لا يكون لسبودياس — زوج الصغرى — حق في نصف الضيعة، ويجب أولًا استبعاد الدين الذي يطلبه المدَّعي ثم يقسم الباقي.

ضد كاليكليس Callicles **(تاريخها غير معروف):** كان كاليكليس مزارعًا، وأقام دعوى بأن المدَّعى عليه بنى سدًّا في وسط مجرى ماء؛ وعلى ذلك عندما نزلت الأمطار

[٨١] سبق ذكره بصفحة ٢٢٨.

فاضت على أرض المدَّعي. ولكن المدَّعى عليه ينكر التهمة ويسخر منها على أساس أن الطريق المرتفع كان الطريق الطبيعي للمجرى.[٨٢]

ضد كونون (قد يكون تاريخها ٣٤١ق.م. انظر طبعة بالي وساندي Paley & Sandy**):** أقام أريستون Ariston قضية ضد كونون يتهمه بالاعتداء. ويرجع تاريخ المشاجرة إلى الوقت الذي كانا فيه معًا في الخدمة العسكرية، وقد ضايق كونون وبنوه أريستون وأصدقاءه مضايقة شديدة. وعلى ذلك اعتدى المدَّعى عليه يساعده بنوه وغيرهم من أعضاء أحد أندية موهوك Mohock، السيئ السمعة والذي يسمَّى «تريبالي Triballi»، على المتكلم اعتداءً قاسيًا.[٨٣]

من أجل فورميو Phormio **(٣٥٠ق.م.):** كان فورميو رئيس الكتبة عند باسيون Pasion صاحب المصارف الأثيني المشهور، ثم خلفه في تلك المهنة. وبعد ذلك بسنوات طالبه أبولودوروس بن باسيون بمبلغ من المال قال إنه مستحق له بموجب وصية والده. وقد أثبت فورميو أنه حدثت ترضية أبطلت القضية الحالية.

ضد ستيفانوس Stephanus **الأولى (٣٤٩ أو ٣٤٨ق.م.):** يتَّهم أبولودوروس ستيفانوس أحد شهود فورميو في القضية السابقة بالشهادة الزور. ويلاحظ أن ديموستينيس، كاتب الخطب المحترف، يغيِّر رأيه الآن؛ فإن قضية عن الأخلاق المريبة تجب أن يحكم فيها بالمستوى الدقيق.

ضد بويوتوس Boeotus **الأولى (٣٤٨ق.م.):** كان لمانتياس Mantias — السياسي الأثيني — ثلاثة أبناء؛ مانتيثيوس Mantitheus (شرعي) وبويوتوس وآخر (غير شرعيَّين). فأقام بويوتوس دعوى مطالبًا بالاسم «مانتيثيوس»؛ فأقام مانتيثيوس الحقيقي دعوى لمنعه من استعمال اسمه.

ضد بانتاينيتوس Pantaenetus **(٣٤٦ق.م.):** قدَّم نيكوبولوس Nicobulus احتجاجًا (...) ضد بانتاينيتوس الذي اتهم الأول بإتلاف حقول مناجمه. ومن العسير تتبُّع القضية لأن المنجم موضوع القضية، كان قد استولى عليه بالتعاقب ما لا يقلُّ عن ستة أشخاص سواء بالملكية، أو بالرهن، أو بالإيجار.

---

[٨٢] ردٌّ صائب. تستعمل مجاري المياه في اليونان في وقتنا هذا كطرق، وكذلك في جنوب إسبانيا. ومنذ بضع سنين، عبر خط الترام في ملاجا Malaga وادي النهر.

[٨٣] انظر صفحة ٢٤٩.

ضد ناوزيماخوس Nausimachus **(حوالي ٣٤٦ق.م.):** أقام اليتيمان ناوزيماخوس وكسينوبيثيس Xenopeithes دعوى ضد الوصي عليهما أريستايخموس Aristaechmus بخصوص ضيعتهما، ولكنهم اتفقوا على الصلح نظير مبلغ قدره ثلاثة تالنتات دفع إلى الأولَين. ولَّما مات الوصي، أقام المدَّعيان قضية ضد أبنائه الأربعة تجديدًا لقضيتهما الأصلية. فرفع أبناء الوصي احتجاجًا παραγραφή لإيقاف القضية على أساس التراضي الذي حدث.

ضد يوبوليديس Eubulides **(٣٤٥ق.م.):** لما استبعد يوكسيثيوس Euxitheus من قائمة المواطنين عند مراجعتها، أقام دعوى قائلًا إن له حقًّا في أن يكون مواطنًا، ولكن يوبوليديس استبعد اسمه من القائمة لضغائن في نفسه. وهذه القضية التماس (ἔφεσις) منه إلى المحكمة ضد ذلك القرار. من الممكن جدًّا ألا يكون ديموستينيس هو الذي كتب بقية الخطب الخاصة، ولو أنه يتعذَّر إثبات ذلك. ومع كلٍّ فيظهر أنها خطب حقيقية كتبها للإلقاء مؤلف أو بعض المؤلفين في عصر ديموستينيس. وإن فيها لمتعة وأهمية لجميع طلبة دراسة الحياة الخاصة في أثينا.

ضد كاليبوس Calippus **(٣٦٩ق.م.):** هي ἔφεσις أو التماس قدَّمه أبولودوروس بن باسيون يطعن في قانونية الحكم العرفي الذي أصدرته المحكمة، حيث إن الذي حكم به لم يقسم اليمين. وقد نشأت القضية من مطالبة كاليبوس بما أودعه عند صاحب المصارف باسيون الذي أعطاه إلى شخص يُدعى كيفيسياديس Cephisiades.

ضد نيكوستراتوس Nicostratus **(٣٦٨–٣٦٥ق.م.):** قرَّر أبولودوروس أن أريثوسيوس Arethusius المدين للدولة، يملك عبدين أوشكت الدولة أن تستولي عليهما وفاءً للدَّين. وقرَّر نيكوستراتوس شقيق أريثوسيوس أن العبدين ملكه. فكان على أبولودوروس أن يثبت في هذه الخطبة أن ذلك الادِّعاء كاذب.

ضد تيموثيوس Timotheus **(٣٦٢ق.م.):** وفيها يطالب أبولودوروس بنقود كان قد اقترضها تيموثيوس من باسيون.

ضد بولوكليس Polycles **(٣٥٨ق.م.):** أجبر أبولودورس على العمل في الأسطول مدةً تزيد على المدة المقررة؛ لأن بولوكليس الذي كان سيحلُّ محلَّه لم يستعد للخدمة، وعلى ذلك طالبه الأول بتعويض.

ضد ستيفانوس الثانية: انظر ضد ستيفانوس الأولى؛ حيث إن القضية الثانية ملحقة للأولى.

ضد يويرجوس Euergus **ونيسيبولوس** Mnesibulus **(٣٥٦–٣٥٣ق.م.):** وهي طعن في شهادة شهود في قضية ربابنة الأسطول السابقين المدينين للدولة.

ضد زينوثيميس Zenothemis **(تاريخها مجهول):** وهي قضية معقدة عن نصب وتواطؤ في أموال اقترضت نظير رهن سفينة، ثم محاولة إغراق هذه السفينة.

ضد بويوتوس الثانية (٣٤٨–٣٤٦ق.م.): (انظر الخطبة ضد بويوتوس الأولى). يطلب مانتيثيوس من إخوته دفع مهر والدته علاوةً على نصيبه من ميراث والده.

ضد ماكارتاتوس Macartatus **(حوالي ٣٤١ق.م):** وهي قضية عن وصية مزوَّرة ونزاع حول المطالبة بميراث.

ضد أولومبيودوروس Olympiodorus **(حوالي ٣٤١ق.م.):** حصل أولومبيودوروس وكاليستراتوس Callistratus، وكان أحدهما زوج أخت الآخر، على ميراث كونون. وكان هناك شك حول أحقِّيتهما لذلك الميراث؛ فصدر ضدهما حكم غيابي. فأقاما قضية جديدة طالب فيها أولومبيودوروس بالميراث كله، وطالب كاليستراتوس بنصفه، ولكنهما اتفقا فيما بينهما على أن يقتسماه بالتساوي. ولَمَّا حكم لأولومبيودوروس بالميراث كله، لم يعطِ منه شيئًا لزميله، وعلى ذلك أقام الأخير دعوى على أساس ذلك الاتفاق.

ضد لاكريتوس Lacritus **(تاريخها غير معروف):** يتنصَّل لاكريتوس من مسئولية ديون أخيه أرتيمون Artemon، وكان قد ورث ممتلكاته.

ضد فاينيبوس Phaenippus **(٣٣٠ق.م. «؟»):** لَمَّا وقع الاختيار على صاحب هذه الدعوى ليكون ربَّانًا للأسطول، ادَّعى أن فاينيبوس أقدر منه على القيام بذلك المنصب ويحتم عليه أن يبادله، ويهتم فاينيبوس بالبلاغ الكاذب.

ضد ليوخاريس Leochares **(تاريخها غير معروف):** وهي قضية أخرى عن التنازع على ميراث.

ضد أباتوريوس Apaturius **(٣٤١ق.م. «؟»):** يدَّعي أباتوريوس أن له في ذمة ضابط الجلسة نقودًا باقية من عقد بينهما ضاع منه. ويؤكد ضابط الجلسة احتجاج παραγραφή أنه دفع قيمة العقد كاملة منذ مدة وأن العقد مزِّق.

ضد فورميو (حوالي ٣٢٦ق.م.): اقترض فورميو نقودًا من خروسيبوس Chrysippus، وأمَّن له بأجر حمولة سفينة في رحلة إلى البسفور ذهابًا وإيابًا، ولكنه

لم يحمل السفينة عند عودتها، ولَمَّا غرقت السفينة لم يدفع له باقي مطلوبه؛ فأقام خروسيبوس الدائن دعوى بطلب السداد. فقدَّم فورميو παραγραφή يقول فيه إنه استردَّ كل المطلوب منه.

ضد ديونوسودوروس Dionysodorus **(٣٢٣-٣٢٢ق.م.):** وهي لقضية أخرى مماثلة، عن الإخلال بالتزامات عقد.

(ب) خطَب القضايا العامة

ضد أندروتيون (٣٥٥ق.م.): كتبت لديودوروس Diodorus. اقترح أندروتيون منح تاج ذهبي لرؤساء البحرية تقديرًا لجهودهم طول العام؛ فاعترض يوكتيمون Euctemon وديودوروس على ذلك الاقتراح لعدم شرعيَّته؛ لأن البحرية لم تزد في تلك السنة. ويهاجم ديموستينيس في هذه الخطبة نظام البحرية الرَّجعي، مشيرًا بالحجج التاريخية إلى أهمية البحرية، ويطعن بوجه عام في الحزب الذي يمثِّله أندروتيون، كما يعيب سلوك أندروتيون الشخصي.

ضد ليبتينيس (٣٥٤ق.م.): هذه هي أول مرة يظهر فيها ديموستينيس في محكمة عامة. اقترح ليبتينيس إبطال الإعفاء من الضرائب الموروث (ἀτέλειαι) الذي كان يمنحه من قام بخدمات جليلة للشعب؛ وكان ذلك النظام مفيدًا بالنظر إلى الأزمة السائدة وقتذاك. ولكن ديموستينيس اعترض عليه بحجَّة أنه خرق للثقة. «يجب أن تلاحظوا ألا تتَّهموا كحكومة بفعل ما تأنفون من فعله كأفراد.»[٨٤] ويقارن هذا الغش الحكومي بتزييف النقود[٨٥] الذي كان يعتبر جريمة عظمى.

ضد تيموكراتيس (٣٥٣ق.م.): هي خطبة أخرى كتبت لديودوروس، وتحوي عدة فقرات مكررة من الخطبة ضد أندروتيون. لَمَّا لم يستطع ذلك الرجل مع آخرين دفع أموال اختلسوها، أصبحوا عرضة للسجن؛ فاقترح تيموكراتيس مدَّ أجل الدفع حتى يمكَّنوا من السداد. ويقول ديموستينيس إن القانون قد سنَّ بطريقة شكلية غير صحيحة، ولم يكن شرعيًّا. وكثير من الحجج سفسطائي أو تافه، ولكن بعضها قوي مبني على أسس

[٨٤] الفقرة ١٣٦.

[٨٥] الفقرة ١٦٧.

عامة من سوء التشريع الماضي لصالح الأفراد. وهذه الخطبة سليمة جدًّا، وتحوي خاتمتها تقريظًا لقوانين أثينا.[٨٦]

ضد أريستوكراتيس Aristocrates (٣٥٢ق.م.): هذه الخطبة مستند هام للقانون الأثيني الخاص بجرائم القتل. فقد وطَّد أريستوكراتيس العزم على حماية خاريديموس Charidemus من كل أذى. وقد كان ذلك الرجل، وهو من مواليد يوبويا، قائدًا للجنود المرتزقة، وساعد في ضياع أمفيبوليس Amphipolis، ولكنه يقترح الآن استعادتها، وكان في ذلك الوقت يقود قوات الرئيس التراقي كيرسوبلبتيس Cersobleptes.

كتب ديموستينيس هذه الخطبة ليوثوكليس Euthycles الذي اعترض على ذلك الاقتراح. وبالخطبة تنسيق غير عادي في ثلاثة أقسام:

(١) عدم شرعية الاقتراح.
(٢) إن الاقتراح ضد مصلحتنا.
(٣) إن خاريديموس شخص لا يستحق الاعتبار.

ويرى ديموستينيس يتكلم بأحسن ما يستطيع في مرافعته عن المبدأ التشريعي، واستعماله للحجج التاريخية، وشرحه شروط خدمة الجنود المرتزقة وسياسة الضواحي البربرية. والقضية قوية ضد خاريديموس، فقد كان في خدمة أثينا وأولونثوس وآسيا وتراقيا، وقد ترك له الحبل على الغارب فتلاعب بها كلها.

ضد ميدياس (٣٤٧ق.م.): خطبة جليلة عن موضوع تافه لا تستطيع كل فصاحة ديموستينيس أن تظهره بمظهر التبجيل. وتتجلى العواطف القوية خلال الخطبة كلها. والنغمة مضخمة، وفيها فقرات مثيرة للشجون ومداعبات. وكل ذلك عن ضربة على الأذن!

كان ميدياس يكنُّ حقدًا شخصيًّا طويلًا لديموستينيس، كما كان خصمه السياسي. فعندما تعهَّد ديموستينيس بإعداد فرقة المرتَّلين لقبيلته في الديونوسيا Dionysia الكبرى سنة ٣٤٨ق.م. بذل ميدياس كل ما في مكنته ليفسد العرض؛ فصفع ديموستينيس على وجهه في المسرح أمام جميع الحاضرين في ذلك اليوم.[٨٧] فقدَّم ديموستينيس شكوى، وأدين

---

[٨٦] الفقرات ٢١٠ ... إلخ. «تنعكس أخلاق الحكومة في قوانينها.» (νόμους ... ὑπελίηφασι ... τρόπους τῆς πόλεως.)

[٨٧] انظر صفحة ٢٠٣.

ميدياس بانتهاك حرمة الشعائر الدينية (ἀιὰδικεῖν περὶ τήν ἑορτήν). لم يشمل ذلك الحكم الابتدائي أي غرامة، فصمَّم ديموستينيس على أن يسير في القضية إلى أقصى حد. ولَّما كان ميدياس قد اعتدى على موظف في أثناء تأدية وظيفته، وعلاوةً على ذلك قد انتهك بعمله هذا حرمة الشعائر الدينية؛ فقد أصبح عرضةً للحكم عليه بالإعدام أو مصادرة ممتلكاته. وفي النهاية، كما نعلم من أيسخينيس،[٨٨] حدث صلح وقبل ديموستينيس مبلغ نصف تالنت تعويضًا عمَّا أصابه. لم يكن ذلك المبلغ كافيًا، ولكن هناك أسبابًا قويةً تدعونا إلى الاعتقاد بأن ديموستينيس رضي به لأسباب سياسية؛ حيث نرى تفاهمًا في نهاية ذلك العام بينه وبين حزب يوبولوس الذي ينتمي إليه ميدياس.

عن السفارة (عن السفارة الكاذبة) (٣٤٤ق.م.): نأتي الآن إلى الخطبتَين العظيمتَين الناشئتَين عن العداوة السياسية بين ديموستينيس وأيسخينيس، وهما الخطبتان «عن السفارة» (٣٤٤ق.م.) و«عن التاج» (٣٣٠ق.م.). وسبق أن ذكرنا تاريخ الشجار، وشرحنا الخطبتين أنفسهما إلى حدٍّ ما؛ إذ لا يكون تاريخ حياتهما كاملًا بدون الإشارة الكاملة إلى خصومتهما.[٨٩] ومن الممكن أن نذكر هنا بعض ملاحظات تكميلية.

كان على ديموستينيس، في خطبة السفارة، أن يحارب من فوق تلٍّ؛ فإنه يتَّهم أيسخينيس بأنه أتمَّ صلحًا شائنًا لبواعث فاسدة. ولا يستطيع ديموستينيس تقديم دليل مباشر على جريمة خصمه، ولكن دليله بالقرائن قوي؛ فكان لديه نقطة لا نزاع فيها يتمسَّك بها. فعند عودة أيسخينيس من سفارته الثانية، أدلى بوقائع ووعود معينة ضللت الشعب ونتج عنها الاستيلاء على ثيرموبولاي وتدمير فوكيس. فلا بد أن يكون أيسخينيس نفسه إما مخدوعًا وإما مرتشيًا بوساطة فيليب، وحيث إنه لم يعترف بسابق انخداعه قط، إذَن فلا بدَّ أن يكون أثيمًا. وقد خصص قسم طويل من الخطبة (الفقرات ٢٩–٩٧) لشرح أثر سياسة أيسخينيس، وقسم آخر (الفقرات ٩٨–١٤٩) لإثبات إدانته بالنقط المذكورة وحوادث معينة أخرى في حياته، وقد توصَّل إلى قرينة لإدانته في الأقسام الأولى من الخطبة (الفقرات ٩–٢٨)؛ حيث يفسِّر التغيير المفاجئ في وجهة أيسخينيس. وسرد حوادث السفارة الثانية يقوِّي تأثير الخطبة (الفقرات ١٥٠–١٧٨). وحيث إن التهمة تكوَّنت بقدر ما سمحت به الظروف والقرائن؛ فإن بقية الخطبة، وهي بطول القسم الأول

---

[٨٨] كتيسيفون، فقرة ٥٢.

[٨٩] انظر الصفحات ٢٠٧–٢٠٨، ٢٣٥–٢٣٦.

تقريبًا، ليست في الحقيقة سوى تكملة لها. إنها خطبة شاذة، وفي بعض المواضع، حيث توضح المبادئ العامة، تذكِّرنا بنغمة الخطب النيابية.

والخطبة عن التاج[٩٠] **(٣٣٠ق.م.):** تفوق حتى الخطبة السابقة في مظهر عدم النظام الذي يحتمل حدوثه بسبب التصميم العميق. وإن وحدة وتركيب الخطبة بأسرها محفوظ بالمال الذي يتناول كل قسم، حتى إن المتكلم كان يجب عليه أن يوضح أنه مرتبط بالمدينة، وسياسته هي سياستها، ومصالحه الشخصية مختلطة بمصالح الشعب، وأن القضية يجب أن تكسب لا بنقط القانون الفنية، بل بتطبيق المبادئ الأوسع التي تسيطر على جميع إجراءات الحكومة.

والخطبة ضد أريستوجيتون Aristogiton **(٣٢٥ق.م.):**[٩١] تُعَد عادة مزوَّرة، ومع ذلك فإن وايل Weil يدافع عن صحة الخطبة الأولى ولا يتعرَّض للثانية، والقضية عبارة عن محاولة للتغلُّب على شخص دخيل خطر وخبيث. وهناك خطبتان عامتان بوساطة كتَّاب معاصرين أدخلتا في مجموعة خطب ديموسثينيس، وهما ضد نيايرا Neaera التي كتبها أبولودوروس بين عامَي ٣٤٣، ٣٣٩ق.م. عن موضوع التشريع القانوني betaira. وضد ثيوكرينيس Theocrines (حوالي ٣٤٠ق.م.) وقد كان ثيوكرينيس دخيلًا آخر احتقره ديموسثينيس باستمرار مستعملًا اسمه مثلًا دنيئًا؛ فقد أشار إلى أيسخينيس بأنه «ثيوكرينيس في شكل ممثِّل محزن.»[٩٢]

(ج) الخطب النيابية

عن السوموريين (٣٥٤ق.م.): تتناول إشاعة مؤدَّاها أن فارس عزمت على غزو اليونان، فيبيِّن ديموسثينيس أن ذلك الأمر لا أساس له من الصحة، ويثبِّط العزيمة في اتخاذ أية خطوات تهوُّرية، ولكنه يعترف بأن من المتوقَّع حدوث متاعب في المستقبل، وعلى ذلك يجد فرصة لتقديم خدمة لإصلاح البحرية، ويمكن الحصول على الأموال إذا ما دقّ

[٩٠] قارن صفحة ٢٣٥–٢٣٦.

[٩١] نعلم من دينارخوس، أريستوجيتون، فقرة ١٣، أن هذه المحاكمة سبقت قضية هاربالوس بوقت قصير.

[٩٢] عن التاج، فقرة ٣١٣، τραγικὸς Θεοκρίνης.

ناقوس الخطر،[٩٣] والواجب في ذلك الوقت هو استكمال المعدَّات. وأسلوب هذه الخطبة يشبه أسلوب المؤرِّخ ثوكوديديس.

لأجل سكان ميجالوبوليس (٣٥٣ق.م.): مدينة ميجالوبوليس مركز الحلف الأركاري، شيَّدها إيامينونداس Epaminondas، كانت تهدِّدها إسبرطة بشقِّها؛ فاستنجدت بأثينا، وفي الوقت نفسه أرسلت إسبرطة وفدًا. وقد أوصى ديموستينيس بالحياد، وعضد الأركاديين رغبة في الاحتفاظ بإخلاصهم من أجل توازن القوى، ولكنه فشل في ذلك.

الفيليبية الأولى (٣٥١ق.م.): انظر الصفحات ٢١٩–٣٢٣ (٢١٩ كان معارضًا سنة ٣٥١ للحزب القوي في أثينا؛ ٢٢٣ فشلت الفيليبية الأولى).

من أجل حرية أهل رودس Rhodians **(٣٥١ق.م.):** تعضد دعوى أهل تلك الجزيرة ضد ظلم أرتيميسيا Artemisia أرملة ماوسولوس الكاري Mausolus of Caria. وقد فشل ديموستينيس ثانية، ولا سيما بوساطة التعصب ضد رودس؛ لأنها كانت ثارت ضد أثينا عام ٣٥٧ق.م.

الأولونثيات الأولى والثانية والثالثة (كلها في سنة ٣٤٩ق.م.): انظر صفحة ٢٢٣.

عن السلم (٣٤٦ق.م.): انظر صفحة ١٧٧.

الفيليبية الثانية (٣٤٤ق.م.): انظر الصفحتين ٢٢٦–٢٢٧.

عن الخيرسونيز (٣٤١ق.م.): انظر الصفحتين ٢٢٧–٢٢٩.

الفيليبية الثالثة (٣٤١ق.م.): انظر الصفحات ٢٢٩–٢٣١.

الفيليبية الرابعة المزوَّرة (٣٤١–٣٤٠ق.م.): سبق أن ناقشنا هذه الخطبة في صفحة ٢٣١.

والخطبة عن الهالونيسوس Halonnesus **(٣٤٢ق.م.):** تنسب إلى هيجيسيبوس Hegesippus. وهي ردٌّ على عرض فيليب تقديم جزيرة هالونيسوس — التي استولى عليها، بعد تطهيرها من القراصنة الذين سكنوها — هدية إلى أثينا.[٩٤]

---

[٩٣] انظر الصفحتين ٢٥٦–٢٥٧.

[٩٤] كان هيجيسيبوس هذا خطيبًا من الدرجة الثانية، وكان معضِّدًا للحزب الوطني، وفي سنة ٣٥٧ق.م. قدَّم اتهامًا ضد رجل يدعى كاليبوس بخصوص شئون كارديا (عن هالوينسوس فقرة ٤٣، وموضوع الخطبة). وفي سنة ٣٤٣ق.م. كان عضوًا في الوفد الذي أرسل إلى فيليب (ديموستينيس، عن السفارة الكاذبة، فقرة ٣٣١). وكان لا يزال على قيد الحياة عام ٣٢٥ق.م. (كروازيه، المجلد الرابع، صفحة ٦٢١).

عن المعاهدة مع الإسكندر (تاريخها غير مؤكَّد، ربما كان ٣٣٥ق.م.): كتبها كذلك أحد الخطباء المعاصرين لديموستينيس؛ وموضوعها: يجب على الجميع احترام المعاهدات، ولكن مقدونيا قد أخلَّت بعهودها؛ ولذا كانت هذه فرصة لأثينا لتستعيد حرَّيتها.

الرد على خطاب فيليب وخطبة περὶ συντάξεως (عن النظام المالي)؛ ويعتبران عادة تزويرين بلاغيين.

وهناك خطبتان من خطب المحافل، إحداهما في الرِّثاء Epitaphius، والأخرى في الغزل Eroticus، ويغلب ألا يكون ديموستينيس كاتبهما. والخطابات الستة مشكوك فيها. وربما كانت الست والخمسون مقدمة Prooemia تمرينات حقيقية ترجع إلى مطلع حياته.

وتحوي الخطبة الباقية مناقشة جلية صريحة عن مختلف نقط اقتراح فيليب. وأسلوبها سهل ولكنه يخلو مما يميِّزه، وديونوسيوس الذي لم يشكَّ في أن هذه الخطبة من عمل ديموستينيس، يلاحظ أن الخطيب قد لجأ إلى أسلوب لوسياس (عن ديموستينيس باب ٩). وبالخطبة كثير من المدِّ في الحروف والمقاطع وبعض التكرارات ذات الوتيرة الواحدة. وراع النقَّاد الجملة الختامية للفقرة ٤٥: «إذا كنتم تحملون عقولكم في رءوسكم، لا في كعوب أقدامكم، حتى لا تمشوا عليها.» ويسمِّي أيسخينيس ذلك الخطيب κρύβυλος من طريقته المتأثِّرة بكونه يحمل في شعره «قرص» على أم رأسه.

الفصل العاشر

فوكيون، ديماديس، بوثياس

فوكيون

جرت القاعدة في أثينا في القرن الرابع، ألا يأمل الخطيب في النجاح إلا إذا تمرَّن تمرينًا فنيًّا. غير أنه يخرج لنا رجال في بعض الأوقات، يستغنون عن التعليم البلاغي، وذلك لقوة خلقهم أو مواهبهم الطبعية.

كان فوكيون من الرجال المبرَّزين في حزب الصلح، وهو أريستوقراطي بغريزته إن لم يكن بمولده، ويعجب به لمقدرته وإخلاصه معًا، حتى إنه رغم عدم كونه خطيبًا عظيمًا، إلا أن خطبه كانت تقابَل دائمًا بالاحترام والإجلال. لقد كان يطمح كبركليس في أن يكون سياسيًّا وقائدًا، وكان يتكلم أحيانًا في الجمعية العمومية بمقدرته السياسية. وتشير روايات مختلفة في بلوتارخوس إلى جهوده في الحصول على الإيجاز الذي أفاد في معظم الأحوال. وكان إلقاؤه حادًّا موجزًا؛ ويسميه ديموستينيس «السكين الذي يشطر خطَبي.» وهو حاضر الذكاء يسرُّ سامعيه مع عدم ذيوع سياسته. وفي إحدى المناسبات عندما صفَّق له الجمهور استحسانًا — وكان ذلك نادرًا لأنه لم يطلب ولم يتوقع الشهرة — توقف عن الكلام وقال: «هل قلت شيئًا سخيفًا؟»

ولَمَّا كان ناقدًا ديمقراطيًّا لا يرحم كما كان خادمًا أمينًا للديمقراطيين؛ فقد استمر يحثُّ على السلام مدفوعًا بأرقى البواعث، رغم أنه قضى خير سنيِّ حياته في الحرب. وكان فيليب والإسكندر يجلِّانه لخلقه السامي. وقد قبلته الحكومة التي ألَّفها أنتيباتر Antipater في سنة ٣٢٢ق.م. ولكنه ذهب ضحية لعداء الديمقراطيين المتطرفين، وأجبر على أن يتجرَّع السُّم وهو في سن الثمانين عام ٣١٧ق.م.

ديماديس

كان ديماديس من معاصري فوكيون، وعضوًا في نفس حزبه السياسي، وكان مثالًا طيبًا للرعاع. وقد اعتمد في نجاحه على بديهته الحاضرة ولسانه الذي لا ينفكُّ ينطق سيلًا من الألفاظ دون تعثُّر. وبعد موقعة خايرونيا التي أسر فيها، أصبح عاملًا مخلصًا لفيليب والإسكندر.[١] وقد نال شهرة عظيمة نتيجة للخدمات التي كان يظنُّ أنه قام بها لأثينا بعد خراب طيبة؛ فأقيم له تمثال في ميدان السوق، ومدَّت إجلالًا له، الموائد المستمرة في البروتانيوم Prytaneum، وهذا أفاد الشعب فائدة مادية. وأخيرًا قتله كاساندر Cassander بن أنتيباتر؛ فقام زملاؤه المواطنون بصهر تمثاله واستعمال المعدن في أغراض وضيعة.[٢]

يتجلَّى الخيال في حكمه وأمثاله التي سجِّلت؛ «لم يمُت الإسكندر، لأنه لو مات لفاحت الدنيا بأسرها من رائحة جثَّته.» أو «مقدونيا بدون الإسكندر مثل الكوكلوبيس Cyclops بدون عينه.»[٣] «وأخيرًا أثينا له.» «ليس كمقاتلي البحار الذين عرفهم أسلافنا، بل كعجوز شمطاء، تلبس نعالًا وتلعق حساء الشعير.»[٤]

ولنعلم أن الرأي العام كان يتلذَّذ بفصاحته، يجب أن نقرأ حكم ثيوفراستوس Theophrastus: «إن ديموستينيس خطيب جدير بأثينا، أما ديماديس ففي مستوًى أعلى من أثينا.»[٥] وليس لدينا أية وسيلة أخرى لنكوِّن أية فكرة عن أسلوبه.

بوثياس

كان بوثياس خطيبًا رفعته مواهبه من مركزه الوضيع، وكان أصغر كثيرًا من الخطيبَين السابقَين اللذَين عاصرا ديموستينيس تقريبًا.[٦] وكان أحد المدَّعين الذين حاكموا

---

[١] دينارخوس، ديموستينيس، فقرة ١٠٤، ὁμολογῶν λαμβάνειν καὶ λήφεσθαι.

[٢] بلوتارخوس، مورالیا Moralia، ٨٢٠ ف، κατεγώνευσαν εἰς ἀμίδας.

[٣] ديمتريوس، عن الفصاحة de Elocutione، الفقرات ٢٨٢–٢٨٤.

[٤] ديمتريوس، عن الفصاحة، فقرة ٢٨٦.

[٥] عن هذا الحكم وغيره، انظر بلوتارخوس، ديموستينيس، الأبواب ٨–١٠.

[٦] عن هذا الحكم وغيره، انظر بلوتارخوس، ديموستينيس، الباب الثامن.

ديموسثينيس في قضية هاربالوس سنة ٣٢٤ق.م. وقد نُفي بعد موت الإسكندر مباشرة؛ فخدم مع أنتيباتر كعامل له على البيلوبونيز، مستعملًا نفوذه لإحباط مساعي ديموسثينيس نحو توحيد المقاومة. ولا نعلم عنه شيئًا بعد ذلك. ويقال إنه كان ذا مواهب ولكن عاقه نقص التعليم. وكان هو مؤلف العبارة التي قيلت عن خطب ديموسثينيس «صهرت من المصباح» وغيرها التي تعادلها في المغزى ولو أنها ليست شائعة «لقد التهم ديموسثينيس إيسايوس بأكمله.»[٧]

[٧] ديونوسيوس، إيسايوس، الباب الرابع.

الفصل الحادي عشر

لوكورجوس، هوبيريديس، دينارخوس

لوكورجوس

حياته

تبعًا لأقوال ليبانيوس Libanius، كان لوكورجوس أكبر عمرًا من ديموسثينيس،[١] ولو أنهما كانا في عصر واحد. وكان ينتسب إلى عائلة إتيوبوتاداي Eteobutadae المعروفة، التي يتصل نسبها ببوتيس Butes شقيق إريخثيوس Erechtheus، وكانت وظيفة كهنة بوسيدون-إريخثيوس Posidon-Erechtheus ومناصب دينية أخرى وراثية في تلك العائلة.

لقد حكمت حكومة الثلاثين على جده المسمَّى لوكورجوس بالإعدام، ويعرف والده لوكوفرون Lycophron باسمه فقط.

نجد في الخطب الباقية لذلك الخطيب، وكذلك في أعماله المسجَّلة، كثيرًا من الأدلة على صدق تقواه وعقائده الدينية المتغلغلة، وكان هذا طبيعيًّا في ممثِّل حقيقي لعائلة كهذه. وقد تكون تقاليد هذه الأسرة هي التي وجَّهت أفكاره إلى فضائل الزمن الغابر، زمن عظمة أثينا، عندما كان يرجى من أي مواطن أن يضحِّي بنفسه، ويظهر صداقة نحو إسبرطة.

ولا نعلم شيئًا عن حياته السياسية المبكرة سوى أنه كان حليفًا لديموسثينيس،[٢] وقد اشتهر اسمه بعد موقعة خايرونيا، وكان أحد الخطباء العشرة الذين طلب الإسكندر تسليمهم بعد تخريب طيبة.

---

[١] رأي لديموسثينيس، ضد أريستوجيتون.

[٢] نرى اسمه في بعض مخطوطات ديموسيثينيس (الفيليبية الثالثة فقرة ٧٢) كأحد أعضاء الوفد الذي سافر في رحلة إلى البيلوبونيز سنة ٣٤٣ق.م. لإثارة المعارضة ضد فيليب.

وفي سنة ٣٣٨ق.م. عندما قوي نفوذ الحزب الحربي، خلف يوبولوس Eubulus مرشَّح حزب الصلح، في مركز ماليٍّ هام. ويسمَّى في تقرير بلوتارخوس الكاذب «وكيل الإيرادات العامة» (τῆς κοινῆς προσόδου ταμίας) الذي يحتمل ألا يكون لقبه الصحيح ولو أنه يمثِّل منصبه،[٣] وقد استمر في ذلك المنصب اثنتَي عشرة سنة، وإن إدارته الطويلة التي امتازت بالأمانة الخالصة، قد حسَّنت مالية أثينا تحسينًا تامًّا. وقد بنى في أثناء قيامه بمنصبه مسرحًا، وناديًا للمسابقات الموسيقية Odeon، وأكمل مصنعًا للأسلحة، وزاد في قوة الأسطول، وحسَّن ميناء بيرايوس، كما زيَّن المدينة بالأعمال الفنية من تماثيل لعظماء الشعراء وضعت في الميادين العامة، وعلامات النصر الذهبية، وقدَّم الأواني الذهبية للمعابد. وقد أظهر تقديره للشعراء بأن أصدر أمرًا يقضي بعمل نسخة رسمية لأعمال شعراء التراجيديا الثلاثة العظام؛ تلك النسخة التي ذهبت بعد ذلك إلى مكتبة الإسكندرية.[٤]

لقد أدرك أن رسالته هي رفع مستوى الحياة العامة والخاصة، ولما كان هو نفسه متقشِّفًا،[٥] فقد أصدر قوانين النفقة، وكرجل دينيٍّ بغريزته وبالوراثة، بنى المعابد وشجَّع إقامة الأعياد الدينية، وكوطنيٍّ متحمِّس مؤمن بوطنيته، ظن أن من واجبه القيام بدور المدَّعي العام؛ فيحاكم كل من لا يقوم بواجبه المقدس نحو وطنه؛ وبتلك الطريقة باشر عدة محاكمات نجحت كلها تقريبًا.

لم يترافع لوكورجوس عن غيره نظير أجر مطلقًا، كما أنه لم يكتب قط خطَبًا لغيره. وفي الحقيقة كان يظن أنه من الإجرام أن يكتب أو يتكلم عن اتهاماته.[٦] وتتميَّز اتهاماته بقسوة لا تلين، حتى ليقارنه معاصروه بدراكو Draco، قائلين إنه يكتب اتهاماته بقلم يغمسه في الموت بدلًا من الدم.[٧]

---

[٣] انظر أرسطاليس Ἀθηναίων πολιτεία، باب ٤٣، مع مذكرات Sandys. فلا بد وأن كان إما ταμίας τῶν στρατικῶν، وإما رئيسًا لـ οἱ ἐπὶ τὸ Θεωρικόν، أو ربما كان يشغل هذين المنصبين، كما يظهر من مدى عمله، ويقول بلوتارخوس الكاذب πιστευσάμενος τὴν διοίκησιν τῶν χρημάτων.

[٤] استعارها بطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphus ليعمل منها نسخة، وأودع مبلغًا عظيمًا من المال تأمينًا لذلك، ولكنه ضحَّى أخيرًا بالمبلغ، واحتفظ بالنسخة الأصلية، وأهدى إلى أثينا نسخته الجديدة.

[٥] كانت ملابسه في الصيف هي نفس ملابسه في الشتاء، وكان لا يلبس حذاءً إلا في الطقس الشديد البرودة (بلوتارخوس الكاذب).

[٦] انظر اتهاماته لمحاميي ليوكراتيس، فقرة ١٣٥.

[٧] οὐ μέλανι ἀλλὰ θανάτῳ χρίοντα τὸν κάλαμον κα τὰ τῶν πονηρῶν (بلوتارخوس الكاذب).

مات لوكورجوس ميتةً طبيعيةً في سنة ٣٢٤ق.م.[٨] فنظم له الشعب جنازة عامة. وقد اتهمه عدوه مينيسيايخموس Menesaechmus الذي خلفه في منصبه، بأنه ترك عجزًا في عهدته، وتبعًا لإحدى الروايات، نقل لوكورجوس إلى مجلس الشعب وهو يحتضر؛ فدافع عن نفسه عن تلك التهمة بنجاح. وقد أُدين أبناؤه من بعده بدفع التعويض، ولَمَّا لم يتمكنوا من الدفع؛ زجَّ بهم في غياهب السجن، رغم دفاع هوبيريديس المجيد، ثم أخلى سبيلهم بالتماس قدَّمه ديموستينيس وكان وقتئذٍ في المنفى.[٩]

أعماله

حفظ للوكورجوس خمس عشرة خطبة في مجموعة الآثار القديمة، وكلها تقريبًا اتهامات عن تهم خطيرة. وقد حاكم يوكسينيبوس Euxenippus الذي دافع عنه هوبيربديس، وتكلم ضد الخطيب ديماديس، وتكلم متحالفًا مع ديموستينيس ضد أريستوجيتون الدخيل. ومن الخطب الأخرى التي نعرفها بالاسم «ضد أوتولوكوس Autolycus»، و«ضد ليوكراتيس Leocrates»، وخطبتان «ضد لوكوفرون Lycophron»، و«ضد لوسيكليس Lysicles»، و«ضد مينيسايخموس»، و«دفاع عن نفسه ضد ديماديس»، و«ضد أيسخورياس Ischyrias» πρὸς τὰς μαντείας (عنوانها غامض)، و«بخصوص إدارته»، و«بخصوص الكاهنة»، و«بخصوص الكهنوت».[١٠]

وقد بقيت لنا الآن خطبة واحدة له، وهي «اتهام ليوكراتيس».

فرَّ ليوكراتيس، المواطن الأثيني، في أثناء مدة الفزع عقب معركة خايرونيا، من أثينا إلى رودس، ثم هاجر من هناك إلى ميجارا حيث اشتغل بالتجارة خمس سنوات، وأخيرًا عاد إلى أثينا حوالي عام ٣٣٢ق.م. ظنًّا منه أن هجره وطنه قد نُسي، ولكن لوكورجوس حاكَمه كخائن لوطنه.

لم يخصِّص لوكورجوس من الخطبة غير جزء صغير لإثبات التهمة، ويعتبر لوكورجوس بوساطة الفقرة ٣٦ أن التهمة معترف بها على العموم. ويشمل أغلب المائة

---

[٨] سويداس Suidas.

[٩] مفترضين (مع بلاس) صحة خطاب ديموستينيس الثالث المشكوك فيه.

[١٠] أخذت هذه القائمة من سويداس، وتختلف عن القائمة التي جمعها بلاس من مصادر مختلفة، في بعض التفاصيل.

والأربعة عشر قسمًا الباقية تعليقًا وعبارات شاذة تهدف إلى تأكيد خطورة الجريمة، وتقدم سابقة لإصدار عقاب صارم في مثل تلك الحالات.

التحليل

(١) المقدمة: تتطلَّب العدالة والتقوى ضرورة تقديم ليوكراتيس للمحاكمة (الفقرتان ٢-١) إن دور المدَّعي دور غير محبوب، بيد أنه من واجبي أن أقوم به (الفقرات ٣–٦). هذه قضية ذات أهمية قصوى، ويجب عليكم أن تعطوا قراركم دون تعصُّب ولا محاباة، كي تفتخروا بذلك على الأريوباجوس (الفقرات ٧–١٦).

(٢) السرد: فرار ليوكراتيس إلى رودس. الدليل (الفقرات ١٧–٢٠). انتقاله إلى ميجارا، وعمله هناك. الدليل (الفقرات ٢١–٢٣).

(٣) الحوار: تعليق على السرد. أوجه الدفاع الممكنة (الفقرات ٢٤–٣٥). الآن وقد أثبتت القضية، يبقى شرح ظروف أثينا في الوقت الذي هجرها فيه ليوكراتيس (الفقرة ٣٦).

(٤) الفزع بعد معركة خايرونيا (الفقرات ٣٧–٤٥). الثناء على من سقطوا شهداء في تلك الموقعة (الفقرات ٤٦–٥١). الإفراج مستحيل (الفقرات ٥٢–٥٤). تفنيد أساس آخر من الأسس التي استند إليها الدفاع (الفقرات ٥٥–٨٥). عدم السماح بأعذار أخرى (الفقرات ٥٩–٦٢). محاولة المحامين التقليل من أهمية الجريمة تدحض بالاستشهاد بمبادئ دراكو (الفقرات ٦٣–٦٧). يستشهدون بالحوادث المماثلة السابقة؛ الجلاء عن المدينة قبل موقعة سالاميس: يمكن تطبيق هذه السابقة ضدهم (الفقرات ٧٥–٨٩). ليوكراتيس يقول إنه واثق من براءته «يرغب الإله في أن يحطم كل شيء خلقه من قبل.» (الفقرات ٩٠–٩٣). الاحتياط (الفقرات ٩٤–٩٧). أمثلة التضحية بالنفس، اقتباسات من يوربيديس وهوميروس (الفقرات ٩٧–١٠٥). الثناء على إسبرطة. تأثير تورتايوس Tyrtaeus على المتحمِّسين للوطن. ثيرموبولاي.

(الفقرات ١٠٦–١١٠). قسوة أسلافنا نحو الخونة (الفقرات ١١١–١٢٧). قسوة إسبرطة تماثل تلك القسوة (الفقرتان ١٢٨–١٢٩). القسوة المناسبة تثبِّط من همَّة الخيانة، وخيانة ليوكراتيس من أدنأ أنواع الخيانة (الفقرات ١٣٠–١٣٤). محاموه سيِّئون مثله (الفقرات ١٣٥–١٤٠). الاستشهاد بعدالة سخط القضاة (الفقرات ١٤١–١٤٨).

الخاتمة. (الفقرتان ١٤٩– ١٥٠).

«لقد أتيت لنجدة بلادي، وديانتها، وقوانينها، وقدَّمت قضيتي باستقامة وعدل، غير واشين بليوكراتيس لطريقة حياته العامة، ولا متَّهمًا إياه بتهم غريبة عن موضوعنا الحالي، ولكن يجب أن تلاحظوا أنكم بإطلاقكم سراحه، إنما تحكمون على بلادكم بالموت والعبودية. فأمامكم وعاءان؛ أحدهما لأصوات الإدانة، والآخر للبراءة. فالأصوات التي تُوضع في هذا تعني خراب بلدكم الذي ربَّاكم، والتي توضع في ذاك تعطي للطمأنينة المدنية والرخاء. وإذا تركتم ليوكراتيس يخرج طليقًا؛ فإنكم تكونون قد أعطيتم أصواتكم لخيانة أثينا وديانتها وسفنها. ولكن إذا حكمتم عليه بالإعدام، تشجِّعون غيره على حراسة وطنكم والمحافظة على سلامته وسلامة موارده ورخائه. إذَن تصوَّروا، أيها الأثينيون، أن الأرض وأشجارها تتضرَّع إليكم، وأن الموانئ وأرصفتها وأسوار المدينة ترجوكم، وأن المعابد والأماكن المقدسة تحثُّكم على أن تساعدوها، وتمثِّلوا بليوكراتيس، متذكرين أية تهَم يتَّهم بها، وأن الرحمة ودموع العطف لا تعادل سلامة القوانين والدولة.»[١١]

أسلوبه، ... إلخ

يسمَّى لوكورجوس تلميذ إيسوكراتيس، ولا يمكننا أن نتأكد مما إذا كان حقيقة تلميذًا لذلك الأستاذ العظيم، ولكن مما لا شك فيه أنه درس أعمال ذلك الأستاذ، ويمكننا تتبُّع أثر البانيجوريك هنا وهناك في تراكيب الجمل، وفي مصطلحات كلامية معيَّنة، تتميَّز بأسلوب الظهور، وقد لفت نظرنا بلاس وغيره إلى جمل غير مألوفة في الخطبة ضد ليوكراتيس، على قياس وصيغ جمل في إيسوكراتيس، مع بعض تغييرات في الألفاظ تبعًا للظروف المختلفة.[١٢] كذلك إن استخدام لفظين مترادفين، أو بمعنًى مشابه؛ حيث كان يمكن استعمال لفظ واحد، خاصة بذلك الأسلوب؛[١٣] نحو: يحمي ويقي، فقرة ٣، غير شهير وغير متألق النجم، فقرة ٩١، كبر القلب وطيبته والنبل، فقرة ١٠٠.

---

[١١] الفقرتان ١٤٩–١٥٠.

[١٢] أمثلة ذلك، قارن الفقرة ٣، ἐβουλόμην δ' ἄν, ὥσπερ ὀυφέλιμόν έστι, ὀυφέλιμόν έστι etc. بإيسوكراتيس ٨ (عن السلم) فقرة ٣٦، ἠβουλόμην δ' ἄν, ὥσπερ προσῆκόν ἐστιν, etc. وأيضًا فقرة ٧ بإيسوكراتيس، ٧ (أربوباجيتيكوس) فقرة ٤٣، ... إلخ.

[١٣] قارن ما سبق بصفحة ١٤٥.

وبذلك يمكننا تبويب العبارات مثل τὰ κοινὰ τῶν ἀδικημάτων بدلًا من τὰ κοινὰ ἀδικήματα[١٤] (فقرة ٦)، واستخدام المصادر في صيغة الجمع، نحو εὔνοιαι, φόβοι الفقرتان ٤٨، ٤٣.

ينوِّع لوكورجوس كثيرًا في طرق المد في المقاطع، ويتحاشاه في بعض الحالات بحرية، بوساطة تحوير بسيط في نظام الألفاظ الطبعي،[١٥] وقد أمكنه اجتناب المد في بعض الفقرات دون تغيير نظام الكلمات، وقد اقتضى هذا العمل مهارة أعظم،[١٦] بَيدَ أننا نجد جملًا تكثر فيها حروف العلة الممدودة بحيث تحدث تعقيدًا لفظيًّا.[١٧] وقد نجد أمثلة للكتابة بدون عناية في وصل الجمل والعبارات وصلًا غير فنيٍّ كما في الفقرتين ٤٩–٥٠، حيث تربط عدة جمل متتابعة بكلمة لأن ...[١٨] أو في تزاحم أسماء المفعولين بشكل غير مستحبٍّ كما في الفقرة ٩٣.[١٩] ويجب علينا الاعتراف بأن لوكورجوس رغم مشابهته لمميزات النثر الإيسوكراتي؛ إذ يقلِّدها عن غير قصد، إلا أنه كان يجد متعة في الموضوع الذي يكتب فيه، ويحصر فيه ذهنه حتى إنه لا يهتم بالأسلوب. ومع أنه كان يكتب خطبه بنفسه كديموستينيس، إلا أنه كان ينتمي إلى جماعة الخطباء المرتجلين أمثال فوكيون.

ونرى كذلك ميله إلى أسلوب المحافل في معالجة موضوعاته، ففي الفقرات ٤٦–٥١ لا نجد سوى رثاء حارٍّ لمن قتلوا في خايرونيا. وتبدأ باعتذار (فقرة ٤٦) ويقول إنها قد تبدو غير مناسبة، ولكنها عملت بصراحة لتبيُّن الفرق بين الوطني الغيور والخائن لوطنه. والأقسام الختامية للمدح هي كما يأتي:

«وإذا كنت أستعمل تعقيدًا صريحًا، ولو أنه حقيقي، أقول إنهم انتصروا في الموت؛ لأن جوائز الحرب للشجعان هي الحرية والإقدام، وقد ينال الميت هذين. وزيادة على ذلك

---

[١٤] كان يمكن استخدام هذا التعقيد اللفظي أصلًا؛ لاجتناب المد في المقاطع كما في المثال المذكور، وفي فقرة ١١١ τὰ καλὰ τῶν ἔργων ويستعمل كذلك في الأحوال التي تدخلها الاعتبارات المماثلة لما في الفقرة ٤٨: τοὺς ποιητοὺς τῶν πατέρων.

[١٥] مثال ذلك الفقرة ٧ πόλεως οὐδ' ἐπ' ὀλιγὸν χρόνον συνέχει οὐδ' تحاشى بحرية.

[١٦] مثال ذلك الفقرات ٧١–٧٣.

[١٧] مثال ذلك الفقرة ١٤٣ καὶ αὐτίκα μάλ' ὑμᾶς ἀξιώσει ἀκούειν αὐτοῦ ἀπολογουμένου، والفقرة ٢٠ πολλοὶ ἐπείσθησαν τῶν μαρτύρων ἢ ἀμνημονεῖν ἢ μὴ ἐλθεῖν ἢ ἑνέραν πρόφασιν εὑρεῖν.

[١٨] انظر الترجمة بالصفحة التالية.

[١٩] φυγόντα, καὶ ἀκουσαντα ..., ἀφικόμενον καὶ Καταφυγόντα, καὶ οὐδὲν ἧττον ·· ἀποθανόντα.

فلا يمكننا أن نقول إن هزيمتنا كانت بسببهم، أولئك الذين لم تتزعزع نفوسهم أمام رهبة هجمات العدو، وليس من العدل أن نعزو الهزيمة إلى من سقطوا أشرافًا في ميدان القتال؛ فقد اختاروا الموت النبيل هربًا من العبودية. إن إقدام هؤلاء لبرهان كافٍ؛ فإنه وحدهم دون سائر الإغريق قد تمتعوا بحرية الجسد؛ لأنهم لما تركوا الحياة استعبدت كل اليونان، وقد دفنت حرية بقية الإغريق مع أجسام أولئك الشجعان في قبر واحد، وبذا أثبتوا للجميع أنهم لم يهتموا بنهايتهم الشخصية، بل واجهوا الخطر من أجل السلامة العامة. إذَن أيها السادة، لا أخجل إذا قلت إن أرواحهم إكليل على جبين وطنهم.»[٢٠]

لو استثنينا من هذا عيبًا طفيفًا في الأسلوب، لكان حسنًا في طريقته للأسلوب الذي سنَّته التقاليد ليلائم مثل تلك المواضيع، والاصطلاحات العرفية قليلة فيه، ورغم استعارته الجريئة؛ فإنه أقل إخلاصًا من جورجياس Gorgias، متجنِّبًا الإغراق في أسلوبه المحيِّر.

ولولا اعتذار الخطيب، لما أعرنا ذلك اهتمامًا، وإن أثره ليضيع في الغرض الذي استعمل فيه في فقرة الحوار التالية:

«ولكونهم أظهروا مبررًا لبذل شجاعتهم؛ فإنكم أنتم وحدكم يا رجال أثينا دون سائر الإغريق، تعرفون كيف تجلِّون النبلاء. ففي الولايات الأخرى، تجدون نصبًا للرياضيين في ميادين الأسواق، أما في أثينا؛ فإن هذه التماثيل للقوَّاد ولمن قتلوا الطغاة. فتِّشوا بلاد الإغريق كلها فلن تجدوا سوى نفر قليل مثلهم، بينما تجدون في كل جهة رجالًا ظفروا بأكاليل النصر لفوزهم في المسابقات الرياضية، وحيث إنكم تمنحون أسمى الأمجاد لمن يقوم من مواطنيكم بخدمات جليلة، إذن يحق لكم أن توقعوا أقسى عقاب على من خانوا ودنَّسوا شرف وطنهم.»[٢١]

ويماثل استشهاده بالتاريخ القديم استشهاد إيسوكراتيس، كما في خطبتَي فيليب والبانيجوريك، غير أن كثيرًا من تلك الحوادث أدَّى إلى محاكمة من نوع المحاكمة التي تصدَّى لها لوكورجوس، بينما الحوادث التي يستشهد بها إيسوكراتيس تساعد دائمًا على إيضاح الدرس الذي يريد إلقاءه. وعلى ذلك، فالفقرة التالية تسوق إلى الدخول في تورتايوس Tyrtaeus، واقتباس فقرات طويلة من أعماله، وليس هناك سوى حجة واهية لإثبات أن كل ذلك كان يمتُّ إلى القضية بصلةٍ ما.

---

[٢٠] الفقرتان ٤٩–٥٠.

[٢١] فقرة ٥١.

«لقد سمع أسلافنا عن تلك الحوادث وتبارَوا في مثل هذه الأعمال، وكانوا يميلون إلى الشجاعة والرجولة، حتى إنهم كانوا يقنعون بالموت، لا فداءً لمسقط رأسهم فحسب، بل فداءً لبلاد الإغريق برمتها كوطن عام. وعلى أية حال؛ فإن الذين واجهوا البرابرة في ماراثون، قد هزئوا من تسلُّح آسيا بأسرها، وأذاقوها الهزائم المُرة، وبتضحياتهم الفردية حصلوا على السلامة لجميع الإغريق عامة، مفتخرين لا بشهرتهم، بل بما قاموا به من أعمال تجدر بوطنهم، ونصبوا أنفسهم أبطالًا للإغريق، وأسيادًا للبرابرة؛ لأنهم لم يتخذوا المهنة الاسمية للشجاعة، لكن قاموا بعرض فعليٍّ لها أمام العالم قاطبة.»[٢٢]

نرى أن لوكورجوس قد لجأ هنا إلى الأسلوب الطباقي الخاص بأنتيفون، من استعمال كلمات وعكسها، مثل «قول» و«فعل» و«خاص» و«عام» ونحوها. ويذكِّرنا في «ليوكراتيس» بين آونة وأخرى بأنتيفون بوساطة كثرة ذكره للاعتبارات الدينية، ويفسِّر ذلك بأنه كان يقصد دائمًا ذكر تلك الأمور الدينية التي نذر أن يقدمها رغبة في أن يكون معلِّمًا ومصلحًا. كذلك يقدم قصة تهذيبية بحتة لشاب صقليٍّ كان يتأخر دائمًا في سيره خلف والده، لينقذه إذا ما ثار بركان إتنا Etna، وعلى ذلك نجا ذلك الشاب بينما هلك كل من عداه، وهاك عذره: «قد تكون هذه القصة أسطورة، ولكن يجدر بكل الشبان سماعها الآن.»[٢٣] وطريقة المحاضر واضحة في غير ذلك. «هناك ثلاثة عوامل للنفوذ أهم من سواها في حراسة وحماية الديمقراطية وصالح المدينة ... إلخ». «هناك أمران يعلِّمان شباننا: عقاب المسيئين، ومكافأة المجيدين.»[٢٤]

وعلاوةً على تلك المحسِّنات، يذكر لوكورجوس في كلامه كثيرًا من العبارات الشعرية والاستعارات التي ينبذها ذوق إيسوكراتيس الأكثر حدَّة، وتجدر ملاحظة استعماله خصائص الإنسان للجمادات والنباتات في خاتمة الخطبة:

«تصوروا أيها الأثينيون أن الأرض وأشجارها تتضرَّع إليكم، وأن الموانئ وأرصفتها وأسوار المدينة ترجوكم، وإن المعابد والأماكن المقدسة تحثُّكم على أن تساعدوها.»[٢٥]

---

[٢٢] الفقرة ١٠٤.

[٢٣] الفقرة ٩٥.

[٢٤] الفقرتان ٣، ١٠. قارن كذلك الفقرة ٧٩.

[٢٥] الفقرة ١٥٠. قارن كذلك الفقرة ٤٣، «لم يكتب شيئًا عن سلامة الأمة في وقت كانت الأمة تهب فيه أشجارها، ويهب الأموات قبورهم، والمعابد عدَّتها». والفقرة ١٧ οὔτε τοὺς λιμένας τῆς πόλεως

ولا بد أن لوكورجوس كان يريد اختبار صبر سامعيه بذكر فقرات من الشعراء. وربما لم يجرؤ خطيب آخر على تلاوة خمسة وخمسين سطرًا من يوريبيديس، ثم يتبعها بعد اقتباس قصير من هوميروس باثنين وثلاثين سطرًا من تورتايوس. ولا مراء في أن أيسخينيس كان مغرمًا بالاقتباس، ولكن مقتبساته كانت على العموم قصيرةً، وفي الموضوع، وكان يستطيع الإفادة من استعمال بيت واحد من الشعر. كذلك كان ديموستينيس يستخدم الاقتباس عندما يريد أن يتفوق على اقتباسات خصمه ويطغى عليها، غير أنه كان يلاحظ الاعتدال والملاءمة. أما اقتباسات لوكورجوس الطويلة فسطحية؛ لأن ما يتلوه من يوربيديس يكون زيادة على موضوعه، لأنه يكون قد اختصر القصة التي يريد الاستشهاد بها، في ستة سطور. وغرضه من قصصه هو جعل سامعيه يعتقدون أن «ليوكراتيس نوع شاذ من الرجال».

ينقص لوكورجوس الذوق في مثل تلك المواضيع؛ أي ينقصه ذوق تقدير المناسبة، ومع كلٍّ فإن السامعين يشعرون بأنه يتكلم طبيعيًّا، وذلك لسبب خلقه الشخصي، وينال أسمى تقريظ ethos بوساطة ثباته وعدم تأثُّره في أثناء الإلقاء. ونعرف ميله إلى التراجيديا من أنه أمر بنسخ صورة رسمية من الروايات لحفظها، ولو أن الباعث الديني يكفي لتبرير ذلك الأمر، إلا أنه يحتمل أن يكون شعوره الشخصي من حبه الخاص للأعمال التي خلَّدها هو السبب في أمره بنسخ صورة من تلك الأعمال.

ورغم أننا لو حكمنا عليه بمقاييس فنية، لكان عديم المهارة، إلا أنه يؤثِّر علينا بخلقه المبجَّل؛ فإنه لا ينحدر بكرامته حتى يستعمل وسائل بلاغية تحُط من قدره، ولا يلجأ إلى القذف الشخصي في خصمه؛ فيعد بالتزام حد التهمة المعيَّنة التي تقوم عليها المحاكمة،[٢٦] ويحق له الافتخار بذلك في نهاية الخطبة،[٢٧] ويصرَّح بأنه لا يحمل أية ضغينة شخصية ضد ليوكراتيس، رغم أن ذلك يعرِّضه لشبهة النفاق، وإنما يضطره إلى ذلك حافز الغيرة الوطنية وحده، ونحن نصدِّقه في ذلك،[٢٨] وقد يبدو لنا شديد القسوة في اتهاماته، وقد لا

---

٦١ والفقرة ἑλῶν πόλείας ἔστι θάνατος ἀνάστατον γενέσθαι ولهوبيريديس مثل تلك المصطلحات الجريئة، كقوله «حكموا على المدينة بالموت».

[٢٦] الفقرة ١١.

[٢٧] الفقرة ١٤٩.

[٢٨] الفقرة ٥.

نعتبر جريمة ليوكراتيس أكثر من الجبن، ولكننا مقتنعون بأن لوكورجوس كان يعتبرها أعظم من سائر الجرائم، ومن الجلي أن المجمع أيضًا كان مقتنعًا بذلك.[٢٩]

كان يعتبر لوكورجوس عدم الوطنية جريمة ضد الدين، وكان للدين أعظم قدر في خطابته، إذَن فلا شك في إخلاصه. وكان يذكر محكمة الأريوباجوس بالثناء العظيم؛ تلك المحكمة التي كانت تحت الرعاية الدينية مباشرة، وكانت تختص بالأمور الدينية أكثر من أية محكمة أخرى.[٣٠] وكان الأثينيون يجلُّون الأريوباجوس كثيرًا، ولكنها لم تكن محكمة ديمقراطية، بل من بقايا العصور قبل الديمقراطية. وإن الخطيب الذي يريد أن يحظى بتعضيد سامعيه، لا يثني على المحكمة الأريستوقراطية العتيقة، بل على المجمع العصري العام الذي يتكلم أمامه. وإن لوكورجوس يثني ويلوم حيثما يرى استحقاق الثناء أو اللوم، ولم تعجبه المحاكم الديمقراطية قط.

«وأنا كذلك، سأتبع العدالة في اتهامي، غير مزوَّر شيئًا، ولا ذاكرًا أشياء لا تمتُّ إلى القضية بصلة؛ لأن أغلب من يأتي أمامكم لا يسلكون الطريق المناسبة في أقوالهم وأفعالهم؛ فهم إما أن ينصحوكم بما فيه صالح الشعب، وإما يتهموا بتهم صحيحة أو كاذبة من كل نوع ممكن خلاف التهمة التي دعيتم للحكم فيها.»

«ليست هناك صعوبة في أي هذَين الطريقَين، فمن السهل إبداء رأي عن موضوع لا تتناقشون فيه، كما أنه من اليسير الاتهام بتهم لا يردُّ عليها أحد. ولكن ليس من العدل أن يطلبوا منكم إصدار حكم يتفق مع العدالة عندما يرون أنهم يتَّهمون بغير حق، وإنكم أنتم المسئولون عن هذا التشويه في العدالة؛ لأنكم أنتم الذين أعطيتم هذا التصريح لمن يظهر أمامكم.»[٣١]

والخطبة بأكملها زاخرة بالاستشهادات الدينية، وقد لاحظ ريدانتز Rehdantz أن الكلمة «إله» θεός مكررة أكثر من ثلاث وثلاثين مرة، وكثيرًا جدًّا نجد كلمات أخرى من أصل ديني، رغم أن هذا الخطيب لا يستعمل أبدًا قسمًا مثل «ὦ γῆ καὶ θεοί» بحق الأرض

[٢٩] أطلق سراح ليوكراتيس بأغلبية صوت واحد فقط.

[٣٠] الفقرة ١٢: «إنها أعظم من المحاكم الأخرى، حتى إن من يدانون أمهم لا يشكُّون في عدلها؛ فيجب عليكم أن تجعلوها نموذجًا لكم.»

[٣١] الفقرتان ١١-١٢.

والآلهة!» الذي يستعملها ديموستينيس. وهذا التكرار أقل أهمية من النغمة الخطيرة للفقرات التي يوجد فيها مثل تلك الاستشهادات. وتدل جمله الأولى على الخطة التي يريد الاستمرار فيها.

«أي رجال أثينا، ستقرُّ العدالة والتقوى عينًا بالاتهام الذي سأقوم به، بالنيابة عنكم، وبالنيابة عن الآلهة، ضد المدَّعى عليه ليوكراتيس؛ لأني أتضرع إلى أثينا والآلهة الآخرين، وإلى الأبطال الذين ستقوم تماثيلهم في هذه المدينة وفي المملكة، أنني إذا اتَّهمت ليوكراتيس بالعدل، وإذا كنت قد أحضرت إلى المحكمة خائن معابدهم، ومذابحهم، ومحاريبهم، والقرابين التي فرضتها القوانين وسلَّمها إليكم آباؤكم وأجدادكم، أن يجعلوني اليوم مدَّعيًا جديرًا بما يقدِّمه من اتهامات تتطلَّبها مصالح الشعب ومصالح المدينة، وأنكم تتذكرون أن مداولاتكم تختص بآبائكم، وأبنائكم، وأزواجكم، ووطنكم، ودينكم، وأنه يوجد تحت رحمتكم ذلك الشخص الذي خانهم جميعًا، وأن تبرهنوا على أنكم قضاة لا تلين قلوبكم، الآن وفي المستقبل على الدوام، نحو مقترفي مثل هذه الجرائم نوعًا ودرجة. وإذا كان من أحضرته إلى المحاكمة أمام هذا المجمع، لم يخُن وطنه، ولم يهجر مدينته ولا أماكنها المقدسة، أرجو أن ينجو من هذا الخطر بوساطة الآلهة، وبوساطتكم أنتم يا قضاته.»[٣٢]

والفقرات التي تلي ذلك في الخطبة، تزيد هذه الفكرة تعمُّقًا، وتحوي حقائق محدودة من العقائد، لا نستطيع أن نغفل عنها:

«لأن أول عمل للآلهة هو أن تضلل عقل الشرير، وأظن أن بعض الشعراء الغابرين كانوا أنبياء عندما تركوا للأجيال المستقبلة مثل هذه السطور:

«لأنه عندما يصيب غضب الإله أي رجل، يضل ذهنه بفعله هو نفسه، ويشرد حكمه القويم إلى السبل المعوجَّة، حتى إنه ليذنب دون أن يعلم ذنبه.»

«يتذكر الكبار منكم ويسمع الصغار قصة كاليستراتوس Callistratus، الذي حكمت عليه المدينة بالموت، فهرب من المملكة، ولما سمع أن إله دلفي Delphi يقرِّر أنه لو ذهب إلى أثينا لنال جزاءه، قدم إلى هنا واعتصم بمذبح الاثنَي عشر إلهًا، بَيدَ أن ذلك لم يجد نفعًا، إذ أعدمته المدينة.»

[٣٢] الفقرتان ١–٢.

«لقد كان هذا عدلًا، لأن جزاء المجرم العقاب. وقد أحسن الإله صنعًا بإرساله الآثم ليعاقب بوساطة من أثم ضدهم، وإنه ليكون غريبًا إذا أظهر نفس العلامات للصالحين والطالحين.»

«بَيدَ أنه من رأيي، أيها السادة، أن تلاحظ عناية الإله كلَّ عمل بشري، ولا سيما ما يتعلَّق بآبائنا والأموات، وواجبنا الصالح نحوهم، وهذا أمر طبعي، لأنهم مؤلفو حياتنا، ومنحونا بركات لا تحصى، حتى ليصبح ضلالًا وحشيًّا، لا أقول إذا أذنبنا في حقهم، بل حتى إذا رفضنا بذل حياتنا لمنفعتهم.»[٣٣]

والشذرة التالية جديرة بالاقتباس كمثل لقسوته المبجَّلة:

«لقد كنت قائدًا يا لوسيكليس Lysicles، وقد لقي ألف من مواطنيك حتفَهم، وأسِر ألفان منهم، وأقام أعداؤنا نصبًا لانتصارهم على أثينا، واستعبدت سائر بلاد الإغريق، كل ذلك تحت قيادتك، وبعد كل هذا، أتجاسر على أن تعيش وتواجه ضوء الشمس وتسير في السوق؛ أنت يا من أصبحت تذكارًا للعار واللوم لوطنك؟»[٣٤]

هوبيريديس

كان هوبيريديس من الطبقة المتوسطة، ولد في سنة ٣٨٩ق.م. وعلى ذلك يكون معاصرًا تقريبًا للوكورجوس، الذي قاسمه آراءه السياسية، وتبعًا لمن ترجم حياته، كان تلميذًا لإيسوكراتيس وأفلاطون، بَيدَ أنه لا يمكن العثور على أثر الأخير في أي موضع من أعماله.

لقد كان لَيِّن الطباع سلس العريكة، ويختلف اختلافًا بيِّنًا عن خشونة طباع لوكورجوس. وقد انتقد الشعراء الهزليون نهمه وميله للسمك. ويسجِّل بلوتارخوس الكاذب أنه كان يتنزَّه وسط سوق السمك كل يوم من أيام حياته، ولكن إغراء تلك المتعة لم يفسد نشاطه.

كان في أول أمره يكتب خطبًا لغيره، كما كان ديموستينيس في أول حياته الخطابية،[٣٥] ولكنه قبل أن يصل إلى سن الثلاثين، بدأ يشتغل بالمحاكمات ذات الصبغة السياسية،

---

[٣٣] الفقرات ٩٢–٩٤.

[٣٤] ضد لوسيكليس، الشذرة ٧٥.

[٣٥] لم يستطع التخصص في نوع القضايا التي اشتغل بها، ولم تكن خطبته «الأثينوجينيس Athenogenes» محترمة، وكان كثير من خطبه يتعلق بالتشريع القانوني hetairai من النوع القليل الشهرة، وكان أعظم عمل له هو دفاعه عن فروني Phryne.

وقد حاكم القائد أوتوكليس Autocles على تهمة الخيانة في سنة ٣٦٠ق.م. فوقف أمام الخطيب أريستوفون الأزيني Aristophon of Azenia، وديوبيثيس Diopeithes، وفي عام ٣٤٣ق.م. اتهم فيلوكراتيس الذي عقد الصُّلح مع فيليب.[٣٦] وقد أوفد إلى المجلس الأمفيكتيوني[٣٧] فبرهن على أنه معضد عنيد لسياسة ديموستينيس، ولَمَّا هاجم فيليب يوبويا عام ٣٤٠ق.م. جمع هوبيريديس أسطولًا قوامه أربعون سفينة، منهم اثنتان على حسابه الخاص. وبعد معركة خايرونيا، اقترح إصدار أمر بتكريم ديموستينيس، واتخذ إجراءات شديدة بعد المعركة للمحافظة على سلامة الشعب، تشمل منح الشعب حقوقه؛ من تحرير المعتقلين وعتق الأرقاء. وقد حاكمه ديماديس على تهمة تنفيذ قرار غير قانوني، فأفحمه بردِّه قائلًا:

«لقد جعلت أسلحة مقدونيا الدنيا ظلامًا، فلم نستطع رؤية القوانين؛ لم أكن أنا الذي اقترحت ذلك القرار، بل معركة خايرونيا.»[٣٨] وقد تمكَّن من الانتقام بسرعة، فحاكم ديماديس على نفس جريرة عدم شرعية القرارت؛ فقد اقترح ديماديس منح لقب بروكسينوس Proxenos إلى يوثوكراتيس Euthycrates الذي خان أولونثوس لفيليب، وتظهر قطعة باقية من خطبة هوبيريديس في هذا الموضوع أنه كان سيد التهكُّم.[٣٩]

لا نعرف شيئًا أكيدًا عن أصل الخلاف بينه وبين ديموستينيس، فقد يكون بسبب عدم استحسانه سياسة تراخي الأخير عندما أرادات إسبرطة أن تحارب أنتيباتر في سنة ٣٣٠ق.م. وعلى أية حال، يظهر من لغته في سنة ٣٣٤ق.م. أنه كان خصمًا لدودًا لمقدونيا؛ فقد أرسل نيكانور Nicanor إعلانًا إلى الإغريق طالبًا منهم اعتبار الإسكندر كإله، وأن يتسلَّموا أسراهم. وفي نفس الوقت غادر هاربالوس أمين خزينة الإسكندر، مقر الملك، وذهب إلى أثينا يحمل كنزًا عظيمًا.

كان من رأي ديموستينيس المفاوضة مع الإسكندر، أما هوبيريديس فرغب في رفض مقترحات نيكانور واستخدام كنز هاربالوس في استمرار الحرب ضد مقدونيا، وقد

---

[٣٦] يذكر هذه الخطب الثلاث من بين القضايا الشهيرة التي ترافع فيها (لأجل يوكسينيبوس Euxenippus) فقرة ٢٨.

[٣٧] ديموستينيس، عن كورنثوس، الفقرتان ١٣٤–١٣٥.

[٣٨] الشذرة ٢٨.

[٣٩] انظر صفحة ٣٠٧.

قبض على هاربالوس، غير أنه استطاع الفرار، فحامت الشبهات حول كثير من أقطاب السياسة أن يكون قد رشاهم، فوقع الاختيار على هوبيريديس كأحد القضاة المدَّعين، ونفي ديموسثينيس.

بعد موت الإسكندر، حمل هوبيريديس أعظم مسئولية للحرب اللامية Lamian War، واختير لإلقاء خطبة يرثي بها صديقه القائد ليوسثينيس Leosthenes، وغيره من الأثينيين الذين سقطوا في حومة الوغى. وكان ديموسثينيس وقتذاك قد عاد من منفاه، فتصالح مع هوبيريديس، وظلَّا في سياسة المقاومة التي طالما حثَّ الأثينيين عليها حزم فوكيون. وبعد موقعة كرانون Crannon، طلب أنتيباتر تسليم قوَّاد الحزب الحربي؛ فهرب هوبيريديس، ثم قبض عليه، وأعدم سنة ٣٢٢ق.م. ويقال إنه قضم لسانه خوفًا من أن يضطر بوساطة التعذيب إلى الاعتراف على شركائه. وقد بقيت جثته بدون دفن حتى قيَّض الله له أحد الصالحين فدفنه في مقبرة عائلته عند «باب الراكب Rider's Gate». وقد أثبت هوبيريديس تمسُّكه بآرائه طوال حياته العامة، ومهما كان سياسته خاطئة، ولا سيما في السنوات الأخيرة؛ فإن له شرف الوطنية الصادقة التي ساقته إلى الاستشهاد في سبيل نضاله الفاشل، لإعلاء قدر وطنه.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان هوبيريديس معروفًا للعالم الحديث عن طريق نقد ديونوسيوس وغيره من قدامى المشتغلين بالدراسة، وبعض الشذرات الصغيرة المحفوظة هنا وهناك باقتباسات المعلقين واللغويين. ويعتقد أن هناك نسخة خطية في مكتبة بودا Buda، غير أنه عندما سقطت المدينة في يد الأتراك Turks عام ١٥٢٦م، خربت المكتبة أو بعثرت، فضاع هوبيريديس.

عاد بعض أجزاء من خطبه يظهر عام ١٨٤٧م بين أوراق البردي التي اكتشفت في مصر، وفي تلك السنة أحضرت إلى إنجلترا لفافة تحتوي على شذرات من خطبته «ضد ديموسثينيس» والنصف الأول من «دفاع لوكوفرون».

وفي نفس السنة، اكتشفت لفافة أخرى تحتوي على النصف الثاني من لوكوفرون، وجميع خطب يوكسينيبوس Euxenippus.

وفي سنة ١٨٥٦م اكتشفت شذرات عديدة من خطبة «الجنازة Funeral» وحصل المتحف البريطاني British Museum في سنة ١٨٩٠م على بعض شذرات من الخطبة «ضد فيليبيديس Philippides»، وإن أعظم اكتشاف، كان للخطبة «ضد أثينوجينيس»، فاشتريت من متحف اللوفر Louvre سنة ١٨٨٨م، ولكن النص الكامل لم ينشر إلا عام

١٨٩٢م. وتقدَّر أهميتها تبعًا لتقرير ديونوسيوس، من أن هذه الخطبة ودفاع فروني Phryne، أحسن مثالين للأسلوب الذي يتفوَّق فيه هوبيريدس حتى على ديموسثينيس نفسه. وقطة ورق البردي نفسها ممتعة؛ لأنها إحدى المخطوطات الكلاسيكية المبكرة التي في حوزتنا، ويرجع تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد.[٤٠]

يتحدى هوبيربيريديس المقارنة بلوسياس في عدة نقط، ونقد ديونوسيوس في هذا الصدد جدير باعتبارنا: «إن هوبيريديس متأكد من هدفه، ونادرًا ما يهوِّل في موضوعه، ويفوق لوسياس فنًّا وتعبيرًا، أما في تنسيق التركيب فإنه يفوق الجميع، ويظل مسيطرًا على موضوعه طول الخطبة، ويتمسَّك بالتفاصيل الأساسية ولا يخرج عنها. وهو عظيم الذكاء، ومملوء بالمتعة، ويبدو بسيطًا، إلا أن المهارة ليست غريبة عليه.»[٤١]

والجملة الأولى تجعل هوبيريديس يخالف تمامًا معاصره لوكورجوس، الذي رغم كونه أقل تأكدًا من هدفه، إلا أن وقاره الشخصي يعطي عظمة لكل موضوع.

يكاد ما لدينا من أعمال هوبيريديس، يمكِّننا من تكوين حكم أوَّليٍّ عن قدر تعابيره إذا ما قورنت بتعابير لوسياس، والحقيقة أن له نفس البساطة والصبغة الطبعية، ولكن بقدر ما نستطيع أن نحكم، نادرًا ما يكون له نفس إجادة التعبير.

وينسب إليه هيرموجينيس Hermogenes إهمالًا ونقصًا في تجنُّب استعمال الألفاظ التي تمثِّل هذه المصطلحات ἐπήβολος, γαλέαγρα, μονώτατος إلخ، وهي ما تبدو له غير ملائمة للنثر الأدبي. وكما أتيح لنا أن نلاحظ، يمكن العثور أحيانًا على كلمات نادرة وغير عادية في كل خطيب، وغالبًا في كلِّ كاتب. ولم يكن هوبيريديس مدقِّقًا في المحافظة على قواعد اللغة؛ فقد أنعش أسلوبه بألفاظ أخذها من مفردات الكوميديا وألفاظ الشوارع، ولم ينتظر أي ثقة ليستعمل أي اصطلاح يعطي قوة لإلقائه.

وقد راع النقَّاد الذين توقعوا أسلوبًا مبجَّلًا في النثر الخطابي، أن يروا الصفة Θριπήδεστος «متآكلة بالدود» التي وصف بها اليونان، وتبدو لنا استعارة مناسبة. وتذكِّرنا بعض ألفاظها العامية بلغة الكوميديا، مثل κρόνος «إحدى الحفريات العتيقة»،

---

[٤٠] يمكن اعتبار اتفاق بلاس وكينيون Kenyon حول هذه النقطة حكمًا نهائيًّا، وقد نشرت حديثًا شذرات صغيرة لخطبة أخرى «من أجل لوكوفرون» مجموعة أوراق بردي أوكسورنخوس ... مجلد ١٣.

[٤١] ἀρχαίων κρίσις، الباب الخامس فقرة ٦.

واسم التصغير θεραποντίον, ὀβολοστάτης[٤٢] (وازنًا للنقدية الصغيرة = المرابي) προσπερι κόπτειν «لا ينال مقتطفات إضافية»؛ وواضح أن الاستعارة من «تشذيب شجرة». παιδαγωγεῖν بمعنى «يقود من الأنف»، وغير ذلك من الألفاظ تبدو عامية، وهي جزء من مجموعة المفردات العرفية التي كانت ستصبح عما قليل أساس اللغة الهلينستية[٤٣]Hellenistic Greek؛ لأنه يجب علينا أن نتذكر أننا قاب قوسين أو أدنى من اللغة الهيلينية، وعمَّا قليل ستختفي اللهجة الآتيكية قبل انتشار لغة أوسع وأكثر حرية، ويصح لنا أن نضع في هذا النوع ἐποφθαλμιᾶν «ينظر بحسد»، υποπίπτειν «يضع نفسه تحت إدارة شخص آخر»، ωνσείω «يصطاد»، κατατέμνειν «يسيء استعمال»، επεμβαίνω «شعريًّا أو عاميًّا» «يطأ».

ويظهر في بعض خطبه الخاصة بالتشريع القانوني، أنه استعمل لغة خشنة ساءت ناقديه، بَيدَ أنه لا يوجد ما يسوء في خطبه الباقية.[٤٤]

وتكثر كذلك في خطبه الاستعارات الأخرى، والتشبيهات، وهو مغرم بتشبيه حياة الدولة بحياة إنسان، كما يفعل لوكورجوس ذلك أيضًا.

ἓν μὲν σῶτα ἀθάνατον ὑπείληφας ἔσεσθαι πόλεως δὲ τηλικαύτης θάνατον Κατέγνως.

«تصوروا أن فردًا واحدًا (أي فيليب) يعيش أبدًا، بينما قد حكمتم بالموت على مدينة عريقة كمدينتنا.» ونراه يستعمل العبارة الهوميرية «ἐπὶ γήραος ὁδῷ ἐπὶ γήραος οὐδῷ على عتبة الشيخوخة» في فقرة خطيرة في ديموستينيس، دون أن يُعِد لها مقدمة أو يلتمس لها عذرًا، ولا نستطيع سوى فرض أن سامعيه قد ألفوا ذلك منه حتى إنها لا تدهشهم بوجودها في غير موضعها، ويستعمل لوكورجوس مثل تلك العبارة أيضًا.[٤٥] ويقول هوبيريديس في نفس الخطبة «ضد ديموستينيس» إن الأمة سلبت تاجها، ولكن هذه الاستعارة كانت على أساس أن ديموستينيس كان قد منح تيجانًا حقيقية. ومثل هذه الاستعارات «يبني الآخرون أخلاقهم على الأسس التي وضعها ليوستينيس Leosthenes.»

---

[٤٢] ὀβολοστατεῖν استعملها لوسياس أيضًا (الشذرة ٤١).

[٤٣] أي اللغة التي سادت العالم في عصر الإسكندرية.

[٤٤] ديمتريوس ἑρμηνείας الفقرة ٣٠٢.

[٤٥] ليوكراتيس، الفقرة ٤٠.

واضح جدًّا، ولو أنه أقلَّ شيوعًا في الإغريقية عن الإنجليزية. ومن محاسن الصدف أن نجد في شذرة عن معاصريه مثلًا باقيًا «لتحقُّقه من هدفه» يقرِّظه ديونوسيوس:

«الخطباء كالأفاعي، وجميع الأفاعي تتساوى في نفورنا منها، ولكن بعضها، أعني الثعابين الصغيرة، تؤذي الإنسان، بينما تأكل الحيَّات الكبيرة الثعابين الصغيرة.»[٤٦]

كذلك يستعمل التشبيه بنجاح وينوِّع فيه، ورغم أن التعبير جيد في المثال التالي، إلا أنه لم يؤلِّف كما يجب، حيث أننا نجد المقارنة تضل.

«حيث إن الشمس تذرع الدنيا كلها، محدَّدة الفصول، ومنظمة كل شيء بالنسبة الصحيحة، وتتعهَّد بطعام الحازمين والمعتدلين من بني الإنسان، من ثمار الأرض وغيرها مما يفيد الحياة؛ لذا تستمر مدينتنا أبدًا في معاقبة الشرير، ومساعد صاحب الحق، فتضمن بذلك تساوي الفرص للجميع، وتمنع الطمع، وتكفل الأمن العام لكل بلاد الإغريق، بوساطة مخاطرتها وخسارتها هي نفسها.»[٤٧]

و«المرثية» التي اقتبست منها العبارة الأخيرة، خطبة من النوع الشكلي، مؤلفة بأسلوب الظهور، وبطبيعة الحال تذكَّرنا بما يشبهها من خطب إيسوكراتيس وغيره. وتبدو في تأليفها عناية أعظم من العناية بالخطب الأخرى؛ حيث لا يوجد بها سوى أمثلة قليلة للمد الخشن في المقاطع، الأمر الذي لم يعره المؤلف، كقاعدة، أي اهتمام. وفي جميع الخطب الباقية الأخرى كثير من حروف العلة المتعارضة.[٤٨] وعبارات الطباق والمقابلة فيها ملائمة للأسلوب، وتركيبها الشعري يشبه تراكي إيسوكراتيس الشعرية، إلا أن كل الجمل فيها أقصر وأبسط.

ويخلط بمهارة، في الخطب الأخرى، أسلوب النظم بالأسلوب المرسل. والمانع من استعمال القافية الطويلة أنها تستغرق وقتًا في استيعابها، ولا يمكننا أن نقدِّر تمامًا أهمية أي جزء قبل أن نصل إلى النهاية؛ فتصبح في موضع يمكننا الرجوع منه إلى ما سبق بأكمله، والأصوب في الخطابة العملية هو أن نذكر وقائق قصيرة، وقد تكون نظمًا، ثم

---

[٤٦] الشذرة ٨٠.

[٤٧] المرثية، الفقرة ٥.

[٤٨] قارن «عن ديموستينيس» العمود الحادي عشر: ἐν τῷ δήμῳ ἑπτακόσια φήσας εἶναι τάλαντα, νῦν τὰ ἡμίση ἀναφέρεις, καὶ οὐδ᾽ ἐλογίσω ὅτι τοῦ πάντα ἀνενεχθῆναι ὀρθῶς κτλ. والعمود الثالث عشر: (يوكينيبوس، فقرة ١٩، إلخ) καὶ οἱ ἄλλοι φίλοι αὐτοῦ ἔλεγον ὅτι ἀναγκάσουσι κ.τ.λ.

نطيلها ببعض زيادات مفكَّكة الوصل بوساطة καί, δέ, γάρ ونحوها، وهذا ما ينجح فيه هوبيريديس؛ فمثلًا في مقدمة[٤٩] «يوكسينيبوس» فقرة حوار، أما فقرات الرواية فأسلوبها مرسل.[٥٠]

وعلى نقيض ذلك الأسلوب المرسل، يجب أن نلاحظ وجود تعاقب سريع لجمل قصيرة يركِّبها أحيانًا على هيئة سؤال وجواب، كما في الشذرة الآتية:

«هل اقترحت إطلاق سراح الأرقاء؟» «بلى، لأحافظ على الأحرار من أن يصبحوا أرقاء.» «أنفذت قرار وجوب تحرير المواطنين غير الأحرار؟» «نعم فعلت؛ حتى يكون هناك انسجام بين الجميع، فيحاربوا من أجل وطنهم جنبًا إلى جنب».[٥١]

والفقرة التالية أقوى أثرًا:

«وعلى هذا الأساس قد سننتم قوانين لكل ذنب يمكن للمواطن أن يقترفه؛ فهذا ينتهك حرمة المعابد، فيحاكم على ذلك أمام أرخون الملك، وذاك لا يرعى والديه، فيحاكمه الأرخون، وآخر يقترح إجراءً غير قانوني، فيحاكم أمام مجلس ثيسموثيتاي Thesmothetae، وذلك يقترف ما يوجب القبض عليه؛ ولأجل ذلك يوجد «الأحد عشر» موظفًا الدائمين.[٥٢]

كان هوبيريدس ذا بديهة حاضرة مكَّنته من المراوغة في الحوار، وإظهار خصمه بمظهر مضحك، فهذا يوثياس Euthias يحاكم فروني على عدم التقوى، فيجعل سامعيه يرتجفون عندما يصف لهم عذاب الأشرار في «هاديس Hades». عندئذ ينهض هوبيريديس متسائلًا: «كيف يلام فروني، وهناك صخرة معلَّقة فوق رأس تانتالوس Tantalus؟»[٥٣] ويشكو في الخطبة «يوكسينيبوس» من أن عرض الشكوى أمام المجلس قد طبَّق على القضيَّة الحالية:

«إذَن، فقد طبِّق قانون الشكوى ضد أشخاص مثل تيموماخوس Timomachus، وليوستثينيس، وكاليسترانوس، وفيلون، وثيوتيموس Theotimus، الذين فقدوا آخر أمل

---

[٤٩] الفقرات ١–٣، فرغم وجود علامة وقف في السطر الثاني للفقرة ٣، فإنها كلها في الحقيقة جملة واحدة، ورغم طولها فهي واضحة تمامًا.

[٥٠] ونجد مثالًا جيِّدًا في «أثينوجينيس» الفقرة ٥، لقصة يرويها في جمل قصيرة متعاقبة موصولة ببعضها البعض بوساطة καί «واو العطف».

[٥١] الشذرتان ٢٧–٢٨.

[٥٢] يوكسينيبوس، الفقرتان ٥–٦.

[٥٣] الشذرة ١٧٣.

لهم؛ فبعضهم لخيانة السفن التي كانت تحت قيادتهم، والبعض الآخر لخيانة المدن، وأحدهم لكونه خطيبًا نصح الشعب نصيحة سيئة. فهذه الأمور الحالية مضحكة بالنسبة لتلك؛ فإن ديوجنيديس Diognides وأنتيدوروس Antidorus يحاكمان لاستئجارهما زامرين بأجر يزيد على ما حدَّده القانون، ويحاكم أجاسيكليس البيري Agasicles of Piraeus لتسجيل نفسه باسم «هاليموس Halimus»، ويحاكم يوكسينيبوس من أجل حلم قال إنه رآه في نومه.»[٥٤]

وأحيانًا يداعب في تهكمه حتى في الفقرات الجدية، مثل:

«قد قيَّد ديموستينيس اليوبويين كأثينيين، ويعاملهم كأصدقاء حميمين، فلا يدهشكم ذلك، لأن سياسته في مد وجزر دائمين، وقد اتخذ له أصدقاء من يوريبوس Euripus.»[٥٥]

ونجد مثلًا جيدًا آخر لروح تهكمه في الدفاع عن يوكسينيبوس ضد تهمة العطف على مقدونيا:

«إذا كان قولك (أي قول المدَّعي) حقيقيًّا، فإنك لن تكون الوحيد الذي يعرفه، فإن سرَّ كلِّ من جاملوا فيليب بالقول أو بالفعل، كان معروفًا للجميع، شاركتهم فيه المدينة بأسرها؛ فحتى تلاميذ المدرسة يعرفون أسماء الخطباء الذين يستأجرهم، وأسماء الأفراد الذين يكرمون ويرحِّبون برسله، ويستقبلونهم في الطرقات حال وصولهم.»[٥٦]

وفي عدة مواضع يكون هذا التهكُّم سلاحًا قويًّا للإيذاء، كما يتضح من الفقرة التالية المقتبسة من إدانة ديموستينيس.

«أنت يا من قبض عليك بنفس قرارك، يا من عندما غفلت الحراسة لم تنبِّهها، وعندما انقطعت كليةً لم تقدِّم المذنب إلى المحاكمة؛ ولا شك في أنك لم تتحيَّن تلك الفرص نظير لا شيء. أتصدِّق أن هاربالوس دفع المال شيئًا فشيئًا إلى صغار السياسيين الذين لا يستطيعون سوى إحداث الجلبة والضوضاء، وأغفلك يا من كنت سيد الموقف كله؟!»[٥٧]

وتحوي الشذرة التالية خير مثال للتهكُّم وجد في جميع أعماله، والموقف يفسِّره.

---

[٥٤] يوكسينيبوس، الفقرات ١–٣.

[٥٥] ضد ديموستينيس، الشذرة ٥ عمود ١٥، ١٥، إن المد والجزر اللذين يتعاقبان في يوريبوس تسع مرات في اليوم، استعارة ما في ذلك شك.

[٥٦] يوكسينيبوس، عمود ٣٤ فقرة ٢٣.

[٥٧] ضد ديموستينيس، عمود ١٢.

«ليست الأسباب التي أبداها ديماديس هي الدواعي الحقيقية لتعيين يوثيكراتيس رئيسًا، ولكن إذا كان لا بد من أن يكون رئيسكم؛ فقد وضعت الآن قرارًا يوضِّح الأسباب الحقيقية لتعيينه في ذلك المنصب، مصممًا أن يوثيكراتيس قد عُيِّن رئيسًا Proxenos؛ لأنه يعمل ويقول ما في صالح فيليب؛ ولأنه عندما كان رئيسًا للفرسان خان جيش الفرسان الأولونثي إلى فيليب، ولأنه بعمله هذا سبَّب خراب أهل خالكيديكي Chalcidice، ولأنه بعد سقوط أولونثوس تولَّى عملية بيع الأسرى؛ ولأنه قام ضد أثينا في موضوع معبد مدينة ديلوس Delos، ولأنه عندما هزمت أثينا في خايرونيا، لم يدفن أي قتيل، ولم يُفِد أي أسير».[٥٨]

لقد رأينا كيف يستعمل ذكاءه ضد جميع طبقات الخطباء التي ينتمي إليها هو نفسه، ومن الممتع أن نراه يصف أثينوجينيس بما يأتي، في خطبة كتبها نظير أجر: «هو شخص عادي، يحترف كتابة الخطب.»[٥٩] فإنه مهمة كاتب الخطب أن يدعم شخصيته هو نفسه في شخصية موكله (زبونه)، وإن هوبيريديس الفنان بغريزته، قد فعل ذلك بنجاح أكثر من أي كاتب خطب آخر، وربما كان ذلك باستثناء ديموستينيس، ولا بد أنه في المقال الحالي قد شعر برضًا غريب عن عمله.

ويقدم في الخطب الخاصة عدة موضوعات خارجة عن موضوع القضية، فإنه في قضية أثينوجينيس يثير الكراهية ضد خصمه بالإشارة إلى جرائمه السياسية، رغم كونها عن صفقة تجارية في الخفاء، ولا شك في أن كثيرًا من القضايا الضعيفة قد نجحت بتلك الوسيلة التي تذكِّرنا بطريقة لوكورجوس.[٦٠] أما في الخطب العامة، فله وسيلة أرقى، ولما كان لوكورجوس محاميًا في النوع الآخر، فإن هوبيريديس كان يشير إليه بكل احترام يليق بمقامه، وتخلو حتى الخطبة ضد ديموستينيس من حيث الطمع،[٦١] فإن في اتهام أعمال ديموستينيس العامة ما يكفي من العنف في حدود الذوق السليم، وليس مردَّ ذلك إلى الصداقة القديمة التي ينبذها هوبيريديس:

«أتجرؤ بعد كلِّ هذا أن تذكِّرني بصداقتنا؟ كما لو كنت أنت نفسك لم تقطع تلك الصداقة بحصولك على رشوة لتضرَّ وطنك، وغيَّرت سياستك؟ وعندما جعلت نفسك

---

[٥٨] الشذرة ٧٦.

[٥٩] أثيوجيينس، عمود ٢.

[٦٠] لوكورجوس، ليوكراتيس، الفقرة ١١، قارن الفقرة ١٤٩.

[٦١] عمود ٣٩، الشذرتان الأخيرتان للخطبة في كتاب بلاس.

سخرية وجلبت العار علينا إذ كنا من حزبك؟ وعندما كان لا بد من أن نكون موضع أسمى احترام من الجمهور، وكان لا بد أن تحافظ على سمعتنا الطيبة بقية حياتنا، حطمت كل تلك الآمال، ولم تخجل وأنت في سنك هذه أن يحاكمك على الرشوة شبَّان يصغرونك بجيل؟ فقد قلبت الآية؛ إذ يجب على الشباب السياسي أن يتعلموا من الكبار أمثالك؛ فإن أهملوا في شيء نتيجة رعونتهم وجب توبيخهم ومعاقبتهم، ولكن الأحوال قد تغيرت الآن، إذ يقع على عاتق الشباب تصحيح أخطاء من جاوزوا الستين. وهكذا أيها السادة، يحق أن تغضبوا على ديموسثينيس؛ لأنه بوساطتكم حصل على مقدار عظيم من القوة والشهرة، والآن وقدمه على حافة الشيخوخة يثبت عدم اهتمامه بوطنه.»[٦٢]

ويستحسن ديونوسيوس تنوُّع طرق هوبيريديس في سرد رواياته: «يقص حكايته بطرق شتى، وأحيانًا بالترتيب الطبيعي، وأحيانًا أخرى يبدأ من نهايتها حتى يصل إلى أولها.»[٦٣] وليس لدينا أية وسيلة نحكم بها، فإن خطبة «يوكسينيبوس»، وهي الخطبة القضائية الوحيدة الكاملة، لا تحتوي على سرد، وواضح أن حكاية أثينوجينيس قد رويت مستمرة دون توقُّف، ثم أعقبها الدليل والنقد والنقاش القانوني، ثم يتبع ذلك محاولة لتسويئ سمعة أثينوجينيس بوساطة حوادث أجنبية.

ونختم هذا القسم ببعض عبارات من معاهدة «الرفعة»، توضح تقديرًا لطبيعة خطابته العامة:

«إذا حكم على النجاح بعدد الخطب وليس بالحجم؛ فإن هوبيريديس يفضِّل ديموسثينيس بدون نزاع. ففي صوته نغمات أكثر، وله صفات حميدة أكثر، فهو تقريبًا من الدرجة الأولى في كل شيء، كالرياضي الذي يجيد خمسة أنواع من الرياضة، يتفوق عليه كل لاعب في مسابقة الجائزة الأولى من المتخصصين في نوع معين من الرياضة، بينما يتفوق هو على غير المتخصصين ...» «فعندما يحاول ديموسثينيس أن يتفكَّه، يثير الضحك على نفسه. وعندما يحاول أن يكون لطيفًا؛ فإنه يفشل أكثر. وعلى أية حال، فإذا كان قد حاول تأليف خطبة صغيرة عن «فروني»، أو «ضد أثينوجينيس»؛ فإنه قد زاد في إثبات شهرة هوبيريديس.»

---

[٦٢] ديموسثينيس، ٥، الفقرتان ٢٠-٢١.

[٦٣] عن دينارخوس، الباب السادس.

«ولكن محاسن الأخير غير عظيمة رغم تعددها؛ فإن اعتداله يضعف من تأثيرها فلا يحمِّس السامع. وعلى أية حال، فلا يتأثر أي فرد لدرجة بالغة من قراءة هوبيريديس.»[٦٤] وتنتهي الفقرة بتقريظ جدي لقوة ديموستينيس العظيمة.

تنسب إلى هوبيريديس سبع وسبعون خطبة، يظن مترجمو سير مشاهير الرجال الأغارقة أن منها اثنتَين وخمسين حقيقية.[٦٥] وقد جمع بلاس عناوين ما لا يقل عن خمسة وستين خطبة زيادة على الخطب المحفوظة في أوراق البردي (وعددها خمس)، وبذا يكون سبع منها فقط غير معروف بالاسم. وقد ذكرنا بعض مقتبسات من محاكمة ديموستينيس،[٦٦] وشرحنا موضوعها،[٦٧] وانتقدنا معالجتها بقدر ما استطعنا أن نحكم،[٦٨] وتاريخها عام ٣٢٤ق.م. و«دفاع لوكوفرون» خطبة في εἰσαγγελία[٦٩] كان لوكورجوس أحد المدَّعين فيها.

كان لوكوفرون، أحد النبلاء الأثينيين، قائدًا لفرقة الفرسان في لمنوس Lemnos، فاتُّهم بالزنا مع سيدة لمنوسية من عائلة معروفة، كانت زوجة رجل أثيني مات قبل إقامة القضية. وتاريخ هذه الخطبة غير معروف، وربما كان حوالي عام ٣٣٨ق.م.

ونشأت قضية يوكسينيبوس من أن فيليب بعد موقعة خايرونيا، أعاد مقاطعة أوروبوس Oropus إلى أثينا، فقسمت إلى خمس إقطاعيات خصِّصت كل إقطاعية منها لقبيلتين؛ فأثير سؤال عما إذا كانت الإقطاعية المعطاة لقبيلتَي هيبوثوونتيد Hippothoontid وأكامانتيد Acamantid مقدسة لأمفياراوس Amphiaraus. فأوفد يوكسينيبوس واثنان آخران لينا ما في مذبح ذلك البطل، حتى يروا في منامهم جواب ذلك الموضوع، فحلموا حلمًا أمكن تفسيره في صالح هاتَين القبيلتَين. وعلى ذلك اتُّهم هؤلاء في قضيتنا هذه بالكذب فيما رأوه في حلمهم. وقد سبق المدَّعى عليه ومحام آخر، هو بيريديس؛ فأصبحت الخطبة مخصَّصة لمحاكمة المدَّعين، وكان لوكورجوس أحدهم. وتاريخها حوالي ٣٣٠ق.م.

---

[٦٤] περὶ ὕψους، باب ٣٤.

[٦٥] بلوتارخوس الكاذب، فقرة ١٥.

[٦٦] انظر الصفحات ٢٥، ٣٠٦–٣٠٨.

[٦٧] انظر الصفحات ٢٣٧–٢٣٨.

[٦٨] انظر صفحة ٣٠٨.

[٦٩] اتهام في المجلس الأثيني لجريمة عامة.

والخطبة «ضد فيليبيديس»[٧٠] ممزَّقة جدًّا. وهي γραφὴ παρανόμων ضد فيليبيديس غير المعروف، وكان قد اقترح صوت شكر لجماعة πρόεδροι أو رؤساء مجلس الشعب، على إصدارهم قرارًا يظهر أنه صوت شرف لفيليب. وقد صدر ذاك القرار تحت تأثير الضغط، فحاول فيليبيديس تبرئتهم من كل لوم بقرار أعلن هنا على عدم شرعيته.

«المرثية»، أو خطبة الجنازة، مكتوبة في صيغة تقليدية معروفة جيِّدًا. ويجرى تأليف مثل هذه الخطبة تبعًا للتقاليد القديمة التي تمسَّك بها القوم مدة طويلة. وتظهر مهارة الخطيب في طريقه المبتكرة، في تناول الموضوعات العامة؛ فأول شيء بها تعليق شخصيٍّ قوى؛ إذ احتك بالأمور السياسية مع ليوسثينيس، وكان مسئولًا معه عن الحرب اللامية التي قتل فيها هذا الأخير.[٧١] وعمومًا يظهر شعوره الشخصي بوضوح في الخطبة، وفي الحقيقة كان ليوسثينيس هو المسئول الأول، وكما يلاحظ المسيو كروازيه، قد وضع في مستوى أثينا تقريبًا: «لَّما رأى ليوسثينيس أن سائر بلاد الإغريق قد خرَّت على ركبتيها، وساقها إلى الدمار الخونة الذين استأجرهم فيليب والإسكندر، ولما رأى أن مدينتنا في حاجة إلى رجل يقودها، وأن سائر بلاد اليونان في حاجة إلى مدينة تقودها، وهب نفسه لوطنه ووهب مدينتنا للإغريق كي ينالوا حريتهم.»[٧٢] ويقول إنه لا يهضم الوطنيين الآخرين حقهم، بل في الثناء على ليوسثينيس ثناء عليهم جميعًا. ويرسم صورة خيالية لقدامى الأبطال ترحب بليوسثينيس في هاديس؛ فقد كان من عادة ذلك العصر وجوب إطراء الأفراد بتلك الكيفية.

لقد سرنا شوطًا بعيدًا حقًّا، من صيغة المجهول الباردة لبركليس الذي كان يعتبر الأبدال المجهولين الذين يُضحَّون بحياتهم، جزءًا من منظر تمثيليٍّ يمرُّ أمام أعين المدينة الخالدة. والتغني بالأحياء ملحوظ لأن فيه إشارة إلى الحياة المستقبلة التي لم يسبق استعمالها قط:

«من الصعب أن نريح من استولى عليهم مثل هذا الحزن؛ فليس في مكنة الخطَب ولا القانون أن تنيِّم الأحزان ...» (ثم تتبع ذلك ملاحظات عن المدح الدائم، وليس هذا دائمًا، وإنما يختم بتوتُّر أشد): «وعلاوة على ذلك؛ فإذا فرضنا أن الأموات لم يموتوا، وأنه قد

---

[٧٠] تاريخها ٣٣٦–٣٣٥ق.م.

[٧١] ٣٢٢ق.م.

[٧٢] المرثية، الفقرة ١٠.

زالت عن أصدقائنا الأمراض والآلام وكل المصائب التي تصيب بني الإنسان، وأن الأموات قد رجع إليهم وعيهم وتولَّاهم الله برعايته؛ فقد نتأكد من أن الذين رفعوا قدر الآلهة عندما كان مهدَّدًا يتمتعون الآن بعطف وحب الإله.»[٧٣] وحقيقة لم يعش سقراط لغير ما فائدة.

والخطبة ضد أثينوجينيس[٧٤] مثل رائع للأسلوب الخفيف لذلك الخطيب، وأهم تقدير لها هو الطريقة التي يلقي بها الخطيب سرده للوقائع.

أراد موكِّل هوبيريديس، وهو شابٌّ أثيني، أن يشتري عبدًا صغيرًا كان يشتغل في دكَّان عطور؛ فتحيَّن تلك الفرصة صاحب الدكان، وكان من رعاع مؤلفي الخطَب، وعدَّها صفقة رابحة؛ فرفض أولًا أن يبيع العبد، فتشاجرا، وعند ذلك أقبلت أنتيجونا Antigona، وكانت في صباها أجمل العاهرات في عصرها ثم تركت تلك المهنة الآن، وتطوَّعت بخدمة الشاب على شرط أن تحصل لنفسها على هبة قدرها ثلاثمائة دراخمة، كبرهان على حسن ظنه بها. وقالت للشاب إنها قد أغرت أثينوجينيس على أن يعتق العبد، ليس وحده، بل مع أبيه وأخيه مقابل أربعين مينًا. فاقترض الشاب ذلك المبلغ وتصالح مع تاجر العطور، وأوصتهما أنتيجونا بأن يكونا بعد ذلك صديقين. «فأجبت بأني سأفعل كقولها، وردَّ أثينوجينيس بأنه يجب عليَّ أن أشكر لأنتيجونا خدماتها، ثم قال: «والآن سترى أي معروف أصنعه لك إكرامًا لخاطرها.» فبدلًا من أن يعتق العبيد، عرض أن يبيعهم للمدَّعى عليه، وكان يمكنه أن يعتقهم وقتذاك، وبذا ينال شكرها. «أما بخصوص ما عليهم من ديون؛ فيمكنك تحمُّلها لأنها تافهة، وباقي السلع الموجودة بالدكَّان تغطِّي تلك الديون.» ولَّما أعطيت كلمة القبول، أخرج أثينوجينيس عقدًا به تلك الشروط، وكان قد أعدَّه من قبل وأحضره معه، فوقَّعت عليه وختم في الحال، وبعد ثلاثة أشهر، وجد المشتري السيئ الطالع، أنه مطالب بديون العمل والودائع ما إن قيمته لتبلغ خمسة تالنتات؛ فاعتذر أثينوجينيس بأنه لم يكن يعلم أنه كان عليهم جميع تلك الديون العظيمة.

كان ذلك المخدوع في موقف لا يحسد عليه؛ حيث إنه قبل العمل شكلًا بما عليه من الديون، وهو يحاول الآن البرهنة على وجوب إلغاء ذلك العقد، وحجته القانونية ضعيفة جدًّا. وفي الحقيقة لم تكن المرافعة تستند إلى شيء غير طلب العدل، ويتناول الجزء الثاني من الخطبة، أثينوجينيس من حيث علاقاته السياسية. وتحثُّ الخاتمة القضاة على

---

[٧٣] المرثية، الفقرات ٤١–٤٣.

[٧٤] تاريخها ما بين عامي ٣٢٨ و٣٢٣ق.م.

أن ينتهزوا تلك الفرصة لمعاقبة مثل ذلك النذل على الأسس العامة، حتى إذا لم تمكن محاكمته بمقتضى أي قانون.

دينارخوس

كان دينارخوس — آخر الخطباء العشرة لقانون الإسكندرية — كورينثيًّا بمولده، وعاش في أثينا أجنبيًّا، ولم يحصل قط على قرار باعتباره مواطنًا؛ ولذا لم يستطع الظهور أمام المحاكم أو المجمع. وقد ولد حوالي عام ٣٦٠ق.م. ويقال إنه لما قدم إلى أثينا، درس على يد ثيوفراستوس Theophrastus، وبدأ يكتب خطبًا ككاتب محترف حوالي عام ٣٣٦ق.م.

لم يظهر اسم دينارخوس، إلا أيام قضية هاربالوس، وأكثر فترات حياته رخاءً هي بعد موت الإسكندر في عهد الدستور الأوليجاركي الذي سنَّه كاساندر.

وقد أَلَّف كثيرًا من الخطَب في الخمسة عشر عامًا من ٣٢٢–٣٠٧ق.م. وفي سنة ٣٠٧ق.م. هدَّد الإصلاح الديمقراطي كل من أثرى بسبب الأوليجاركية؛ فرحل إلى خالكيس في يوبويا حيث عاش مدة خمسة عشر عامًا.[٧٥] ثم عاد إلى أثينا سنة ٢٩٢ق.م. ومكث مدة مع شخص يدعى بروكسينوس Proxenos، انتهز فرصة شيخوخته وعدم ثباته، وسلَبه مبلغًا كبيرًا من المال، فقدم مضيفه إلى القضاء. وتبعًا لديونوسيوس وبعض المترجمين الآخرين، ترافع بنفسه أمام المحكمة لأول مرة، ولا نعرف شيئًا عن نتيجة القضية، أو أية معلومات عن بقية حياة دينارخوس أو مماته.[٧٦]

وتبعًا لديمتريوس ماجنيس،[٧٧] كتب دينارخوس ما يربو على مائة وستين خطبة، رفض ديونوسيوس الاعتراف بكثير منها، كما اعترف بصحة ستين من بين السبعة

---

[٧٥] اعتقد ديونوسيوس (عن دينارخوس، الباب الرابع، حتى النهاية) أنه لم يكتب خطَبًا خلال تلك المدة، إذ لا يتكبد أي فرد مشقة الذهاب إلى خالكيس من أجل خطبة لقضية خاصة أو عامة οὐ γάρ τέλεον ἠπόρουν οὕτω λόγων وعلى ذلك رفض ديونوسيوس كل الخطب المنسوبة إلى دينارخوس التي تاريخها بين ٣٠٧، ٢٩٢ق.م. على اعتبار أنها مزورة.

[٧٦] يقول سويداس إن أنتيباتر عيَّنه واليًا على البيلوبونيز (ἐπιμελητής Πελοποννήσου) ولكن ذلك كان دينارخوس آخر. ويقول ديونوسيوس (دينارخوس، الباب الأول) إن ديمتريوس ماجنيس Demetrius Magnes يذكر أربعة رجال بهذا الاسم.

[٧٧] ديونوسيوس، عن دينارخوس، الباب الأول.

والثمانين خطبة التي يعرفها.[٧٨] ولم يصل إلينا سوى ثلاث خطب فقط، شك ديمتريوس في صحة أطولها «ضد ديموستينيس»، ومع ذلك فسنتناولها على اعتبار أنها حقيقية؛ حيث تشبه كثيرًا باقي خطبه أسلوبًا ومادة. وتتعلَّق الخطب الثلاث «ضد ديموستينيس، وأريستوجيتون، وفيلوكراتيس» بموضوع هاربالوس. وقد تغلغلت جذور الفساد الذي نجم عن ذلك الموضوع حتى أصبح من الضروري البحث أولًا عن رجال مستقيمي الأخلاق للإشراف على المحاكمة، ولم يكن هؤلاء من مشاهير الخطباء لأن معظم أعلام السياسة كانوا متَّهمين في تلك القضية. ومن النادر ملاحظة استخدامهم لمحترفي كتابة الخطب، أو أن كاتبًا واحدًا قد أَلَّف خطبًا لتلقى في ثلاث من المحاكمات العديدة.

لم يكن دينارخوس، آخر الخطباء الآتيكيين المخلصين، ذا أهمية في حد ذاته، بيد أنه كانت له أهمية في كل تاريخ أيًّا كان نوعه؛ لأنه يمثِّل أول انحطاط للخطابة. ويقول ديونوسيوس: «إنه ازدهر أكثر من الجميع بعد موت الإسكندر، عندما حكم على ديموستينيس والخطباء الآخرين بالنفي المؤبَّد أو الإعدام، ولم يبق بعدهم من يستحق الذكر.» وفي هذا القول تقدير عادل لقيمة ذلك الخطيب، الذي — تبعًا لأقوال نفس الناقد — «لم يبتدع أسلوبًا لنفسه كما فعل لوسياس وإيسوكراتيس وإيسايوس، ولم يكمل ما ابتدعه الآخرون كما فعل ديموستينيس وأيسخينيس وهوبيريديس.»[٧٩]

إن فضائله وعيوبه ظاهرة، فهو يعرف جميع طرق تأليف النثر، ويستطيع اجتباب المد في الحروف والمقاطع بمهارة، ويكتب أسلوبًا سهل الفهم حتى ولو كانت عباراته مطوَّلةً أكثر مما ينبغي. وله بعض المهارة في استخدام الألفاظ والاستعارات الجديدة — μετοιωνίσασθαι τὴν τύχηνα «ليكن لك أمل جديد في حظك» — ἐκκαθάρατε ... «سهل لك الخروج من الدولة»–δευσοποιὸς πονηρία «شر مدبوغ».

وإن في أسلوبه لقوةً وبهجة، وفي عباراته المقتضبة لإتقانًا وضبطًا كافيين نحو: «إنك تختار المحاكمين بالطريق المناسبة؛ مثل أمام المحكمة، أطلقت سراحه».[٨٠] ويجيد استعمال الأمثلة البلاغية التي يوجِّهها إليه المدَّعى عليه «هل اقترحت أي إجراء نحوها؟

[٧٨] يستطيع من يهمه ذلك أن يجمع عناوينها من ديونوسيوس (عن دينارخوس، الأبواب ١٠–١٣).

[٧٩] ديونوسيوس، دينارخوس، الباب الثاني.

[٨٠] ديموستينيس، الفقرة ٥٨.

هل قدَّمت أية نصيحة؟ هل تبرعت بمال؟ هل قمت بأية خدمة في موضوع بسيط لمن كانوا يعملون للأمن العام؟ كلا، ولا بدرجة بسيطة ... إلخ.»[٨١]

ولا يتهكم إلا نادرًا، لأنه قاس في العبارات المباشرة فلا يجد حاجة إلى التهكم؛ ومع ذلك فإذا تهكم كان تهكمه ظاهرًا: «هل لك أن تعيد قراءة القرار الذي اقترحه ديموسثينيس ضد ديموسثينيس؟»[٨٢] وإنه لعلى معرفة بمخادعات الخطابة ومغالطاتها؛ فيمكنه أن يتملَّق الجمهور بإطراء ذكائهم، وبالثناء على الأريوباجوس، وامتداح فضائل أسلافهم. ويمكنه الاستشهاد بالمسابقات التاريخية قديمها وحديثها على نزاهة القضاة وعدم تحيزهم وأخذهم المسيء بالشدة.

وأحسن إجادة له هي في التطويل في تفنيد أقوال الدفاع التي يتوقعها من ديموسثينيس؛[٨٣] وهو تفنيد مرتب وذو تأثير بالغ. وكذلك في الفقرات القصيرة المقتبسة من الخطبة «ضد فيلوكليس» مثل:

> «أيها الأثينيون، فكِّروا في هذه الحقائق، وتذكَّروا الأزمة الحالية، التي تتطلب الشرف لا الفساد، تجدوا أن واجبكم يقضي بكراهيتكم للمسيئين، وأن تبيدوا أمثال هؤلاء الوحوش من مدينتكم، وتظهروا للعالم أجمع أن الأمة لم تشترك مع ساستها وقوَّادها فيما يخلُّ بالشرف، وليست عبدةً للآراء العرفية، مؤمنين أننا بفضل الله، وبمعونة العدالة والاتحاد، سندافع عن أنفسنا بسهولة إذا ما هاجمنا أي عدو بدون حق. بيد أنه إذا صاحب الاتحاد الفساد والخيانة وما شاكلهما من الرذائل التي تصيب البشر، فلا أمل في نجاة أية مدينة.»[٨٤]

لقد كان عندئذٍ ظافرًا، ولكنه كان مهملًا؛ إذ يمرُّ من قسم إلى آخر دون مراعاة للمنطق، أو وجود أية صلة شكلية. ويحلُّ الطعن محل الحجج، وحتى سبه متقطع، وكل شيء عنده مختل. فقد حصل غيره من الكتَّاب على نتائج رائعة بوساطة تغيير طفيف في

---

[٨١] ديموسثينيس، الفقرة ٣٥.

[٨٢] ديموسثينيس، الفقرة ٨٣.

[٨٣] ديموسثينيس، الفقرات ٤٨–٦٣.

[٨٤] فيلوكراتيس، الفقرة ١٩.

ترتيب الكلمات، ولكن دينارخوس لا يراعي النظام دون تحسين تأكيداته.[٨٥] ومن جهة أخرى نرى أن تكرار الكلمة يعطي تأكيدًا؛ مثل: «مأجور، يا رجال أثينا، إنه مأجور، وكان مأجورًا» ولكن هذه الوسيلة تستعمل لجيشان النفس Ad nauseam.[٨٦] وعباراته سلسلة عظيمة من أسماء المفعولين والضمائر الموصولة، تلتوي بطول الخطبة كالحيات المجروحة.[٨٧]

وللطعن مركزه في الخطابة اليونانية، غير أننا عندما نرى في كل صفحة ألفاظًا مثل: وحش، رجل سوء، وحش قذر، حثالة، غشاش، ملعون، لص، خائن، شاهد زور، مرتش، مأجور، قذر؛ نشعر كأن الخطيب يبصق ولا يتكلم.[٨٨]

هناك كذلك دناءة مماثلة في اتهامه للدوافع الفاسدة في جميع أعمال ديموستينيس، الطيب منها والسيئ، وفي مبالغته في إثم الأخير. ويكون مضحكًا جدًّا عند وصفه ذهاب أريستوجيتون إلى السجن لأول مرة، وهي أول مرة من عدة «فإن أريستوجيتون أسوأ رجل في أثينا، بل في العالم أجمع؛ قضى مدة داخل السجن أكثر من التي قضاها خارجه؛ فأول مرة ذهب فيها إلى السجن، كان سلوكه مشينًا، لدرجة أن بقية المسجونين، وهم حثالة العالم كله، رفضوا أن يؤاكلوه أو يصاحبوه على قدم المساواة.»[٨٩]

لقد صبَّ هذا القدح على امرئ يحاكم من أجل جريمة سياسية بحتة، مبالغ فيها كل المبالغة، وقد تكون غير حقيقية. ومن أمثلة ذلك القدح، وصفه لسفالة ديموستينيس؛ حيث يقول:

«كان يمشي في المدينة مرحًا لمصائبها، وكان يحمل على محفة في شوارع بيرايوس وهو يتشفَّى من بؤس البائسين.» وأخيرًا فهو كثير السرقة من أقوال ديموستينيس وأيسخينيس وغيرهما من الخطباء، لدرجة يتعذَّر معها إحصاء تلك الأقوال المسروقة؛ إذ

---

[٨٥] وفي المغالاة نحو ἡ τῶν ἐκ προνοίας φόνων αξιόπιστος οὖσα βουλὴ τὸ δίκαιον καὶ τἀληθὲς εὑρεῖν (ديموستينيس، الفقرة ٦). قارن كذلك الفقرات ١٢، ٢٣، ٥٩، ١١٠ وغيرها.

[٨٦] ديموستينيس، الفقرة ٢٨. قارن كذلك الفقرات ١٠، ٢٧، ٤٦، ٧٦ ... إلخ.

[٨٧] ديموستينيس، الفقرات ١٨–٢١ (٣٦ سطرًا بدون وقفة حقيقية)، فيلوكليس، الفقرات ١–٣ (٢٣ سطرًا).

[٨٨] θηρίον, μικρός μικρὸν θήριον, κάθαρμα γόης, κατάρατος, κλέττης προδότης, ἐπιωρκηκώς Καταπτυστός, δωρόδοκος مختارة بدون أي عناء خاص من قائمة ألفاظه.

[٨٩] أريستوجيتون، الفقرات ١–٢، ٩–١٠.

يستعير فقرات بأكملها دون أية مهارة في تحويرها لتلائم موضوعه،[٩٠] ويستعير حتى من نفسه.[٩١] ومن ألقابه القديمة Δημοσθενής, Κριθινός Δημοσθενής ἀγροῖκος وإن اللقبَين «ديموستينيس الغبي»، «ديموستينيس الجعة الصغيرة» ليُلائمانه بقدر ما تمكن ملاحظة خصائصه.[٩٢]

وبالاختصار، فلا يعزى الانحطاط الملحوظ الذي يمثِّله دينارخوس، إلى النقص في المقدرة الفنية، بل إلى النقص في أصل العقل، وأكثر من هذا إلى الأسباب الخلقية؛ النقص في المعرفة الأدبية، الظاهر في سرقته أقوال غيره، والنقص في العناية، الظاهر في التنافر بين عبارات الخطب كلها، ونقص الذوق في تناسب العبارات واجتناب ما لا يناسب فيها، كما يظهر في المبالغات العديدة المتباينة التي سبق شرحها.

---

[٩٠] ديموستينيس، الفقرة ٢٤، وصف طيبة، من أيسخينيس: انظر وايل «خطب ديموستينيس الحماسية» صفحة ٣٣٨، ملاحظته عن الفيليبية الثالثة، الفقرة ٤١، ودينارخوس، أريستوجيتون الفقرة ٢٤ التي استعار منها «تطابقه مطابقة الجعة للنبيذ.» (وقد كانت جعة الشعير تلك مشروب البرابرة).

[٩١] مثال ذلك، الفقرة عن ابن كونون، ديموستينيس، الفقرة ١٤؛ حيث استعملت ثانية في فيلوكليس الفقرة ١٧.

[٩٢] ديونوسيوس، عن دينارخوس، الباب الثامن، هيرموجينيس Hermogenes, περὶ ἰδεῶν، ب، صفحة ٣٨٤، ٤.

الفصل الثاني عشر

ذبول الخطابة

انتشرت الثقافة الهيلينية بسرعة في جزء عظيم من الدنيا بسبب نجاح الحرب المقدونية نجاحًا منقطع النظير، ولكنها لم تستمر في تقدُّمها هذا، بل عادت أدراجها.[١]

لقد عانت وسائل الحياة في اليونان تغييرًا كبيرًا في الأجيال التي تلت موت الإسكندر، فأثينا التي كانت مركز الفكر في العالم كله، أصبحت ذات أهمية ثانوية فقط. ولم تغدُ الإسكندرية التي أسسها الملك العظيم بنفسه، بوساطة عناية البطالة الدينية، سوقًا عظيمةً للعالم فحسب، بل وأعظم مركز للعلم. وقد نافستها برجاموس Pergamus على مر الزمن في المصادر الأدبية، بينما أصبحت أنطاكية Antioch وطرسوس Tarsus شهيرتَين كذلك في تاريخ العلم.

منذ غابر الأزمنة يذهب ذوو النبوغ المولودون في جميع جهات اليونان والمدن الأيونية وبلاد اليونان (جرايكيا) الكبرى Magna Graecia، إلى أثينا لإظهار مواهبهم حيث يمكن تقديرها. وبلمحة بسيطة يمكننا أن نرى كم كانت أثينا تدين إلى هؤلاء الأجانب بتقدُّمها العلمي؛ ونخصُّ بالذكر منهم جورجياس الليوتيني Gorgias of Leontini، وبروتاجوراس الأبديري Protagoras of Abdera، وأناكساجوراس الكلازومينايي Anaxagoras of Clazomenae، وثراسوماخوس الخالكيدوني Thrasymachus of Chalcedon.

أما شعراء الدراما فكانوا من أبنائها، وكذلك كان خطباؤها العظام باستثناء لوسياس. ويرجع بعض السبب في ذلك إلى أن تشريع قوانينها لم يعطِ إلا فرصة قليلة للأجانب

---

[١] أثر الانحطاط العام في الذوق على الأسلوب الأدبي. انظر الصفحات ٢٢٢–٢٢٣.

ليكتسبوا شهرة في ساحة القضاء أو المسرح. ولم يكن من بين مؤرخيها من هو أثيني المولد حتى ولو كان يكتب بلهجة أجنبية. أما في الفلسفة فلم يبرز أحد أثيني المولد حقيقة أو يكتسب شهرة حقيقية قبل أفلاطون.

وفي العصر المقدوني، كان يجد الأجنبي الممتاز احترامًا أكثر، لا في التقدير فحسب، بل وفي التقدم المادي كذلك، في إحدى المدن الملكية أكثر مما يجد في مدينة أصبحت أحسن قليلًا من مقاطعة صغيرة في إحدى الإمبراطوريات العظيمة، وكانت تتجر فقط بذكريات عظمتها السابقة. وكانت الحياة في المدن العظمى تختلف عن الحياة في أثينا الديمقراطية؛ فقد اتحد المواطنون منذ عصر بركليس إلى عصر ديموستينيس اتحادًا قويًّا في الشعور، وكان كل مواطن يعرف الآخر، والنحَّات يحارب جنبًا إلى جنب مع دبَّاغ الجلود، والنبيل يتناقش مع بائع المصابيح، وكانت هناك عدة أغراض مشتركة يتقابل فيها الجميع على قدم المساواة.

يجب على الخطيب في المحاكم ألا يرضي القلة المتعلمين فحسب، بل يرضي الكثرة الأميين كذلك. وفي المسرح يجب على الشاعر والممثِّلين أن يراعوا كل الطبقات، من الكاهن الأعظم الذي لا يجب أن يترك ينعس في عرشه القائم في الوسط، إلى العامة الجالسين في المقاعد الخلفية يأكلون الحلوى، الذين إذا لم يرضوا تغلَّبت عليهم الروح الأثينية الحقة، وأخذوا يمطرون الممثِّلين وابلًا من قذائفهم غير الضارة؛[٢] وزيادة على ذلك فقد كان الجميع يتكلمون لغةً واحدة، وهجرت النصوص التراجيدية أسلوبها الصناعي بالتدريج، واقتربت شيئًا فشيئًا من الكلام الدارج.

أما في الإسكندرية، فإننا إذا أخذنا مثالًا نموذجيًّا واحدًا، لا نجد مثل تلك الوحدة. فقد كان هناك عدة طبقات بين السكان الإغريق؛ دائرة القضاء، وطلَّاب دراسة الآثار والمتحف، والتجار، وفرق الجنود المرتزقة، كل منهم له هدفه الخاص ومهنته الخاصة، غير أن كل هؤلاء كانوا أقلية. وزيادة على ذلك فقد كان هناك آلاف من اليهود والمصريين والفينيقيين Phoenicians، وسكان أرض الجزيرة، وغيرهم ممن كانت اللغة الإغريقية غريبة عليهم، وإذا ما تعلموها كانوا يتكلمونها بلهجة عامية κοινή وهي لهجة فسدت بدخول كثير من

[٢] أرسطاليس، الأخلاق النيكوماخية Nicomacheam Ethics، الكتاب العاشر، οἱ τραγηματίζοντες ديموستينيس، عن التاج. قارن ما سبق ذكره بصفحة ٢٦١.

العناصر الأجنبية فيها. ولذا كان الفرق ظاهرًا دائمًا بين طينة المتعلمين وعامة الشعب، على الرغم من وجود الدراسات وازدهارها.

ذبلت الخطابة في أثينا بعد موت الإسكندر، شأنها في ذلك شأن باقي الفنون الأخرى، ويرجع بعض ذلك إلى الأسباب العامة التي ذكرناها، والبعض الآخر إلى الظروف الخاصة للحياة الأثينية.

لَمَّا أُجبِرت أثينا على الخضوع لأنتيباتر سنة ٣٢٢ق.م. سمح لها أن تحيا بشروط قاسية. فقد كانت تعبرها قوات مقدونية إلى مونوخيا Munychia، وانمحت الديمقراطية، ولم تقيِّد حرية ١٢٠٠٠ من فقراء الأهلية فحسب، بل وطردوا من وطنهم، وتكوَّنت حكومة أوليجاركية، ثم حدث انتعاش بعد ذلك بخمس سنوات عندما قلبه بولوسبرخون Polysberchon (٣١٧ق.م.) الأوليجاركية. غير أنه بعد ذلك ببضعة شهور استولى كاسندار على المدينة من جديد، وأنشأ حكومةً على نطاق ضيِّق، ونصَّب عليها واليًا ديمتريوس الفاليري Demetrius of Phalereum، وكان ذا ثقافة عالية واطِّلاع واسع. ورغم أن ديمتريوس هذا لم يكن سوى عامل من قبل كاسندر Cassnader، إلا أنه حكم المدينة بتؤدة وروية مدة عشر سنوات، ولكنه فرَّ من المدينة عام ٣٠٧ق.م. قبل قدوم ديمتريوس بوليوكريتيسDemetrius Poliocretes بن أنتيجونوس Antigonus، فأصدر ذلك المحاضر إعلانات عن الحرية التي لم يكن الأثينيون جديرين بالتمتُّع بها في ذلك الوقت، وقد نسبوا إليه كرامات مقدسة. وفي عام ٣٠١ق.م. اتخذ مركزه في البارثينون Parthenon. ولا عجب إذا كانت بالاس أثينا Pallas Athene قد هربت اشمئزازًا لتدنيس محرابها بعربدة إله الحرب الجديد هذا.

عاش فوكيون وديماديس ودينارخوس من معاصري ديموستينيس ليرَوا مدينتهم تحت الحكم المقدوني، ولكنهم لم يتركوا خلَفًا لهم؛ فلم يبقَ للخطباء سوى بعض فرص بسيطة. فإذا ما اجتمع مجلس الشعب — وكان اجتماعه نادرًا لما يقابله من مشقَّات — لم يستطع النظر إلا في الأمور العائلية واقتراحات تحسين موارد المياه، أو إقامة التماثيل لطاغية من الطغاة، وهذه لا تتطلَّب الفصاحة التي تتطلَّبها قضايا الحرب والسلم التي كانت موضع مناقشاتهم. وإذا ماتت السياسة لم يبقَ شيء لذوي المقدرة السياسية، وكذلك لم تكن في المحاكم قضايا ذات متعة عظيمة كقضية التاج أو قضية اتهام ديموستينيس. أما القضايا الخاصة التي وجدها الهواة من السياسيين ملائمةً لاختبار مقدرتهم؛ فكانت

أكثر مناسبة للمحامين المحترفين، وقد قلَّ عدد هذه القضايا كثيرًا كما قلَّت أهميتها عندما أخذ من أثينا كل من كان يعتمد عليها.[٣] وكذلك لم يكن أمام خطابة المحافل التي وصل بها إيسوكراتيس إلى حد الكمال، إلا منفذ بسيط؛ فلم يستطع أي خطيب أن يخطب في العيد الأولومبي ليدعو جميع الإغريق إلى الاتحاد الأخوي في حمل السلاح، ولم تستطع أية خطبة رثائية في جنازة أن تبكي قومًا أو تؤثِّر فيهم إلى درجة الحماس، ما دام يقاتل في المعارك جنود مرتزقون، والحرب يعلنها أمير أجنبي. وكان فن البلاغة لا يزال يُمارَس، وقد أَلَّف أرسطاليس أول وآخر رسالة عن البلاغة، بوساطة رجوعه إلى المبادئ الأساسية، وأوضح أنه يجب أن تكون لها مكانتها الحقيقية كفرع من فروع الفلسفة يدرس مع شقيقه المنطق.[٤] وأصبحت النظرية السياسية التي كان لها مكانة بارزة في إيسوكراتيس وديموستينيس، من اختصاص مدارس الفلسفة.

وقد اعتبر كوينتيليانوس أن آخر الخطباء هو ديمتريوس الفاليري، نائب كاساندر، الذي كرَّس لدراسة الفلسفة والتاريخ والخطابة، الوقت الذي استطاع أن يدَّخره من إدارة المدينة ومشاهدة المئات الثلاث والستين تمثالًا التي أقامها له المعجبون به أو أتباعه من الجمهور.[٥] وقد كتب مؤلَّفات أكثر من أي كاتب أبيقوري؛[٦] في المحاورات الفلسفية، والأعمال التاريخية، والأبحاث اللوذعية، والدراسات البلاغية والأدبية، والخطب، وكلها تستوي عنده صناعة ومتعة. ويقتبس بلوتارخوس من بلاغته التي تشمل ذكريات ديموستينيس الشخصية. وتحوي رسالته عن الرعاع آراءه في العلم السياسي. ولو استطعنا الحصول على تاريخ نيابته عن كاساندر (περὶ τῆς δεκαετείας) لأضاف كثيرًا إلى معرفتنا الضئيلة عن ذلك العصر. وإن الشذرة الباقية من أعماله قصيرة بحيث نجد أنفسنا مضطرين إلى الرجوع إلى شيشرون وكوينتيليانوس لتقدير قيمته. ونستخلص أنه

---

[٣] مثال ذلك، كان كثير من خطب ديموستينيس الخاصة يشير إلى مشروعات البحرية، وكان كثير من هذه القضايا ينظر في المحاكم المحلية في أيام المقدونيين بدلًا من نظرها في أثينا، وإن كان نقص تجارة أثينا قد قلل من عدد هذه القضايا.

[٤] أرسطاليس، البلاغة، الفصل الأول، ١.

[٥] ديوجينيس، لأرتيس، فصل ٥، ٧٥.

[٦] ديوجينيس، لأرتيس، فصل ٥، ٨٠–٨١.

كان نموذجًا جيدًا للأسلوب المعتدل المثقف الذي يتفوق في البهاء والرونق وينقصه العنف والعاطفة الحقيقية. وكانت الدراسة الفلسفية لمادة موضوعاته إحدى خصائصه البارزة.[٧]

ونعرف بعض الحقائق عن حياته، خاصة من ديوجينيس. فقد كان أبوه فانوستراتوس Phanostratus العبد المعتق، ودرس على يد ثيوفراستوس Theophrastus، ودخل الحياة السياسية حوالي عام ٣٢٤ق.م. ولَّما كان أحد أعضاء الحزب المقدوني، فقد لعب دورًا في المفاوضات التي حدثت بعد الحرب اللامية. وفرَّ عندما أعدم فوكيون سنة ٣١٧ق.م. ولكن المواطنين اختاروه بموافقة كاساندر ليكون حاكمًا عليهم، فحكم من ٣١٧–٣٠٧ق.م. ثم خلفه ديمتريوس بوليوكرتيس. وعاش هو في طيبة ثم رحل بعد ٢٠ سنة إلى مصر. ولَّما نفاه فيلادلفوس Philadelphus من الإسكندرية، مات من لدغة ثعبان في إحدى البلدان المصرية النائية حوالي عام ٢٨٠ق.م.

ومن خطباء هذا العصر أيضًا ديموخاريس Democharesوخاريسيوس Charisius، وكان الأول أحد الأثينيين القلائل الذين حافظوا على استقلالهم في الرأي، وهو ابن أخ ديموستينيس الذي قلَّد أسلوبه. أما خاريسيوس فقد قلَّد لوسياس وبالغ في بساطته.[٨]

ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا ماتت بالفعل الخطابة الحقيقية، التي كانت تلقى أمام الجمعية العمومية والمحاكم، وحلَّت محلَّها خطب من موضوعات خيالية، وأصبحت الخطابة عنصرًا في التعليم فحسب.

ولسنا في حاجة إلى ذكر هيجيسياس الماجنيسي Hegesias of Magnesia (حوالي ٢٥٠ق.م.) وهو مؤسس ما سمِّيت بعد ذلك «المدرسة الآسيوية للبلاغة»، وكان طابعها الاهتمام بالمصطلحات المصطنعة، والاستعارات الفجة، والتلاعب بالألفاظ والقوافي غير الملائمة، ونقص الأفكار عامة.[٩]

---

[٧] شيشرون، بروتوس، الفقرة ٢٧، الخطيب فقرة ٩٢، عن الخطيب فصل ٢ فقرة ٩٥، كوينتيليانوس، الفصل العاشر، ١، ٨٠. ديوجينيس، لأرتيس، ٥، ٨٢.

[٨] شيشرون، بروتوس، الفقرة ٢٨٦، ٤.

[٩] وكان له ولع شديد بالتروخي المزدوج (ـ–ـ–) في آخر العبارات، انظر شيشرون، بروتوس، فقرة ٢٨٦، الخطيب، الفقرتان ٢٢٦، ٢٣٠، ديونوسيوس، عن تركيب الكلمات، باب ١٨.

ويقتبس ديونوسيوس فقرة ويذكر أنها كانت تبدو كأنما قد كتبت لتكون نكتة. وتنحصر أهمية هيجيسياس في تأثيره الخدَّاع على أتباعه من الإغريق والرومان.

ولم تنتعش الخطابة انتعاشًا حقيقيًّا إلا في أواخر عصر الجمهورية الرومانية Roman Republic.

هنداوي